شؤون فلسطينية

٧٦

آذار (مارس) ١٩٧٨

شؤون فلسطينية ٧٦



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : محمود درويش
سكرتير التحرير : الياس خوري

٧٦ آذار (مارس) ١٩٧٨

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من الساداة) ، رأس بيروت ، بيروت ـ لبنان ، ص٠ب ١٦٩١ ٠ تلفون : التحرير ٣٥١٢٦١ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ،

برقيا مرابحاث ، بيروت ٠

مدير التوزيع : غازي دانيال

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل٠ل٠ في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل٠ل٠ في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل٠ل٠ في اوروبا ، ١٢٥ ل٠ل٠ في بقية بلدان العالم

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل٠ل٠ في جميع الدول غير العربية ٠

الغلاف للفنان العباني

محتويات

الصفحة

٤ محمود سويد : **مبادرة السادات ، والصراع على ارض التسوية الاسرائيلية ·**

١٨ محمد المجذوب : **الاعتراف باسرائيل في ميزان المقايضة ·**

٣١ حنه شاهين : **سياسة ليكود الاقتصادية الجديدة في اسرائيل ·**

٥٢ سمير كرم : **ايران ، يابان الشرق الاوسط ؟ ونظرية المجال الحيوي ·**

٧٣ جورج ناصيف : **لبنان ، الصدامات المسلحة والمواجهة ·**

٨٤ خليل بركات : **الجنوب بين الهجرة والتهجير ·**

٩١ احمد صدقي الدجاني : **نظرة تحليلية في تاريخ فلسطين : (١) فجر التاريخ**

تعليقات

١٠٢ ميشيل كيلو : **لا بد من سياسة بديلة ·**

١٠٧ معن بشور : **الاقليميات العربية : ازدهار ام انهيار ؟ ·**

١١٦ : **سعيد حمامي ·**

شهادات

١١٧ : محاكمة الاستيطان

مراجعات

١٤١ : **حروب عبد الناصر** ، زاهي الاقرع ، **المشروع**

الصفحة

الصهيوني في مواجهة ازمته الداخليه ، حسين ابو النمل ٠

شهريات

١٥٢ : المقاومة الفلسطينية ، بلال الحسن ، المناطق المحتلة ، عبد الحفيظ محارب ٠ اسرائيليات توفيق فياض ، حمدان بدر ٠ مشروع الحكم الذاتي ٠ قضايا عسكرية ، محمود عزمي ٠

شؤون ادبية

١٩٢ عبد الرزاق عيد : حنا مينه ، رحلة الكشف والاكتشاف ٠
٢٠٠ توفيق فياض : الشيخ لافي الملك (قصة) ٠
٢٢ سعيد مراد : رسالة لاييزغ ٠

اصـــداء

٢٣٤ : الياس خوري ٠

٢٣٨ مروان حميد : جدول بالعمليات العسكرية لقـــوات الثـــورة الفلسطينية ٢٥/١١/٧٧ ـ ٩/٢/١٩٧٨ ٠

محمود سويد

مبادرة السادات والصراع على أرض التسوية الاسرائيلية

منذ حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ والنشاط السياسي المتعلق بالصراع العربي ــ الاسرائيلي ، يدور على أرض التسوية الاسرائيلية ــ الاميركية ٠ ورحلة السادات الى اسرائيل هي ذروة هذا المسار ، التي يبدأ بعدها خط انحداره ، فقد اختصرت مبادرة السادات الزمن ، واجهزت على السياسة التي انتهجتها بعض الانظمة العربية بعد حرب تشرين ، ووضعت المنطقة على عتبة تاريخ جديد للصراع العربي ــ الاسرائيلي ٠

اولا : مقدمات التسوية الاسرائيلية

١ ــ منطق ١٩٧٣ يبلغ نهايته

منذ حرب تشرين ٧٣ ، وطوال السنوات اللاحقة ، تمكن معظم الانظمة العربية ، بسياسته ، واعلامه ، وطروحات منظريه ، من وضع أوسع قطاعات الرأي العام العربي في مناخ ان تلك الحرب أحدثت متغيرات ادت الى قيام ميزان جديد للقوى يحكم الصراع في المنطقة (عسكري ناجم عن انتصار العرب في الحرب ، وسياسي ــ اقتصادي ناجم عن تأثير قوة النفط والمال العربيين في السياسة الدولية) ، وانه في ظل هذا الوضع الجديد ، يمكن تحقيق حل مرحلي قوامه :

- ــ انسحاب اسرائيلي من جميع المناطق العربية المحتلة سنة ١٩٦٧ ٠
- ــ اقامة دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة ٠

هذه التسوية التي بشر بها بعض الانظمة تستوجب على الصعيد العربي :

ـ انهاء حالة الحرب مع اسرائيل ٠

ـ انخراط العالم العربي في المعسكر الرأسمالي بزعامة الولايات المتحدة ٠

ـ تقليص حجم الوجود السوفياتي ونفوذه في المنطقة ، ان لم يكن ابعاده عنها ٠

ومن اجل تمهيد الارض امام التسوية الموعودة ، اتخذت خطوات كان ابرزها :

ـ تولي نظام السادات في مصر ، المتجه بخطى متسارعة للانخراط في المعسكر الرأسمالي ، الحملة ضد الاتحاد السوفياتي ، والعمل لاقصائه كقوة مؤثرة في الشرق الاوسط ، بدءا باخراجه من مصر ٠

ـ تفجير حرب لبنان ، لالغاء ، او تحجيم ، المكاسب الفلسطينية ، التي توجت بالاعتراف الدولي بالشخصية الفلسطينية المستقلة ، وقيادتها السياسية المتمثلة في م٠ت٠ف٠ (عرفات في الامم المتحدة) ٠

ـ البرهنة على قدرة الانظمة العربية على تقديم خدمات للنظام الامبريالي العالمي في اوروبا وفي افريقيا بما لا يقل عن تلك التي تتولى اسرائيل تقديمها بصورة تقليدية ، في المجالين العربي والافريقي ٠

٢ ـ الازمة الاسرائيلية وصعود بيغن

في سياق المناخ العام الذي ساد المنطقة بعد حرب تشرين ٧٣ ، تم تحقيق اتفاقي فصل القوات في سيناء ، واتفاق واحد في الجولان ، واشتد نضال عرب الضفة الغربية ضد الاحتلال الاستيطاني الاسرائيلي ، وبدا هذا النضال متناغما ومتجاوبا مع مكاسب م٠ت٠ف وتبلور الشخصية الفلسطينية على الصعيدين العربي والدولي ٠

كانت اسرائيل ، في هذا الوقت ، تعاني ازمة سياسية واقتصادية واجتماعية بدأت مظاهرها تتبدى خلال حرب تشرين ، واستمرت بعدها : تحديد مسؤوليات « التقصير » ، استقالة حكومة غولدا مئير ، وصعود الصف الثاني في حزب العمل الى السلطة برئاسة (وليس بزعامة) يتسحاق رابين ٠ وقد اتسمت فترة تولي رابين الحكم ، كما هو معروف ، بالضعف على كل الصعد٠ وافتقدت قيادة حزب العمل ، وبالتالي قيادة اسرائيل ، الزعامة التاريخية القادرة على اتخاذ القرار ، والتصدي للازمات الصعبة ٠ وكان رابين دون مستوى تطلع الاسرائيليين الى استعادة فترة القوة والازدهار الواقعة بين حزيران ١٩٦٧

وتشرين الاول ١٩٧٣ ، خصوصا وانهم اعتبروا ما حصل في حرب تشرين مجرد « تقصير » او « خلل فني » يمكن تداركه ٠

كان الاسرائيليون ، وما زالوا ، غير مقتنعين بان حرب تشرين (وخصوصا ما تلاها من تطورات خلال السنوات الاربع الماضية) ادت الى ميزان جديد للقوى يفرض عليهم تنازلات بحجم تلك التي طرحتها السياسة العربية بعد تشرين العربية ، وراحت تضغط من أجل تحقيقها ، متوسلة مساعدة الولايات المتحدة الاميركية على ذلك ٠

وفي النصف الاول من العام الماضي تدهورت هيبة السلطة في اسرائيل بصورة متسارعة ، ولم ينفع في انقاذ حزب العمل تولي شمعون بيريس زعامته بدلا من رابين ٠ فقد امتدت الازمة الى كوادره وكتله وفروعه ، فانهك الحزب وتفكك ، وفقد القدرة على القيادة ، وفشل في حل المشكلات الناجمة عن حرب تشرين (الازمة الاقتصادية ، وتفشي الفساد ، وتدني معدل الهجرة ، واستفحال النزوح ، وتساقط المهاجرين القادمين من الاتحاد السوفياتي واصرارهم – في فيينا – قبل الوصول الى اسرائيل على اختيار الاقامة في بلاد اخرى) ، كما فشل في الملاءمة بين طموح الاسرائيليين وطمعهم في الاحتفاظ بالمناطق المحتلة ، وفي الوقت نفسه فرض السلم الاسرائيلي على العرب ، او ابعاد شبح الضغوط والابقاء طويلا على حالة اللاحرب واللاسلم ٠ وقد اعلنت زعامة حزب العمل الهشة عجزها عن مواجهة الضغط الاميركي قبل ان يقع ، ورفضت الصدام الاسرائيلي – الاميركي من حيث المبدأ ، ولم تكن تتصور ان بامكان اسرائيل ان تختلف مع الولايات المتحدة – مصدر قوتها الاساسي ٠

وكان لجوء الاسرائيليين في الانتخابات العامة الى مناحم بيغن والليكود ، بمثابة معاقبة حزبهم القائد على التفريط بالمسؤولية التاريخية ، ووضع المعارضة – السلطة الجديدة ، امام الادعاءات التي طالما رفعتها في وجه السلطة العمالية ٠

بدأ بيغن ضعيفا ، على صعيدي الزعامة الشخصية والاكثرية البرلمانية ٠ ولكنه بدأ بخطوات واثقة ٠ فقد اخذ يتصرف على اساس ان الصراع مع الولايات المتحدة لا يرعبه ، وانه يملك من امكانات الفعل في الساحة الاميركية ، اكثر مما تملك ادارة كارتر ٠ ولعل بيغن نفسه كان بين الذين فوجئوا ، فيما بعد ، بان الضغط الاميركي على اسرائيل ، هو مجرد فزاعة ، نمر من ورق ٠ اذ سرعان ما أخذت ادارة كارتر تقدم التنازل تلو التنازل امام الموقف الاسرائيلي ، الذي لم يقدم بدوره ، حتى الآن ، اي تنازل فعلي ٠ وكان لتهافت السادات دور رئيسي في الاستخفاف الاميركي بوزن العامل العربي ، وفي تعنت بيغن وتصليب مواقفه ٠

٣ ـ زيارة السادات : اضعاف العرب ، ودعم بيغن

ثمة قناعات عديدة وراء زيارة السادات لاسرائيل ، منها : ما ذكره من ان ٧٠٪ من المشكلة العربية ـ الاسرائيلية ، هي عبارة عن حواجز نفسية ناجمة عن طبيعة الصراع المستمر منذ عشرات السنين ، وعن الحروب ، وما تخلف من حقد وكراهية ٠ ومنها التركيز الاسرائيلي والاميركي على ان تحقيق مطلبي اسرائيل : المفاوضات المباشرة والسلم الكامل ، كفيل بتحقيق المطالب العربية المقابلة ٠ وكان حريا بمبادرة السادات ان ترضي الاميركيين لانها تخرج السوفيات مجددا (اسقاط البيان الاميركي ـ السوفياتي الصادر في ١ـ١٠ـ١٩٧٧) بواسطة اطراف النزاع أنفسهم ، وان ترضي الاسرائيليين لجهة تلبية مطلب المفاوضات المباشرة ، واعتراف اكبر دولة عربية باسرائيل ، وفتح الباب امام تحقيق سلم كامل ٠ ولا شك في ان السادات كان يتوقع ردا ايجابيا فوريا ومباشرا على مبادرته ، يجهض المعارضة العربية لها ، ويبطل حججها ٠

غير ان مبادرة السادات ، التي ادت فورا الى شق الصف العربي ،واضعافه، والحقت ضررا بالغا بالقضية العربية حاضرا ومستقبلا ، ادت في الوقت نفسه الى التفاف الاسرائيليين حول حكومة بيغن وزعامته ٠ وكسبت قيادة بيغن ، بمبادرة السادات ، دعما بارزا على الصعيدين الداخلي والخارجي ٠

داخليا : ساعدت زيارة السادات على طمس المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي كان على حكومة بيغن ان تتصدى لها فور تسلمها السلطة ٠ وتشكلت حول هذه الحكومة حالة تكتل وطني ، بعد أن وجدت المعارضة الاسرائيلية نفسها ، وهي التي سبق ان دعت العرب للتفاوض على حل اقليمي وسط ، مشاركة الرأي العام الاسرائيلي في دعم بيغن ، وهو يستقبل ، اول مرة في تاريخ اسرائيل ، رئيس اكبر دولة عربية ، جاء يفاوض حكومة « ارض ـ اسرائيل الكاملة » التي تجاهر بالدعوة الى ضم « المناطق المحررة » وتهويدها ، وترفض مبدأ التفاوض على موضوعي القدس وحقوق الشعب الفلسطيني الوطنية ٠

وفي هذا الصدد ، نقلت صحيفة يديعوت احرونوت (١٥ـ٧ـ١٩٧٧) عن شمعون بيريس ، وهو يرد على دعاة التشديد من هجوم المعارضة على السلطة : « ماذا يعني تصعيد النقاش السياسي مع الليكود ؟ انريد تقسيم القدس؟ انريد النزول من الجولان ؟ بماذا نصعد النقاش ؟ » ٠ ونقلت الصحيفة نفسها بتاريخ ١٧ـ٧ـ١٩٧٧ عن شلومو افينيري ، المدير العام السابق لوزارة الخارجية الاسرائيلية قوله : « يخيل الي انه بدأت تتشكل حكومة تكتل وطني من دون ان يشترك المعراخ في الحكم ٠٠ ان المعراخ ، في مواضيع الخارجية والامن ،يستمر الآن ، كما كان عشية الانتخابات ، منجرا وراء الليكود » ٠

خارجيا : اكسبت الزيارة حكومة بيغن الاحترام والثقة لدى حلفائها ، وعززت مكانة اسرائيل الدولية ٠ بدا بيغن ، من خلال تهافت السادات ، بحجم القادة الكبار ، يأتيه العرب صاغرين ، بعد ثلاثين سنة من المكابرة والعناد ٠ وبدت اسرائيل لحلفائها الدولة الكبيرة القوية التي لا تقهر ، والتي تعرف كيف تتعامل مع اعدائها وتفرض عليهم شروط تسويتها : معظم دول العالم لا يعترف بالقدس موحدة وعاصمة لاسرائيل ، والسادات يكسر بزيارته هذا الحظر ٠ ومعظم دول العالم يتمسك بحق الشعب الفلسطيني في دولة مستقلة ، والسادات يتنازل عن ذلك ٠ أما الولايات المتحدة فيتسع أمامها مجال المراوغة في مسائل الاستيطان والوطن الفلسطيني ، والمشاركة السوفياتية في التسوية ٠ (كان يمكن لمبادرة السادات ان تكسب احترام العالم حقا لو انها جاءت من موقع القوة ، ولو انه عرض على الاسرائيليين السلم وهو قادر على اللجوء الى خيار الحرب) ٠

ولعل في فشل السادات في حمل الاسرائيليين على تقديم اي تنازل يحفظ ماء الوجه ، ما يدعو في الظاهر الى الاستغراب ٠ فهو يتحدث الى بيغن من موقع استراتيجية التحالف البعيد المدى ، للسيطرة المشتركة على الشرق الاوسط وافريقيا ، فيرد عليه هذا الاخير ، بالتمسك بحفنة من المستوطنات ، أقيمت في اطراف سيناء ٠ والواقع ان بيغن ينظر الى الامر من زاوية كون اسرائيل حلقة رئيسية في النظام الامبريالي في هذه المنطقة ، بينما يتطلع السادات الى مثل هذا الدور ، ويطمح الى الانخراط فيه ، ويقدم الدليل تلو الدليل على استحقاقه له ٠ ومن هنا يجمع المشروع الاسرائيلي للتسوية ، الى مسألة الامن المركزية ، امتيازات الاقدمية في خدمة النظام الامبريالي والتطلع الى دور الشريك ، والحذر من مخاطر المنافسة ، والخوف من أفول نجم اللاعب الاوحد الذي يملأ ساحة الشرق الاوسط ، وتجتذب قدراته كل الانظار ٠

ان مشروع التسوية الاسرائيلي في جوهره واحد ، يعكس ميزان القوى الذي فرضته حرب حزيران ١٩٦٧ ، ولا يعترف بمتغيرات حرب تشرين ٧٣ ، ولا يجد في عناصرها (العسكرية والنفطية والمالية) ما يستدعي تغييرا يمس الجوهر ، بل بالعكس ، يفيد من بعض اختبارات الحرب اللبنانية ، فينفض الغبار عن تطلعاته القديمة ، لاحاطة اسرائيل بكيانات طائفية وعنصرية هزيلة ، يستمد بعضها قوته من الكيان الصهيوني نفسه ٠

ثانيا : المشروع الاسرائيلي للتسوية

١ ـ مشروع بيغن :

بعد قمة الاسماعيلية ، القى بيغن في الكنيست الاسرائيلي ، يوم ٢٨ـ١٢ـ٧٧ خطابا عرض فيه مشروعه للسلام ، الذي قدمه الى كارتر اولا ، ثم الى السادات

وأهم بنود هذا المشروع هي :

الضفة الغربية وقطاع غزة :

البند ٢ من المشروع : « يقام في يهودا والسامرة وقطاع غزة حكم ذاتي اداري للسكان العرب المقيمين في تلك المناطق ٠٠ »

البند ١١ ـ « يعهد بشؤون الامن والنظام العام في مناطق يهودا والسامرة وقطاع غزة الى السلطات الاسرائيلية » ٠

البند ١٤ ـ يمنح سكان « يهودا والسامرة وقطاع غزة » حق الاختيار بين الجنسيتين الاسرائيلية او الاردنية ٠

البند ٢٠ ـ « يحق لسكان اسرائيل تملك الاراضي والاستيطان في مناطق يهودا والسامرة وقطاع غزة ٠ ويحق للعرب من سكان هذه المناطق الذين يصبحون مواطنين اسرائيليين ، بناء على حق الاختيار الممنوح لهم ، تملك الاراضي والاستيطان في اسرائيل » ٠

البند ٢١ ـ « تشكل لجنة من ممثلين عن اسرائيل والاردن والمجلس الاداري لتحديد انظمة الهجرة الى مناطق يهودا والسامرة وقطاع غزة ٠ وتحدد اللجنة القواعد التي يسمح بموجبها للاجئين العرب خارج يهودا والسامرة وقطاع غزة ، بالهجرة ، بمقدار معقول ، الى هذه المناطق ٠ وتتخذ قرارات اللجنة بالاجماع » ٠

البند ٢٢ ـ « تضمن لسكان اسرائيل ويهودا والسامرة وقطاع غزة ، حرية التنقل وحرية النشاط الاقتصادي في اسرائيل ويهودا والسامرة وقطاع غزة » ٠

البند ٢٤ ـ « تتمسك اسرائيل بحقها ومطلبها في السيادة على يهودا والسامرة وقطاع غزة ٠ وادراكا منها لوجود مطالب اخرى ، فانها تقترح ـ من أجل الاتفاق والسلام ـ ابقاء مسألة السيادة في تلك المناطق مفتوحة » ٠

البند ٢٥ ـ « في ما يتعلق بادارة الاماكن المقدسة للديانات الثلاث في القدس ، يعد ويقدم اقتراح خاص يضمن حرية وصول ابناء جميع الديانات الى الاماكن المقدسة الخاصة بهم » ٠

البند ٢٦ ـ « تخضع هذه المبادىء لاعادة النظر فيها ، بعد مدة خمس سنوات » ٠

سيناء : وحدد بيغن عناصر التسوية في سيناء ، كما يلي : لا يجتاز الجيش المصري خط متلا والجدي ٠ بين قناة السويس وهذا الخط ، يخفض عدد القوات ٠ تبقى المستوطنات الاسرائيلية في أماكنها وتكون مرتبطة بالادارة والقضاء الاسرائيليين ، وتدافع عنها قوات اسرائيلية ٠ يرابط الجيش الاسرائيلي في وسط سيناء خلال فترة انتقالية ، مع ابقاء مطارات واجهزة انذار اسرائيلية الى ان يتم انسحاب هذا الجيش الى الحدود الدولية ٠ ضمان حرية الملاحة في مضائق تيران (١) ٠

أضواء على المشروع

الضفة الغربية وقطاع غزة :

– في البند ٢ والبند ١٤ انكار للوجود الوطني والقومي للشعب الفلسطيني ، واعتبار القضية الفلسطينية مجرد مشكلة انسانية « لسكان عرب » عليهم ان يختاروا احدى الجنسيتين الاسرائيلية او الاردنية ٠

– شرح بيغن في خطابه (٢) البند ١١ فقال : « اريد ان اعلن ٠٠ ان وجود قوات الجيش الاسرائيلي في يهودا والسامرة وقطاع غزة امر بديهي ٠٠ ان من يريد اتفاقا معنا عليه ان يكلف نفسه القبول بذلك ٠٠٠ وبترتيبات امنية اخرى ٠٠»

– وشرح بيغن البند ٢٤ المتعلق بالسيادة على الضفة الغربية وقطاع غزة ، وقال : « لنا حق المطالبة بالسيادة على هذه المناطق من ارض اسرائيل ٠ انها ارضنا ، وهي بالحق ملك للشعب اليهودي » (٣) ٠ ويعتمد بيغن في ابقاء مسألة السيادة مفتوحة على الدينامية الاسرائيلية ، وتكثيف مشاريع الاستيطان في المناطق ، وفرض الضم بعد المرحلة الانتقالية بحكم الامر الواقع ٠

– وشرح موشيه دايان ، وزير الخارجية ، في جلسة الكنيست نفسها البند ٢٠ فقال « لا خطر من شراء السكان العرب اراض في اسرائيل (كما ادعى بعض المشتركين في النقاش) حيث ان ٩٢٪ من الاراضي في اسرائيل هي ملكية عامة ، وتحت سيطرة ادارة العقارات ٠ بينما الباقي ، ٨٪ هو ملكية خاصة واصحابها جميعا مستقرون في البلد » (٤) ٠

– وتابع دايان شارحا كيفية الحؤول دون اعلان السكان العرب دولتهم المستقلة ، فقال : « بقوة الجيش الاسرائيلي الضاربة ٠٠ والجيش الاسرائيلي سيمنع بالقوة عودة الالاف من اللاجئين الى هذه المناطق » ٠٠ « ان الجيش الاسرائيلي هو القوة الوحيدة التي ستتواجد غربي نهر الاردن ، وحيث يكون ضروريا في يهودا والسامرة وغزة ، من اجل تمكين اليهود من الاقامة هناك »(٥)

سيناء :

– في مقابلة مع التلفزيون الاسرائيلي ، قال دايان : « لقد اتخذنا سبلا واضحة ، ليس لضمان بقاء المستوطنات (في مشارف رفح) فحسب ، بل ولحمايتها بايد اسرائيلية ولارتباطها باسرائيل ٠٠ » (٦)

– ذكرت الاذاعة الاسرائيلية ، في ٣٠–١–٧٨ ، ان مصر وعدت بأن تكون المنطقة الواقعة شرقي ممري متلا والجدي منزوعة السلاح ، وبألا تعبر القوات المصرية الممرين الى الشرق (٧) ٠

ـ وطلبت اسرائيل خفض عدد افراد الجيش المصري بعد تحقيق السـلام ٠ وليصبح ذلك ممكنا ، عرضت وضع خبرة الجيش الاسرائيلي وعلمه في تجنيد قوات الاحتياط في خدمة الجيش المصري (٨) ٠ وكان قد جرى الحديث في لقاء الجمسي ـ وايزمن ، وزير الدفاع الاسرائيلي عن « تقليص الجيش المصري وتسريح جزء من القوات النظامية عندما يحل السلام » (٩) ٠

ـ اعلن بيغن يوم ٨ـ١ـ٧٨ انه، اذا رفضت مصر بقاء المستوطنات المدنية في شرقي سيناء ، وفي مشارف رفح ، وعلى امتداد خليج شلومو (شرم الشيخ) فستصر اسرائيل على تغييرات اقليمية على الحدود الدولية ، وفق القانون الدولي وما ينص عليه بشأن الحرب الدفاعية ٠ (١٠)

٢ ـ المشروع البديل : الحل الاقليمي الوسط

على الرغم من ان المعارضة الاسرائيلية (حزب العمل) أيدت مشروع الحل الوظيفي الذي طرحته حكومة بيغن (١١) ، وعلى الرغم من ان هذا المشروع يشكل خلاصة العناصر الايجابية (اسرائيليا) في مشاريع السلام الاسرائيلية (الاستيطان والامن من مشروع آلون ، موقف دايان البراغماتي الذي يعتمد على الدينامية الاسرائيلية وعنصر الزمن لاستيعاب الضفة الغربية وقطاع غزة ، التقسيم الوظيفي بدلا من التقسيم الجغرافي من مشروع بيريس ، المطلب الاساسي لدعاة « ارض ـ اسرائيل الكاملة » : وحدة « ارض اسرائيل » الغربية) ، ويستبعد كل العناصر الاخرى التي تجمع على استبعادها كل قوى المؤسسـة الاسرائيلية الحاكمة : لا تفاوض مع م٠ت٠ف٠ لا عودة الى حدود ١٩٦٧ ، رفض اقامة دولة فلسطينية ورفض الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره واعتبار قضيته مسألة لاجئين تحتـاج الى حل انساني على صعيـد اقليمي ، الاحتفاظ بالقدس الموحدة ـ عاصمة لاسرائيل الخ ٠٠ وعلى الرغم من ان الولايات المتحدة تسعى لادخال الاردن طرفا في المفاوضات الدائرة ، على أساس ان يكون لعرب المناطق المحتلة ، في نهاية الفترة الانتقالية ، حق الاختيار بين الانضمام الى الاردن ، او البقاء تحت سلطة الادارة المشتركة (١٢) ٠ على الرغم من كل ذلك ، يمكن الافتراض بأن الولايات المتحدة تملك الان خيارا اخر ، قد تلوح بـه في وجه سلطة بيغن ، هو امكان اقامة تحالف جديد يتولى الحكم في اسرائيل (من المعراخ وداش ، وربما ايضا حزب الاحرار ، حليف حيروت في الليكود) ويطرح مشروع الحل الاقليمي الوسط ، الذي يقوم على تقاسم الضفة الغربية بين اسرائيل والاردن ٠

ويمكن تلخيص النقاط الاساسية المشتركة في المشاريع العديدة التي تقول بحل اقليمي وسط ، بما يلي : الاتفاق على اجراءات أمن في سيناء (مناطق منزوعـة

السلاح ، محطات انذار الكترونية ، قوات دولية) ، والاحتفاظ بطريق يصل ايلات بشرم الشيخ ، مع وجود عسكري اسرائيلي يحمي حرية الملاحة في مضائق تيران ، والاحتفاظ بحزام المستوطنات في مشارف رفح ، الذي يشكل جدارا واقيا يفصل بين مصر والسكان العرب في قطاع غزة ٠ وبالنسبة الى الضفة الغربية ، يطالب دعاة المشروع بما يلي : تعديل الحدود وضم مناطق محاذية (والبعض يطالب بضم مساحات كبيرة لاغراض الاستيطان اليهودي) ، الاحتفاظ بمواقع للجيش الاسرائيلي في الضفة وعلى نهر الاردن ، عدم السماح بدخول اية قوات اليها والاكتفاء بشرطة محلية فيها ، استمرار الاستيطان اليهودي في المناطق الخالية من السكان ، استمرار علائق التبعية القائمة حاليا بين الضفة واسرائيل (العمالة ، الاسواق ، التبادل التجاري ، استغلال الامكانات الاقتصادية الخ) والابقاء على الجسور مفتوحة على العالم العربي ، الاحتفاظ بالقدس الموحدة عاصمة لاسرائيل ٠ اما قطاع غزة فثمة من يعتبر انه قد تم دمجه باسرائيل وانتهى الامر ، وثمة من يقبل التفاوض بشأنه ٠

٣ ـ جوهر المشروع الاسرائيلي

أ ـ تحتفظ اسرائيل ، بموجب مشروع بيغن ، بالارض ، والامن ، وثمار السلام ٠

الارض : ضم الضفة الغربية وغزة والقدس ، واقسام متفاوتة الحجم من سيناء ، والجولان ٠

الامن : مناطق منزوعة السلاح ، محطات انذار ، قواعد عسكرية اسرائيلية ، احزمة أمن من المستوطنات ٠

ثمار السلام : المشاركة في استغلال ثروات سيناء الطبيعية ، خصوصا النفط ، واقامة مشاريع اقتصادية مشتركة مع مصر وغيرها ، بدات الدوائر الاقتصادية الاسرائيلية اعدادها (استغلال طاقة مياه الري ، مد خط سكة حديد الى ايلات نظرا الى احتمالات العلائق التجارية مع افريقيا وآسيا ، درس السوق العربية وامكانات الافادة منها ، اقامة صندوق مشترك لتمويل مشاريع اقتصادية وثقافية، مساهمة التكنولوجيا الاسرائيلية المتطورة في استثمار المصادر الطبيعية العربية الضخمة ، استغلال موقع اسرائيل لاغراض تجارة الترانزيت العربية ، اقامة مركز ذري اقليمي مصري ـ اسرائيلي في سيناء لانتاج الكهرباء وتحلية مياه البحر وانتاج الوقود الذري ، مشاريع نفطية مشتركة في سيناء ، مشاريع سياحية مشتركة الخ) ٠ ويشترط مشروع بيغن لتحقيق السلام الابقاء على العلائق القائمة مع الضفة الغربية وغزة (يد عاملة رخيصة ، سوق لتصريف الانتاج ، ملاءمة اقتصادها لحاجات الاقتصاد الاسرائيلي ، الابقاء على الجسور المفتوحة عبرها

الى العالم العربي) ٠

ب ـ تحتفظ اسرائيل ، بموجب الحل الاقليمي الوسط ، بجزء كبير من الارض (تعيد الى الاردن المناطق المكتظة بالسكـان العرب للاحتفاظ بنقاء الدولـة اليهودية) وبالامن ، وثمار السلم ، بحسب ما ورد في مشروع بيغن ٠

جـ ـ يتفق المشروعان على :

ـ عدم الانسحاب من جميع المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ ٠

ـ عدم التفاوض مع م٠ت٠ف ٠ورفض الدولة الفلسطينية ٠

ـ ملاحقة الشعب الفلسطيني وتصفية قضيته الوطنية ، وتفتيته وتوزيعه في مختلف بلاد العالم ٠ وتعتبر هذه هي القضية المركزية في الموقف الاسرائيلي برمته ٠ وبموجب أية تسوية اسرائيلية ، يمكن تقديم تنازلات ملموسة فـي سيناء ، شرط تمكين اسرائيل من تحقيق هذا الهدف ٠

د ـ يتيح المشروعان لاسرائيل :

ـ التطور الطبيعي بعد حالة الحصار الطويلة : فتح باب الهجرة من دون أية عوائق ، وتدفق رؤوس الاموال الصهيونية والاجنبية ، والتخلص من الازمة الاقتصادية ـ الاجتماعية المزمنـة ، المرتبطة بحالة العـداء والرفض العربيين وبالمقاطعة العربية ، والانفتاح الاقتصادي على المنطقة العربية وآسيا وافريقيا ٠

ـ نهب الثروات العربية عن طريق توفير اليد العاملة الرخيصة ، والاسوق ، وتوظيف الطاقة التكنولوجية في المجالين العربي والافريقي ، واستغلال المصادر الطبيعية ٠

ـ قمع حركة التحرر العربي ، والتحكم السياسي بمصائر المنطقة العربية ، عن طريق الاحتفاظ بالجيش الاسرائيلي ، القوة الضاربة الرئيسية في المنطقة ، وعن طريق دعم سلطة الانظمة الرجعية والفئات الكومبرادورية ٠

ثالثا : الدور الاميركي

في الوقت الذي تدفع اسرائيل باتجاه انجاز تسوية منفردة مع مصر ، اذا تعذر تحقيق تسوية شاملة بشروطها ، فان الولايات المتحدة تبدو اكثر اصرارا على تسوية شاملة (١٤) ، تقوم على تعديل الموقف الاسرائيلي في موضوعي المستوطنات في سيناء ، بما يسمح بانجاز التسوية مع مصر ، والضفة الغربية ، بما يسمح بادخال الاردن طرفا في المفاوضات على مستقبلها ، وارضاء السعودية باشراك « فلسطينيين معتدلين » في تقرير مستقبلهم ، و « المشاركة تعني ان آخرين سيشتركون ايضا وهم الاردن واسرائيل » ٠

وتكمن وراء الموقف الاميركي هذا ، رغبة في ارساء نظام من الاستقرار في المنطقة يرتكز الى دعائم رئيسية : اسرائيل في الشرق الاوسط او شرقي قناة السويس، مصر في افريقيا ، ايران في الخليج ، ويحتفظ لـ «آخرين » بدور وزير المال الذي لا غنى عنه لترتيب الاوضاع بما يجنب المنطقة (وأهم ما فيها المصالح الاميركية والغربية طبعا) الهزات السياسية والاضطرابات ، ويحول دون تسلل النفوذ السوفياتي اليها ·

اما الموقف الاسرائيلي ، فيستند الى طرح قديم (من أيام بن غوريون حتى رابين ، مرورا بشاريت واشكول ومئير) يركز على اخراج مصر من الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، واثارة الفتن في المشرق وتفتيته الى كيانات طائفية وعنصرية هزيلة · وذكر زئيف شيف ، المعلق العسكري لصحيفة هآرتس، المعروف بصلاته الوثيقة بمصادر القرار السياسي في اسرائيل ، ان التوجيه الاساسي الذي اعطي للوفد الاسرائيلي الى مؤتمر القاهرة هو : دفع المصريين باتجاه عقد تسوية منفردة · « وستتركز خطى الاسرائيليين على هذه المهمة بكل تأكيد » ذلك انه « يجب ان تخرج مصر ، حتى ولو كانت لوحدها ، من دوامة الحرب ، وان تصل الى تسوية مع اسرائيل ·· يجب الا يشرط السادات تسويته بتسويات مماثلة مع دول عربية اخرى ، بل ان يضمن منذ البداية التزام اسرائيل بتنازلات جوهرية لجاراتها الاخريات · وضمن هذا المنطوق تتمتع المصلحة المصرية الاولى ، حتى ولو عرضت بشكل آخر من الناحية التكتيكية او الاعلامية ، وحتى لو اصر المصريون قبل اي شيء على مناقشة القضية الفلسطينية ، او مسألة مرتفعات الجولان » · (٦)

ويبدو ان ادارة كارتر تفضل ، حتى الان ، من أجل التحاق الاخرين بالمفاوضات المصرية ـ الاسرائيلية ، التلويح بهذا الخيار (تسوية منفردة مع مصر ، دويلات طائفية في المشرق) وليس استعماله ، نظرا الى المخاطر التي ينطوي عليها (عودة السوفيات بقوة الى المنطقة ، اطلاق قوى حركة التحرر العربي ، عدم موافقة السعودية التي لا تفيد شيئا من اخراج مصر من الصراع ، وابقاء القضية الفلسطينية ، بكل ما تنطوي عليه من عناصر تفجير ، في عقر دارها ، عزلة مصر عن العالم العربي وتحمل الولايات المتحدة اعباءها المالية بالاضافة الى العبء الاسرائيلي) · غير ان الولايات المتحدة لا تلوح بهذا الخيار فقط ، على سبيل الضغط ، بل تساعد اسرائيل على استكمال اسبابه وتهيئة ظروفه (ويظهر هذا بشكل بارز في لبنان) ليشكل سيفا مسلطا على رقاب رافضي السياسة الاميركية ، وخيارا عمليا يمكن اللجوء اليه اذا دعت الحاجة ·

وحتى لو تمكنت الولايات المتحدة من حمل اسرائيل على ادخال التعديلات الطفيفة ، المشار اليها اعلاه ، فان المشروع يظل في جوهره لمصلحة اسرائيل والدور الذي تضطلع به في المنطقة ، ولمصلحة ارساء وتدعيم النظام الامبريالي

المعادي لوحدة العرب وتقدمهم وتحررهم · بالاضافة الى انه (المشروع) ينكر ، في كل الاحوال ، سواء في نسخته الاسرائيلية ، ام الاميركية المعدلة ، الوجود الوطني للشعب الفلسطيني ، وحقه في تقرير مصيره واقامة دولته المستقلة ·

رابعا : الخيارات العربية

ثمة اربعة خيارات تغطي الساحة العربية في الوقت الحاضر :

١ ـ موقف السادات والذين يؤيدون مبادرته ·

٢ ـ موقف دعاة التضامن العربي وعقد مؤتمر جنيف والعودة الى مسار التسوية كما كان قبل زيارة السادات لاسرائيل ·

٣ ـ موقف القائلين بأن ميزان القوى الحالي لا يمكن ان يؤدي الى تسوية عادلة ومتوازنة ، وانه من أجل تحقيق مثل هذه التسوية ، لا بد من تعديل هذا الميزان ، في المجال العسكري العربي ، واستخدامه عامل ضغط بالاضافة الى عوامل القوة العربية الاخرى · (والضغط هنا يشمل امكان اللجوء الى الحرب)·

٤ ـ موقف القائلين بالتحرير الكامل ورفض جميع الحلول الوسط ·

هذه المواقف منفصلة ومتداخلة في آن معا · فدعاة التضامن (رقم ٢) ينتظرون ما يشير الى ان بامكان مبادرة السادات تحقيق التسوية المطلوبة لينضموا الى ركبه ، وفي الوقت نفسه ، يفتحون له باب العودة الى صفوفهم اذا فشل خياره (رقم ١) · ويفترض ان يكون السادات مغتبطا بالتصلب العربي ، الذي يدعم مبادرته لدى المفاوضين الاميركي والاسرائيلي ، شرط الا يشق هذا التصلب طريقا آخر مختلفا نوعا · والموقف القائل بالتحرير ، قد يجد في الموقف الداعي الى تغيير ميزان القوى ، خيارا مرحليا على طريق تحقيق الاهداف الشاملة ·

ومهما يكن فان المرحلة التي بلغتها مبادرة السادات ترجح احتمال الغاء الخيارين الاول والثاني ، وتؤكد ان الحل المطروح اساسا من جانب الانظمة (الانسحاب من جميع المناطق المحتلة ، والدولة الفلسطينية المستقلة) لا يمكن ان يتحقق في ظل ميزان القوى الحالي ، ولا بد من تعديل هذا الميزان ، بما يسمح للجانب العربي بخوض حرب تشرين اخرى ، وربما اكثر (مع العلم بأن الحرب المقبلة سوف تشمل استخدام اسلحة اشد تدميرا من أية حرب سابقة ، وقد تصل الى حد استخدام انواع من الاسلحة الذرية) · فالقوى التي تتشكل منها المؤسسة الاسرائيلية الحاكمة ، بجناحيها ، الحاكم والمعارض ، متفقة على جوهر التسوية ، وبنودها الاساسية ، وهي مدعومة من الرأي العام الاسرائيلي ، والحركة الصهيونية العالمية ، سيما تلك التي تفعل في السلطة

والمؤسسات الاميركية · وهي مدعومة ايضا من النظام الامبريالي العالمي ، بقيادة الولايات المتحدة ، التي تسعى لاخضاع العرب لشروط التسوية الاسرائيليـة ، وارضائهم بتنازلات شكلية لا تمس جوهر هذه التسوية ·

ويبدو لنا ان اي تغيير في الموقف العربي ، سيظل محدود الفعالية ، مـا لـم يعالج مسألتين مركزيتين :

الاولى : الانفصام الكامـل بين الشعـوب العربية وبين صناعـة القرار · هذا الانفصام الذي يطرح ، في المنطقة العربيـة ، مسائـل الـديمقراطية ، والمؤسسات الجماهيرية ، الحزبية والنقابية والثقافية والاعلامية · فالجماهير العربيـة لا علاقـة لها بصنـع القـرار ، وهي لا تـدعي الا لكي تتبلـغ مجرد العلم والخبر بصدوره ··· وان كان عليها ان تتحمل ، في حياتهـا ومستقبلها ، نتائجه ·

الثانية : حالة التردي التي اصابت حركة التحرر العربي وتنظيماتها الحزبية وقواها السياسية في مختلف انحاء العالم العربي · فمنذ أفول عبد الناصر وهذه الحركة في تراجع · واذا كانت الانظمة تتحمل قسطا كبيرا من مسؤولية هـذا التراجع ، فان الاوضاع البنيوية والسياسية لقوى هذه الحركة تتحمل ، هـي الاخرى ، قسطا لا يقل أهمية · وعندما نتحدث عن حركة التحرر العربي وقواها الجماهيرية ، نتطلع اساسا ، الى مركز الثقل فيهـا : المقاومـة الفلسطينية · ان نهوض حركة التحرر العربي ، متعلق الى حد كبير ، بقدرة حركة المقاومـة الفلسطينية على ان تحقق الثورة في الثورة · ومن دون ذلك ، فان ليلا طويلا سيسدل ستائره ·

المراجـع

(١) النص الكامل لبنود مشروع بيغن ــ نشرة م·د·ف· ١٩٧٨ ، ص ٢٢ ·

(٢) المرجع نفسه ص ٢٥ ·

(٣) المرجع نفسه ·

(٤) المرجع نفسه ص ٢٩ ·

(٥) المرجع نفسه ·

(٦) هآرتس ١ــ١ــ١٩٧٨ ·

(٧) ر· ١٠١٠ ، العدد ١٤٠٤ ·

(٨) الاذاعة الاسرائيلية ١ــ٢ــ٧٨ ــ ر١٠١٠ ، العدد ١٤٠٦ ·

(٩) معاريف ٢١ــ١٢ــ٧٧ ــ يعقوب ارز ·

(١٠) ر٠١٠١٠ ، العدد ١٣٨٥ ٠

(١١) راجع نشرة م٠د٠ف٠ ١٩٧٨ ، ص ٣٥ ، و ر٠١٠١٠ ، العدد ١٣٥٣ ٠

(١٢) تصريحات لكارتر في اعقاب جولته الاخيرة في بعض بلدان الشرق الاوسط واوروبا ـ النهار ٨ـ١ـ٧٨ ٠

(١٣) نشرة م٠د٠ف٠ ١٩٧٨ ، ص ٤٥ ٠

(١٤) ثمة تصريحات اميركية عديدة بهذا الصدد ، بينها تصريح للرئيس كارتر ـ النهار ٧ـ١ـ٧٨ ٠

(١٥) بيان كارتر بعد اجتماعه بالسادات في اسوان ـ النهار ٥ـ١ـ٧٨ ، وتصريحات بريجنسكي ، النهار ٩ـ١ـ٧٨ ٠

(١٦) هآرتس ١٦ـ١٢ـ١٩٧٧ ٠

محمد المجذوب

الاعتراف باسرائيل في ميزانية المقايضة

لعل الحدثين المهمين والبارزين في تاريخ الصراع العربي الصهيوني ، اللذين شهدهما العام المنصرم ، كانا :

١ ـ الانتخابات النيابية العامة التي جرت في اسرائيل ، في ١٧ أيار (مايو)، وأسفرت ، لاول مرة منذ انشاء الكيان الصهيوني ، عن انتصار الكتلة اليمينية المتطرفة التي يتزعمها الارهابي العتيق مناحم بيغن ٠

٢ ـ زيارة الرئيس المصري للقدس المحتلة ، التي أحدثت انشقاقا في الصف العربي وأدت الى اتخاذ مواقف ، وصدور تصريحات ، وعقد محادثات ثنائية بين المسؤولين المصريين والاسرائيليين ، تتناقض ، في الشكل والاساس ، مع المبادىء القومية التي اعتنقها العرب واتفقوا على الالتزام بها خلال مسيرتهم التحررية ٠

ومن أهم المسائل التي طرحتها الزيارة وما اعقبها من تصرفات ونتج عنها من التزامات مسألة الاعتراف بالعدو الصهيوني ٠ ومع ان الرئيس السادات قد اكد ، في الخطاب الذي ألقاه ، بعد الزيارة ، في مجلس الشعب المصري ، بأنه « لم يترتب على الزيارة اي تفريط في حق قانوني او تاريخي للامة العربية ، ولا زال الوضع القانوني بيننا وبين اسرائيل كما كان قبل الزيارة » (١) ، فان جميع القرائن والوقائع تثبت ان زيارته قد تضمنت اعترافه الفعلي والقانوني بدولة اسرائيل وحكومتها ٠

لقد كان الاعتراف العربي الاول الذي تنشده اسرائيل ، فجاء القرار ٢٤٢ يقايضه بالانسحاب ، ثم جاءت الزيارة تمنحه دون مقايضة او شروط ٠ ولادراك

مدى الخطورة التي تنطوي عليها مسألة الاعتراف لا بد لنا ، في البداية ، من التعرف بايجاز الى موقف القانون الدولي العام من هذا الموضوع ٠

اولا ـ لمحة عن الاعتراف في القانون الدولي العــام

تنشأ الدولة ، من الناحيتين الاجتماعية والسياسية ، باستكمال عناصرهــا الثلاثة : الشعب والاقليم والسلطة السياسية ٠ ولكنها تحتاج الى اعتراف الدول الاخرى بها حتى تستطيع الانضمام الى الاسرة الدولية والتمتع بالشخصيــة الدولية ٠ وقد عرف مجمع القانون الدولي الاعتراف بالدولة بأنه التصرف الحر الذي يصدر عن دولة واحدة او عدة دول للاقرار بوجود جماعة بشرية فوق اقليم معين ، تتمتع بتنظيم سياسي واستقلال كامل ، وبمقدورها الوفاء بالتزاماتهــا الدوليــة ٠

وعلى الرغم من أهمية الاعتراف فان موضوعه ، كما يقول الفقيه لوتر باخت ، يعد حلقة من اضعف الحلقات في القانون الدولي العام (٢) ٠ وموضوع الاعتراف مرتبط بوجود الدولة ، فقبل نشوء الدولة بمفهومها الحديث لم يكن للاعتراف اهمية بالغة في العلاقات الدولية ٠ الا ان اهميته برزت وتضاعفت ، ولا سيما في الاونة الاخيرة ، بسبب ازدياد عدد الدول المستقلة بعد الحرب العالمية الاخيرة ٠ ان عدد الدول المؤسسة لمنظمة الامم المتحدة ، التي اجتمعت في مدينة سان فرنسيسكو في العام ١٩٤٥ ، كان ٥١ دولة ٠ أما اليوم فقد اصبحت هــذه المنظمة تضم ١٤٩ دولة ٠

أشكال الاعتــراف

والاعتراف بالدولة او الحكومة يمكن ان يتم بأي شكل من الاشكال ، فليس هناك قاعدة ثابتة تحدد الشكل الذي يصدر به الاعتراف ٠

والاعتراف قد يكون فرديا تقوم به كل دولة على حدة ٠ وقد يكون جماعيا يصدر عن عدة دول عن طريق مؤتمر دولي او معاهدة دولية ٠ ويحبذ الفقهاء الدوليون طريقة الأعتراف الجماعي ويرون ان القرار الذي تتخذه الدول بمجموعها يكون اكثر فعالية وضمانا من القرار الفردي ٠

والاعتراف ، في الحالتين ، قد يكون صريحا او ضمنيا ٠ والاعتراف الفردي الصريح هو أبسط انواع الاعتراف وأبعدها عن الجدل ٠ والاشكال التي يرتديها كثيرة متعددة ، منها : صدور اعلان بالاعتراف ، او ارسال مذكرة رسمية مــن وزارة الخارجية ، او ارسال برقية من رئيس الدولة او وزير خارجيتها ، او ابرام معاهدة ثنائية بين المعترف والمعترف به ٠

والاعتراف الفردي الضمني هو تصرف او مجموعة تصرفات تصدر عن دولة معينة تجاه وحدة دولية اخرى ناشئة (او نشأت) وتدل بوضوح على ان نية الدولة الاولى تتجه الى معاملة هذه الوحدة معاملة تتضمن الاقرار بأنها شخص دولي قادر على الايفاء بالتزاماته الدولية ٠ ان مجرد استقبال رئيس الدولة لبعثة رسمية تمثل دولة اخرى يعد اعترافا ٠ ان الاستقبال الرسمي الذي حظيت به بعثة افغانية رسمية من قبل رئيس الولايات المتحدة في العام ١٩٢١ ، قد اعتبر اعترافا اميركيا بدولة افغانستان (٣) ٠

ولعل العنصر الاهم في الاعتراف هو توافر نية الاعتراف لدى الدولة الراغبة فيه ، فأي تصرف صادر عن الدولة او ممثليها لا يمكن ان يفسر بأنه اعتراف ما لم يكن مقرونا بنية صريحة وعلنية تصدر عن السلطات المختصة المسؤولة في الدولة ٠

حرية الاعتــراف

والدولة ليست مضطرة الى الاعتراف بكل دولة او حكومة تنشأ ٠ والقانون الدولي العام لا يفرض ذلك على الدول ، لان الاعتراف يدخل في نطاق السلطة التقديرية للدولة المعترفة ٠ فلكل دولة مطلق الحرية في تقدير الظروف والاحوال التي أدت الى ظهور الدولة او الحكومة الجديدة وتحديد موقفها منها بالاعتراف الفوري بها ، او بارجاء الاعتراف ، او برفضه ٠ ولهذا نلاحظ ان الاعتراف لا يصدر عن جميع الدول في وقت واحد ٠

والاعتراف يخضع للاهواء السياسية والاعتبارات الخاصة ، كما يخضع للمساومات والمناورات والضغوط التي يمارسها الكبار وأصحاب المصلحة والنفوذ ٠ وكثيرا ما تمتنع بعض الدول عن الاعتراف بدولة ما بسبب قيام هذه الدولة على العنف والارهاب ، او بسبب فرضها بالقوة على منطقة معينة من جانب دولة او دول أجنبية ، أو بسبب رفضها الالتزام بالمقررات الدولية ، او بسبب قيامها على اسس ومبادىء تتعارض مع القواعد والاخلاق الدولية ، او بسبب اغتصابها لدولة اخرى او لجزء من اقليم دولة اخرى ٠ فالجمعية العامة للامم المتحدة ، مثلا ، رفضت ، في خريف العام ١٩٦٥ ، الاعتراف باستقلال دولة روديسيا (الذي أعلنه المستوطنون البيض في ١١ـ١١ـ١٩٦٥) بسبب قيام هذا الكيان على سياسة التمييز العنصري ٠ وفي ٢٦ـ١٠ـ١٩٧٦ ، دعت الجمعية الدول الاعضاء فيها الى عدم الاعتراف بدولة (الترانسكاي) التي انشأها اتحاد جنوب افريقيا وفرض عليها الالتزام بمبادئه العنصرية ٠

آثــار الاعتراف

ويمكننا تلخيص الآثار والنتائج التي يتمخض عنها الاعتراف بأمرين :

١ ـ ان الاعتراف ينهي حالة الشك التي كانت قائمة قبل صدوره • ولعل هذا هو أهم أثر للاعتراف • يقول الفقيه (بريرلي) : « ان المهمة الاولى للاعتراف هي تقبل شيء ما كان محل شك من قبل ، واعتباره حقيقة لا شك فيها • وهذا الشيء هو استقلال الوحدة طالبة الاعتراف وابداء الاستعداد لمعاملتها على هذا الاساس وقبول نتائج ذلك » (٤) • فالاعتراف هو بمثابة شهادة بوجود ظاهرة جديدة في المجتمع الدولي ، هي ظهور الدولة الناشئة بعناصرها الثلاثة وقدرة السلطة السياسية الحاكمة فيها على حفظ السلام ورغبتها في الوفاء بالتزاماتها وتعهداتها الخارجية • وهذا يعني ان الدول التي اعترفت بها تعتبرها أهلا للتمتع بالشخصية الدولية ودخول المحافل الدولية •

٢ ـ ان الاعتراف وسيلة طبيعية ونقطة انطلاق لاقامة علاقات طبيعية بين المعترف والمعترف به • والتجسيد الصادق لذلك هو اقامة علاقات دبلوماسية بين الدولة الناشئة والدول التي سبقتها في الظهور • غير ان هذه العلاقات الدبلوماسية ليست أمرا حتميا او نتيجة ضرورية للاعتراف ، فالدولة المعترفة ليست ملزمة بتبادل التمثيل الدبلوماسي مع الدولة الجديدة التي اعترفت بها • وهذا يعني ان الاعتراف قد يحصل دون ان يكون مصحوبا بالعلاقات الدبلوماسية أو قد يحصل ثم تتخلف عنه هذه العلاقات • لقد اعترفت الهند باسرائيل في ايلول (سبتمبر) ١٩٥٠ ، وبقيت حتى الآن بلا تمثيل دبلوماسي معها (٥) •

وبالاضافة الى هذين الاثرين اللذين ينعكسان على العلاقات التي ستتبادلها الدولة الجديدة مع الدول القديمة ، فان للاعتراف كذلك اثرا رجعيا • وقد أقرت كل المحاكم الوطنية تقريبا ، منذ الحرب العالمية الاولى ، مبدأ رجعية الاعتراف • ورجعية الاعتراف تعني الاعتداد بما صدر عن الدولة المعترف بها من تصرفات سابقة على اعلان الاعتراف • وهذه الرجعية ترتب آثارا على تصرفات صادرة عن الدولة قبل الاعتراف بها • وهذا يعني ان الدولة قبل الاعتراف بها كانت صالحة لصدور تصرفات عنها ، وان هذه التصرفات كانت صالحة لاحداث اثر في الحياة الدولية (٦) •

ولعل مبدأ رجعية الاعتراف هو الحلم العزيز الذي يدغدغ آمال الصهيونيين الذين ما انفكوا ، منذ زرع كيانهم في قلب الوطن العربي ، يلهثون وراء الاعتراف الدولي والعربي بهم ويبحثون عن كل وسيلة او حيلة تمكنهم من الزام العرب بقبول شرعية وجودهم • وقد جاء قرار مجلس الامن ، رقم ٢٤٢ ، ثم زيارة الرئيس السادات للارض المحتلة ، يحققان لهم هذه الرغبة •

ثانيا ـ القرار ٢٤٢ ومقايضة الاعتراف بالانسحاب

قارن الدكتور فايز صايغ (٧) ، منذ سنوات ، بين الوثائق او الجرائم

الثلاث الصادرة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ، وهي وعد بلفور ، وقرار التقسيم ، والقرار ٢٤٢ ، واستنتج ان أحدثها (اي القرار ٢٤٢) كان أوقحها، واكثرها تجنيا ، واشدها خطرا ، لانه فاق ، في تطاوله على الحقوق القومية والانسانية للشعب الفلسطيني ، كلا من توصية الجمعية العامة بتقسيم فلسطين، ووعد بلفور بانشاء وطن قومي يهودي في فلسطين ، ولانه ايضا ألقى على عاتق الدول العربية « واجب» القبول باسرائيل كدولة ذات سيادة كاملة و « واجب » الاقرار بشرعيتها والتعامل معها على أساس ذلك الاقرار ، ولانه كذلك قضى بقبول العرب قبولا نهائيا باسرائيل كما هي (اي كما كانت عليه عشية حرب ١٩٦٧) ، وقضى بالتالي بالتنازل عن اي مطلب عربي سابق ، بما في ذلك جميع المطالب التي أيدتها الامم المتحدة نفسها ، ومجلس الامن نفسه ، في عشرات القرارات ٠ ولهذا فلا نبالغ ان قلنا ان هذا القرار « شبيه بعفو عام تصدره السلطات في بلد ما لصالح مغتصب ، دون ان تطالبه بارجاع ما اغتصبه الى اصحابه ، ثم تطالب ذوي الضحية بالمشاركة في التوقيع عليه ! » (٨) ٠

ان اسرائيل التي حرصت ، بالتواطؤ مع الولايات المتحدة ، على استصدار القرار ٢٤٢ والتشبث به فيما بعد (وان كانت الدبلوماسية تقضي بعدم التظاهر بذلك) ، كانت تعلم ان هذا القرار قد قربها من سدة الشرعية في المنطقة العربية اكثر مما فعل اي قرار دولي آخر ٠ لقد صفح عن كافة اعمالها الاجرامية ، واعفاها من اي قيد او التزام مقبل ، وأثلج فؤادها بأمرين : بالغاء كل الضمانات والمكتسبات التي استطاع الشعب الفلسطيني ان يحصل عليها خلال نضاله الطويل ، وباصدار حكم نهائي غير قابل للاستئناف او التمييز بتصفية القضية الفلسطينية تصفية عامة وشاملة ونهائية ٠

ان الولايات المتحدة كانت ، وما تزال ، تعتبر نفسها ملتزمة التزاما كاملا بوجود اسرائيل وأمنها ٠ وهي لا تدع سانحة تمر دون ان تكرر هذا الالتزام ٠ ومن الامثلة الاخيرة على ذلك ان بيان البيت الابيض الذي صدر لدى ختام زيارة الرئيس السادات للولايات المتحدة قد تضمن تأكيد الرئيس الاميركي على « انّ الولايات المتحدة ستبقى أمينة على التزاماتها التاريخية بأمن اسرائيل »(٩) ٠ وتأمين سلامة اسرائيل ، أو تأمين استمرار وجودها كدولة دخيلة وعميلة في المنطقة العربية ، لا يمكن ان يتحقق الا بتأمين قبول العرب بشرعية وجودها وقيام علاقات طبيعية بينها وبين الدول العربية ٠

ايقاع الدول العربية في فخ الاعتراف

وحاولت الولايات المتحدة ، بالتخطيط والتفاهم مع اسرائيل ، ان تقنع الدول العربية التي وقع جزء من أراضيها تحت الاحتلال ، بالقبول بالقرار

٢٤٢ ، فاصطدمت بالعقبات ولم تتمكن في النهاية الا من اقناع دولتين · ولكنها لم تيأس بل عمدت الى ايقاع معظم الدول العربية في الفخ باستدراجها الى التصويت في الجمعية العامة على قرارات تتضمن التأكيد ، وبالتالي الموافقة ، على القرار ٢٤٢ · وكان ذلك « من اكبر الاخطاء الاستراتيجية التي ارتكبتها الدبلوماسية العربية منذ قيام الامم المتحدة » (١٠) · ولعل تبعة هذا الخطأ تقع ، في الدرجة الاولى ، على عاتق الدبلوماسية المصرية التي راحت ، بعد مجيء عهد السادات ، تسعى الى التقرب من الولايات المتحدة والادعاء ان هذه الدولة تملك ٩٩٪ من اوراق الازمة (١١) · وخيل الى أصحاب هذه الدبلوماسية ان افضل طريقة لاسترضاء واشنطن ونيل اعجابها تكمن في الزام العدد الاكبر من الدول العربية بالقرار ٢٤٢ ، فاندفعوا (بحجة الاستعانة بالمنظمة العالمية لممارسة الضغط على اسرائيل واجبارها على الانسحاب) يطالبون باستصدار قرار من الجمعية العامة يؤكد القرار المذكور ·

ففي ٤ـ١١ـ١٩٧٠ ، صدر عن الجمعية العامة قرار ، رقم ٢٦٢٨ ، أعرب عن القلق الشديد الذي يساور الجمعية بسبب عدم تنفيذ القرار ٢٤٢ ، وحث على التنفيذ السريع لهذا القرار ، وأوصى الاطراف بتمديد وقف اطلاق النار لمدة ثلاثة أشهر لكي يتسنى لها الدخول في محادثات تحت اشراف الممثل الخاص للامين العام بقصد تنفيذ القرار المذكور (١٢) ·

وتبنت الجمعية هذا القرار بأغلبية ٥٧ صوتا ، ومعارضة ١٦ ، وامتناع ٣٩ · واقترعت سبع دول عربية لصالحه · وهو قرار يتضمن اعترافا صريحا لا لبس فيه بالقرار ٢٤٢ · والاقتراع هنا لا يمكن تفسيره الا بانه يعني القبول الواضح والتام بالقرار ٢٤٢ ، والالتزام القانوني والادبي بكل احكامه · اما بقية الدول العربية فقد رفضت الاشتراك في الاقتراع واعلنت انها اتخذت هذا الموقف بسبب رفضها القرار ٢٤٢ ·

وفي العام التالي ، وبعد التطورات العميقة والشاملة التي طرأت على السياسة المصرية وعلى موقف الرئيس السادات من مسألة الاعتراف باسرائيل، بذلت الدبلوماسية المصرية جهدا اكبر من أجل جر الدول العربية الى حظيرة القرار ٢٤٢ · وكانت تعتقد ان ارتفاع عدد الدول العربية الموافقة على القرار كفيل بتسهيل مهمة النظام المصري ، الهادفة الى اعادة النفوذ الاميركي الى المنطقة العربية وانهاء حالة العداء مع اسرائيل ·

وفي ١٣ـ١٢ـ١٩٧١ ، صدر عن الجمعية العامة قرار ، رقم ٢٧٩٩ ، اكد اقتناعها بضرورة التطبيق الفوري للقرار ٢٤٢ بكل بنوده ، واعرب عن تأييدها التام لكل الجهود التي بذلها الممثل الخاص للامين العام بغية تنفيذ القرار المذكور ، ودعا « اطراف النزاع في الشرق الاوسط الى التعاون التام مع الممثل

الخاص حتى يتمكن من اتخاذ الاجراءات العملية من أجل :

أ ـ ضمان حرية الملاحة في الممرات المائية الدولية في المنطقة ٠

ب ـ تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين ٠

ج ـ ضمان عدم انتهاك حرية اراضي كل دولة من دول المنطقة واستقلالها السياسي » (١٣) ٠

وتبنت الجمعية هذا القرار باغلبية ٧٩ صوتا ومعارضة ٧ ، وامتناع ٣٦ ٠ واقترعت ١٢ دولة عربية لصالح القرار ٠ ولم تعلن ، هذه المرة ، الا دولة عربية واحدة رفضها الاشتراك في الاقتراع ٠ وفضلت خمس دول الامتناع عن التصويت ٠ وبذلك تكون غالبية الدول العربية قد سجلت بصورة رسمية موافقتها على القرار ٢٤٢ والتزامها بمبادئه ٠

وتكرر هذا السلوك في السنوات اللاحقة حتى اصبح الكثيرون يؤمنون بان قرار مجلس الامن هو ، حقا ، العصا السحرية القادرة على اعادة الحق العربي الى اهله ٠

هدم جدار الرفض العربي

ان القرار ٢٤٢ قد ركز على امرين اساسيين وربط بينهما ربطا محكما : الانسحاب الاسرائيلي ، والاعتراف العربي بالوجود الاسرائيلي ٠ وذهب الى ابعد من ذلك عندما رفع الامرين الى منزلة المباديء واعتبرهما ، في بنده الاول ، مبدأي سلام ٠ ولهذا فان القرار لا يقضي ، كما توهم البعض وحاول ايهام الغير، بالانسحاب الاسرائيلي فقط ، بل انه يقضي ايضا بهدم جدار الرفض العربي لاسرائيل واجراء مقايضة (لا يمكن ان توصف الا بأنها خسيسة) بين اسرائيل والدول العربية : الانسحاب مقابل الاعتراف بالعدو والتخلي عن الحق ٠

لقد زعم انصار القرار ٢٤٢ ان كلمة « اعتراف » لم ترد فيه وانه ، بالتالي لا يستوجب اعتراف الدول العربية بعدوها الاسرائيلي ٠ اننا نقر بخلو القرار ، بنصيه الفرنسي والانجليزي ، من هذه الكلمة ، ولكننا نجزم بان مضمونه ، وهو الاساس ، أشمل واعمق من مجرد الاعتراف فيالقانون الدولي العام ٠ ويكفينا ان نطلع على الفقرة الثانية من ديباجته التي تعلن « عدم جواز حيازة الاراضي عن طريق الحرب ، والحاجة الى سلام عادل ودائم » ، وعلى الفقرة (ب) من البند الاول ، التي تتحدث عن السيادة والاستقلال لكل دولة في المنطقة ، حتى نقتنع بان الركيزة الاساسية في القرار هي وجوب اقرار الدول العربية بالوجود الشرعي لدولة اسرائيل ، ووجوب احترامها لسيادة هذه الدولة وسلامتها

الاقليمية واستقلالها السياسي ٠ ولعل اللورد كارادون ، صاحب الصياغة الماهرة للقرار ٢٤٢ ، قد تجنب عمدا كلمة « اعتراف » ، التي كان يصعب على الدول العربية قبولها آنذاك ، واستبدلها بالنص الذي أشرنا اليه ٠

واراد انصار القرار ٢٤٢ تبرير قبولهم به فادعوا ان القبول مناورة تستهدف احراج اسرائيل امام الرأي العام العالمي ٠ ولكن التبرير خاطىء لاكثر من سبب :

١ ـ لان المبادىء والحقوق والعقائد لا تخضع للمساومة او المقايضة ٠ انها ترفض المناورات وتعتبرها لعبة خطرة لا تليق بالشعوب التي تريد ان تعيش بحرية وكرامة ٠

٢ ـ لان اسرائيل لا تقيم وزنا للرأي العام العالمي ٠ واذا كانت الامم المتحدة من أهم المنابر التي تجسد هذا الرأي ، فان اسرائيل لم تتورع ابدا عن ابداء استهتارها بهذه المنظمة واحتقارها للقرارات الصادرة عنها (ومنها قرار التقسيم الذي انشأ اسرائيل) ٠ ثم ان للرأي العام العالمي قيمة ادبية فقط لا يستفيد منها الا صاحب الحق المقرون بالقوة ٠

٣ ـ لان المناورة التي لجأت اليها بعض الدول العربية (ان اعتبرنا الموافقة على القرار نوعا من المناورة) قد انقلبت عليها وجاءت لصالح عدوها ٠ لقد استخدمت اسرائيل ، من قبل ، كافة الوسائل المتاحة لانتزاع اعتراف العرب بحقها في التملك والوجود في فلسطين ، فأخفقت ، فأتت الموافقة على القرار ٢٤٢ تثبت للملأ اجمع بان انكار العرب (واسرائيل تقول : تنكرهم) لحق اليهود في العودة الى « وطنهم » واقامة كيانهم السياسي فيه ، كان مغالطة باطلة ومتشنجة وواهية لم تقو طويلا على الصمود ٠ وفي نفس الوقت ، اضطرت الانظمة العربية التي ارادت ان تناور الى الاعلان ، في كل مناسبة ، عن استعدادها للاقرار بشرعية الوجود الاسرائيلي لقاء الانسحاب الكامل ، مما جعل العرب يصدقون (لكثرة ما سمعوا من تصريحات رسمية في هذا الصدد) ان الغرض من الصراع في فلسطين لم يكن تحرير الارض العربية المغتصبة وطرد العدو اللدود ، وانما كان خلافا حول اقتسام الارض وتعيين الحدود ٠ وقد أدى كل ذلك الى زعزعة الصمود العربي وتجريد العرب من اعظم سلاح يملكونه في معركتهم ضد الصهيونيين ، وهو سلاح الرفض لشرعية الوجود الاسرائيلي ، الذي اعتبره الاستاذ محمد حسنين هيكل سلاحا « اقوى من الطائرات والدبابات والمدافع » (١٤) ٠

بيد ان الزيارة المشهورة قد فلت هذا السلاح المشهور في وجه العدو وغطته بصدأ صفيق ٠ ومن غريب الصدف ، او من سخرية الاقدار ، ان تتم الزيارة في نفس الشهر الذي ارتكبت فيه الجرائم الثلاث الكبرى التي أتينا على ذكرها ٠

ثالثا ـ الزيارة وذيولها في حقل الاعتراف

ان هذه الزيارة ، مع كل ما سبقها وما رافقها وما تلاها من مراسلات وتصريحات واجتماعات وزيارات ، تشكل في الواقع والقانون اعترافا بالوجود الاسرائيلي ٠ وقد اقر بذلك كل الباحثين أو السياسيين الذين أتيح لهم ان يدلوا برأيهم في هذا الموضوع ٠

قال السيد برجزنسكي ، مستشار الرئيس الاميركي لشؤون الامن القومي ، ان الزيارة تمثل « اعترافا حقيقيا بوجود اسرائيل من قبل احد كبار الزعماء العرب » (١٥) ٠ واعتبر الاستاذ محمد حسنين هيكل ان الرئيس السادات اهدى اسرائيل ، ودون مقابل ، شيئين كانت تطمح منذ قيامها للحصول عليهما : الاعتراف وانهاء حالة الحرب مع مصر (١٦) ٠ ووصف الدكتور ادمون رباط الزيارة « بانها اعتراف ضمني بشرعية وجود الحكومة الاسرائيلية في القدس المحتلة » ٠ وقال بألم : « ان السلاح الاشد فتكا الذي كان بيد العرب ، وهو عدم الاعتراف بشكل رسمي بدولة اسرائيل ، ان هذا السلاح قد اصابه اليوم شيء من الصدأ » (١٧) ٠

والغريب ان الرئيس السادات وحده ما زال مصرا ، بعد كل الذي حدث ، على اعتبار ان « الوضع القانوني للقضية » لم يتغير ٠ وعندما يقال له بان مسؤولا اميركيا كبيرا قال للسعوديين ان زيارتك لاسرائيل والقدس تشكل اعترافا بالامر الواقع ، ينتفض ويجيب بحدة : « غلط » ، مؤكدا انه اعلن في مجلس الشعب « انه لم يتغير اي وضع قانوني » (١٨) ٠ وقد استغرب الدكتور رباط اصرار الرئيس السادات على ان تبقى القدس عربية لانه « عندما يقوم بشخصه بزيارة اسرائيل في القدس والمثول والقاء الخطاب الشهير امام الكنيست ، فمعنى ذلك انه سلم بوجود اسرائيل في القدس العربية ، وان القدس لم تعد عربية ٠ فبين الاعلان السياسي والواقع الثابت هوة سحيقة ، وذلك لان العبرة انما هي للافعال وليس للاقوال » (١٩) ٠

الاعتراف بالدولة والحكومة

قلنا ان الزيارة تمخضت عن اعتراف مزدوج بالدولة والحكومة الاسرائيليتين والدولة والحكومة ، في القانون الدولي ، امران مختلفان ٠ وللاعتراف بكل منهما مفهوم خاص ٠ الاعتراف بالدولة هو اقرار بظهور دولة جديدة على المسرح الدولي ٠ اما الاعتراف بالحكومة فهو اقرار بوجود سلطة سياسية شرعية قادرة على حفظ الامن والايفاء بالالتزامات الدولية ٠

والاعتراف بالحكومة يتضمن دائما الاعتراف بالدولة ، الا ان الاعتراف

بالدولة لا يستوجب دائما الاعتراف بالحكومة ، فهناك حالات كثيرة من الاعتراف بدولة معينة دون الاعتراف بحكومتها · ويحدث ذلك عادة بعد قيام الدولة وتغير الحكومات فيها ·

والاعتراف بالحكومة يتأثر ، الى حد كبير ، بالاتجاهات والميول والمصالح السياسية · وكثيرا ما ترفض حكومات معينة الاعتراف بحكومة جديدة بسبب نظامها السياسي ، او عقيدتها الاجتماعية ، او علاقاتها الدولية ، لقد انتظرت واشنطن ، مثلا ، حتى العام ١٩٣٣ ، كي تعترف بحكومة الثورة السوفياتية ·

والعرب قد رفضوا ، منذ البداية ، الاعتراف بحق اليهود في انشاء دولة في فلسطين · وعدم اعترافهم بالدولة ينطوي ، حكما وقانونا ، على عدم الاعتراف بالحكومة · والاعتراف بالدولة الاسرائيلية يتضمن تخليا عن حق العرب في الارض المحتلة · والاعتراف بالحكومة الاسرائيلية يتضمن اقرارا بشرعية السلطة الحاكمة في اسرائيل والموافقة على كل ما صدر عنها من جرائم وانتهاكات ·

ان الرئيس المصري قد اعلن في الكنيست ان اسرائيل اصبحت حقيقة واقعة اعترف بها العالم ، وانه يقبل العيش معها في سلام دائم وعادل ، وانه يرحب بالاسرائيليين ليعيشوا بين العرب في أمن وسلام · واعترف بحقهم في امتلاك جزء من الارض العربية عندما تحدث عن « المبرر القانوني الاخلاقي » الذي وجدوه « لاقامة وطن قومي على ارض لم تكن كلها ملكا لهم » ·

وفي المؤتمر الصحفي الذي عقده في القاهرة ، في ١٧ـ١٢ـ١٩٧٧ ، قال انه لا يريد شيئا من اسرائيل · وخاطب الاسرائيليين بقوله : « لقد حصلتم على جميع التنازلات التي تريدونها · لقد كانت المنطقة كلها ترفضكم ، ولكن بزيارتي وخطابي ··· اتفقنا على ان تعيشوا معنا في المنطقة ··· » (٢٠) · وفي ٤ـ١ـ١٩٧٨ ، صرح قائلا : « وفي زيارتي للقدس قدمت كل التنازلات التي طلبتها اسرائيل ، وهي قبولها كدولة شرق اوسطية واقامة علاقات على جميع انواع المستويات مع مصر في ظل معاهدة سلام » (٢١) ·

وبالاستناد الى ما تقدم يمكننا التأكيد ان الرئيس السادات قد التزم ، فعلا وقولا ، بالاعتراف بالدولة التي انشأتها الصهيونية والامبريالية ، وبالحكومة التي فرضت سيطرتها بالعنف والارهاب وقامت لتنفيذ البرنامج الصهيوني · وهذا الاعتراف الذي التزم به لم يعد قابلا للسحب ما دامت العناصر الموضوعية التي أملت عليه الاعتراف قائمة ، وما دامت حكومة اسرائيل ملتزمة بالسياسة التي عرضتها عليه ووافق عليها لدى زيارته ومباحثاته ·

ليس بامكانه ، مثلا ، ان يغير رأيه في المستقبل ويتنكر لاعترافه بحجة ان

اسرائيل ترفض الانسحاب ، او التخلي عن القدس ، او قيام دولة فلسطينية ، او تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية في مؤتمر جنيف ٠ ان كل هذه الامور لم تعد صالحة لتبرير اي تغيير في موقفه ، فهو أصلا (وهنا يكمن سر الخطأ الكبير الذي اقترنت به الزيارة) لم يشترط عليها التعهد باي شيء من هذا عندما لبى دعوتها ٠ ثم ان حكومة اسرائيل قد أوضحت ، علنا وبمنتهى الصراحة وعلى مسمع منه ، موقفها من هذه الامور ، قبل الزيارة وخلالها وبعدها ٠ واستمرارها في التمسك بنفس الموقف لا يمكن ان يفسر بانه اخلال بما التزمت او وعدت ٠

خروج على الاجماع والشرعية

والتزام الرئيس المصري بالاعتراف يتنافى مع الاجماع العربي والشرعية الدولية ٠ فالعرب ، حكومات وشعوبا ، ظلوا ، حتى العام ١٩٧٠ ، يصرون على عدم الاعتراف بالكيان الصهيوني ٠ وفي النصف الثاني من العام المذكور حصل فراق او افتراق بين موقف الجماهير العربية الذي لم يطرأ عليه حتى الآن اي تغيير ، وبين موقف بعض الانظمة العربية التي قبلت بمضمون القرار ٢٤٢ ٠

ولكن لماذا يصر العرب على رفض الاعتراف باسرائيل ؟ لماذا ينكرون عليها صفة الشخص القانوني الدولي ؟ هل يفعلون ذلك بدافع لا يقره القانون الدولي؟

لو تركنا جانبا كل الحجج والاسانيد التي يثيرها العرب عادة لدعم موقفهم واكتفينا بوجهة نظر القانون الدولي لوجدنا ان الكيان الصهيوني الذي اقيم في فلسطين قد قام منذ البداية على أساس البطلان واللاشرعية ٠

ان القانون الدولي العام لا يحفل بمسألة الشرعية الا من خلال انسجامها مع قواعده ومبادئه ٠ ان قيام دولة او حكومة على اساس اللاشرعية الداخلية، اي على اساس مخالفة الدساتير او التشريعات الداخلية ، أمر لا يعنيه ٠ ان القانون الدولي لا يهتم بالتغيرات التي تصيب مقومات الدولة لانها لا تشكل مخالفات لقواعده ٠ انها تشكل انتهاكات للدستور الداخلي ، ولا شأن له بأي تشريع داخلي ٠ ان معظم الثورات والانقلابات التي نجحت واقامت حكومات شرعية قد قامت على خرق الدساتير ، فلم يتدخل القانون الدولي في امرها ولم يكن له موقف معين من مسألة شرعيتها ٠

ان هذا القانون يبدأ بالتحرك عندما تظهر دولة جديدة على اساس مخالف لمبادئه ، فاذا ما استنجدت به طالبة مباركة ولادتها اعلن رفضه لوجودها ودمغها باللاشرعية ٠ ومع ان هذا القانون اصبح يتبوأ مكانة رفيعة على صعيد العلاقات

الدولية ، فان قواعده ما زالت تتعرض للخرق والانتهاك . وأذا كان الخرق لا يشكل خطرا على وجود القانون ، وخصوصا اذا كان مدعوما بقوة تحميه ، فان الخطر يبدأ عندما يحاول المجتمع اضفاء صبغة قانونية على خرق القانون محاولا تبريره وتكريسه .

ولهذا فان موقف العرب من مسألة الاعتراف بالكيان الصهيوني ينسجم كل الانسجام مع مذهب عدم الاعتراف في القانون الدولي . فهذا الكيان قد قام على اساسين ، باطلين : قرار التقسيم المشوب بالبطلان لمخالفته احكام الميثاق الاممي ونصوص القرارات الدولية ، ثم الجريمة الدولية التي يشكلها وجود اسرائيل القائم على العقيدة الصهيونية التي اعتبرتها غالبية دول العالم شكلا من اشكال العنصرية .

لقد واجهت الدول العربية قيام اسرائيل بموقف حازم يقوم على انكار حقها في الوجود فوق ارض عربية ، لان هذا الوجود يشكل ظاهرة استعمارية استيطانية عنصرية توسعية ويرمي ، في نفس الوقت ، الى طمس معالم شعب عربي . وليس بوسع هذه الدول ان تتخذ موقفا مغايرا . ان الانسجام مع النفس او المنطق يقضي بتبني هذا الموقف ، فاعتبار اسرائيل ظاهرة استعمارية قامت على انقاض الحق وأشلاء العدالة وخرق القانون يحتم على الدول العربية رفض الاعتراف بهذا الكيان .

ثم ان الدول العربية ، باصرارها على رفض الاعتراف ، تمارس عملا من اعمال السيادة الوطنية التي يقرها القانون الدولي ، فالدول ، كما ذكرنا ، ليست ملزمة بالاعتراف باية وحدة سياسية ناشئة ، وخصوصا اذا كان وضعها ينطوي على انتهاك للقوانين والقواعد الدولية والاخلاقية .

ولعل الرئيس السادات (قبل ان يصبح رئيسا ويستمع باحترام الى النشيد القومي الصهيوني في القدس المحتلة) قد عبر عن شعور العرب عندما وصف اسرائيل بأنها « دولة مجرمة » ، تثير في نفوسنا « بركانا من الغل والثورة والانتقام » ، وعندما ذكر ان قيامها قد جر « مئات من المشاكل التي اصبحت جرحا قوميا للعرب لن يلتئم ابدا الا بزوال هذا السرطان وبتره الى الابد » ، وعندما هزىء برئيس حكومتها (بن غوريون) الذي « ينام ويصحو على أمل واحد هو ان يرغم العرب على الاعتراف باسرائيل كدولة » ، وعندما طمأنه الى انه سيموت دون أن يرى اسرائيل دولة لانها « حكمت على نفسها بالفناء » (٢٢).

الحواشي :

١ ـ السفير ، ٢٧ـ١١ـ١٩٧٧ .

٢ ـ

H. Lauterpacht, Recognition in internat. Law, Cambridge 1948, p.3.

٣ ـ
Chen T.C. , The internat. Law of recognition, London 1951, p. 192.

٤ ـ
Brierly J.L. , The Law of Nations, Oxford 1955, p. 131 .

٥ ـ راجع مقال مرزا عن سياسة الهند في حقل الاعتراف ، في مجلة :
A.J.I.L. 1961 , Vol 55 , p. 409 .

٦ ـ د٠ يحيي الجمل : **الاعتراف في القانون الدولي العام** ٠ دار النهضة العربية ٠ القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٠٥ و ٢٠٨ ٠

٧ ـ **شؤون فلسطينية** ، عدد ١٥ ، نوفمبر ١٩٧٢ ٠

٨ ـ المرجع السابق ، ص ٦ ٠

٩ ـ **النهار** ، ٩ـ٢ـ١٩٧٨ ٠

١٠ ـ د٠ فايز صايغ ، المرجع السابق ، ص ١٠ ٠

١١ ـ كرر الرئيس هذا الادعاء مرات عديدة ، وعلى الرغم من فشله في تحييد واشنطن والتخفيف من شدة تأييدها لاسرائيل ، فانه استمر يردد : « سأظل دائما اقول ان الولايات المتحدة تحمل ٩٩ ٪ من اوراق هذه اللعبة » ٠ **السفير** ، ١ـ٢ـ١٩٧٨ ٠

١٢ ـ قرارات الامم المتحدة حول فلسطين ١٩٤٧ ـ ١٩٧٢ ٠ مؤسسة الدراسات الفلسطينية ٠ ص ٨٦ ٠

١٣ ـ المرجع السابق ، ص ٩٨ ـ ٩٩ ٠

١٤ ـ من مقاله الاسبوعي في **الاهرام** ، ٤ـ٧ـ١٩٧٢ ٠ والمؤسف ان الاستاذ هيكل قد اسهم ، ببعض الافكار التي نشرها ، في اضعاف هذا السلاح ٠

١٥ ـ **السفير** ، ١٩ـ١١ـ١٩٧٧ ٠

١٦ ـ مجلة **الاكسبريس** الفرنسية في ٥ـ١٢ـ١٩٧٧ ٠

١٧ ـ راجع حديثه لمجلة **الحوادث** في ٣٠ـ١٢ـ١٩٧٧ ٠

١٨ ـ من مقابلة له مع **الحوادث** العدد المذكور ، ص ٢٦ ٠

١٩ ـ **الحوادث** ، المذكورة ٠

٢٠ ـ **السفير** ، ١٨ـ١٢ـ١٩٧٧ ٠

٢١ ـ **السفير** ، ٥ـ١ـ١٩٧٨ ٠

٢٢ ـ راجع كتابه : **قصة الوحدة العربية** ٠ سلسلة كتاب الهلال ٠ القاهرة ١٩٥٧ ٠

حنـــــه شــــاهـــين

سيـــاســة ليــكود الاقتصـاديــة الجـــديـــدة في إســـــرائيـــل

ادى التحول السياسي الذي حدث في اسرائيل اثر فوز كتلة ليكود اليمينية في الانتخابات للكنيست في منتصف ايار من السنة الماضية ، وتسلمها زمام الحكم ، الى تحول اقتصادي ايضا ، لم يسبق له مثيل منذ قيام اسرائيل ٠ ويتمثل هذا التحول في اتباع سياسة اقتصادية جديدة تختلف اسسها كليا عن السياسة القديمة التي اتبعت أيام حكم المعراخ العمالي ، وبالتحديد منذ نشوء اسرائيل ٠ وتمثل السياسة الجديدة وجهة نظر اليمين الاسرائيلي في المجالين الاقتصادي والاجتماعي ، التي كان قد تبناها منذ نشوئه في منتصف العشرينات، والتي تعتمد على قواعد الاقتصاد الحر وعدم تدخل الحكومة في المجـــال الاقتصادي ، كأساس لحل مشاكل اسرائيل الاقتصادية المتأزمة ٠ وقد اتضحت بعض جوانب هذه السياسة من خلال تصريحات المسؤولين الجدد في اسرائيل ، بعد تسلمهم الحكم مباشرة ، خاصة وزير المالية وزعيم حزب الاحرار داخـــل ليكود ، سيمحا ارليخ ، الذي يعتبر صاحب التخطيط والقرار في السياســة الاقتصادية الاسرائيلية ٠ ويبدو ان ارليخ يتبنى في أفكاره الجزء الاكبر من اراء الاقتصادي اليهودي الاميركي ميلتون فريدمان ، صاحب نظريات الاقتصاد الحر ، التي لم تقبل في معظم بلدان العـــالم الرأسمالي ، وحتى في الولايـــات المتحدة ٠ ويبدو ان زيارة فريدمان لاسرائيل بعد الانتخابات الاخيرة مباشرة ، والنصائح التـــي قدمها للمسؤولين الجدد ، كان لها وقـــع كبير على مفاهيمهم الاقتصادية والاجتماعية ، رغم الضجة الكبيرة التي اثيرت حولها بين القطاعات الاقتصادية المختلفة ، خاصة الهستدروت والعمال ٠

خلفية السياسة الاقتصادية الجديدة

وجدت حكومة ليكود نفسها ، بعد تسلمها السلطة في مواجهة مشاكل اقتصادية متأزمة ، تتمثل في ارتفاع متصاعد في الاسعار يواكبه ارتفاع في معدلات التضخم المالي بلغت ٣٨٪ في السنة الماضية ، مع انخفاض كبير في قيمة الليرة الاسرائيلية وانفاق حكومي غير انتاجي يؤدي الى زيادة التضخم٠ وواكب ذلك انخفاض وبطء في معدل زيادة النمو الاقتصادي منذ سنة ١٩٧٣ ، حتى وصل الى أقل من ١٪ سنة ١٩٧٦ ، ثم توقف كليا سنة ١٩٧٧ (١) ، بينما ارتفع معدل البطالة ووصلت نسبته الى ٥٪ ٠ أما المشكلة الاساسية التي تواجه الاقتصاد الاسرائيلي فهي العجز في ميزان المدفوعات الذي وصل الى اكثر من ٥ر٣ مليار دولار في سنة ١٩٧٦ ، ثم انخفض الى ٧ر٢ مليار دولار في نهاية سنة ١٩٧٧ (٢) ، وكذلك الديون المتراكمة التي بلغت ٨ر٩ مليار دولار في نهاية سنة ١٩٧٦ وارتفعت الى ٤٢ر١٠ مليار دولار في نهاية سنة ١٩٧٧ (٣)٠ ويضاف الى ذلك عجز مستمر في الميزانية العامة يمول بواسطة طباعة الاوراق المالية بمعدل مليار ليرة اسرائيلية شهريا (٤) ٠

واذا نظرنا الى تطور الاقتصاد الاسرائيلي منذ قيام اسرائيل ، نرى انه مر خلال ثلاثين سنة تقريبا في ازمات مختلفة ، بلغت ذروتها خلال السنوات الاخيرة من حكم المعراخ ، وبالتحديد منذ حرب تشرين ١٩٧٣ ٠ وقد كانت تلك الحرب ، التي اثرت على معظم مجالات الحياة في اسرائيل ، نقطة تحول في في تطور الاقتصاد الاسرائيلي ، خاصة انها وقعت في وقت كان فيه الاقتصاد العالمي يتعرض لهزات عنيفة ، ادى الى ضعضعة التطور الاقتصادي في اسرائيل بشكل ملحوظ ٠ « فالظواهر التي خلفتها الحرب ، المتمثلة في ارتفاع العجز الجاري في ميزان المدفوعات ثلاثة اضعاف ، ثم مضاعفة استيراد رأس المال ، وزيادة ميزانية الدفاع الى ضعفين ونصف عما كانت عليه ـ والحديث يدور بمليارات الدولارات او الليرات ، التي تشكل نسبا محترمة في مجمل النشاط الاقتصادي ـ لا يمكن الا ان تؤثر على مجرى الانتاج والصادرات والاستهلاك » (٥) ٠ واذا تابعنا تطور الوضع الاقتصادي في اسرائيل منذ نشوئها وحتى استلام ليكود السلطة نرى انه مر في ثمانية مراحل مختلفة (٦) :

١ ـ **فترة التقشف (١٩٤٨ ـ ١٩٥١)** : وتميزت بقدوم اعداد كبيرة من اليهود الى فلسطين حيث ارتفع عددهم ، خلال هذه الفترة ، من ٦٥٠ر٠٠٠ نسمة الى نمو ٤٥٠ر١ر٠٠٠ نسمة ٠ وانحصرت اهداف سياسة الحكومة الاقتصادية انذاك ، أساسا ، في تأمين الغذاء والمسكن وايجاد عمل للمهاجرين الجدد ٠ وقد حولت الحكومة نشاطها بواسطة طباعة الاوراق النقدية ، مما ادى بطبيعة الحال الى تضخم مالي سريع ٠ وقد جرى خلال هذه الفترة اول تخفيض في قيمة

الليرة الاسرائيلية (اب ١٩٤٩) من ٢٥ اغوراه للدولار الى ٣٥ اغوراه للدولار (الليرة تساوي ١٠٠ اغوراه) ٠

٢ ـ « **سياسة اقتصادية جديدة** » (١٩٥٢ ـ ١٩٥٣) : تميزت هذه الفترة بوقف طباعة الاوراق النقدية واجراء تخفيض ثان لسعر الليـــرة الاسرائيلية (شباط ١٩٥٢) من ٣٥ اغوراه للدولار الى ليرة اسرائيلية للدولار ٠ ولكن مشكلة البطالة الشديدة بقيت احدى المشاكل الصعبة ، رغم انخفاض معدل الهجرة الى اسرائيل ٠

ويعتبر الاتفاق حول دفع التعويضات الذي وقعته اسرائيل مع حكومة المانيـا الذي ساهم بشكل ملموس في دعم الاقتصاد الاسرائيلي ، اهم حدث خلال هذه الفترة ٠ وكان ذلك الاتفاق قد وقع سنة ١٩٥٢ والتزمت حكومة المانيا بموجبه بدفع تعويضات بمبلغ ٨٢٩ مليون دولار الــى الحكومة الاسرائيليـة ، مقابل الممتلكات اليهودية في اوروبا ، التي نهبت في عهد النازيين ٠ وقد دفعت معظم تلك التعويضات على شكل بضائع من انتاج الماني ، ومنحت اسرائيل جزءا صغيرا منها نقدا للحصول على الوقود من خارج المانيا ٠ وبين البضائع التـي حصلت عليها اسرائيل في اطار هذا الاتفاق عدد من السفن ، التي ساعدت على تقوية وتطوير اسطول اسرائيل التجاري ، ومنشئات استثمار اخرى ٠

وبالاضافة الى هذه التعويضات بدأت حكومة المانيا الغربية بدفع تعويضات شخصية وبصورة مباشرة لليهود الذين تضرروا من الحكم النازي ، ممن كانوا يعيشون في المانيا او في احدى البلدان التي احتلها الالمان ٠ وحتى سنة ١٩٧٣ بلغت قيمة هذه التعويضات ٢٫٤٥ مليار دولار ، وتم خلال هذه الفترة (أيار ١٩٥٣) التخفيض الثالث لقيمة الليرة ، من ليرة للدولار الى ١٫٨٠ ليــرة للــدولار ٠

٣ ـ **فترة النمو السريع** (١٩٥٤ ـ ١٩٥٩) : قامت الحكومة الاسرائيليـــة باعتماد ميزانيات تطوير ضخمة لتسهيل استيعاب العمال وزيادة الانتاج والدخل للفرد ٠ وفي هذه الفترة انشيء العديد من قرى الاعمار ، التي احتوت على مشاريع صناعية عدة ، في الشمال والجنوب وفي وسط فلسطين ٠ وقد ساعدت التعويضـــات التي حصلت عليهـا اسرائيل من المانيـا ، والمساعـدات التـي حصلت عليها انذاك من الولايات المتحدة على دفع عجلة التطوير في اسرائيل ، وانشاء العديد من المصانع ٠

٤ ـ **فترة العمالة الكاملة و « السياسة الاقتصادية » الثانيـة** (١٩٦٠ ـ ١٩٦٤) : وتعتبر فترة ازدهار اقتصادي بدون بطالة تقريبا ، مع ظهور مشكلتين اساسيتين : ازدياد فائض الواردات على الصادرات وظهور نسب صرف كبيرة ومعقدة لليرة الاسرائيلية نتيجة نسب الدعم المتفاوتة لبعض فروع التصدير ،

وفرض ضرائب غير موحدة على الواردات · وخلال هذه الفترة جرى التخفيض الرابع لليرة الاسرائيلية (شباط ١٩٦٢) ـ من ٨٠ر١ ليرة للدولار الى ٣ ليرات للدولار ، وذلك من أجل تشجيع الصادرات وخفض الواردات · ولكن رغم ذلك وصل العجز في ميزان المدفوعات في تلك الفترة الى الذروة ـ ٥٧٢ مليون دولار في سنة ١٩٦٤ ·

٥ ـ **سياسة « الانكماش » (١٩٦٥ ـ ١٩٦٧)** : تعتبر هذه الفترة من الفترات الصعبة التي مر فيها الاقتصاد الاسرائيلي· وكان الهدف من سياسة «الانكماش» حل مشكلة العجز في ميزان المدفوعات ، بواسطة خفض سرعة النشاط الاقتصادي وكبح الزيادة السريعة في الطلب الشامل والاستهلاك والواردات ، ثم تحويل موارد اكبر لزيادة الصادرات · وقد نفذت الحكومة الاسرائيلية سياستها هذه بواسطة خفض ميزانية التطوير ، مما ادى الى خفض النشاط الاقتصادي وحدوث بطالة واسعة وصلت الى ١٠٪ من طاقة العمل وقد اتبع بنك اسرائيل سياسة خفض التسليف للجمهور ولارباب العمل · وادت هذه السياسة الى خفض الاستثمارات والانتاج ، وتجميد نسبة الاستهلاك الفردي ، ثم الى انخفاض العجز في ميزان المدفوعات الى ٤٤٥ مليون دولار في سنة ١٩٦٦ · كما انخفض العجز في الميزان التجاري من ٤٥٤ مليون دولار في سنة ١٩٦٤ الى ١٩٥ مليون دولار في سنة ١٩٦٧ · وخلال هذه الفترة جرى التخفيض الخامس في قيمة الليرة (تشرين الثاني ١٩٦٧) ـ من ٣ ليرات للدولار الى ٥ر٣ ليرة للدولار ·

٦ ـ **فترة ما بعد حرب ١٩٦٧ (١٩٦٨ ـ ١٩٦٩)** : ادت نتائج حرب ١٩٦٧ الى عودة الانتعاش الاقتصادي في اسرائيل ، بحيث قضي على البطالة بشكل تام بعد مرور سنتين على انتهاء الحرب · كما ازدادت الاستثمارات وارتفع الانتاج والاستهلاك الفردي والصادرات ، مما ادى ايضا الى ازدياد الواردات التي بلغت قيمتها ، في نهاية ١٩٦٩ ، ٢ر٢ مليار دولار · ولكن على الرغم من زيادة الصادرات فقد ارتفع العجز في ميزان المدفوعات ، وبلغ في نهاية ١٩٦٩ نحو ٩٣٠ مليون دولار ، مقابل ٧٢٠ مليون في نهاية ١٩٦٨ · وقد ادى هذا العجز الى خفض فائض اسرائيل من العملة الصعبة حتى وصل الى أقل من ٤٠٠ مليون دولار في نهاية ١٩٦٩ ، مقابل فائض بقيمة ٩٠٠ مليون دولار بعد حرب ١٩٦٧·

٧ ـ **« صفقة الرزمة » والضغوط التضخمية (١٩٧٠ ـ ١٩٧٣)** : في محاولة لتصحيح المسار الاقتصادي السابق ، وقع خلال هذه الفترة اتفاق ثلاثي بين الحكومة والهستدروت ، النقابة العامة للعمال ، وارباب العمل ، عرف فيما بعد « بصفقة الرزمة » ، التي التزمت الحكومة بموجبها بعدم رفع الضرائب ، مقابل التزام الهستدروت وارباب العمل بعدم رفع الاجور والاسعار · وجرى في هذه الفترة التخفيض السادس في قيمة الليرة الاسرائيلية (اب ١٩٧١) ، من ٥ر٣ ليرة للدولار الى ٢ر٤ ليرة للدولار · وقد طرأ تحسن على وضع ميزان المدفوعات

وفائض العملة الصعبة نتيجة الحصول على قروض خارجية ٠ ولكن تلك القروض زادت من ديون اسرائيل فوصلت في نهاية ١٩٧٣ الى ١ر٥ مليار دولار ٠

٨ ــ **حرب تشرين ١٩٧٣ وما بعدها (١٩٧٣ ــ ١٩٧٧)** : وهي من اصعب الفترات التي مر بها الاقتصاد الاسرائيلي ، نظرا لتكاليف الحرب الباهظة ، وازدياد نفقات الامن اثر ذلك ٠ ورغم المساعدات الطائلة التي قدمتها الولايات المتحدة لاسرائيل منذ حرب ١٩٧٣ (بمعدل مليار ونصف دولار سنويا ، عدا ٢ر٢ مليار دولار قدمتها بعد انتهاء الحرب مباشرة) والتي ما زالت تدفعها لاسرائيل حتى الان ، فان وضع اسرائيل الاقتصادي يزداد تأزما يوما بعد يوم ، خصوصا في المجالات الثلاثة الاتية : العجز الكبير في ميزان المدفوعات وقيمة الديون الخارجية التي وصلت الى اكثر من عشرة مليارات دولار في سنة ١٩٧٧ ، ثم النسبة الكبيرة للتضخم المالي ، والجمود في النمو الاقتصادي الذي يسود اسرائيل حاليا (كانت معدلات النمو في اسرائيل تصل الى اكثر من ٦٪ للانتاج المحلي السنوي في العام ، ومنذ ١٩٧٣ راح هذا المعدل ينخفض تدريجيا ، حتى وصل في ١٩٧٥ الى ٢٪ فقط ، وفي ١٩٧٦ الى ١٪ ، أما في سنة ١٩٧٧ فهو في حدود الصفر ، كما ذكرنا) (٧) ٠ وقد اتخذت حكومة المعراخ عدة اجراءات اقتصادية خلال هذه الفترة بهدف كبح التضخم المالي السريع وخفض العجز في ميزان المدفوعات ، وذلك بواسطة خفض قيمة الليرة الاسرائيلية للمرة السادسة منذ قيام اسرائيل (تشرين الثاني ١٩٧٤) ، من ٢ر٤ ليرة للدولار الى ٦ ليرات للدولار ، ثم اتباع اسلوب التخفيض الزاحف في قيمة الليرة ، حيث تنخفض قيمتها بنسبة بسيطة لا تتعدى ٢٪ خلال كل شهر او شهرين ٠ وكان الهدف من هذه الاجراءات هو تشجيع فرع الصادرات وخفض الواردات وبالتالي تحسين ميزان المدفوعات ٠ كذلك اتخذت حكومة المعراخ اجراءات اخرى منها فرض ضرائب جديدة ومتنوعة ، وخفض الميزانيات العامة بهدف كبح التضخم المالي السريع ، عن طريق تقليص الطلب وخفض مستوى معيشة الاسرائيليين ٠ الا أن هذه الاجراءات جميعها لم تؤد الى تخفيف حدة اي من مشكلات اسرائيل الاقتصادية التي ازدادت تأزما ، خصوصا خلال النصف الاول من سنة ١٩٧٧ ، وهي الفترة التي سبقت الانتخابات للكنيست ، وذلك بسبب عجز الحكومة الاسرائيلية انذاك عن اتخاذ اية اجراءات رادعة من شأنها ان تثير غضب الاسرائيليين ، الذين كانت تراهن على كسب اصواتهم في الانتخابات ٠ ويشير المراقبون الى ان مشكلات اسرائيل الاقتصادية هذه ، كانت من الاسباب الرئيسية لسقوط المعراخ في الانتخابات الاخيرة وفوز ليكود ٠

وقبل التطرق الى سياسة حكومة ليكود الاقتصادية التي بدأ تطبيقها منذ نحو ثلاثة اشهر لا بد ان نشير الى بعض المعطيات شبه الثابتة التي رافقت سياسة المعراخ ، وما زالت متبعة وسارية المفعول في اسرائيل حتى الان ٠

(١) الاعتماد على المساعدات الخارجية ، خاصة المساعدات الاميركية ، لتمويل مشاريع اسرائيل المدنية والعسكرية ٠ وقد أعلن وزير المالية ارليخ اثناء زيارته للولايات المتحدة مؤخرا ،ان اسرائيل « تعتمد على الجهات الخارجية حتى بالنسبة الى وجبة الفطور ٠ والاعتماد الاقتصادي يجر الى الاعتماد السياسي ، والطريق السياسي للتوصل الى تسوية في الشرق الاوسط طويل جدا ٠٠ » (٨) ٠ كذلك اعلن رئيس الحكومة بيغن ان اسرائيل تلقت منذ قيامها نحو ٣٥ مليار دولار معونات من مصادر اجنبية ، منها ١١ مليار من يهود العالم مضيفا انه تلقى وعدا من وزير الخارجية الاميركي بعدم خفض المساعدات الاميركية خلال هذه السنة ، بل زيادتها (٩) ٠ والواضح من هذه التصريحات هو ان حكومة اسرائيل الحالية ستواصل اعتمادها على المصادر الاجنبية ، خاصة مساعدات الولايات المتحدة الاميركية، لتمويل مشاريعها المدنية والعسكرية خلال السنوات المقبلة ، تماما كما تصرفت حكومة المعراخ من قبلها ٠

٢) الاعباء الامنية : وقد ازدادت ، كما ذكرنا ، منذ حرب ١٩٧٣ ، حيث وصلت في تلك السنة الى نمو ٥٠٪ من ميزانية اسرائيل ، ثم انخفضت تدريجيا فيما بعد ووصلت الى ٣٣٪ من ميزانية ١٩٧٧ ٠ أما نسبتها في ميزانية ١٩٧٨، فستصل الى ٣٠٪ (١٠) ٠ ويتوقع ان تستمر هذه الاعباء طالما ان الوضع الامني في اسرائيل على هذا النحو ٠ وقد اعلن ارليخ مؤخرا : « علي ان احذر من الشعور بأننا نستطيع تخفيض نفقات الامن ٠ رغم كل امالنا وتطلعاتنا نحو السلام ــ علينا الا نتسرع ٠ حتى الان لا يمكننا تخفيض نفقات الامن ابدا ٠٠ [وحتى] عندما نصل الى السلام ، سيضطر جيش اسرائيل الى الانتظام واعداد نفسه لظروف جديدة ــ وهذا ايضا مرتبط بتكاليف باهظة » (١١) ٠

٣) العلاقات التجارية مع الدول الغربية : تعتبر علاقات اسرائيل التجارية مع بلدان السوق الاوروبية المشتركة ومع الولايات المتحدة حسنة جدا بعد الاتفاقين اللذين وقعا في عهد المعراخ مع كل منهما ٠ وكانت اسرائيل قد وقعت اتفاقا مع السوق الاوروبية المشتركة في أيار ١٩٧٥ ، منحت بواسطته تسهيلات كثيرة بالنسبة لصادراتها الى دول السوق ٠ كما انها كانت قد وقعت في الشهر نفسه اتفاقا اقتصاديا اخر مع الولايات المتحدة يتعلق بتشجيع الاستثمارات الاميركية في اسرائيل ، ومنح تسهيلات جمة للصادرات الاسرائيلية ، اهمها تأمين تزويد اسرائيل بالمواد الخام وخاصة النفط ، وكذلك التعاون في مجال البحث الصناعي التطبيقي (١٢) ٠ ويعتبر هذان الاتفاقان ، وخاصة الاتفاق مع السوق المشتركة ، من أهم انجازات حكومة المعراخ في المجال الاقتصادي ، والتي يمكن للحكومة الحالية ان تستفيد منهما في استغلال الاسواق الاوروبية والاميركية لتصريف البضائع الاسرائيلية في المستقبل ٠

وباختصار يمكن القول ان الاقتصاد الاسرائيلي يعتمد على المساعدات الاجنبية

منذ نشأته ، اي انه اقتصاد تابع ، يتحمل اعباء امنية كبيرة ، تؤثر على مجمل نشاطه ونفقاته ، الا انه يتمتع بمجالات عمل واسعة على الصعيد التجاري ، رغم المقاطعة العربية، يمكن ان يستفيد منها في المستقبل في تصريف بضائعه وتشجيع صادراته · وهذه هي الخلفية التي انطلقت منها سياسة ليكود الاقتصادية الجديدة ·

سياسة اقتصادية جديدة مبنية على الاقتصاد الحر

بعد تسلم ليكود السلطة كان واضحا ان تغييرا سيحدث في السياسة الاقتصادية والاجتماعية ، نظرا للاختلاف الكلي بين عقيدة اليمين الاسرائيلي المبنية ، كما ذكرنا ، على تبني اسس الاقتصاد الحر كوسيلة لحل مشاكل اسرائيل الاقتصادية ، وبين عقيدة الاحزاب العمالية التي حكمت اسرائيل منذ قيامها ، والمبنية على توجيه الاقتصاد والتدخل في مساره، بما يتناسب مع وضع اسرائيل سياسيا وامنيا ·

لم تسارع الحكومة الاسرائيلية الى تطبيق سياستها الاقتصادية والاجتماعية الجديدة حالا بعد تشكيلها ، وانما اخذت متسعا من الوقت ، لتهيئة الظروف المناسبة لذلك تدريجيا · فقد واصلت في البداية اتباع سياسة الحكومة السابقة ، واتخاذ مختلف الاجراءات القديمة للحد من تأزم الوضع الاقتصادي وخصوصا كبح التضخم المالي الذي تفاقم ابان حملة الانتخابات للكنيست · استمرت الحكومة في تنفيذ عمليات التخفيض الزاحف لقيمة الليرة ، واتخذت في منتصف تموز الماضي عدة قرارات « لتصحيح المسار الاقتصادي » ، رفعت بموجبها اسعار بعض المواد الخام وتكاليف الخدمات بنسبة ٢٥ ٪ ، كأسعار المحروقات والبريد واجور النقل وغيرها ، وخفضت في المقابل الدعم الموجه لسلع التصدير والمساعدات الاجتماعية والتعليم · وذكر بيغن ان هذه الاجراءات ستعمل على كبح التضخم تمهيدا لخفضه ، وعلى زيادة الصادرات وتقليص الواردات · ولكن النتيجة كانت عكس ذلك ، فالتضخم لم يكبح بل استمر في الارتفاع ليصل الى حوالي ٣٥٪ ، كما لم تتغير اوضاع الركود الاقتصادي وانخفاض الانتاج · وبالنسبة للاستثمارات ، التي كان تشجيعها الهدف الاساسي من وراء تلك الاجراءات ، فأنها لم تزدد بل انخفضت بصورة ملحوظة خلال النصف الاول من سنة ١٩٧٧ ، « ويتضح ذلك من الاحصاءات التي نشرها بنك التنمية الصناعية لسنة ١٩٧٦ والنصف الاول من سنة ١٩٧٧. فقد وافق البنك على استثمار ٧ر١ مليار ليرة في مشروعات جديدة خلال النصف الاول من سنة ١٩٧٧ مقابل ٥١٣ مليون ليرة خلال الفترة المقابلة من سنة١٩٧٦ ولكن شركة الكهرباء منحت من ذلك المبلغ ٢ر١ مليار ليرة ، اي ان المبلغ الفعلي هو ٥٠٠ مليون ليرة · اضف الى ذلك ان قيمة العملة انخفضت بنسبة ٣٠٪

خلال هذه الفترة · وهكذا يكون اجمالي الاستثمارات ، التي وافق عليها البنك، اقل بنحو الثلث من الاستثمارات التي اقرت في السنة الماضية » (١٣) ·

وتعتبر اجراءات تموز الاقتصادية بمثابة مقدمة لاعلان سياسة ليكود الاقتصادية الجديدة ، التي اعتبرها الكثيرون في اسرائيل وخارجها بمثابة « ثورة » اقتصادية ستؤثر على حاضر اسرائيل ومستقبلها · وتقوم سياسة ليكود الاقتصادية الجديدة ، التي كانت الحكومة قد اقرتها في جلسة خاصة عقدت يوم ٢٨ـ٢ـ١٩٧٧ ، على الاسس التالية :

١ ـ اجراء تخفيض كبير في قيمة الليرة الاسرائيلية من خلال توحيد قيمة صرفها ·

٢ ـ تعويم الليرة ·

٣ ـ الغاء الرقابة على العملة الصعبة ، بصورة كاملة تقريبا ·

٤ ـ رفع ضريبة القيمة الاضافية (بعد الغاء ضريبة الشراء) وخفض الاعانات الحكومية للمواد الاستهلاكية الاساسية ·

وهذه الاجراءات هي بمثابة حلقة وصل ، لتمهيد الطريق امام تنفيذ السياسة الجديدة ، وكل منها يرمي الى تحقيق اهداف معينة ، من خلال تدارك « اخطاء الماضي » ·

تخفيض الليرة من خلال توحيد قيمة صرفها : حتى اتخاذ هذا الاجراء كانت الليرة الاسرائيلية تصرف رسميا بموجب ثلاث نسب صرف مختلفة · واولى هذه النسب هي تلك التي كانت رؤوس الاموال تنقل الى اسرائيل ، ومنها ، بواسطتها · كما كانت هذه النسبة الاساس لصرف ودائع الجمهور بالعملة الصعبة · وعشية اعلان السياسة الجديدة بلغت قيمة الصرف هذه ١٠ر٢٨ ليرة للدولار الواحد · اما النسبة الثانية فهي قيمة الصرف للواردات ، بنسبة ١١ر٩٤ ليرة للدولار ، اي قيمة الصرف الاولى الرسمية بالاضافة الى ١٥٪ ضريبة على الواردات ، وهذه النسبة لا تشمل الجمارك التي تفرض على انواع معينة من البضائع المستوردة ، واما النسبة الثالثة فهي قيمة الصرف للصادرات التي حددت بنسبة واحدة (تقريبا) وهي ١٤ر٥ ليرة للدولار · ومع اعلان عن السياسة الجديدة ، تم توحيد هذه النسب الثلاثة ، فأصبحت ١٥ ليرة للدولار (تخفيض بنسبة ٤٤٪ تقريبا بالمقارنة مع السعر الرسمي) ، مع الغاء ضريبة الاستيراد وخفض الجمارك ، ثم الغاء حوافز التصدير ·

تعويم الليرة : ان الهدف من وراء هذا الاجراء هو اخضاع قيمة صرف العملة الاسرائيلية لقوانين العرض والطلب في السوق ، وجعل قيمة الليرة الفعلية اكثر « واقعية » ، مما قد يؤدي الى تشجيع الصادرات الاسرائيلية

وتحسين ميزان المدفوعات الاسرائيلي ٠

وبما ان هذا الهدف هو اساسي في السياسة الجديدة ، فأن الحكومة الاسرائيلية ، على الرغم من تعويم الليرة ، لا تستطيع ان تسمح بحدوثذبذبات كبيرة في قيمة الصرف ، لان ذلك يناقض مصالحها الاقتصادية في مجالاتتوفير العمالة وخفض العجز في ميزان المدفوعات ٠ ولذلك يتوقع ان يتدخل البنك المركزي ، بايعاز من الحكومة في تحديد قيمة الصرف في سوق العملة الصعبة ٠ وقد اعلن وزير المالية ارليخ : « اننا نتمنى ان تكون ذبذبات الليرة بين زيادة بمعدل ٥٠ اغوراه ، وانخفاض بمعدل ٣٠ اغوراه ، حسب العرض والطلب ٠ اما اذا حدثت قفزات عالية ، فسنعتبر ذلك مضاربة ، وفي استطاعتنا دائما اتخاذ اجراءات فورية ضدها » (١٥) ٠

واوضح مدير عام وزارة المالية عميرام سيفان ما تعنيه هذه الاجراءات بقوله : « ان بنك اسرائيل سيضطر الى التدخل في حال اختلال قيمة الصرف نتيجة التجارة بالاموال ، ولكن ليس نتيجة الصفقات التجارية ٠ فاذا كان الاختلال ناتج عن الثغرة بين الواردات والصادرات فأن البنك لا يستطيع ان يتدخل ٠ اما اذا حدث نتيجة التجارة بالاموال (في السوق السوداء) فعندئذ عليه ان يتدخل » (١٦) ٠

رفع الرقابة على العملة الصعبة : يرمز هذا الاجراء الى التغييرالايديولوجي الاساسي في السياسة الاقتصادية الجديدة ، خاصة وان الرقابة على العملة الصعبة مفروضة في فلسطين منذ سنة ١٩٤١ ، وقد رافقت الاقتصاد الاسرائيلي منذ نشأته ٠ وتعتبر هذه الخطوة خطيرة ، في نظر معظم الاسرائيليين ، بسبب وضع اسرائيل الامني ، وقلة احتياطي العملة الصعبة لدى الخزينة الاسرائيلية ٠ وسينجم عن الغاء الرقابة قيام سوق حرة للعملة الاجنبية في اسرائيل ، ووقف تدخل الحكومة في معظم مجالات التداول بالعملة الاجنبية ، مما قد يؤدي الى تدفق حر للعملة الصعبة الى اسرائيل وبالعكس٠

وبناء على هذه السياسة يستطيع سكان اسرائيل الان ، خلافا للماضي ، الاحتفاظ بالعملة الصعبة في المصارف الاسرائيلية دون تحديد مبلغها ٠ كما يستطيعون الاحتفاظ في مصرف اسرائيل بأي مبلغ حصلوا عليه مقابل تصدير بضائع او اي دخل اخر ٠

ضرائب جديدة مع خفض الاعانات الحكومية : قرر وزير المالية ، ضمن السياسة الجديدة ، رفع نسبة ضريبة القيمة الاضافية بحيث يتوقع ان تدر ملياري ليرة خلال نصف سنة ، مع تخفيض الضرائب الشرائية الاخرى بقيمة مليار ليرة ٠ وبناءا على ذلك رفعت اسعار السلع المستوردة بنسبة ٢٥٪ وما فوق ، والغيت رسوم الاستيراد مثل ضريبة استيراد الخدمات ، مع تخفيض

نسبة الجمارك بـ ٢٠٪ ٠ كذلك خفضت الضريبة الشرائية خاصة على المواد الخام والمواد نصف المصنعة ، والغيت ضريبة السفر الى الخارج مع فرض ضريبة القيمة الاضافية على تذاكر السفر ، والسماح للمسافر بنقل ٣٠٠٠ دولار لدى سفره ٠

اما الخطوة التي تعتبر اشد وقعا على الصعيد الاجتماعي ، ضمن السياسة الجديدة ، فأنها تتمثل في بدء خفض الاعانات الحكومية على بعض المواد الاساسية ، بصورة تدريجية ، الى ان تصل نسبة المعونات الى ٢٠٪ من ثمنها، مما سيؤدي الى ارتفاع اسعار هذه المواد ٠ وبناء عليه رفعت اسعار الوقود والكهرباء والمياه بنسبة ٢٥٪ تقريبا ، ورفعت اسعار المواد الغذائية بنسبة ١٥ ـ ١٦٪ ، وزيدت رسوم البريد والبرق والهاتف ، ورسوم التأمين بالنسبة لخدمات الموانىء والمطارات وغيرها ٠

اهداف السياسة الاقتصادية الجديدة وامكانية تحقيقها

يتضح من خلال تصريحات المسؤولين الاسرائيليين ـ خاصة وزير المالية ارليخ ومساعديه ـ ان الاهداف الرئيسية للسياسة الاقتصادية الجديدة ، هي ، اولا ، حل مشاكل اسرائيل الاقتصادية التي تراوح في مكانها منذ سنين ، عن طريق جذب رؤوس الاموال اليهودية والاجنبية ، ثم تحقيق الاستقلال الاقتصادي وتحويل اسرائيل الى مركز مالي عالمي في المنطقة على غرار سويسرا في الغرب٠ وكان بيغن قد أعلن بعد انتهاء جلسة الحكومة التي اقرت خلالها السياسة الجديدة ان هذه السياسة هي « خطوة ايجابية وحاسمة من اجل علاج الاقتصاد القومي للدولة ، مشيرا الى انه اصبح بالامكان تقليص الثغرة ، في ميزان المدفوعات وزيادة الصادرات وتقليص الاستيراد ، وبالتالي تقليص اعتماد اسرائيل على المساعدات الخارجية ٠ وزاد انه اصبح في مقدور كل مواطن الان اعادة امواله الى اسرائيل واستثمارها في مشاريع مختلفة ، وان هذه السياسة لا بد ان تؤدي الى زيادة الاستثمارات ، كما يليق بدولة تنتهج النظام الحر » (١٨) ٠ اما ارليخ فأعلن ان النظام الاقتصادي القديم كان « متخلفا ومجحفا وغير مشرف ، حيث اننا نعتمد على صدقات الاخرين ٠٠٠ وجمع التبرعات ٠ اننا نريد ان نعمل وننتج بشرف كشعب خلاق ٠٠٠ وفي وسعنا تحسين وضعنا بحيث لا نعتمد على الغير بالنسبة الى وجبة الفطور ، وانما بالنسبة الى وجبة العشاء فقط » (١٩) ٠

ان السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو كيف يمكن تنفيذ اهداف السياسة الجديدة في وضع اسرائيل الامني والسياسي في الوقت الحاضر ٠ وللاجابة على ذلك لا بد من التطرق الى الوسائل التي تراهن عليها الحكومة الحالية

من اجل نجاح سياستها هذه ، وبالتالي محاولة تقييم احتمالات نجاحها او فشلها :

١ ـ ان اول ما تراهن عليه الحكومة الاسرائيلية في سياستها الاقتصادية الجديدة هو جذب الاستثمارات اليهودية والاجنبية في ظل سياسة الانفتاح الكلي وازالة الرقابة على العملة الصعبة والاجراءات الاخرى التي كانت تشكل رادعا امام المستثمرين ٠ ان الاستثمار الخارجي والداخلي هو الوسيلة الرئيسية ، في نظر المسؤولين الاسرائيليين ، لعودة استئناف النمو الاقتصادي المتوقف تقريبا ، والقضاء على البطالة ٠ الا ان هذا يتوقف على امرين اساسيين اولهما يتعلق بربحية الاستثمارات الجديدة ومنع اتساع الطلب المحلي ، والثاني بوضع اسرائيل الامني ، خاصة بالنسبة الى المستثمرين الاجانب ٠ وهاتان النقطتان تشجعان على جذب المستثمرين من الخارج ، رغم ادعاءات وزير المالية الاسرائيلي ، بأن الاستثمارات ستتدفق على اسرائيل في ظل السياسة الجديدة ٠ والمراهنة على توسيع الاستثمارات كحل اساسي لاعادة دفع عجلة التنمية لا مكان لها في وضع اسرائيل الحالي ٠

٢ ـ تؤكد وزارة المالية ان السياسة الجديدة ستؤدي الى تحسين العجز في ميزان المدفوعات في اسرائيل ، الذي بلغ حتى نهاية سنة ١٩٧٧ ٦ر٢ مليار دولار (انخفض بـ ٧٠٠ مليون دولار عما كان عليه في سنة ١٩٧٦ ٠ وقد نفى وزير المالية ان يكون هذا ناتج عن تحسن في وضع اسرائيل التجاري ، وانما بسبب تأخير بعض المشتريات في وزارة الدفاع (٢٠) ، وذلك بواسطة تقوية الصادرات وخفض الواردات ٠ ولكن هذا الهدف لن يتحقق على المدى القصير على الاقل ، بسبب المصاعب الكثيرة التي تعاني منها الصناعة المعدة للتصدير، وهي المصاعب التي ازدادت اثر تطبيق السياسة الجديدة ٠ فقد اعلن بنك اسرائيل ان بعض الفروع الصناعية ، التي تنتج نحو ٣٧٪ من مجموع الصادرات الصناعية ، قد وجدت نفسها بعد بدء تطبيق السياسة الجديدة ، في وضع سيء من ناحية قيمة الصرف الفعلية بالنسبة للصادرات ، بالمقارنة مع وضعها قبل ذلك ، حيث انخفضت ارباحها بنسب تصل الى ٢ر٥٪ (٢١) ٠ والسؤال هو هل تسكت الحكومة على هذا الوضع ، خاصة ان نجاح سياستها متوقف على تحسين ميزان المدفوعات عن طريق زيادة الانتاج المعد للتصدير ؟ امام الحكومة ثلاثة احتمالات ، اولها عدم اتخاذ اي اجراء ، بحيث تترك هذه المصانع (التي لا تستطيع التصدير حسب قيمة الصرف الحالية ، وهي ١٥ ليرة للدولار) وشأنها ، فأما ان يتحسن وضعها الانتاجي او تقفل ٠ ولكن اقفال تلك المصانع لا يبدو امرا بسيطا ، بسبب دورها في التصدير الصناعي وفي تشغيل الايدي العاملة ٠ ومثال على ذلك صناعة النسيج (وتشكل منتوجاتها نحو ٦ر١٦٪ من الصادرات الصناعية) وهي مركزة في مناطق الاعمار وتستخدم

نحو ٦٦ الف عامل ٠ وهذه الصناعة حتى لو كان امامها فرصة لتحسين وضعها ، فأنها لا تستطيع ذلك على المدى القصير ٠ وهناك ايضا ، مثلا ، الصناعة الكيماوية (٧ر١٥٪ من الصادرات) ، التي استثمرت اموالا طائلة في شراء معدات حديثة ، ولكنها لا تستطيع تحقيق اي ربح بموجب قيمة الصرف الحالية ٠ وكان ابراهام شفيط رئيس اتحاد الصناعيين قد اعلن ان هناك ٢١ فرعا من فروع الصناعة الراكدة ، التي تواجه مشكلات مستعصية ، ولا بد من تصفيتها ٠ وفي مثل هذا الوضع ، يبرز الاحتمال الثاني القائم بالنسبة للحكومة وهو ايجاد سبل مختلفة لتقديم مساعدات لتلك الفروع الاقتصادية ، رغم ان ذلك يتعارض بالطبع مع سياستها بالامتناع عن التدخل في النشاط الاقتصادي ٠ اما الوسيلة الثالثة فهي رفع قيمة الصرف اي اجراء تخفيض آخر في قيمة الليرة، حتى ١٦ ليرة للدولار كحد ادنى ، مثلا وفي استطاعة بنك اسرائيل تنفيذ هذا الامر بايعاز من الحكومة كما ذكرنا سابقا ٠ الا ان هذا الاجراء يتطلب سياسة كبح شديدة لانه سيؤدي الى زيادة ارباح اصحاب رؤوس الاموال والودائع الاجنبية ، والى زيادة في الاسعار كما يحدث في كل مرة تقدم فيها الحكومة الاسرائيلية على اجراء من هذا النوع ، وبالتالي ازدياد التضخم المالي ٠ وهذا يتعارض واهداف السياسة الجديدة ٠ ولكن على الرغم من ذلك ، تستطيع الحكومة الاسرائيلية منع هذا التدهور بواسطة اتباع سياسة مالية وضريبية كابحة تؤدي الى عدم اتساع الطلب المحلي ٠ وقد اتخذت بالفعل بعض الاجراءات ، في هذا الصدد ، اثناء تطبيق السياسة الجديدة ، منها منع التسليف ، حيث اعلن بنك اسرائيل تجميد التسليف المصرفي لثلاثة اشهر ، بالاضافة الى رفع ضريبة القيمة الاضافية وخفض الاعانات الحكومية ٠ الا ان هذه الاجراءات تعتبر غير كافية بالمقارنة مع الضغط التضخمي الذي نتج اثر بدء تطبيق السياسة الجديدة ٠

ان النتيجة الواضحة المترتبة على هذا الوضع هي ان الصناعة الاسرائيلية المعدة للتصدير لا يمكن ان تزيد من انتاجها على المدى القصير ، خاصة وانها تعاني ، بالاضافة الى عدم تمكنها من الحصول على مردود اضافي نتيجة السياسة الجديدة ، من نقص في الايدي العاملة ٠ وكان « عدد المستخدمين في الصناعة قد بلغ سنة ١٩٧٦ ، ٨٠٠ر٢٧٣ عامل ، مقابل ٤٠٠ر٢٧٤ عامل في سنة ١٩٧٥ ، اي اقل بـ ٦٠٠ عامل ، على الرغم من قفزة التنمية السريعة خلال هاتين السنتين ٠٠ وحمل هذا النقص العديد من المصانع على الاعتماد ، بصورة مطلقة ، على العمال من المناطق المختلة ٠٠٠ والاعتماد على الطاقة البشرية ، التي استنفذت في المناطق ، اشد خطرا من مجرد النقص في الطاقة البشرية ، لان هؤلاء العمال لا يأتون الى العمل في اوقات التوتر الامني » (٢٣) ٠ كذلك اكد محافظ بنك اسرائيل ان الطاقة البشرية في الخدمات العامة سجلت زيادة

٤٠ الف شخص خلال الفترة ١٩٧٣ ـ ١٩٧٦ ، اي بنسبة ١٢٠٪ من الزيادة في الطاقة البشرية في فروع الانتاج ٠٠ « وهذا يعني ان الخدمات العامة استوعبت عاملين تركوا فروعا اخرى كالبناء ، بينما لم يزدد عدد العاملين في الصناعة ابدا » (٢٤) ٠

اما على المدى البعيد فأن تقوية الصناعة وزيادة انتاجها مرهون بعدة امور اهمها زيادة الاستثمارات ، وزيادة ربحية الصادرات ثم ايجاد طاقة بشرية ملائمة ، وهذه الامور غير متوفرة حتى الان ٠ ورغم الاتفاق مع السوق الاوروبية المشتركة ، والتسهيلات التي تمنحها الولايات المتحدة ، فأن الصناعة الاسرائيلية ما زالت تراوح في مكانها ، متأثرة بالوضع الاقتصادي الاسرائيلي، الذي ازداد سوءا بالنسبة لها ، بعد تطبيق السياسة الجديدة ٠ لذلك فان المراهنة على تحسين العجز في ميزان المدفوعات الاسرائيلي نتيجة ازدياد الصادرات خلال الفترة المقبلة ، بفضل السياسة الجديدة ليست لها أساس من الصحة ٠ « فمنذ قيام اسرائيل وحجم وارداتها يفوق حجم صادراتها ٠ وقد استطاعت تحويل هذا الفائض في الواردات بواسطة ايجاد مصادر مالية اجنبية ، كالمساعدات والقروض والجباية ٠ واستخدمت هذه الواردات في تحقيق ثلاثة أمور رئيسية : شراء الاسلحة ، ورفع مستوى معيشة الاسرائيليين ، ثم استيعاب المهاجرين ٠ ومع ذلك فأن الفائض في هذه الواردات يدل على تعلق الاقتصاد الاسرائيلي بالمصادر الخارجية » (٢٥) ٠

ان احد اهداف السياسة الجديدة ، بل ربما كان الهدف الرئيسي ، هو تحقيق الاستقلال الاقتصادي ٠ ولكن هذا الامر يبدو بعيدا الان ٠ « فالاعتماد الواسع على استيراد رأس المال ، الذي حصلت اسرائيل على جزء كبير منه بواسطة القروض ، ادى مع مرور الوقت الى تجمع ديون خارجية طائلة بالاضافة الى الفوائد الجمة عليها » (٢٦) ٠ وهناك مقاييس لتقدير الاستقلال الاقتصادي ، اولها النسبة بين فائض الواردات وبين الدخل القومي القائم ٠٠ وقد ارتفعت هذه النسبة في اسرائيل منذ حرب ١٩٧٣ (وصلت انذاك الى ٣٠٪) بسبب مشترياتها من الاسلحة ٠ اما المقياس الثاني فهو النسبة بين الصادرات والواردات ، الذي يعني ارتفاعها الاقتراب من الاستقلال الاقتصادي، وقد انخفضت هذه النسبة في اسرائيل منذ سنة ١٩٧٣ ٠ ان تحقيق الاستقلال الاقتصادي في اسرائيل مرهون ، اذن ، بهذين الامرين ، ولذلك فأن تقوية الانتاج الصناعي المعد للتصدير ، وبالمقابل خفض الواردات واستبدالها بمنتوجات محلية ، هما شرطان اساسيان لتحقيق شعار الاستقلال الاقتصادي الذي طرحه وزير المالية الاسرائيلي ٠ وهذا الامر يبدو بعيد المنال الآن ، في ظل وضع اسرائيل الامني وحاجتها الدائمة الى استيراد الاسلحة ٠ أما بالنسبة لخفض الواردات المدنية ، التي يحافظ بواسطتها الاسرائيليون على مستوى معيشة

مرتفع نسبيا ، فأن ذلك لن يتحقق في ظل حكومة « ليكود » التي اعلنت ،خلافا للحكومة السابقة ، ان سياستها لا تنطـوي على خفض معيشة الاسرائيليين وكان نائب وزير المالية يحزكيئيل بلومين قد وصف تلك السياسة بقوله : « مزيد من الاستثمارات ، مزيد من النمو ، مزيد من العمل والصادرات ، تعلق اقل بالولايات المتحدة ، اصلاح ميزان المدفوعات ، خفض نسبة التضخم المالي . ونتيجة لذلك : زيادة الاجور ، زيادة القوة الشرائية ، ورفع مستوى المعيشة والاستهلاك الفردي » (٢٧) . ولكن بما أن العمل والانتاج والنمو هي أمور غير متوفرة في الوقت الحاضر ، فأن المسؤولين الاسرائيليين ينشطون لتأمين استمرار المساعدات الاميركية .

وقد اعلن ارليخ ان المعونة الاميركية مضمونة حتى تشرين الاول ١٩٧٨ ، واضاف « بامكان الشعب ان يطمئن ـ فتدابير الطوارىء الاقتصادية غير واقعية ، ولا مكان للذعر » (٢٨) . وقد نقل عن مسؤول في وزارة المالية قوله ان اسرائيل تقدمت بطلب مساعدات للسنة المالية الاميركية ، التي ستبدأ بعد سنة ، بمقدار ٣ر٢ مليار دولار ، بما فيها المساعدات العسكرية . وقد قدم موعد تقديم الطلب ، استباقا لنشوب خلافات سياسية بين الدولتين (٢٩) . وتستبعد الحكومة الاسرائيلية الآن اقدام الولايات المتحدة على الضغط على اسرائيل سياسيا بواسطة قطع المساعدات ، حتى ولو نشأت خلافات في الرأي، على حد تعبير ارليخ ، الذي اضاف ان هذه الخلافات قائمة منذ حرب ١٩٦٧ حول العودة الى حدود تلك الحرب ، ولكن على الرغم من ذلك « لم تتقلص المساعدات المدنية والعسكرية ، بل ازدادت خلال السنوات العشر المنصرمة . لذلك ينبغي عدم الجزم بأن الخلاف مع الولايات المتحدة سيؤدي بالضرورة الى اغلاق حنفيات المساعدات » (٣٠) .

ان تحقيق حلم الاستقلال الاقتصادي وعدم الاعتماد على الاخرين ، يعتبر في الوقت الحالي على الاقل ، بعيدا جدا ، ويتطلب تحقيقه حل مشاكل كثيرةفي الاقتصاد الاسرائيلي ، تزداد تأزما مع مرور السنين ، بسبب الوضع الامني والسياسي ، الذي لا تبدو عليه بوادر التحسن .

٣ ـ اعلنت الحكومة الاسرائيلية ان الهدف الاساسي من وراء رفع الرقابة على العملة الصعبة هو جذب رؤوس الاموال اليهودية والاجنبية وتحويل اسرائيل الى مركز مالي دولي في المنطقة . ولكن هذا الاتجاه يطرح عددا من الاسئلة : هل تلائم تلك السياسة دولة تعيش في حالة الحرب ، ولا تملك سوى القليل من احتياطي العملة الصعبة ؟ ثم اية اموال يرغب وزير المالية الاسرائيلي بجذبها ؟ وماذا سيكون تأثير هذه الاموال على الاقتصاد الاسرائيلي في حال تحقيق هذا الامـر ؟.

ان هذه السياسة الاسرائيلية قد توافق بلدا يعيش في حالة السلم ، الا اذا كانت الحكومة الاسرائيلية مقتنعة بأن الصلح مع العرب بات قريبا ، رغم ان تصلبها السياسي لا يدل على ذلك • « وكانت جميع الدول المتحضرة قد فرضت رقابة على العملة الصعبة ابان الحرب العالمية الثانية ،وفي فترات اخرى اعتبرتها حالات طوارىء • اما وضع الولايات المتحدة فانه يختلف تماما عن وضع باقي الدول ، لانها هي فقط « يحق لها » طباعة الدولارات ، التي تشكل اساسا للنظام النقدي الدولي » (٣١) • ويبدو ان سياسة الحكومة الجديدة لا تنبع من مصلحة اسرائيل الاقتصادية بقدر ما هي نابعة من اعتبارات ايديولوجية يعتنقها اليمين الاسرائيلي منذ نشأته • فليس هناك من ضمان لتدفق رؤوس الاموال على اسرائيل في وضعها الامني الحالي ، بل قد يكون العكس هو الصحيح • ثم من يضمن عدم تهافت الجمهور على شراء الدولارات التي تملك اسرائيل احتياطا قليلا منها ، عندما يبدو ان خطر نشوب حرب بات وشيكا • « ان اي عمل خارجي ، او حدث سياسي او امني ، او توجه فجائي الى الاسواق المالية في الخارج ، قد يجر في اعقابه تهافتا جماعيا على العملة الصعبة ، ويؤدي الى تغييرات جوهرية في قيمتها ، ونفاد الاحتياطي المتواضع الذي [تملكه اسرائيل] ••• فاذا نجحت المراهنة يصبح واضعو الخطة الاقتصادية ابطالا قوميين ••• ولكن اذا فشلت ونفد الاحتياطي ، فأن هذه السياسة تصبح « مسادا اقتصادية » • وما دامت اسرائيل تعيش في حصار ، فأنها ، بأنتهاج هذه السياسة ، تعرض نفسها لمخاطرة كبيرة » (٣٢) •

ويهدف وزير المالية الاسرائيلي ايضا ، بواسطة سياسته الجديد ، الى جذب رؤوس الاموال الاسرائيلية ، التي هربها الاسرائيليون الى الخارج خلال السنوات الماضية ، والتي تقدر حسب معلومات الخبراء الاقتصاديين في اسرائيل ، بنحو ثلاثة مليارات دولار • كما تأمل الحكومة بالافادة من ودائع الاسرائيليين بالعملة الصعبة ، بمبلغ ٢٫٨ مليار دولار في البنوك الاسرائيلية ، ومعظمها من أموال التعويضات التي دفعتها المانيا الغربية للاسرائيليين الذين تضرروا في العهد النازي • وكانت السلطات الاسرائيلية قد سمحت بأيداع تلك الاموال بالعملة الصعبة في البنوك الاسرائيلية ، مع فرض الرقابة عليها • وقد زادت قيمة هذه الودائع بالعملة الاسرائيلية ، بفضل التخفيض الدائم في قيمة الليرة والواضح ان رفع الرقابة على هذه الودائع ، ثم الفائدة القليلة نسبيا التي تدفع مقابلها ، وعدم توقع انخفاض كبير في قيمة الليرة بعد الآن ، هي عوامل قد تشجع اصحاب هذه الاموال على تحويلها الى ليرات اسرائيلية • ولكن هذا الامر ، في حال تحقيقه ، سيؤدي الى « طوفان مالي » ، مما سيثقل على السياسية النقدية ويضر باحتمالات نجاح السياسة الجديدة ، جوبهت سياسة ارليخ الاقتصادية بانتقادات شديدة من قبل دوائر عدة ، لان نفاد احتياطي العملة

الصعبة ، او انخفاضه الى حد ادنى يضع اسرائيل في وضـــع سيء للغاية ٠ وعلق احدهم على هذه الناحية بقوله : « كيف يتخيل المسؤولون الاقتصاديون في الحكومة ، الوضع الامني في اسرائيل ، بدون احتياطي في العملة الصعبة ٠٠٠ كيف سيتم توفير المؤن والخدمات الضرورية ؟ وهل وصلنا الى وضع نملـــك فيه جميع المواد الخام والمواد الغذائية والوقود والاسلحة وهي الامـــور التي نحتاجها سواء وقت الازمة او في الايام العادية ٠٠٠ ولنفترض اننا سنصل يوما الى مواجهة سياسية مع اصدقائنا في العالم خاصة الولايات المتحدة ، فكيـــف سنتصرف عندئذ ونحن لا نملك شيئا ؟ الن يكون الضغط علينا اكبر واكثـــر فائدة ، اذا عرف خصومنا اننا لا نملك شيئا ؟ ولنفترض انا صمدنا في الضغـط ولكن وصلنا الى حالة اقتصادية سيئة ، واضطررنا الى شراء الاسلحة والاغذية والوقود والمواد الخام نقدا ٠٠ فماذا سيحدث عندئذ ؟ هل سيكون لدينا الوقت الكافي لجمع اموال في انحاء العالم اليهودي ؟ وهل يرغب ويستطيع يهود العالم منحنا هذه الاموال ؟ هل نحن قادرون على وضع مصيرنا تحت رحمة وحسن نية العالم اليهودي ؟» (٣٣) ٠

ان هذه الاسئلة وغيرها هي التي تشغل بال الاسرائيليين ، مع بدء عهد جديـد في السياسة الاقتصاديـــة ٠

٤ ــ كان للسياسة الاقتصادية الجديدة تأثير سيء على الصعيد الاجتماعي ، اذ ادت الى زيادة التضخم المالي ، مع البدء بتنفيذها ، وحدث ذلك على الرغم من ان الحكومة اتخذت تدابير وقائية ضد تدهور الوضع على صعيد الاسعـــار والاجور والضرائب ، كتجميد التسليف المصرفي ورفع ضريبة القيمة الاضافية ، ثم رفع اسعار المواد الاستهلاكية الاساسية مع خفض الاعانات الحكومية عليها٠ وقد وصلت سرعة التضخم المالي الى نسبة عالية للغاية ، تزيد عن ٤١٪ ، بسبب الارباح المالية الضخمة التي جناها اصحاب رؤوس الاموال نتيجة تخفيض قيمة الليرة ورفع الرقابة عن العملة الصعبة ٠ وعلى الرغم من ان احد اهــــداف السياسة الجديدة هو كبح سرعة التضخم المالي ، فأنه يتضح الان ان « ليكود غير قادر على القضاء على بؤر التضخم ، وانما اضاف اليها بؤرا اخـــرى تكمن في ايديولوجيته » (٣٤) ٠

أن موجة الغلاء التي اجتاحت اسرائيل مع بدء تنفيذ السياسة الجديدة ،والتي بلغت نسبتها خلال سنة ١٩٧٧ نحو ٤٠٪ ، ستستمر خلال هذه السنة ايضـا ، ويتوقع ان تصل حسب تقدير بنك اسرائيل الى ٣٠٪ ٠ لذلك كان رد المعارضـة عنيفا ، اذ اعلنت كتلة المعراخ في الكنيست ، انها « ستعمل ضد الاساءة الحادة لمستوى معيشة جمهور العمال في اسرائيل ، وستبذل كل ما في وسعها للحفـاظ على مستوى المعيشة ، لكي لا يمس بصورة يصبح بعدها مـــن المستحيـــل اصلاحـــه » (٣٥) ٠

ويبدو ان تأثير سياسة الحكومة على المستوى الاجتماعي كان سيئا للغاية ، اذ نجم عن ذلك تعميق الطبقية في اسرائيل ، التي كانت قائمة اصلا • فالمستفيدون الرئيسيون من الاجراءات الجديدة هم اصحاب رؤوس الاموال ، الذين جنوا ارباحا طائلة ، وشريحة واسعة من الطبقة المتوسطة ، مكونة من ٣٠٠ ـ ٤٠٠ الف عائلة ، تملك عقارات تتراوح قيمتها بين ربع ونصف مليون ليرة للعائلة، « وبالامكان اعتبار نشوء الشريحة المتوسطة وتوسعها احد العناصر الاساسية للانقلاب السياسي الذي حدث في اسرائيل » (٣٦) • اما الطبقة الفقيرة ، المكونة من العمال والمأجورين ، فقد ازداد وضعها سوءا بسبب الغلاء وما رافقه من خفض في الاعانات وفي الميزانيات الاجتماعية • وقد عقب وزير المالية السابق يهوشواع رابينوفيتش على سياسة الحكومة بقوله : « ان خطوة ارليخ الدراماتيكية ، التي لا لزوم لها ، تلقي بالاقتصاد الاسرائيلي في دوامة تضخمية سريعة جدا ، لن تتغلب على انعكاساتها الاجتماعية والاقتصادية لسنوات عديدة » (٣٧) •

دور الهستدروت : صراع سياسي ودفاع عن النفس

انتهت موجة الاضرابات والمظاهرات التي دعت اليها الهستدروت بعد اعلان السياسة الجديدة ، بدون نتيجة تقريبا ، وتلخصت مطالب الهستدروت في المطالبة بدفع علاوة غلاء كاملة في مطلع هذه السنة للتعويض عن الغلاء الناتج عن السياسة الاقتصادية الجديدة ، ثم تغييرات متتابعة في اتفاقيات الاجور ، مرة كل ثلاثة اشهر (٣٨) • وقد صادف انعقاد مؤتمر الهستدروت الثالث عشر بعد بدء تطبيق السياسة الجديدة بأسبوع تقريبا وشهد المؤتمر مظاهر احتجاج ضد سياسة الحكومة لم يسبق لها مثيل • وكان سكرتير عام الهستدروت يروحام ميشل قد اعلن في افتتاح المؤتمر « ان الهستدروت لن تتنكر لرسالتها وهي : الدفاع عن ظروف معيشة جماهير العمل ، الذين يعتبرون الكنز الاساسي في هذه الدولة : وستناضل الهستدروت من اجل الا يكون العامل الضحية الاولى لكل تغيير يحدث في السياسة ، لكي لا ينخفض مستوى معيشته عن مستوى معيشة باقي السكان ، ولا تقهر الطبقات الاجتماعية الضعيفة في المجتمع الاسرائيلي •

« لقد قيل ان السياسة الاقتصادية الجديدة هي سياسة مخاطر واحتمالات • ان جميع الاحتمالات هي لرأس المال ، للسمسرة ولاصحاب العقارات ، بينما المخاطر ستكون من نصيب جماهير العمال في اسرائيل • ان السياسة الاقتصادية الجديدة هي في نظرنا ذات مخاطر كبيرة من ناحية قومية ، لانها تفتح ثغرات خطيرة لتهريب الاموال فى ايام الضائقة والطوارىء ، ولذلك فأننا لا نوافق عليها » (٣٩) •

الا ان الصراع الذي خاضته الهستدروت ، بزعامة المعارضة ، ضد سياسة الحكومة الاقتصادية ، لم يحقق شيئا حتى الآن على صعيد تحسين اوضاع العمال والتعويض عليهم بشكل مناسب ٠ وقد وصفه كثيرون بأنه حمل طابعا سياسيا ، لاضعاف الحكومة الحالية وجعلها تتراجع عن قراراتها ، وهو ما لم يحدث ٠ وتشير المعلومات الى ان الصراع الحقيقي بين مركزي القوى الرئيسيين في اسرائيل ـ الحكومة بزعامة ليكود ، والهستدروت برعامة المعراخ ـ سيبدأ مع تنفيذ الجزء الثاني من سياسة ليكود الاقتصادية الذي لم يعلن عنه حتى الآن ، والمتعلق ببيع الشركات الحكومية ٠ وكان نائب وزير المالية يحزكيئيل بلومين قد أعلن ان « الحكومة ملزمة بخفض نفقاتها العامة ، ليس بواسطة تجميد ملاك موظفيها فقط ٠٠ وانما بواسطة خفض تدخلها الاقتصادي ٠ فالحكومة غير ملزمة بالاحتفاظ بالشركات وتمويلها ـ في الوقت الذي يستطيع فيه افراد او شركات تولي ادارتها ٠ ان الحكومة ليست بحاجة الى سيطرة كهذه على الشركات ٠ ليديرها ويحتفظ بها افراد او مجموعة بواسطة شراء اسهم خاصة بها » (٤٠) ٠ وذكر بلومين ان اولى هذه الشركات التي ستعرض للبيع هي شركة احواض بناء السفن الاسرائيلية ، وربما الصناعة الجوية ٠

وكان وزير المالية ارليخ ايضا قد اعلن قبل انتخابات الهستدروت ان الحكومة ستبيع الشركات التابعة لهيئة العاملين (حفرات عوفديم) ، التي تملكها الهستدروت ٠ وقد اثار هذا الاعلان موجة شديدة من الاستياء بين اعضاء الهستدروت ، ويقال انه كان أحدى الدوافع الرئيسية لسقوط ليكود في انتخابات الهستدروت ولذلك يبدو ان صراع الهستدروت في المستقبل سيحمل طابع الدفاع عن النفس امام سياسة الحكومة ، وذلك من اجل « حماية الاسس ، خاصة الاستيطان العامل والتعاونيات وهيئة العاملين ، وهي الممتلكات الثمينة لحركة العمال التي حرصت على تأسيسها منذ نهاية الحرب العالمية الاولى ، وهي ملزمة بحمايتها لانها مصدر قوتها ٠٠٠ ان مهمة قيادات حركات الاستيطان هي العمل في المجال التثقيفي ـ الاعلامي ، والبرهنة على ان سياسة ليكود ستؤدي الى تدمير الاستيطان ، خاصة الحلقات الضعيفة داخله ، وهي المستوطنات الحديثة ٠٠٠

« اما خط الدفاع الثاني فيدور حول مؤسسات المساعدة المتبادلة ٠ ان ليكود يرغب في تأميم صندوق المرض (كوبات حوليم) وصناديق التقاعد [التابعة للهستدروت] ٠ والتناقض الاسرائيلي هو أن اليمين يطالب بالتأميم ، ولكن ليس لمصلحة العامل وانما من اجل المس بقوته المنظمة » (٤١) ٠

ان الصراع السياسي القائم الآن بين الهستدروت وبين الحكومة ، سيتأثر كثيرا بتطورات الوضع الاقتصادي في اسرائيل ، وتأثيره على طبقة العمال

والمأجورين · وحتى الآن لم يساهم هذا الصراع في اضعاف الحكومة او جعلها تتراجع عن قراراتها ، خاصة وان لها شريك جديد ــ الحركة الديمقراطية للتغيير ، داش ــ يؤيدها في سياستها الاقتصادية والاجتماعية ·

يتوقف نجاح السياسة الاقتصادية الجديدة ، التي اتبعتها حكومة ليكود ، على عدة عوامل غير متوفرة في الاقتصاد الاسرائيلي حاليا · فنجاحها داخليا يتوقف على تحالف تام بين القطاعات الاقتصادية الرئيسية في اسرائيل وهي الحكومة والهستدروت وارباب العمل ، وعلى امكانية الوصول الى تفاهم بينهم بشأن سياسة الاجور والاسعار والضرائب ، الامر الذي يبدو بعيد المنال الآن بسبب موقف الهستدروت المعارض · كذلك يتوقف نجاح تلك الاجراءات على انتهاج سياسة مالية تجد تعبيرا لها في ميزانية السنة المقبلة · وهذا ايضا يبدو صعب التحقيق ، اذ يتوقع بنك اسرائيل ان تبلغ قيمة طباعة الاوراق المالية في الميزانية المقبلة ١٢ مليار دولار (٤٢) ، مما سيؤدي الى ضغوط تضخمية متزايدة · اما العوامل الخارجية الضرورية لنجاح السياسة الجديدة ، فهي اساسا توفر استثمارات واسعة ، ثم جذب رؤوس الاموال الاجنبية والاسرائيلية من الخارج · وكل ذلك غير مضمون الآن بسبب وضع اسرائيل السياسي والامني وقد اجمع معظم الخبراء الاقتصاديين في اسرائيل ، على ان سياسة الحكومة الاقتصادية الجديدة قد تنجح في حال عقد صلح بين اسرائيل والعرب ، اذ ستعيد الثقة الى نفوس الاسرائيليين ، وتخفض من النفقات العسكرية المتزايدة · كما ان التسوية السياسية قد تؤدي الى التعاون بين اسرائيل والعرب ، وفتح الاسواق العربية امام البضائع الاسرائيلية · وقد اعلن محافظ بنك اسرائيل ارنون غفني ان « بنك اسرائيل بدأ في وضع خطط منذ سنة ١٩٦٥ ، عندما طلبت وزيرة الخارجية آنذاك ، غولدة مائير ، تقريرا اوليا حول امكانات التطوير أيام السلم ·· وفي الآونة الاخيرة اهتم بذلك فريق من الخبراء ، بعد توقيع الاتفاق الجزئي مع مصر في ايلول ١٩٧٥ · أما الآن فقد طلب من قسم البحث عندنا اعداد خطة جديدة ومستحدثة بواسطة فريق من الخبراء الاقتصاديين حول المسألة الاسرائيلية ــ المصرية » (٤٣) · واوضح غفني الخطوط العامة لما تقترحه الخطة بقوله : « بالنسبة للصادرات تقترح الخطة دمج خبرتنا التكنولوجية مع الطاقة البشرية الواسعة في مصر ، من اجل انشاء صناعات مشتركة · وستبحث امكانية انتاج اجزاء مختلفة من الآليات هنا وهنالك ــ ثم تركيبها في معمل مشترك · وبعد ارتفاع مستوى المعيشة في مصر ، نتيجة لوضع السلام ، يمكن ان يستغل السوق المصري بشكل جيد لتصريف المنتوجات الصناعية الاسرائيلية · كذلك تقترح الخطة تطويرا زراعيا مشتركا لمناطق صحراوية ، وهو الموضوع الذي تملك فيه اسرائيل خبرة واسعة · وستشمل الخطة فصلا حول السياحة ··· » (٤٤) ·

ومما لا شك فيه ان فتح الاسواق العربية أمام اسرائيل ، في حال السلـم ، وتمكينها من الحصول على ايدي رخيصة هما عاملان يمكنهما ان يدفعا بعجلة الاقتصاد الاسرائيلي الى الامام ٠ ولكن السؤال الاهم هو هل تستطيع الامـوال والاستثمارات اليهودية منافسة رؤوس الاموال العربية في مجالات النمـو والتطور اقتصادي ؟ والواضح ان مجمل هذه العوامل هو الذي سيقرر مستقبل اسرائيل الاقتصادي في حال السلم ، وليس من السهل التنبوء في هذا الصدد ٠ الا انه على الرغم من ذلك ، اعلن وزير الصناعة والتجارة والسياحة الاسرائيلي يغئال هوروفيتش : « ليس مصر فقط بحاجة الى السلام ٠ اننا لا نقل عنها حاجة اليه ٠ أنني اتجرأ واقول ان وضعنا الاقتصادي يلزم تحقيق السلام ٠ فنسبة النزوح من البلد تعادلت في السنة الماضية مع نسبة الهجرة ٠ ونحن بحاجة الى السلام كحاجتنا الى الهواء » (٤٥) ٠

المصـادر :

١ ـ تقرير بنك اسرائيل ـ هآرتس ، ١١ـ١ـ٧٨ ٠

٢ ـ تقرير مكتب الاحصاء المركزي لسنة ١٩٧٧ ـ معاريف ، ٢ـ١ـ٧٨ ٠

٣ ـ دافار ، ١٠ـ١ـ٧٨ ٠

٤ ـ من مقابلة مع ارنون جفني ، محافظ بنك اسرائيل ـ معاريف ، ١٣ـ١ـ٧٨ ٠

٥ ـ موشي فلافر ، « ميشيك فيركلكلاه » ، (« المال والاقتصاد ») ، تل ابيب : مركز الاعلام ، ١٩٧٤ ، ص ٩

٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٩ ـ ١١ ٠

٧ ـ تقرير المكتب المركزي للاحصاء ـ معاريف ، ٢ـ١ـ٧٨ ٠

٩ ـ هآرتس ، ٣١ـ١٠ـ٧٧ ٠

١٠ ـ هآرتس ، ١٠ـ١ـ٧٨ ٠

١١ ـ من مقابلة مع هتسوفيه ، ٦ـ١ـ٧٨ ٠

١٢ ـ « قضايا اسرائيلية » ، السنةالثانية، العدد ١١ (١٨) ، ١٢ حزيران ١٩٧٥ ، ص ٣٦٤ ٠

١٣ ـ يوفال اليتسور ـ معاريف ، ١٦ـ٩ـ٧٧ ٠

١٤ ـ دافار ، ٢١ـ١٠ـ٧٧ ٠

١٥ ـ من مقابلة مع وزير المالية ومساعديه ـ يديعوت احرونوت ، ١ـ١١ـ٧٧ ٠

١٦ ـ هآرتس ، ٣٠ـ١٠ـ٧٧ ٠

١٧ ـ يديعوت احرونوت ، ١ـ١١ـ٧٧ ٠

١٨ ـ هآرتس ، ٣٠ـ١٠ـ٧٧ ٠
١٩ ـ المصدر نفسه ٠

٢٠ ـ يديعوت احرونوت ، ١ـ١١ـ٧٧ ٠

٢١ ـ نقلا عن ابراهام كاتس ـ هآرتس ، ١٣ـ١١ـ٧٧ ٠
٢٢ ـ يديعوت احرونوت ، ١١ـ١١ـ ٧٧ ٠
٢٣ ـ يوفال غولان ـ معاريف ، ٨ـ٩ـ٧٧ ٠

٢٤ ـ عل همشمار ، ١٩ـ١٠ـ٧٧ ٠

٢٥ ـ فلافر ، المصدر السابق ، ص ٢٠ ٠
٢٦ ـ المصدر نفسه ٠

٢٧ ـ من مقابلة مع معاريف ، ٢٨ـ١٠ـ٧٧ ٠

٢٨ ـ هآرتس ، ٥ـ١٠ـ٧٧ ٠

٢٩ ـ المصدر نفسه ٠

٣٠ ـ من مقابلة مع دافار ، ١٤ـ١٠ـ٧٧ ٠

٣١ ـ موشي زنبار ـ معاريف ، ٤ـ١١ـ٧٧ ٠

٣٢ ـ آشر هلبرين ، المدير العام لنقابة المصارف ـ عل همشمار ، ملحق اقتصادي سنوي ، ٢٥ـ١١ـ٧٧ ٠
٣٣ ـ يسرائيل كرجمان ـ دافار ، ٦ـ١١ـ٧٧ ٠

٣٤ ـ اهرون جيفع ـ دافار ، ١١ـ١ـ٧٨ ٠

٢٥ ـ هآرتس ، ٣٠ـ١٠ـ٧٧ ٠

٣٦ ـ آشر هلبرين ـ عل همشمار ، ملحق اقتصادي سنوي ، ٢٥ـ١١ـ٧٧ ٠

٣٧ ـ يديعوت احرونوت ، ١١ـ١١ـ٧٧ ٠

٣٨ ـ هآرتس ، ٣٠ـ١٠ـ٧٧ ٠
٣٩ ـ دافار ، ١١ـ١١ـ٧٧ ٠

٤٠ ـ من مقابلة مع دافار ، ٢٨ـ١٠ـ٧٧ ٠

٤١ ـ دانيئيل بلوخ ـ ملحق دافار ، ١١ـ١١ـ٧٧ ٠

٤٢ ـ هآرتس ، ١١ـ١ـ٧٨ ٠

٤٣ ـ من مقابلة معاريف ، ١٣ـ١ـ٧٨ ٠

٤٤ ـ المصدر نفسه ٠

٤٥ ـ معاريف ، ٢ـ١ـ٧٨ ٠

سمير كرم

ايران : يابان الشرق الاوسط ؟ ونظرية "المجال الحيوي"

ربما كان من الاخطاء الشائعة بين الاجانب ـ والى حد ما بين العرب ايضا ـ الاعتقاد بأن ايران بلد عربي ٠ ولا نقع في خطأ المبالغة اذا قلنا ان هذا الاعتقاد الخاطيء كامن في مخزون معلومات عديدين من أنصاف المتعلمين وبعض المتعلمين ولعل وراء شيوع هذا الخطأ وقوع ايران على تخوم الوطن العربي من ناحية ، وكونها بلدا اسلاميا من ناحية ثانية ٠ واليوم فان هذا الخطأ الشائع قابل لان يزداد شيوعا وان يتأكد لدى الكثيرين من خلال فيض من اخبار ايران في أجهزة الاعلام العربية والاجنبية ، التي توحي بأن ايران ليس فقط بلدا عربيا ، بل هي من البلاد المسؤولة عن مصائر الامة العربية والتي تلعب وزنا اكبر من غيرها في توجيه سياسات المنطقة العربية ورسم استراتيجيتها العسكرية والسياسية ٠٠ الخ ٠

فمنذ نحو اربع سنوات وايران تملأ الاسماع العربية من خلال زيارات ايرانية وعربية متبادلة ومحادثات ومشاورات ودعايات ٠٠ حتى ليخيل للمستمع العربي (حتى لا نقول القارىء العربي) انه لا شيء من مشاكل الامة العربية وقضاياها يمكن ان يحل دون مشاركة ايران الايجابية ، ودون اتصالات على أعلى المستويات معها للتنسيق او لاستطلاع الرأي ٠٠ وقد اصبحت ايران حاضرة في مشكلات النفط ، والامن ، والشرق الاوسط ، والصومال ، والبحر الاحمر وظفار ، والتنمية ، ولبنان ٠٠ وكلها مشكلات عربية بالدرجة الاولى ٠

ويكاد يطغى هذا الحضور الايراني في المشاكل العربية على حقائق التاريخ والجغرافيا معا ٠٠ ويكاد ينسى الانسان العربي امام هذا الطوفان الاعلامي والدبلوماسي ان ايران الى وقت قريب للغاية **كانت طرفا في قتال تراق فيه**

الدماء العربية في شمال العراق ، وان ايران الى الان تحتل اراض عربية بقوة السلاح في عدد من جزر الخليج العربي ، وان ايران تهدد بحرب ضد عرب الخليج لانهم لا يعترفون بأن الخليج فارسي وليس عربيا · وان ايران تشكل الضامن الاول لامدادات اسرائيل من النفط ـ قبل ان تستولي اسرائيل على نفط سيناء ،وبعد ان تخلت اسرائيل عن نفط سيناء · وان ايران هي اكثر دول منطقة الشرق الاوسط ـ بعد اسرائيل مباشرة ـ طمعا في مكاسب اقليمية من جسم الوطن العربي حدها الادنى البحرين ، والاقصى الخليج بأكمله · وان ايران السبعينات هي ـ في مستوى واحد مع اسرائيل ـ تشكل قوة عسكرية مخيفة بالمقياس الى أية قوة عسكرية يملكها اي بلد عربي (وبالاحرى كل البلدان العربية مجتمعة) ·

من المؤكد انه خارج اطار الخطأ الشائع الذي ينسب ايران الى الوطن العربي يوجد ادراك رسمي وغير رسمي عربي لحقيقة وجود « خطر ايراني » يقاس بتضخم قدرة ايران العسكرية ، ويقاس في الوقت نفسه بتضخم نفوذ ايران ـ التالي ـ السياسي والدبلوماسي على صعيد المنطقة والعالم · ولكن يبدو ان هذا « الادراك » للخطر الايراني لا يتعدى حدود المخاوف الى آفاق اتخاذ موقف ايجابي وفعال نحو « مواجهة » هذا الخطر قبل ان يصبح الخطر المرتقب امرا واقعا يفرض نفسه على الامة العربية ·· على نحو ما فرض نفسه احتلال ايران للجزر الخليجية العربية منذ اكثر من سبع سنوات ، حتى لا نقول على نحو ما فرض نفسه حتى الان الوجود الاسرائيلي ·

وربما كان لتخلف الادراك العربي لمدى الخطر الايراني سبب يتعلق بالانشغال العربي شبه التام بالخطر الاسرائيلي ·· ولكن هذا السبب سريعا ما يفقد شرعيته كمبرر منطقي وواقعي أمام حقيقتين بارزتين :

اولاهما : انه لا يوجد في الحقيقة انفصال كامل بين الخطر الاسرائيلي القائم والخطر الايراني المرتقب · وهذا العامل لا بد ان يوضع موضع الدراسة المدققة والواعية لمعرفة الاطار الذي يجمع بين الاثنين ، وهو اطار السياسة العالمية للامبريالية ازاء الوطن العربي ·

ثانيها : انه لا يحق للعقل العربي ان ينشغل بأخطار من نوع « الخطر السوفياتي » ، هي بطبيعتها وبحكم خبرة عشرات السنين الماضية أقرب لان تكون اخطارا وهمية ، في حين انه لا يوجه انتباها كافيا الى خطر قريب ومحدق وتشهد خبرة التاريخ البعيد والقريب بجديته وواقعيته مثل الخطر العسكري الايراني ·

وعلى أي الاحوال فان التذرع بفكرة ان الخطر الاسرائيلي يشغل الاهتمام العربي بأكمله لا يصلح في وقت تعقدت فيه المشاكل والقضايا امام الامة العربية ـ كما أمام كل الامم الاخرى ـ بما لم يعد يسمح بأن يكون انشغالها محصورا

بمشكلة واحدة ، في حين انها تواجه مشكلات متعددة ، ويتعين عليها ان تتنبه لها كلها في وقت واحد ، وان تدير صراعاتها في مواجهتها بمهارة ونضالية متعددة الجوانب ومتعددة الاسلحة ومتعددة الميادين ٠ ومن المؤكد في النهاية ان هذه المشكلات متداخلة في أسبابها ونتائجها ، وبالتالي فهي متداخلة في أساليب مواجهتها ٠

واذا عدنا ـ ملحين ـ مرة اخرى الى ذلك الخطأ الشائع عن « ايران العربية » الذي تسهم سياسات قطرية عربية في تعزيزه ونشره من خلال ممارسات سياسية ودبلوماسية ٠٠ واخيرا استراتيجية ، يصبح من المشروع ، بل من الضروري ، البحث في « الخطر الايراني » بدءا من الالف ، اي بدءا من المعطيات الاساسية عن حقيقة ايران ككيان سياسي واقتصادي وعسكري ، وليس بدءا من كونها كيانا عسكريا تحدده ارقام تؤخذ من هذا المصدر او ذاك عن قدراتها العسكرية والتسليحية او عن منفقات السلاح ٠ وان كنا نسلم بأن هذا الجانب بالغ الاهمية في أي دراسة عن « الخطر الايراني » ٠ ذلك ان تضخم دور ايران في المنطقة وامتداد نفوذها الى مناطق تتجاوز حدودها الامنية ـ حتى بلغت القرن الافريقي ـ وكذلك تشابك هذا الدور مع اوضاع متعلقة بالقضية العربية ـ الفلسطينية ومع الادوار الجديدة لبعض اطراف المنطقة القريبة من ايران والبعدة عنها ، ومع التحالفات الجديدة التي برزت على خريطة الشرق الاوسط ومنطقة الخليج العربي والبحر الاحمر والقرن الافريقي ٠٠ هذه العوامل كلها تؤكد ان « الخطر الايراني » ليس معادلة بسيطة رموزها الجبرية عسكرية بحتة ٠٠ انما هو معادلة مركبة ومعقدة ذات رموز متعددة الجوانب وأبعاد اقليمية ودولية واسعة ٠

وبعبارة اخرى فانه ليس تراكم الاسلحة ، بصورة لم يسبق لها مثيل لدى دولة في حجم ايران السكاني وظروفها الجغرافية والسياسية والتاريخية ، وهو وحده الذي يشكل مصدر قلق من الدور الذي تعد نفسها له ، او الدور الذي يعد لها ٠ وان كان في حد ذاته مؤشرا الى طبيعة هذا الدور وملامحه الاستراتيجية ٠ انما هناك الى جانب هذا خروج ايران الى القيام بأدوار على مسرح الشرق الاوسط بعضها عسكري كما في حالة التدخل العسكري الى جانب السلطان قابوس ضد ثوار عمان ، وبعضها سياسي كما في حالة الدور الايراني (الغامض حتى الان) في التمهيد لمبادرات النظام المصري تجاه اسرائيل ٠ وبعضها اقتصادي كما في حالة دور ايران القيادي في منظمة الدول المصدرة للبترول (اوبيك) ٠ والامثلة كثيرة ، كلها جدير بدراسة تفصيلية ٠ والنتيجة التي تؤدي اليها جميعا ان ايران دخلت طور توسع كبير له أوجهه المختلفة ٠ اقتصاديا وعسكريا وسياسيا ٠

فهل يتعلق الامر فقط بما يردده شاه ايران منذ اوائل السبعينات والى اليوم عن عودة الحضارة الفارسية العظيمة وانجازاتها الانسانية الضخمة وصعود

الامبراطورية الفارسية ؟ واذا تحدث الشاه عن ان ايران ستصبح «**يابان جديدة** » وان « حضارة عظيمة سيكتمل بناؤها في منتصف الثمانينات » ، ألا يوحي هذا بأن ايران الموعودة ستصبح في حاجة الى « **مجال حيوي** » كما كانت اليابان في عصر نهوضها العسكري الصناعي ؟ انه يقول ان لايران ماضيا امبراطوريا عظيما ومستقبلا امبراطوريا اعظم ٠٠٠ وبحلول العام ١٩٩٠ ستصبح مكانتها كمكانة بريطانيا او فرنسا في هرم الدول الكبرى العالمي ٠ ولكن الحقائق الرقمية المتعلقة بالنفط ـ ركيزة ايران الرئيسية ، ان لم نقل الوحيدة ـ تؤكد ان النفط الايراني سينضب في اوائل التسعينات ٠ الامر الذي يشكك كثيرا في قدرة ايران على ان تحول اقتصادها وتجعله قادرا على الحفاظ على مستويات نموه الحالية قبل ان ينضب النفط ، اي قبل أقل من ١٥ عاما ٠

لقد كتب الاقتصادي البريطاني فريد هوليداي (مؤلف كتاب « الامبريالية اليابانية » الشهير) يقول : « **لدى تحليل الاقتصاد الايراني تبدو التوقعات مظلمة دون شك ، ولا نقصد هنا ان كارثة ما ستحدث ٠ ولكنها على الاقل ستجعل من الحديث عن « يابان جديدة » واللحاق بأوروبا مجرد كلام لا مغزى له** » ٠

بل ان تقريرا صادرا عن معهد اميركي للدراسات هو معهد « هوستون » ذكر في اوائل العام الماضي : ان اقتصاد ايران سيبقى مماثلا لاقتصاد دولة نامية مثل الهند والمكسيك ، حتى لو تمكنت ايران من تحقيق أهداف التنمية في العام ١٩٨٥ ٠٠ ويمضي التقرير الاميركي مؤكدا (بالحرف الواحد) انه :

« **حتى اذا تحققت (هذه الاهداف) خلال السنوات العشر الاخيرة من القرن الحالي ، فان ايران لن تكون الا صرحا صناعيا لم يكتمل بناؤه بعد ، تعلوه زخارف السلطة وقوة التأثير الدولي ، دونما جوهر حقيقي ، سواء للسلطة او للقوة** » ٠

فاذا اخذت هذه الاعتبارات كلها على خلفية من مشاكل ايران الداخلية : (١) مشكلة التنمية المتعثرة (بسبب طبيعة النظام وضعف البنية الاقتصادية ـ الاجتماعية) والتي لا يخفيها الا ما يحصل عليه الاقتصاد الايراني من جرعات التسكين المتمثلة في ايرادات النفط ٠ (٢) مشكلة التبذير المتمثل في أكوام الاسلحة التي تبتاعها ايران . والتي ـ بطبيعتها ـ تفقد قيمتها الاستراتيجية عاما بعد عام ٠ (٣) مشكلة الاقليات البلوخستانية والعربية والكردية التي تتربص بالنظام الايراني في انتظار لحظة او حلقة الضعف التي تضرب عندها ٠ (٤) مشكلة الديمقراطية التي وصلت الى حد احراج اقرب اصدقاء الشاه واشد الحريصين على استمرار نظامه ، والتي جعلت من الشاه نفسه وافراد حكومته ومؤسسته العسكرية ومستشاريه العسكريين الاميركيين أهدافا لضربات ومحاولات القوى الثورية (على اختلاف اتجاهاتها الايديولوجية : ماركسية واسلامية وبين بين) ٠

(٥) مشكلة الامن الايراني في مواجهة الجيران العرب على اختلاف طبيعة علاقاتهم ومشكلاتهم مع ايران : السعودية ـ العراق ـ دويلات الخليج ـ مصر ـ سوريا ••• وفي مواجهة احتمالات المقاومة العربية لاطماع الشاه الاقليمية •• وفي مواجهة الاتحاد السوفياتي الذي لم يكف النظام الايراني برغم كـــل التطورات الايجابية في العلاقات معه عن اعتباره « مصدر التهديد الرئيسي » لامن ايران ، واخيرا في مواجهة القوى الثورية الخارجية (مثل ثورة ظفار التي لم يتردد الشاه في اعتبارها خطرا مباشرا على نظامه عندما قدم التبريرات لدوره العسكري ضدها) •

اذا اخذت كل تلك الاعتبارات السابقة على خلفية من هذه المشكلات المعقدة والمتداخلة يصبح من الضروري ان نتساءل : لماذا يتصرف الشاه وكأن لا وجود لاي من هذه المشكلات ، وكأن « الامبراطورية الفارسية » أصبحت واقعا فعليا ؟ والاجابة على هذا السؤال من شأنها ان توضح حقيقة الدور الايراني بملامحه الموضوعية وبحدوده الفعلية ، وتميزه عن أحلام اليقظة الشاهنشاهية •

ايران : الحجم الحقيقي

في حالة ايران ـ اكثـــر من أي دولة نفطية أخـــرى في العالم ـ نلمس ان الاقتصاديين الذين يدرسون ظاهرة النمو الايراني لا يتأثرون كثيرا بالارقـــام الفلكية التي تمثلها عائدات النفط ضمن الدخل القومي لايران ، وان كانوا يثيرون علامات استفهام كثيرة حينما يأتي دور الحديث عن مشتريات ايران من الاسلحة الحديثة • بمعنى ان الحقائق الاقتصادية عن نمو ايران لا تستمد فقط من حجم الايرادات النفطية • هذا من ناحية • ومن الناحية الاخرى فان **وجود مشكلات ضخمة وراء أرقام الاقتصاد الايراني يحول اندفاع ايران المحموم الى التسلح بكميات هائلة ونوعيات بالغة التعقيد الى لغز يترك الاقتصاديون للاستراتيجيــة والمعنيين بشؤون الامن مهمة حله •**

فما هي حقيقة اوضاع ايران الاقتصادية ، التي يفترض انها تمثل الركيزة الرئيسية للدور المتسع والنشط الذي يلعبه الشاه في السياسات الاقليميــة والعالمية ؟

تقول « النشرة السنوية للشرق الاوسط ـ ١٩٧٧ » ، (والتي تعدها دائـــرة الابحاث في مجلة « ايكونوميست » البريطانية) :

« ليس كل شيء حسنا كما يبدو للوهلة الاولى على الصعيد الاقتصادي • فوراء الازدهار الواسع في السنوات الماضية والتي سجلت ايران خلالها بثبات واحدا من أعلى معدلات انتاج قومي اجمالي في العالم (بسبب ارتفاع عائدات

النفط في تلك السنوات بعد ١٩٧٣ ٠ توجد نواقص جدية في البنيان الاقتصادي ذات دلالات متوسطة وبعيدة المدى ، وتشير الارقام الاخيرة الى ان نمو الانتاج القومي الاجمالي قد توقف من الناحية العملية ٠ ان حقيقة ان ايران تسير بميزانية ذات عجز يزيد قليلا عن ٢٠٠٠ مليون دولار في السنة المالية الحالية (١٩٧٦ ـ ١٩٧٧) وهي تخطط لاستدانة ١٠٠٠ مليون دولار على الاقل من الخارج ، هذه الحقيقة ليست بحد ذاتها كبيرة الاهمية ٠٠ ولكن ما يقلق المخططين في ايران هو ان الهوة بين مداخيل النقد الاجنبي ومدفوعاته تتضارب بسرعة ٠٠ والسلطات منزعجة من حجم رأس المال الخاص الذي يغادر البلاد ٠ فقد كان فائض ميزان المدفوعات الكلي في السنة المنتهية بتاريخ ٢٠ اذار (مارس) ١٩٧٥ يبلغ ٥٠٠٠ مليون دولار ، ولكن بعد عام واحد كان هناك نقص كلي يبلغ حوالي ١٠٠٠ مليون دولار ٠ ولا بد ان يزداد النقص خلال العام الحالي ٠ والواقع انه اذا استمر ارتفاع المدفوعات الجارية الى نفس المبلغ الذي وصلته في العام ٧٥ ـ ١٩٧٦ فان من الممكن حدوث عجز في الحساب الجاري يصل الى ٣٥٠٠ مليون دولار ٠٠ »

هكذا فان الاقتصاد الايراني الذي يحقق له النفط وحده سنويا بما معدله ٢٠ مليار دولار « متوقف النمو عمليا » ويعاني عجزا سنويا بلغ اكثر من ٢٠٠٠ مليون دولار ، ويشكل عامل نفور لا عامل جذب لرأس المال الاجنبي ٠

واكثر من هذا ٠٠٠

ـ ارتفع حجم السلع التي استوردتها ايران بنسبة تقرب من ٧٧٪ حسب الاحصاءات الرسمية لوزارة التجارة الخارجية الايرانية لتصل الى ٦٧٠٠ مليون دولار في العام ١٩٧٦ ٠ ولا يشمل هذا الرقم المشتريات من المعدات العسكرية (وسيأتي الحديث عنها) ٠

ـ في اوائل العام الماضي خرج من ايران ـ في غضون ١٠ أيام فقط ـ نحو ٣٠٠ مليون دولار بعد انتشار اخبار عن احتمال تخفيض قيمة الريال الايراني الذي لا يستطيع المسؤولون في البنك المركزي الايراني اخفاء وضعه المضطرب ٠

ـ وصلت معدلات التضخم الى مستوى مخيف ، حتى ان الايجارات ـ على سبيل المثال ـ تزيد بمعدل ٢٠٠٪ كل عام ٠

ـ في القطاع الزراعي من الاقتصاد الايراني (حيثيعيش ٥٣٪ من السكان البالغ مجموعهم ٣٥ مليون نسمة) حقق برنامج الاصلاح الزراعي الذي طبقه الشاه في اطار ما أسماه « الثورة البيضاء » كل نجاح سياسي وبالاحرى دعائي ، يمكن تصوره ، ولكن اقتصاديا فشل فشلا ذريعا ، اذ لم يجر توفير الادوات والتجهيزات اللازمة لزيادة حجم الانتاج الزراعي بالاضافة الى قلة التمويل ، وانتشار البطالة في الريف بين مليون ونصف مليون عائلة لم تحصل على أي نصيب من الارض في نطاق برنامج الاصلاح الزراعي ٠ ولا يزيد معدل

زيادة الانتاج الزراعي عن ٢٪ وهي نسبة أقل من زيادة السكان ٠

ـ في القطاع الصناعي ـ ورغم التوسع الكبير ـ لا يزال الضعف يعتري اوجها عديدة من الصناعة الايرانية ، حتى ان واحدا من الخبراء الغربيين العاملين في ايران ذكر (الرواية لفريد هوليداي) ان الازدهار الذي حدث بعد زيادة اسعار النفط في العام ١٩٧٣ ادى الى حدوث انخفاض بمعدل ٤٠٪ في الكفاءة الانتاجية في بعض المصانع ٠ وفي الوقت نفسه يزداد بمعدل كبير الاعتماد على الواردات٠ والزيادة الكمية الحادثة في الانتاج الصناعي « هي من النوع العديم القدرة على المزاحمة وذات مستوى متدن » ٠

ـ فشلت ايران في تطوير صادراتها غير النفطية ، الامر الذي احدث انعكاسات خطيرة على الميزان التجاري الايراني ، ويتوقع الاقتصاديون ان تبلغ قيمة واردات ايران في العام ١٩٨٣ (اي في نهاية الخطة الخمسية الجاري تنفيذها حاليا) ٢٩ مليار دولار ٠ ولا تزيد قيمة السلع الرأسمالية (الانتاجية) من واردات ايران عن ٣٠٪ وباقي النسبة هو للسلع الاستهلاكية ٠ وقد انخفضت نسبة الصادرات غير النفطية الى صادرات ايران الاجمالية من ٢٢٪ في العام ١٩٥٩ الى ٥٪ فقط في العام ١٩٧٥ حيث بلغت قيمتها ٧٠٠ مليون دولار ٠ في حين ان الواردات بلغت في ذلك العام نفسه ١٩ مليار دولار ٠ وفي النصف الاول من العام ٧٦ ـ ١٩٧٧ ارتفعت الواردات بنسبة ٤٢٪ والصادرات غير النفطية بنسبة ٦٪ ٠ وفي هذا الصدد يجدر بالذكر ان صناعة النفط لا تستخدم الا ٥٠ الف عامل ، أي أقل من ١٪ من مجمل القوى العاملة ٠

ـ في القطاع الاجتماعي المؤثر على امراء الاقتصاد الايراني نجد اختلالا خطيرا في توزيع الدخول والخدمات بعد الازدهار ـ النفطي ٠ ولا تزال نسبة الامية تزيد عن ٦٠٪ من السكان ، ويملك ١٠٪ من السكان حوالي ٤٠٪ من الدخل الكلي وتتسع الفجوة بين الاغنياء والفقراء باستمرار بينما نجد ان الطبقة الوسطى قد عصرتها تكاليف المعيشة المرتفعة وتناقص المداخيل الحقيقية ٠

ـ يضاف الى هذا كله عامل الاهدار الذي يتمثل اساسا في نفقات التسلح ، وقد بلغت في العام الماضي نحو ٣٠٪ من اجمالي الميزانية الايرانية العامة ، فضلا عن معدل عدم الكفاءة في الاقتصاد الايراني عموما ، ويقدره الخبراء الاميركيون بنحو ٤٠٪ (ويشير هذا العامل الى سوء استخدام الاموال وسوء ادارة الاقتصاد بوجه عام ٠ ومن امثلته احتفالات الشاه على مدى ١٢ شهرا من العام الماضي بالذكرى الخمسينية لعائلة بهلوي المالكة) ٠

وبوجه عام فان الصورة الكلية التي ترسمها الارقام وتحليلات الاقتصاديين عن أوضاع الاقتصاد الايراني لا تتطابق مع التصور الشائع عن بلد غني يتمتع برخاء الايرادات النفطية ، قادر على تقديم المساعدات الاقتصادية لدول المنطقة

والعالم الثالث ، مستعد للدخول في نظام عام من التعاون الاقتصادي والانمائي مع الدول المجاورة ٠

المشاكل الامنيـة

واذا كانت صورة الاقتصاد الايراني هي على هذا النحو من السلبية ، فهل يمكن ان نجد في وضع ايران الاستراتيجي والامني في المنطقة مبـررا لمسلكها التوسعي (من حيث التسلح ومن حيث الانتشار السياسي) ؟ بمعنى : **هل تواجه ايران اخطارا استراتيجية وأمنية في المنطقة تبـرر مسلكها وتفسر سياستهـا التسليحية ودورها العسكري والسياسي خارج حدودها ؟**

هذا السؤال بدوره يبحث عن عوامل الجغرافيا (الموقع اساسا) والتاريـخ (العلاقات الخارجية اساسا) التي تشكل استراتيجية ايران كجزء من سياستها الخارجية والدفاعية وترسم حدود احتياجاتها من القوة المسلحة كانعكاس لاتجاه هذه الاستراتيجية وجهة هجومية خارج حدودها ، او دفاعية داخل حدودها ٠

اما عن عوامل الجغرافيا فيأتي في مقدمتها بطبيعة الحال كون ايران دولة تعتمد اعتمادا شبه كلي على النفط باعتباره الثروة الرئيسية الكامنة في باطن ارضها ٠ ومما لا شك فيه ان هذه الثروة النفطية الايرانية ليست مهددة من أية قوى خارجية بمطامع اقليمية ، بل الواقع ان لايران مطامع اقليمية متعلقة بالنفط خارج حدودها الحالية ، وتشمل هذه المطامع (المطالب) « البحرين » العربية وعددا من الجزر الاخرى في الخليج العربي ، فضلا عن مساحات اخرى من « شط العرب » في الحدود الفاصلة بين ايران والعراق (وقد سويت هذه المشكلة بين البلدين اكثر من مرة كان آخرها عام ١٩٧٥) ٠

وقد كانت الاخطار على ثروة ايران النفطية اخطـارا اقتصادية لا أمنيـة باستمرار ٠ بمعنى انها تعرضت للاستغلال (ولا تزال) من جانب الشركـات الغربية : شركات الاستثمار والتنقيب وشركات التوزيع والتسويق على السواء ولم تبد من جانب اي من القوى الدولية المحيطة بايران اية محاولة للاستيلاء الاقليمي على منابع النفط الايرانـي ٠ من ناحية لان الدولة الوحيـدة القادرة بمعايير القوة العسكرية على ذلك ، والتي تربطها حدود مشتركة مع ايران ــ وهي الاتحاد السوفياتي ــ لم تقم بأي تحرك في هذا الاتجاه ولم تكن الصدامات التاريخية التي كان الاتحاد السوفياتي (او روسيا قبل ذلك) طرفا فيها ، فيما يتعلق بايران ، خاصة بأطماع نفطية ٠ ومن ناحية اخرى لان الدول الاخرى المحيطة بايران ــ العربية ، بوجه خاص ، أضعف عسكريا من ان تتكون لديها مثل هذه المطامع ، وأقل كثافة من الناحية السكانية من ان تتوسع نحو ايران الاكثف سكانيا منها مجتمعة ٠ فضلا عن انها لا تشكل كيانا موحدا ، لا من الناحيـة

العسكرية ، ولا من الناحية السياسية · أما الدول غير المتاخمة لايران ـ وهي باكستان وافغانستان ـ فهي بعيدة جغرافيا عن منابع النفط الايراني ، اذ تقـع الدولتان على حدود ايران الشرقية ، في حين تتركز حقول النفط في ايران على مناطقها الحدودية الغربية القريبة من العراق والخليج العربي · وفضلا عن ذلك فان كلا من باكستان وافغانستان اضعف عسكريا من ايران ، والاولى تربطها علاقات تحالف وثيقة معها (في اطار الحلف المركزي) وعلاقات تعاون اقتصادي اقليمي يشملها وتركيا · ولدى كل من باكستان وافغانستان مشاكل داخليـــة وخارجية تشغلهما تماما عن ية تحديات مع ايران ·

أما نسق علاقات ايران الخارجية ـ كما تحدده العوامل التاريخية في المنطقة وخارجها ـ فيمكن تحديده داخل ثلاث دوائر متوالية في اتساعها وفي مدى قربها من ايران كمركز ·

- **الدائرة الاولى : وهي الاوسع ، دائرة علاقات ايران بالدولتين الاعظم ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ·**
- **الدائرة الثانية : التالية في الاتساع ، دائرة علاقات ايران بالوطن العربي في شموله ·**
- **الدائرة الثالثة : الاخيرة والاقرب في مركزها من ايران ، دائرة عــلاقات ايران بمنطقة الخليج العربي بالتحديد ·**

ويرمي هذا البحث الى اثبات فرضية اساسية هي ان محاور السياســـة الاستراتيجية الايرانية (بأوسع مفاهيمها) تتقاطع جميعا عند أهداف Targets موقعها هو منطقة الخليج العربي · ولهذا سنتناول الدائرة التالية في بحث مستقل لما تستحقه من تفصيل معلوماتي وتحليلي ·

الدائرة الاولى : علاقات ايران بالدولتين الاعظم

لقد كانت ايران المعاصرة مرتبطة وانما بعلاقات مباشرة مع كل من الدولتين الاعظم لاعتبارات عديدة تتعلق بموقع ايران الاستراتيجي الهام بين اوروبا وآسيا وقريبا من الشرق الاوسط وفي مواقع السيطرة على مداخل الطرق ـ البحريـــة خاصة ـ الموصلة بين الشرق الاقصى واوروبا ، وعلى حدود الاتحاد السوفياتي ·· هذا فضلا عن أهميتها كثاني أكبر منتج للنفط في الشرق الاوسط (بعـد السعوديـة) · كما تتعلق بالصراع الاستراتيجـي بين الدولتين في مراحلـه المختلفـة ·

والحقيقة ان النظام الايراني وضع نفسه منذ وقت طويل في وضع بالـغ

التناقض والدقة ٠ فقد عادى ايديولوجيا واستراتيجيا الدولة الاعظم المتاخمة لحدوده ، ودخل في تحالف استراتيجي وسياسي مع الدولة الاعظم الاخرى ٠
ونظرا لوجود حدود مشتركة تمتد مسافة ألفي كيلو متر تقريبا بين ايران والاتحاد السوفياتي ، ونظرا لان ايران تعرضت ـ تاريخيا ـ لضغط عسكري مباشر من جانب الجار الروسي (السوفياتي بعد ذلك) فقد كان هناك دائما الشعور لدى ايران بأنهم « قزم ينام الى جانب عملاق » ٠ وقد اعتقد نظام الشاه ان بامكانه حماية نفسه من الخطر القريب بمساعدة من الحليف البعيد ٠ وكان من الواضح ، على الجانب الايراني من العلاقة الايرانية ـ السوفياتية ، ان الدوافع الرئيسية لتكوين هذه السياسة تكمن في عداء الشاه الشديد للشيوعية ، وحرصه على الحفاظ على امتيازات النظام الطبقي الذي يتزعمه ، فضلا عن تجارب تاريخية اكثرها حدة المحاولات التي جرت في أعقاب الحرب العالمية الثانية لاقامة جمهورية في « اذربيجان » في شمال غرب ايران تحظى بتأييد الاتحاد السوفياتي ٠

ومن المنظور السوفياتي كانت ايران قد تحولت الى حلقة شديدة القرب من حلقات شبكة الاحلاف والقواعد العسكرية الاميركية التي كانت ترمي الى محاصرة الاتحاد السوفياتي ٠ وهو وضع استمر على الرغم من محاولات جادة من جانبه لتأمين حياد ايران ٠ وهي محاولات بدأت بعد وفاة ستالين للترغيب والترضية وتقديم المعونات ٠ وقد تمثلت هذه المحاولات في مبادرة سوفياتية الى تسوية ديون الحرب المعلقة لصالح ايران ، والافراج عن الارصدة الذهبية الايرانية ، واجراء تعديلات حدودية طفيفة لصالحها ، كما أقدم الاتحاد السوفياتي على الغاء امتياز نفطي كان يخوله حق استغلال النفط شمال ايران لمدة ٧٠ عاما ، وعرض تمويل التنمية الصناعية في ايران بشروط ميسرة ٠

ولكن هذه الفترة نفسها كانت هي الفترة التي واجه فيها شاه ايران التغييرات الداخلية التي واكبت صعود الدكتور محمد مصدق الى السلطة التنفيذية وتأميم النفط والثورة على النظام كله مما حدا به الى الهرب ثم عودته بحركة انقلابية لم يعد خافيا ان وكالة الاستخبارات الامركية خططت لها ونفذتها ٠ وقد جاء هذا الانقلاب المضاد ليقطع الطريق على اي تحسن للعلاقات مع موسكو ، وأدخل ايران كلية في نسق التحالف الغربي استراتيجيا واقتصاديا معا ٠

تطورات الستينـات

ولم يتغير هذا الوضع الا مع بدايات نهاية حقبة الحرب الباردة في اوائل الستينات ٠ اي في الفترة التي ركزت فيها السياسة السوفياتية (خروتشوف) على مبدأ التعايش السلمي ، وانشغال اميركا العسكري شبه التام بحرب فيتنام ، وظهور بوادر واضحة على سياسة اميركية أقل اعتمادا على الاحلاف والقواعد

العسكرية (كنتيجة لازمة الصواريخ الكوبية في العام ١٩٦١) وانشقاق فرنسا (**ديغول**) عن الحلف الاطلسي وتشجيعها لدول العالم الثالث على نبذ التبعية المطلقة ، وتعمق تيار الحياد الايجابي وعدم الانحياز (**جمال عبد الناصر**) ٠ في ظل تلك الظروف أحس الشاه بأن اميركا الستينات لم تعد شديدة الاهتمام به كما كانت في الخمسينات ، الامر الذي أجبره على التفكير في تحسين العلاقات مع الجار القوي : الاتحاد السوفياتي ، دون ان يكون ذلك على حساب علاقته الخاصة الاستراتيجية والاقتصادية مع الحليف القوي : الولايات المتحدة ، وذلك حرصا على عدم اختلال التوازنات الداخلية في ايران لصالح القوى التقدمية المناهضة لنظامه ٠

ومنذ ذلك الوقت حتى الان ظلت سياسة ايران تجاه الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة تقوم على محاولة اصطناع حالة « شبه توازن » بينهما ، لاستحالة قيام توازن حقيقي مع استمرار ارتباط الشاه بالنظام الرأسمالي العالمي، وبالاستراتيجية العسكرية الغربية ٠

لقد قامت خلال السنوات الخمس عشرة الماضية سياسة تعاون - على الصعيدين الاقتصادي والتقني بصفة خاصة - بين الاتحاد السوفياتي وايران ، تخللتها انتقادات صريحة من جانب موسكو في السنوات الاخيرة عكست عدم ارتياحها ازاء كثير من جوانب مسلك ايران الاقليمي والدولي ٠ حتى ان الكسي كوسيغين رئيس الوزراء السوفياتي انتقد سياسة التسلح الضخم الايرانية في السنوات الاخيرة في حضور امير عباس هويدا رئيس وزراء ايران (السابق) اثناء زيارة لموسكو في تموز (يوليو) الماضي ٠ وقد رد هويدا قائلا ان ايران لا تهدف بذلك الى بلوغ مستوى قوة الاتحاد السوفياتي العسكرية ٠

وفيما كانت موسكو تبدي استياءها من محاولات الشاه لاحياء الحلف المركزي (السنتو) الذي يمر في حالة احتضار ، ودعمه للسياسة المعادية للسوفيات من جانب النظام المصري ، ودوره في اخماد ثورة عمان ، كانت طهران تبدي عدم ارتياحها لدعم الاتحاد السوفياتي للنظام الجمهوري في افغانستان المجاورة ، وتسليح الاتحاد السوفياتي للعراق ، وما يعتقده الشاه من حصول ثوار بلوخستان في شرق ايران على دعم وتشجيع من الاتحاد السوفياتي ، واعتقاده ايضا بأن ثوار المدن المعادين لنظامه داخل طهران يحصلون على تأييد ودعم من « دول اوروبا الشرقية » ٠

على ان هذه التطورات لم تكن من الضخامة بحيث تخفي صميم العلاقات الاقتصادية التي يمكن اعطاء صورة سريعة عنها اذا عرفنا ان الاتحاد السوفياتي يحتل رأسي قائمة المستوردين من ايران ٠ وقد بلغت قيمة صادرات ايران اليه في العام ٧٥ - ١٩٧٦ نسبة ١٨ر٦٪ من اجمالي الصادرات الايرانية ٠ وفي العام

نفسه استوردت ايران من الاتحاد السوفياتي ما قيمته ١٦٩ مليون دولار واحتل بذلك المرتبة الثانية عشرة بين الدول المصدرة الى ايران . وقد وقعت الدولتان في تموز الماضي اتفاقية لانشاء اطول خط أنابيب للغاز في العالم من جنوب ايران الى الحدود السوفياتية ليمتد مسافة ألف كيلو متر شمالا . وستستخدم ايران هذا الخط في تصدير ١٣ مليار متر مكعب من الغاز سنويا الى المانيا الغربية وفرنسا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا عبر الاراضي السوفياتية . وفي اب (اغسطس) الماضي وقعت بينهما صفقة نفطية يشتري الاتحاد السوفياتي بمقتضاها لاول مرة في تاريخه بترولا من الخارج ، ومقدارها مليون طن من النفط الخام مقابل سلع وخدمات سوفياتية لايران .

ولكن اذا كان العداء كامنا تحت سطح العلاقات الايرانية السوفياتية ، والتعاون يتسع بهذا الحجم فوق السطح ، فانه ليس هناك ما يدعو للاعتقاد بأن قوة ايران العسكرية التي تتضخم باطراد مصممة لمواجهة « الخطر السوفياتي » . فان ايران لا تملك ولا تستطيع بحكم حجمها ان تملك القوة التي تمكنها من مواجهة الاتحاد السوفياتي عسكريا مهما كان حجم تسلحها .

واذا تساءلنا ما هي وجهة نظر الاتحاد السوفياتي في توسيع نطاق تعاونه مع ايران ، فان الاجابة تتلخص في اعتبار ذلك التعاون بمثابة دعم للعلاقات مع ايران استعدادا لمرحلة « ما بعد الشاه » من ناحية . وتقليلا لاحتمالات الدور الصيني ، الذي بدا ، خاصة منذ بداية السبعينات ، مستعدا لدعم دور الشاه في الاستراتيجية الغربية الامنية في المنطقة وخارجها بهدف خلق المتاعب للاتحاد السوفياتي (وقد تم ذلك على حساب ثورة ظفار ، التي تخلت الصين عن تقديم اي عون لها مقابل سحب ايران اعترافها بحكومة تايوان واقامتها علاقات دبلوماسية مع بكين) .

اميركا .. من البداية

أما بالنسبة للولايات المتحدة ، فقد بدأت دورها الكثيف في ايران منذ ان ساعدت الشاه في عام ١٩٥٢ على استعادة عرشه ، الى تزويده بالاسلحة وضمه الى الحلف المركزي (بغداد سابقا) . ولم تكن ذريعتها في ذلك حماية نظام الشاه والنفط الايراني من الاتحاد السوفياتي فحسب ، بل حمايته ايضا من مصر الناصرية . بل لقد بدا في المرحلة التي سبقت مباشرة الحرب العربية الاسرائيلية الثالثة (١٩٦٧) ان تركيز الاستراتيجية الايرانية كان موجها ضد « خطر الناصرية » اكثر مما كان موجها ضد « خطر الاتحاد السوفياتي » . ولم يكن من قبيل المصادفات طبعا ان سحبت ايران القسم الاكبر من قواتها المسلحة في العام ١٩٦٧ من مناطق الحدود مع الاتحاد السوفياتي لتوجهها الى منطقة الخليج

العربي ٠ وكان للولايات المتحدة دور في تحديد مصادر الخطر على ايران ، على النحو الذي يكشفه بيان عن لجنة العلاقات الخارجية في الكونغرس الاميركي (١٩٦٨) حيث يقول : « **ان على ايران ان تحتفظ بقدرة دفاعية قوية بحيث لا تكون هدفا للجمهورية العربية المتحدة او سوريا او العراق او اي من الدول العربية الاكثر راديكالية ، والتي يمكن ان يكون لديها بعض المطامع** » ٠

ويمكن القول ان الولايات المتحدة شجعت الشاه منذ ذلك الوقت على الاستعداد لان تكون له سياسة استراتيجية هجومية لا دفاعية بعد الهزيمة العسكرية العربية في العام ١٩٦٧ ، حتى قبل ان يتيح له الانسحاب العسكري البريطاني من مناطق شرق السويس (وخاصة من الخليج العربي) التفكير في ان تصبح ايران القوة الكبرى البديلة لبريطانيا في هذه المنطقة ، وهو انسحاب اعلنت خطته في العام ١٩٦٨ واكتمل تنفيذه في العام ١٩٧١ ٠ وبين هذين التاريخين فان اختفاء جمال عبد الناصر عن مسرح المنطقة كقيادة قادرة على المستوى الاقليمي والعالمي كان عنصرا اخر في دعم هذا التفكير في الدور الايراني سواء لدى الشاه او الولايات المتحدة ٠ فقد جاء رحيل عبد الناصر ليوسع دائرة « فراغ القوة » في المنطقة الذي استندت اليه الفكرة الاميركية لاقناع الشاه بدور « **القوة العظمى المصغرة** » لمنطقة غرب آسيا ، وهي فكرة ليست غريبة عن الاستراتيجية الاميركية العالمية وتطلق عليها بالانجليزية اسم Mini - ouyder - power

وهكذا فان تضاؤل اهمية الاحلاف العسكرية ، بالنسبة للحماية التي كانت تمثلها للشاه ، وبالنسبة لسياسة الحصار الاميركية للاتحاد السوفياتي ، في وقت واحد قد أوجدت متغيرا في اتجاه واحد بالنسبة لايران والولايات المتحدة ، ولم تباعد بينهما كما يذهب بعض الكتاب والمحللين السياسيين الذين يظنون ان اخفاق سياسة الاحلاف قد باعد بين الولايات المتحدة وايران وخلق تقاربا بينها وبين الاتحاد السوفياتي ٠

تطورات السبعينـات

وقد ازداد التقارب الاستراتيجي بين ايران والولايات المتحدة نتيجـة عدد من التطورات التي طرأت على أحداث المنطقة والعالم :

● **خروج الولايات المتحدة من هزيمتها العسكرية والسياسية ، في فيتنـام باقتناع بضرورة تشكيل قوى محلية تقوم بالدور الذي كانت تعهد به لنفسها من قبل ٠ وهذا المبدأ الجديد الذي تلخصه كلمة « فتنمة » وان كانت « الفتنمة » قد أخفقت في فيتنام اصلا ٠**

● حرب اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣ بما دلت عليه بالنسبة لكل مـن

الولايات المتحدة وايران من دلالات ٠ واهمها تقلص اهمية اسرائيل الاستراتيجية على نحو سحب البساط ، بعض الشيء ، من تحت اقدامها بوصفها القوة العظمى المصغرة ٠ فلم تعد مهيأة للقيام بهذا الدور وحدها في المنطقة الممتدة على طول غرب اسيا وتخوم غرب آسيا مع منطقة البحر الاحمر والقرن الافريقي ٠ ومن هذه الدلالات ايضا ، وبالنسبة لايران بصفة خاصة ـ ضرورة التنسيق مع العرب نفطيا ، والعمل ضدهم استراتيجيا ٠

● تعاظم القوة العسكرية للاتحاد السوفياتي في منطقة المحيط الهندي القريبة للغاية من الخليج العربي وايران والبحر الاحمر ، وفي الوقت نفسه سعي الولايات المتحدة الى تأكيد وجود قوي بحري لها في المحيط الهندي وحوله ، عن طريق اقامة قاعدة دييغو غارتيا ، وعن طريق تزويد ايران باسلحة بكميات هائلة ونوعيات متطورة وكذلك اقامة محطة تجسس واسعة المدى في الاراضي الايرانية ٠

● تعاظم ـ وبالاحرى عودة ـ النفوذ الاميركي الى بلدان في منطقة الشرق الاوسط وافريقيا دون ان يكون لهذا النفوذ المتجدد ما يسانده من ركائز عسكرية ٠ ووجود ظروف اميركية ومحلية تحول دون اعادة الوجود العسكري الغربي الى المنطقة الى مستواه السابق ٠ سواء لحرص الولايات المتحدة على بقاء اختلال التوازن العسكري في المنطقة لصالح اسرائيل (مهما كان عمق النفوذ الاميركي في بعض الدول العربية) ، او لوجود واقع موضوعي خلقته فترة المد القومي العربي يتعذر زحزحته او تبديله في المجال العسكري على نحو ما جرى في المجال السياسي والى حد ما في المجال الاقتصادي ٠

● ظهور سابقة استخدام السلاح النفطي في عام ١٩٧٣ بصورة ادت الى ظهور سابقة التهديد الاميركي باحتلال منابع النفط العربي ، وبطبيعة الحال فان الولايات المتحدة تفضل وجود قوة محلية في الشرق الاوسط تستند اليها تحركاتها العسكرية او تعهد اليها اساسا بالتحرك العسكري لتنفيذ مثل هذا التهديد ٠ وايران في هذا الصدد تشكل قاعدة وركيزة كبيرة ، او على الاقل مستودع ذخيرة ضخم يمكن ان يوضع تحت تصرف مثل هذه الخطة الاميركية ٠

● الانقسام الذي اصاب باكستان في العام ١٩٧١ نتيجة للحرب التي اسفرت عن ميلاد دولة بنغلاديش ٠ وهو انقسام اقلق شاه ايران لاسباب عديدة ، اولها تشابه من عدة جوانب بين التركيب الباكستاني والتركيب الايراني سكانيا ، ووجود اقليات قومية لها تطلعات البنغاليين في باكستان قبل قيام بنغلاديش ٠ وفيما يتعلق بتطورات شبه القارة الهندية فقد تكلفت الولايات المتحدة بالدور الرئيسي في السنوات القليلة الاخيرة لتمهيد الاوضاع السياسية التي تقرب دول شبه القارة الثلاث الى الغرب ٠ واصبح الواقع مهيأ لايران للقيام

بدور اكثر انتشارا ، لا يقتصر على التحالف مع باكستان ، بل يتعداه الى اغراء الهند بالتعاون الاقتصادي والسياسي ، واغراء بنغلاديش بمفهوم التحالف الاسلامي ٠

● ارتفاع عائدات النفط بعد العام ١٩٧٣ نتيجة ارتفاع الاسعار ، الامر الذي جعل من ايران – رغم كل مشاكلها الداخلية – حليفا غير مكلف للولايات المتحدة ٠ حليف قادر على ان يحول نفسه استراتيجيا ، بل قادر على ان يسمح في تحسين حالة ميزان المدفوعات الاميركي من خلال المبالغ التي يدفعها مقابل صفقات الاسلحة الضخمة التي يحصل عليها ٠ وهنا فان المقارنة – من وجهة النظر الاميركية – مع اسرائيل تكون لصالح ايران ، فهي مكتفية ذاتيا من الناحية المالية ، في حين ان اسرائيل تعتمد اعتمادا كليا على المساعدات المالية والعسكرية ٠ فلا يبقى في كفة اسرائيل الا حقيقة انها قد اختبرت كقوة عسكرية عدة مرات ، فنجحت في الاختبارات التي اجتازتها في مواجهة الدول العربية (بما في ذلك اختبار حرب اكتوبر ١٩٧٣ رغم « التقصير » الذي حدث في بدايتها) ٠

ويصبح من الضروري اختبار قدرة ايران ايضا على القيام بهذا الدور هي الاخرى ، على نطاق اوسع مما اتاحته مشاركتها العسكرية في اخماد ثورة عمان ، واوسع ايضا مما اتاحه احتلالها السريع ، وبلا مقاومة تذكر للجزر العربية الثلاث في الخليج : طنب الكبرى وطنب الصغرى وابو موسى في نهاية العام ١٩٧١ ٠

وفوق كل اعتبارات العلاقات الايرانية الاميركية يوجد الاعتبار الاساسي الذي تدل عليه حقيقة ان الولايات المتحدة هي المصدر الاكبر لكل ما تحصل عليه ايران من اسلحة متطورة ٠ وليس هناك ما يدعو لاي اعتقاد بان كل الكميات الهائلة من الاسلحة التي تحصل عليها ايران من الولايات المتحدة هي مجرد بند في التجارة بين البلدين ٠ انما هي في الاساس جزء من الاستراتيجية الاميركية الاقليمية والعالمية ٠ (وسنتناول بقدر اكبر من التفصيل ملامح سياسة التسلح الايرانية) ٠ وبالتالي لا يمكن فصل سياسة تسليح ايران عن الابعاد الاخرى لهذه الاستراتيجية الاوسع : اي عن تعاظم النفوذ السياسي الاميركي في الشرق الاوسط من جديد ، ولا عن الاهداف النفطية الاستراتيجية الاميركية للطاقة ، ولا عن الاهداف المتعلقة بتطويق الاتحاد السوفياتي عسكريا وسياسيا ، ولا عن اهداف ضرب ما تعتبره الولايات المتحدة « الحركات الراديكالية » اي كل حركة ثورية او تيار تقدمي ، ولا عن أهداف دعم اسرائيل كقاعدة لا غنى عنها ولا بديل لها – مهما حدث من تطورات ٠ وعلى خلفية من هذه الحقائق ينبغي رؤية الواقع الراهن الذي يشهد بان ايران اصبحت قاسما مشتركا في مشكلات وقضايا المنطقة ، وانها تحاول ان تمارس في كل

منها دورا نشطا ـ من قريب او من بعيد ٠

الاحتمال النووي

وقد طرأ في الفترة الاخيرة عنصر جديد بشكله الحديث ـ الاتي دائما من مصادر اميركية ـ عن احتمال تسلح ايران نوويا باعتبار ان ذلك هو الرد الوحيد الفعال على الحجة القوية القائلة بان ايران لا تستطيع ان تخلق قوة عسكرية متحدية للقوة العسكرية السوفياتية مهما توفر لها من كميات ونوعيات الاسلحة التقليدية ٠ واذا كانت هناك معلومات عن تعاون نووي (ربما يكون تمهيديا للان) بين ايران واسرائيل وجنوب افريقيا ، فان هذا لا يعني ان الولايات المتحدة ستكون بعيدة على المسؤولية اذا ما دخل السلاح النووي الشرق الاوسط سواء من باب ايران او من باب اسرائيل ٠ فلن يكون تسلح ايران نوويا عملا لحسابها ، بل لحساب الاستراتيجية الاميركية الموجهة ضد النفط العربي وضد الامن السوفياتي معا ٠

ومن المسلم به ان السلاح النووي هو سلاح للردع يغني « وجوده » عن « استخدامه » ٠ ولهذا فهو سلاح « سياسي اكثر منه قتالي » ٠ وليس هناك ما يستبعد تفكير الولايات المتحدة في اللجوء الى هذا الرادع النووي لفرض اوضاع استراتيجية وسياسية في المنطقة لاطول امد يمكننا تصوره ٠

وقد ذكر السناتور الاميركي ادوارد كيندي ـ في مقال كتبه في مجلة الشؤون الخارجية Foreign Affairs الاميركية بعد زيارة قام بها لمنطقة الخليج العربي في العام ١٩٧٥ ـ انه « **ينبغي على الولايات المتحدة ان تواجه الا يتوقف تدفق الاسلحة الى الخليج الفارسي عند حدود الاسلحة التقليدية** » ٠ ★ واذا كان السناتور كيندي يطرح هذه النقطة ـ من موقع خارج السلطة التنفيذية في الولايات المتحدة ـ محذرا من هذا الاحتمال الخطير ، فانه انما يدعو الى رقابة « اميركية » على تسلح كل دول الخليج كحل لمشكلة مخاطر تدفق الاسلحة على دول تلك المنطقة ، ولا يعتبر ايران في هذا الصدد مصدر خطر خاص او وضع متميز ٠

الدائرة الثانية ـ الاضيق من الاولى ـ هي **دائرة علاقات ايران مع الوطن العربي ككل** ٠ وتشمل هذه الدائرة علاقات ايران مع اسرائيل ، ومصر ، وباقي الدول العربية غير الخليجية : أي الدول العربية الافريقية بالاضافة الى سوريا ولبنان والاردن وفلسطين ٠

★ عدد اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٥ من المجلة المذكورة ٠

والظاهرة الجديرة بالاهتمام في السنوات الاخيرة ـ خاصة منذ العام ١٩٧٣ ـ انتهاج ايران سياسة تدخل نشط في الشؤون العربية ـ حتى غير الخليجية ـ وبصفة خاصة في مشكلة الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وهو تدخل يتم لترجيح كفة القوى الممثلة للاتجاه الاميركي في معالجة شؤون المنطقة وفي ادارة هذا الصراع . ونتيجة لهذا فان ايران تنحاز في هذا الصراع الى جانب دول عربية معينة وتنسق معها ، وتنحاز ضد دول عربية اخرى وتعمل ضدها . ـ (نلاحظ انه حتى قبل « مبادرة السادات » الاخيرة التي اخذته الى اسرائيل والتي لقيت تشجيعا كبيرا من ايران ـ اتخذ شاه ايران سياسة تأييد لمواقف السادات في صراعه ضد ليبيا ، وذهب في هذا الى حد مشاركة السادات في توجيه السباب نفسه ضد الرئيس الليبي . واكثر من هذا فقد أيد دون مواربة الهجوم العسكري الذي شنته قوات السادات على ليبيا في العام الماضي . وذلك على الرغم من حقيقة ان ليبيا لا تشكل بأي حال تهديدا مباشرا او غير مباشر لايران، على الاقل بحكم البعد الجغرافي الشاسع بين الدولتين) .

على ان من المهم ان نلاحظ انه قبل التطورات الاخيرة التي قربت بين ايران وعدد من الانظمة العربية كانت هناك خلفية يلونها عداء الشاه ـ المنطقي والمفهوم ـ ازاء القومية العربية ومفهومها الناصري بالتحديد . الامر الذي صبغ العلاقات الايرانية ـ العربية طوال فترة المد القومي بقيادة جمال عبد الناصر بالتوتر . وفيما كانت مصر تقود حركة التحرر الوطني العربي « من المحيط الى الخليج » كانت ايران تبذل اقصى ما بوسعها للعمل في اطار الاستراتيجية الامبريالية الاميركية ضد هذه الحركة ، على الاقل في الاطار القريب منها جغرافيا . وقد وضع الشاه سياسته طوال الخمسينات والستينات في اطار العداء للعرب اساسا بحكم انتمائه للاستراتيجية الغربية الامبريالية ، وتوجه العرب ضد هذه الاستراتيجية ، فكانت معارك القومية العربية في الخمسينات ضد الاحلاف العسكرية وسياساتها موجهة ضد ايران بقدر ما كانت موجهة ضد القوى الكبرى وراءها : الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا . كما كان اهتمام ايران بالذات بدخول تلك الاحلاف موجها في جانب كبير منه ضد العرب ، ضد حركة القومية العربية التحررية بوصفها « تهديدا لقومية اضيق حدودا هي القومية الفارسية، وتهديدا لنظام الشاه وما يمثله سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، فلقد حملت التأثيرات التحررية العربية في فترة المد القومي الناصري تياراتها الاجتماعية والسياسية الى داخل ايران نفسها ، فضلا عن انها حدت من قدرة الشاه على الافصاح عن مطامعه الاقليمية فضلا عن تنفيذها .

ايران .. واسرائيل

ولما لم يكن باستطاعة الشاه لاعتبارات لها حساسيتها (مثل العامل الديني

الاسلامي) ان يعمل علنا في صف اسرائيل : الدولة اليهودية ضد البلـــدان العربية ، فانه لجأ طوال الاعوام الثلاثين الماضية الى اسلوب العلاقات السرية مع اسرائيل ، على نحو لم يمنع هذه العلاقات من ان تتجاوز في قوتهاواتساعها المدى الذي بلغته علاقات اسرائيل العلنية بدول اخـرى كثيرة . والواقـع ان السياسات العربية لم تقم بدور كاف في كشف النقاب عن تلك العلاقات السرية وحجمها ، ربما حرصا على عدم دفع ايران الى تحويل هذه العلاقات الىعلاقات اعتراف رسمي وعلني . ولكن العلاقات الايرانية ـ الاسرائيلية اسهمت بغيـر شك في زيادة حدة توتر العلاقات الايرانية ـ العربية لسنوات طويلة .

وقد حظيت مسألة العلاقات الايرانية ـ الاسرائيلية حتى الان باهتمـــام الدارسين غير العرب بأكثر مما حظيت من الدارسين العرب . ونجد في كتـاب اصدره اثنان من الاساتذة الايرانيين العاملين في الجامعات الاميركية اهتماما بهذه الزاوية من زوايا العلاقات الايرانية ـ العربية . وعلى الرغم من ان مؤلفي هذا الكتاب ليسا معاديين لنظام الشاه او مناصرين للقضايا العربية وبالتحـديد فانهما يقدمان ما يمكن اعتباره شهادة مقبولة ومتزنة لطبيعة العلاقات الودية التي اقامها الشاه مع اسرائيل ، فهما يعتبران : **ان اعتراف ايران باسرائيل ـ وهو اعتراف « واقعي وليس قانونيا » يقوم على أساس من اعجاب الشاه بمنجـزات اسرائيل وقيادتها ، وحاجة ايران الى اسواق اسرائيل لتصدير النفط واستيراد سلع صناعية خاصة في وقت يعتبر فيه العرب منافسين لايران في انتاج البترول وتسويقه . ويكشفان ان اهداف ايران واسرائيل التقت في « عرقلة الوحـــدة العربية » . ويشيران الى رغبة اسرائيل في الخروج من عزلتها الاقليمية عن طريق ايران ، وتسويق البترول الايراني الذي استهدف قرار اغلاق خليج العقبة (في ايار ـ مايو ١٩٦٧) حرمان اسرائيل منه . كما يشيران الى حصـول ايران على اسلحة من اسرائيل لحساب الاكراد لمحاربة العراق .** ★

والواقع ان ايران تقيم مع اسرائيل علاقات وثيقة في معظم الميادين ، بما في ذلك الميدان الاقتصادي والعسكري . وتمنح ايران لاسرائيل حق هبـــوط طائراتها في المطارات الايرانية ، وهو حق يقتصر استخدامه على وقت الحـرب دون وقت السلم . بل ان شهادة شاهد عيان ايراني (نشرتها مجلة « باري ماتش » الفرنسية في عددها الصادر في تموز ـ يوليو ١٩٦٧) قررت ان الطائرات الحربية الاميركية كانت تهبط في المطارات الحربية الايرانية اثناء حرب الايام الستة عام ١٩٦٧ وهناك كانت تغير الوانها وترسم عليها علامات نجمة داود المميزة لسلاح الطيران الاسرائيلي ، ثم تنتقل بعد ذلك الى اسرائيل .

★ Shoran Chubin & Sepher Zabih, The foreign relations of Iran. University of California press, 1974.

وبالنسبة للعلاقات النفطية ربما لا يعرف كثيرون ان الشركة الايرانية للنفط هي المستخدمة الرئيسية لخط انابيب النفط الاسرائيلي الذي افتتح في العام ١٩٧٠ والذي يربط بين « ايلات » على البحر الاحمر و « اشدود » على البحر الابيض المتوسط ٠

وقد نشر اخيرا تقرير اميركي صادر عن « لجنة الطاقة والمصادر الطبيعية » التابعة لمجلس الشيوخ الاميركي بعنوان : « **الوصول الى النفط : علاقات الولايات المتحدة بالسعودية وايران** » ٠ ويحتوي التقرير على اجزاء تتعلق بروابط ايران واسرائيل ٠ ومما يقوله التقرير انه يصعب ذكر اشياء كثيرة عن العلاقات الايرانية الاسرائيلية بحكم كونها علاقات غير علنية ٠ ويكشف التقرير ان تعهد ايران بتزويد اسرائيل بالنفط لعب دورا رئيسيا في توقيع اتفاقية سيناء ـ الثانية بين مصر واسرائيل في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٥ ٠

ويشير التقرير الاميركي دون مواربة الى أن **التعاون الايراني ـ الاسرائيلي « يمكن ان يكون مكثفا خصوصا على مستوى اجهزة الاستخبارات » لمواجهة « خطو التطرف العربي »** ٠ كما يشير الى ان هناك تلميحات **الى وجود تعاون نووي بين ايران واسرائيل وجنوب افريقيا** ٠

وربما كانت قصة التعاون النووي الثلاثي بين ايران واسرائيل وجنوب افريقيا قصة المستقبل غير البعيد في تطورات الدور الايراني المتوسع ٠ وحتى الان ظهرت من القصة مقدمتها فقط ، ولكنها مقدمة بالغة الدلالة ٠

ـ لقد تعاقدت ايران على سبع محطات للطاقة النووية ، اثنتين من فرنسا واثنتين من المانيا الغربية وثلاث من الولايات المتحدة ٠

ـ اشترت ايران من جنوب افريقيا ١٠٪ من اسهم مشروع لانتاج اليورانيوم المخصب ، و ٣٠٪ من اسهم مشروع من النوع نفسه من جنوب افريقيا ايضا ٠ والمشروعان مملوكان لاثنين من اكبر منتجي خام اليورانيوم في العالم ٠

ولم يعد خافيا ان جنوب افريقيا تتعاون مع اسرائيل في مجالات عديدة ،بينها النشاط النووي ، فتكون جنوب افريقيا هي القاسم المشترك او همزة الوصل في عملية التنمية النووية الثلاثية بين هذه الدول الثلاث ٠

ويجيء دور ايران في السنوات الاخيرة في صف النظم العربية الساعية الى تسوية مع اسرائيل بوساطة او « تحكيم » الولايات المتحدة مؤكدا تعاون ايران مع الجانب الاسرائيلي ضد القضية الفلسطينية ٠

وحساسية شاه ايران الشديدة ضد الثورات وضد كل مظاهر الكفاح المسلح التي يعتبرها « قوى تخريبية » او « ارهابية » او « فوضوية » او « شيوعية » تجعله بعيدا للغاية عن أن يكون ـ مهما حاول ان يبدو ـ مؤيدا للقضة الفلسطينية ٠

اما صوت ايران في الامم المتحدة الذي يدفع للعرب في كل مرة فانه لا يمكن ان يوازي حجم التعاون الايراني ـ الاسرائيلي ، ولا يمكن ان يبرر وقوف الشاه بأقصى درجات التأييد النشط والديناميكي الى جانب مبادرة السادات الاخيرة (حتى لقد تحدثت تقارير عن قيام الشاه بدور في الاعداد لزيارة السادات لاسرائيل) ٠

ولما كانت الولايات المتحدة هي القوة الكبرى الموجهة لتحركات الاطراف الموالية لها في ازمة الشرق الاوسط : اسرائيل وايران والنظام المصري والمغرب وعدد من النظم الاخرى الشرق اوسطية ٠٠ فان المبرر قائم لتصور توجيه الولايات المتحدة معظم هذه الاطراف نحو ضرورة التعاون مع الشاه والتشاور معه في كل التحركات التي تتم في اطار « الدبلوماسية السرية » ٠ وقد اصبح من الواضح فعلا ان كل خطوة يتخذها النظام المصري ـ مثلا ـ يسبقها « التشاور » مع الشاه ويليها « اطلاع » الشاه على النتائج ٠ بحيث اصبحت طهران محطة دائمة في رحلات الذهاب والعودة بالنسبة للرئيس المصري نفسه وبالنسبة لمبعوثيه الى الخارج ٠ وهكذا يكبر دور ايران الشاه الى حد يصغر معه دور مصر ، ودور اي بلد عربي اخر يمكن تصور قيادته للعمل العربي ، حتى ولو على الصعيد الدبلوماسي ٠

وقد حاول التقرير الاميركي الذي سبقت الاشارة اليه ـ والذي يحمل عنوان « الوصول الى النفط : علاقات الولايات المتحدة بالسعودية وايران » ـ الاجابة على السؤال : الى اي مدى تؤيد ايران حل النزاع العربي ـ الاسرائيلي ٠ وفي هذا الصدد اورد التقرير اجابتين متناقضتين لكل منهما وجاهتها ٠

● **فهو من ناحية يرى ان بقاء النزاع العربي ـ الاسرائيلي قد يكون لمصلحة ايران لسببين رئيسيين : الاول ان عدم حل النزاع سيؤدي الى حظر نفطي عربي (يحول ايران الى المصدر الوحيد لنفط الشرق الاوسط بالنسبة للعالم الغربي كله) او الى خفض لانتاج النفط العربي ـ السعودي اساسا (يتيح الفرصة لزيادة صادرات نفطها) او الى موافقة السعودية على رفع اسعار النفط (وهو ما يعود بفائدة مالية اكيدة على ايران كما على غيرها من الدول المصدرة للنفط) ٠ والسبب الثاني ان استمرار النزاع يجعل دولا عربية عديدة ـ على رأسها العراق ـ مهتمة ومنشغلة بقضايا اخرى غير ايران (الامر الذي يتيح لايران على الاقل ان تسلك على النحو الذي سلكته في اخر العام ١٩٧١ عندما احتلت الجزر العربية الثلاث في الخليج والعرب منشغلون عنها) ٠**

● والتقرير من ناحية اخرى يطرح اجابة مناقضة تقول ان استمرار النزاع العربي الاسرائيلي يعرض الانظمة العربية المعتدلة ، الصديقة لايران والخاضعة الآن لنفوذها) للسقوط ، ويشكل دعوة الى الاتحاد السوفياتي لكي يعود الى

المنطقة • فضلا عن ان تسوية النزاع تحل عقدة التعاون الايراني ـ الاسرائيلي التي تقف عقبة في وجه دور ايراني اوثق في منطقة الخليج •

والاجابتان تبدوان متوازنتين فقط اذا سلمنا ان ايران تملك الخيار وحدها في تحديد ما تريد وما لا تريد فيما يتعلق بالنزاع العربي الاسرائيلي • ويحل هذا التناقض بصورة تكاد تكون تلقائية في ضوء حقيقة ان ايران مضطرة في النهاية الى اداء دورها في الاستراتيجية الاميركية ايجابا وسلبا • وفي المرحلة الراهنة فان استراتيجية الهجوم غير المباشر التي تنتهجها الولايات المتحدة لاستعادة كل مواقع نفوذها تفرد لايران دورا واسعا وهاما بمقدار تسلحها وبمقدار واتساع حركتها في المنطقة • ولا ينفي هذا بطبيعة الحال ان الولايات المتحدة تلعب في رسم هذا الجزء من استراتيجيتها على دوافع موجودة فعلا لدى ايران الشاه : دوافع بعضها مخاوف حقيقية وهمية ، وبعضها احلام يقظة توسعية يحييها في خياله التراث الفارسي الغابر ، وبعضها الاخر الخطط التي تمليها على الشاه حقائق الاضطرابات الداخلية في بلاده التي يعمل فيها فعل التسكين وجود العامل النفطي الذي لم يبق من عمره الا ١٥ عاما ، كما قلنا من قبل •

وبطبيعة الحال فان قسما كبيرا من الدائرة الثانية يدخل في الدائرة الثالثة بحكم دخول الخليج العربي في الدائرة الاكبر للوطن العربي • ولهذا فان امورا عديدة من علاقات ايران بالوطن العربي عموما تؤثر وتتأثر بعلاقات ايران بالمنطقة العربية الاقرب لها ، وهي منطقة الخليج •

والدائرة الثالثة موضوع قائم بذاته •• فهي عمليا الهدف المباشر للخطر الايراني ، وهي المقصودة بالدرجة الاولى ببرنامج التسليح الايراني الذي تجاوز كل الحدود المنطقية والمتصورة •• فهي ـ في التحليل الاخير ـ « المجال الحيوي » •

جورج ناصيف

لبنان، الصدامات المسلحة والمواجهة

لم يكن الصدام العسكري الواسع الذي افتعلته القوى النظامية التابعة سياسيا « للجبهة اللبنانية » المستظلة بلواء الشرعية ، والميليشيات الطائفية مع قوات الردع العربية مجرد صدفة نجمت عن حادث فردي ابن ساعته ، على حد تعبير كميل شمعون ٠ بل على العكس من ذلك ، فان عوامل هذا الصدام كانت تتجمع في الافق بتراكم كمي ونوعي قاد الى الانفجار ، بعد سلسلة تفجيرات صغيرة سياسية وعسكرية ، من الممكن ملاحظة ابرز محطاتها المتمثلة بالدعوات المتواترة يوميا التي اطلقها الشيخ بيار الجميل رئيس الكتائب حول ضرورة استرداد لبنان لامنه « المستعار » ، وتحديدا في المناطق الخاضعة لهيمنة « الجبهة اللبنانية » وبالاضراب الاول الذي اعلن بسبب تعطيل الرقابة لجريدة « الريفاي » مدة ثلاثة ايام ٠ ثم الاضراب الاخر الذي اعلن باسم اهالي الدامور ، ثم خلوة ــ زغرتا واصرارها على « التعددية الحضارية » وتركيزها على دور الجيش في صيانة « القيم اللبنانية الاصيلة » وقبل كل ذلك وضع شروط تعجيزية تجعل الوفاق الوطني اسما اخر لرضوخ الفريق الوطني لشروط « الجبهة اللبنانية » ، بعد رهن تحقيق هذا الوفاق بازالة العائق الفلسطيني في الجنوب بما يضمن « خروج المنظمات الفلسطينية نهائيا من اللعبة السياسية » كما ترى « النهار » ٠ ووسط دعوات الجميل للاتفاق حول اي لبنان نريد ، جرت اوسع عمليات ارهاب استهدفت القيادات الاسلامية ، ثم جرى تعميم حملة المتفجرات لتشمل الشوارع التي تعج بالمواطنين ، كما حدث في ساحة الشهداء ورياض الصلح ٠

كان الموضوع الذي تراهن « الجبهة اللبنانية » عليه ، من أجل اعادة اغراق الوضع اللبناني في دوامة الاقتتال ، هو افتعال صدام بين الجماهير الشيعية في الجنوب والمقاومة الفلسطينية ، ولكن نجاح المقاومة والحركة الوطنية بتنظيم التواجد الفلسطيني بما يضمن مصالح الجماهير اللبنانية والثورة الفلسطينية اسقط في يد « الجبهة اللبنانية » ، رغم محاولاتها الموصولة لاحياء جثث الاقطاع السياسي ، حتى انها قبل يومين فقط من الانفجار كانت القيادة العسكرية تعقد اجتماعا برئاسة بشير الجميل ، وبحضور عادل عسيران وعبد الحميد الاحدب ، يخرج هذا الاخير على اثره ليعلن ان « المعركة التي نخوضها هي معركة

وطنية ونحن الان مهتمون بتحرير كل لبنان » الامر الذي ذكر بتصريحات للجميل الصغير وعد فيها « ليس بتحرير لبنان فقط ، بل بتحرير اي جزء من المنطقة يشكل خطرا على لبنان ، والجدول الزمني جاهز بانتظار القرار السياسي » · اما عنوان « العمل » فكان يومها : الوضع شيعيا يتجه نحو الحسم ·

اذا كانت هذه هي المقدمات السياسية الشديدة العمومية ، حيث سنعود الى تفصيل الجانب السياسي لاحقا ، فما هي المقدمات الامنية ، وكيف حدث الصدام وتطور ؟

الصدامات المسلحة

بعد تفاقم موجة المتفجرات ، ادركت قيادة الردع ان هناك نوايا مبيتة تستهدف تفجير الوضع الامني ،الامر الذي دفعها الى تكثيف دوريات قواتها ، واقامة حواجز ثابتة ومتنقلة كجزء من خطة امنية شاملة على الاراضي اللبنانية كافة ، غايتها ضبط الامور بشكل افضل « وبعد حوادث التفجيرات التي حصلت في الاونة الاخيرة » كما جاء في بيان الردع في حينه · لكن هذا الامر لم يقع موقع الرضا عند كميل شمعون الذي رد على سؤال حول هذه الاجراءات قائلا : « في الواقع ، لا اعلم سبب ذلك ، ولا اعرف الدوافع التي حتمت قيام مثل هذه التدابير وبهذه الكثافة ـ خصوصا في هذه المنطقة بالذات وهذا القسم من لبنان » ·

وفعلا ، لم يمض على اعتراض شمعون وقت قصير ، حتى كانت ثكنة الفياضية بما تحويه من عناصر انعزالية تتولى ترجمة اعتراضات شمعون عسكريا · وكانت قوات الردع ، وفي نطاق تدابيرها الامنية قد أقامت حاجزا يبعد حوالي ٥٠ مترا عن الثكنة بعد ورود معلومات مؤكدة تقول ان العناصر الانعزالية النظامية التي تنتمي لحزبي الكتائب والاحرار تعمل على نقل كميات ضخمة من الاسلحة وردت الى الجيش اللبناني من الولايات المتحدة كأدوات لتفجير القتال · ومعظم هذه الاسلحة جرى تسريبه بواسطة شاحنات عسكرية الى مقاتلي الحزبين في الشوف ، وتحديدا الى دير القمر ، فضلا عن كميات محدودة ذهبت الى ازلام عدد من الزعامات الشيعية اليمينية في الجنوب ·

الخطوة الاولى في الاصطدام كانت عملية استفراد جنديين من قوات الردع واختطافهما واقتيادهما الى الثكنة · وفي الوقت نفسه كانت تندفع مجموعات مسلحة من داخل الثكنة وتتوجه نحو الحاجز تطلب ازالته · وفعلا امتثل العناصر الخمسة الذين يشكلون عناصر الحاجز ورفعوا الحاجز ، لكن النار اطلقت عليهم اثناء انسحابهم مما ادى الى مقتل البعض واصابة الاخرين بجراح · وعلى بعد حوالي مئة وخمسين مترا عن الثكنة ، ولجهة الجمهور ، كان النقيب سمير الاشقر قائد المغاوير المعروف بصلاته الاسرائيلية ومعه عدد من عناصر الثكنة ، والى جانبه النقيب فرنسوا زين يقطعان الطريق · وصودف اثناء ذلك ان مرت سيارة جيب عسكرية لقوات الردع ، وفي داخلها نقيب سوري مع احد العناصر · وعندما ترجل النقيب لمعرفة ما جرى ، اطلق عليه النقيب الاشقر النار من مسدسه فأصابه في رجله وخاصرته ، ثم تركه ينزف أرضا حوالي الساعتين حتى توفي ·

كان اختيار منطقة الفياضية كمسرح للاشتباك مدروسا ، لان هذه المنطقة يخترقها خط بيروت ـ دمشق حيث تعبر سيارات قوات الردع باستمرار وهي تقل الجنود والضباط لقضاء اجازاتهم في العاصمة السورية او لتنفيذ بعض المهمات التموينية · وكانت كلما عبرت واحدة

من هذه الشاحنات تطلق عليها النيران بغزارة ، وصودف اثناء ذلكان مرت شاحنة تابعة للردع فتعرضت لاطلاق نار كثيف ، الا ان عنصرين من عناصر الشاحنة تمكنا من الافلات . واجتازا المرتفعات الشجرية حتى بلغا منطقة اليرزة حيث تجمع قوات الردع وابلغا القيادة بما يحدثعلى طريق الفياضية ، فتحركت قوات كبيرة معززة بأسلحة ثقيلة نحو منطقة الاشتباكات وتمكنت من تطهير ابنية الضباط القريبة من الثكنة ومحاصرتها ، وخلال هذه المعركة قتل الملازم في الجيش اللبناني عبد الله حدشيتي وثلاثة عناصر معه ٠

هذا ما حدث يوم الاثنين ٧ـ٢ـ١٩٧٨ ٠ ورغم ان البيان المشترك الذي صدر عن قيادتي الردع والجيش قد أكد تطويق الحادث ووعد باتخاذ التدابير التأديبية بحق مسببيه ، فان قيادة « الجبهة اللبنانية » كانت تتحرك باتجاه التصعيد حيث ترأس شمعون اجتماعا لقيادة « القوات الموحدة » وصف مشاركته فيه بأنها محض صدفة ، ووصف الحادث بأنه ابن ساعته ، مبديا امله في ألا ينعكس سلبيا على العلاقات العسكرية اللبنانية ـ السورية ، نازعا عن القوات السورية صفة قوات الردع العربية ٠ أما بيار الجميل فلم يستغرب ما حدث ، « لان الجيش لا يمكن ان يكون بوليسا خصوصا وانه ليس جيشا لبنانيا ، وانا استغرب الا يحصل اكثر من ذلك ، وعلينا ان نعمل ليسترد لبنان امنه بنفسه لان الامن المستعار لا يمكن ان يكون امنا كاملا » ٠ وفي المنحى نفسه ، كانت « العمل » في زاوية « من حصاد الايام » تقول : قد يكون حادث امس اسوأ وسائل التعبير عن سوء التفاهم الحاصل بين الناس والجهات المسؤولة عن امنها ٠٠ ولا نفهم لماذا لا تسترد قوى الامن ادوارها فتتفرغ قوة الردع لمهامها الاصلية او على الاقل لمهمة ردع القوى المسلحة غير اللبنانية » ٠ اما التحليل السياسي « للعمل » فقد كان كاتبه مدهوشا لان بعض « الحوادث تقع حيث يجب الا تقع ، وبعض التدابير تتخذ في غير المواقع التي يفترض ان تتخذ فيه » ٠

كان القتال قد توقف يوم الاثنين بالقرب من ثكنة الفياضية ، اثر انذار وجهته قيادة قوات الردع العربية لتسليم المتسببين والمسؤولين عن اطلاق النار على حاجز الردع والسيارة العسكرية والشاحنة ، لكن قيادة انطوان بركات في الثكنة رفضت تطويق ذيول الحادث . بعد موقف « الجبهة اللبنانية » ٠

وصباح يوم الثلاثاء ، كان القتال يمتد الى ضواحي بيروت الشرقية بعد نزول عناصر حزب « الاحرار » الى الشارع ، ثم تبعهم مقاتلو الكتائب ، وبدأت حواجز ونقاط قوات الردع المتواجدة في سن الفيل وفرن الشباك ومستديرة السلام في الاشرفية وطلعة ساسين تتعرض لنيران القذائف الصاروخية المضادة للدروع ، فيما قصفت مدفعية الميدان الموجودة في بيت مري وبرمانا مواقع قوات الردع العربية الموجودة في الحازمية واليرزة والجمهور وبالقرب من ثكنة الفياضية مما ادى الى اصابة القصر الجمهوري بعدة قذائف ، ودفع بقيادة الردع الى الرد على مصادر القصف بقصف عنيف ٠ كما هاجمت قوات الردع مركز حزب « الاحرار » الرئيسي في منطقة السوديكو (الناصرة) حيث قصف المركز قصفا عنيفا، وكان شمعون في داخله ، ومركز الحزب في الحدث بعد ان تعرضت قواتها المتواجدة في منطقة صفير للنيران فيه ٠ وحولت قيادة « الجبهة اللبنانية » عين الرمانة الى ثكنة عسكرية ، وباشرت العناصر الانعزالية ممارسة القنص على شارع اسعد الاسعد في الشياح مما ادى الى اصابة اربعة مدنيين بجراح ، كما سقطت قذائف هاون على منطقة الشياح ورأس النبع والجامعة العربية ٠

في هذا الوقت ، اعلن الرئيس السوري حافظ الاسد ، بعد ان ادلى بصوته في الاستفتاء

على تجديد رئاسته ، ان « المنطقة مستهدفة من قبل قوى اجنبية كبرى ، ولبنان حلقة في هذه السلسلة ، ونحن نتوقع هذه المشاكل » ٠

أما الوزير عبد الحليم خدام فقد اكد ان الاشتباكات التي حدثت تخدم اسرائيل والنظام المصري وتهدف الى خلق المصاعب لسوريا وتحويل اهتمامها والعرب عن جوهر الصراع العربي ـ الاسرائيلي ٠ اما الشيخ بيار الجميل فقد تنصل من مسؤولية المشاركة في توسيع نطاق الاحداث واتهم فريقا ثالثا باستدراج بعض عناصر الجيش السوري من أجل تعطيل مبادرة السلام في لبنان ٠ وتساءل الجميل « كيف يمكن التوفيق بين القوى التي جاءت وتحافظ على الامن في لبنان والقوى الامنية اللبنانية » ٠ وقالت « العمل » ان عناصر الردع « لم تتقيد بتجميد اطلاق النار ، وهذا ما دفع قائد الجيش فيكتور خوري الى رفض المطالب السورية مؤكدا انه يفضل الاستقالة على الموافقة على هذه المطالب » ٠ ودعت الى تحديد دور الردع والمهام التي يجب اسنادها اليه « لان دور الردع هو وقف العدوان الفلسطيني على اللبنانيين فحسب » ٠

رغم الاتصال الهاتفي الذي تم بين الرئيسين الياس سركيس وحافظ الاسد ، واستغرق ثمانين دقيقة ، لم يمكن التوصل الى اتفاق لوقف اطلاق النار ، وكانت قوات « الجبهة اللبنانية » تهاجم مراكز الردع ٠ وفي هذا الوقت كان الرئيس السوري يجتمع الى الوفد النيابي اللبناني ويؤكد خلال اللقاء « ان الجيش اللبناني الحالي هو جيش شراذم وفئات وليس جيشا وطنيا ، لذلك يجب حله » ٠ وان جيش الشرعية هو قوات الردع العربية الموضوعة بأمرة الرئيس سركيس ٠ ومضى الاسد يقول : « نسمع كثيرا عن وجود طرف ثالث وطرف رابع ٠ نحن لا نفهم هذه اللغة ، والمعروف ان جنديا اطلق النار على القوات السورية ، ومن الاكيد انه فعل بأمر ، والذي اعطاه الامر يجب ان يعدم دون تردد ، فأي تردد في ذلك لا يجوز ، لانه حين يقتل مدني مدنيا اخر يعدم ، فكيف بمن يطلق النار على جيش الشرعية ، المسألة اذن ليست مسألة فريق ثالث ، والاحداث وراءها اميركا واسرائيل التي لها ايد في كثير من القوى السياسية » ٠

استمر القتال يوم الخميس ، وكان عنصر الانفجار هو اقدام قوات الجبهة على قصف ناقلة جنود سورية في طريق صيدا القديمة بثلاث قذائف صاروخية مما ادى الى استشهاد جنودها الثمانية ، وتطورت الاشتباكات حتى شملت عين الرمانة ، تحويطة فرن الشباك ، الفياضية ، الاشرفية ، الجميزة وصربا ، الى جانب قنص متقطع في الحدث وساحة الدباس٠ كما شملت الاشتباكات منطقة غاليري سمعان بعد ان تعرضت شاحنتان عسكريتان للردع الى القصف ، ودفع التصعيد الانعزالي قوات الردع الى الرد بقصف مركز وشامل بالمدفعية الثقيلة استهدف مراكز وتجمعات قوات « الجبهة اللبنانية » ٠ في هذه الاثناء كان اعلام الجبهة ينشر ادعاءاته على محورين : المحور الاول وهو الذي يتنصل من المشاركة في القتال ويدعي بأن الهجمات التي تعرضت لها مراكز قوات الردع انما كانت من جانب الاهالي ، بعد ان تعرضت احياؤهم لقصف عشوائي من جانب القوات السورية ٠ أما المحور الثاني فهو نفي تدخل « القوات اللبنانية » والترويج بأن الاشتباكات التي تحدث على خطوط التماس وفي العمق ليست مع قوات الردع بل مع عناصر المنظمات الفلسطينية واليسارية « بعد ان اخرجت هذه المنظمات اسلحتها من المخابىء ، وسحبت عناصرها من الجنوب » ٠

في هذا الوقت ، كان شمعون الاب وابنه دوري يصفان قوات الردع بأنها تحولت الى قوات احتلال ٠ أما الشيخ بيار الجميل فيصف الجيش السوري بأنه بات شبيها بالجيش

الاميركي في فيتنام ، ويقول عن سركيس انه « برافان » ويتساءل : من يقود قوات الردع العربية ، أهو الرئيس سركيس ام سواه ؟

وفيما كانت حرارة التصريحات الانعزالية ترتفع ، كان الموقف الاميركي يتطور من « مراقبة ما يجري » الى القول « ان الوضع صعب ويبعث على القلق » اما سايروس فانس وزير الخارجية الاميركي فقد اعلن ان الولايات المتحدة « ستستمر في تقديم المساعدة عن طريق التزويد بالاسلحة لبناء الجيش اللبناني ، وان البرامج هذه ستستمر ، كما تحددت واتفق عليها مع السلطات اللبنانية ·

اما اسرائيل فكانت تتخذ اجراءات عملية تمثلت بزيارة لوزير الدفاع وايزمن الى الحدود اجتمع خلالها بقائد القوات الانعزالية الرائد سعد الحداد ، واثر هذا الاجتماع كانت تعزيزات اسرائيلية ترد الى منطقة الجنوب تباعا ·

من جهتها ، كانت صحيفة « العمل » تنشر تحليلا قدمته « الوكالة اللبنانية للانباء » الكتائبية وتقول فيه : « ان اميركا باتت غير متحمسة للمبادرة السورية في لبنان » · وقد جاء هذا القول في اطار تحليل كتائبي للوضع في المنطقة ، والمستجدات التي طرأت عقب زيارة السادات الى القدس في تشرين الثاني الماضي ·

في هذه الاثناء ، كان وفد رسمي لبناني قوامه سليمان فرنجية وفؤاد بطرس والمقدم سامي الخطيب يتوجه الى دمشق ويجتمع اولا بخدام وجميل والشهابي ، ثم بالرئيس الاسد ساعة وربع الساعة ، يعود على اثرها الى لبنان ليعقد اجتماعا مع الرئيس سركيس ، بانتظار وصول الوفد السوري والمكون من الثلاثي السوري الذي عالج احداث لبنان منذ العام ١٩٧٥ وحتى اليوم ·

وقبل ان يصل الوفد السوري كانت حدة التصعيد تتضاءل بصدور بيان عن « الجبهة اللبنانية » بحضور العسكريين فيها ، تبدي فيه اسفها للحوادث الاخيرة وتطالب بلجنة تحقيق مشتركة بين مسؤولين سوريين ومسؤولين لبنانيين ، وتناشد الجميع ضبط النفس ، وبيان عن قيادة قوات الردع ابدت فيه اسفها لاضطرار « بعض المضللين والمهووسين ان يدفعوها الى استعمال السلاح الذي جاءت به لحماية هذا الوطن وتركيز امنه » · واكدت ان حادث الفياضية سيبقى محصورا في اطاره العسكري لتحديد المسؤولين الفعليين عنه بالتنسيق مع الجيش · واعلن البيان تشكيل لجنة عسكرية عليا من الجيش اللبناني وقوات الردع العربية لمباشرة تحقيق مسلكي واداري موسع لتحديد المسؤوليات تمهيدا لاتخاذ الاجراءات التأديبية المناسبة ·

واثر ذلك ، عقدت اجتماعات مكثفة بين الوفد السوري والسلطات الرسمية ، شاركت فيها قيادات « الجبهة اللبنانية » ، واسفرت عن الاتفاق على تشكيل محكمة امنية استثنائية مختلطة ، تتولى النظر بكل حوادث الاعتداء على قوات الردع · وقد صدر قانون في هذا الصدد اقره المجلس النيابي وبات ساري المفعول منذ اواسط الشهر الماضي ·

عرضنا ، في ما تقدم ، للجانب الحدي من الصدام المسلح ، يبقى ان نقف على جانبه السياسي ، سواء من حيث المقدمات التي مهدت لها ، او الاطار الذي حكم حدوثها ، او الاسباب التي انتجتها ، حتى نتقدم بعدها الى صياغة بعض التوقعات التي يسمح المسار العام للاحداث باستخلاصها ·

المواجهات الاستراتيجية

لم تكن المواجهة المحدودة التي حدثت مقطوعة الصلة عن الوضع الراهن الذي تجتازه المفاوضات المصرية ـ الاسرائيلية ، والذي يتسم بأربع مميزات :

اولا : اصرار اسرائيل ، مدعوم من قبل الولايات المتحدة ، على « حل » يضمن لها السيطرة العسكرية الساحقة فضلا عن احتلال الارض ، فقد بات واضحا ، منذ زيارة السادات الى القدس ومرورا باجتماعات اللجنتين السياسية والعسكرية ولقاء السادات ـ بيغن في الاسماعيلية ، فضلا عن اللقاءات السرية التي عقدت خلال تلك الفترة ، ان ثمة ثوابت في التصور الاسرائيلي لنوعية « التسوية » يستحيل ان تخضع لاي لون من الوان اعادة النظر ، وفي طليعتها : رفض اعادة سيناء الى رفض التخلي عن مستعمرات رفح ، رفض الانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة ، رفض الدولة الفلسطينية ، رفض الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، رفض اعادة القدس او تقسيمها او تدويلها ٠

واذا وضعنا جانبا مسألة الحقوق الوطنية الفلسطينية ، باعتبار انها غير واردة في البرنامج الساداتي بأي حال ، رغم الضجيج الاعلامي حولها ، وجدنا ان المشروع المقترح بشأن سيناء نفسها يشكل استيلاء قانونيا وعسكريا عليها ، لا صلة له بادعاء السادات « ان لا مشكلة حول سيناء ٠ وقد اتفقنا بشأنها » ٠

ثانيا : انتقال السادات من هزيمة الى اخرى ، بصورة دفعته الى الاكثار من اطلاق نداءات الاستغاثة والمناشدات العاطفية للمسؤولين الاسرائيليين مرة ، وللدول الاوروبية اخرى ، ولليهود الاميركيين ثالثة ، ودفعت وسائل الاعلام الغربية الى التعاطي معه من زاوية الشفقة والملامة بسبب « افراطه في تقديم تنازلات الى الاسرائيليين لاظهار حسن نيته» كما ذهبت اليونايتدبرس الى القول ٠

وتجد هذه الهزائم تفسيرها ، بالاضافة الى عامل التصلب الاسرائيلي ، في عجز النظام المصري نفسه عن « ابتلاع » الحل المعروض عليه ، وتبريره امام الدول العربية التي ساندته او ناهضته ، وامام الرأي العام الداخلي على حد سواء ، وذلك لاسباب عدة ابرزها استمرار وجود قوى في وزارة الخارجية والدفاع ومكتب الرئاسة ، هاجمها مناحيم بيغن اكثر من مرة وحملها مسؤولية تعثر المفاوضات غير مستعدة بعد لمجاراة السادات في كامل خطواته الخيانية ، وراغبة في الحصول على تنازلات اسرائيلية معينة في شأن حدود مصر الاقليمية مقابل التفريط بالحقوق القومية العربية ٠

من كل ذلك ، نخلص الى ان الوضع المصري الداخلي ما زال يحتاج الى تمهيد ومعالجة مديدة ، قبل ان يصبح جاهزا لتلقي الحل الاسرائيلي المفروض ٠

ثالثا : دخول المفاوضات المصرية ـ الاسرائيلية مرحلة الدبلوماسية السرية التي نصح بها كيسنجر ، واستجاب لها كارتر وفانس في بيان شهير لهما ٠

وقد شكل هذا الانعطاف في شكل المفاوضات مخرجا ضروريا للسادات ينقذه من التزاماته العلنية ، ولو لفظية ، بتحقيق الانسحاب الاسرائيلي الكامل من سيناء وانتزاع الاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني ، بعد ان وضعته « دبلوماسية التلفزيون » امام مأزق لا خروج منه ، وسببت له احراجا متزايدا ٠

وليس الاتفاق الذي اقر في كمب ديفيد على اثر عودةالفرد اثرتونالىمنطقة الشرق الاوسط

بمهمة وسيط مكوكي ، الا تعبيرا عن هذا المنهج الجديد ٠

رابعا : تأسيسا على النقطة الثالثة ، يمكن القول ان عناصر الموقف السياسي في المنطقة تدفع باتجاه عقد صفقة منفردة بين مصر واسرائيل ، تشابه اتفاقية سيناء الى حد بعيد ، وان كانت اشد امتهانا للحقوق المصرية واعمق تأثيرا على مستقبل الصراع المصري ـ الاسرائيلي بمجمله ٠

ومما يرجح احتمال عقد هذه الصفقة ، التي تشكل المفاوضات الهادئة ، المتعرجة ، والمديدة افضل اطار لها ، ان احتمالات التسوية الشاملة بالمفهوم الاميركي التقليدي لها ، باتت بعيدة ، وانه يستحيل على السادات التراجع عن خطوته او الاستمرار في المراوحة الى امد غير منظور ، او احداث انعطافة مفاجئة في نهجه السياسي ٠

هذه السمات الاربع للوضع الراهن تسمح لنا بصياغة استنتاجين اساسيين :

١ ـ ان الحل الذي تعمل الولايات المتحدة لفرضه كخاتمة للصراع العربي ـ الاسرائيلي لا يتوجه الى تحقيق لون من الوان التوازن بين اسرائيل والدول العربية على قاعدة تنازلات متبادلة ، بل الى تثبيت الاغتصاب الصهيوني بمكتسباته القديمة والجديدة ، وتكريس دور اسرائيل كوكيل محلي رئيسي للمصالح الامبريالية يخضع له جميع الوكلاء الاخرين في الانظمة العربية التابعة لاميركا ، بعد اخضاعها وتفكيك كياناتها وتثبيت انظمة ضعيفة على رأسها تكتلات سياسية حاكمة ، يرتبط مصيرها بمصير اشد البنى الاجتماعية والسياسية والايديولوجية تخلفا في المجتمع العربي ، ليتأمن خضوعها الكامل للسيطرة الامبريالية ٠

وتجد هذه الخطة العامة تعبيرها الملموس في ان الولايات المتحدة عندما تتعثر المفاوضات او تبلغ ابوابا مسدودة ، او يعجز الطرف العربي عن الاستجابة للشروط المفروضة ، لا تتجه نحو اسرائيل للضغط عليها تأمينا لشروط افضل بل نحو ضرب القوى العربية المعترضة والرافضة ، حتى يمكن تحقيق « التسوية » بالشروط نفسها ، بعد تمهيد المواقع الوطنية التي تهدد باحباطها ٠

وبهذا المعنى فان المساعدة الاميركية الوحيدة للسادات تتلخص في ضرب القوى المناوئة له ، وتفجير الاوضاع في وجهها ، واستنزاف قدراتها العسكرية ، اي تفجير حرب اهلية عربية ، تضعف مواقع المواجهة ، وتعزز مناخ الاستسلام الذي يسمح بتكريس السيطرة الاسرائيلية على أرض الواقع بمواثيق ومعاهدات قانونية مذلة ، ويضمن للولايات المتحدة تثبيت وتجديد وتوسيع السيطرة الامبريالية ، سياسية وعسكرية واقتصادية ، على هذه المنطقة الشديدة الحساسية في المعادلة الدولية ٠

٢ ـ ان الطور الراهن من المفاوضات المصرية ـ الاسرائيلية يشابه الوضع عشية اتفاق سيناء ، حيث ان المطلوب هو تفجير الصراع العسكري في وجه سوريا والمقاومة الفلسطينية ليمكن من جهة انجاز الحل المنفرد والجزئي مع مصر بأقل قدر من الضجة ، وفي ظل عجز القوى الوطنية عن المواجهة ، بفعل انشغالها بأوضاعها الداخلية ، وليصبح ميسورا استكمال الخطة الهادفة الى تطويع الموقع السوري وتصفية المقاومة والحركة الوطنية ٠

وحيث ان الساحة اللبنانية قد تحولت الى ساحة التواجد الرئيسي للمقاومة الفلسطينية ، وساحة الفعل الوطني للحركة الوطنية ، وساحة تنفيذ الحل العربي الذي تتولاه سوريا بصورة مركزية ، فقد بات بديهيا ان تشكل نقطة الجذب للمؤامرة ، وان تستدرج اليها مختلف الخطط

المتصارعة في المنطقة العربية ، وان تتخذ موقفا طبيعيا للمواجهة بين المشروع الاميركي والقوى المناهضة له ٠

ولا تسقط هذه الخطة الاميركية على فراغ داخلي ، او على قوى محلية غير مهيئة لتنفيذها بل تقع على وضع شديد القابلية للانفجار ، ويمكن تعيين ملامحه كالتالي :

اولا : اتخاذ المشروع الانعزالي وضعية هجومية ترمي الى اكساب النظام السياسي المزيد من الصفاء الطائفي على قاعدة الحاق المسلمين بالمسيحيين وتحويل لبنان الى وطن يغلب عليه الطابع المسيحي كليا ليكون اقرب ما يكون الى مفهوم الوطن القومي المسيحي ، الذي يتحقق فيه شطب الوجود الفلسطيني وانهاء التناقض اللبناني ـ الاسرائيلي وتحقيق الانسلاخ الكامل عن العالم العربي ٠

وتحقيقا لهذا المشروع ، كان لا بد من بلورة الشطر المسيحي كمركز فعلي متماسك للبنان ، ومن تكريس الشطر الاسلامي كمجرد اطراف مفككة ، هشة ، تابعة له ، وذلك عبر رفض اخلاء المواقع التقسيمية والاحتفاظ بجميع الاجراءات الاستقلالية ، يقابلها الحاح متصاعد على تبديد الاستقطاب المركزي سياسيا وعسكريا ، في المناطق الوطنية حتي يمكن الحاقها بوصفها اطرافا مفككة ٠

وفي سياق هذه الخطة ، استفادت « الجبهة اللبنانية » من فترة الهدنة المديدة التي وفرها دخول قوات الردع ، حتى تكسب تصورها هذا تعبيراته المادية ، بالضغط على الرئاسة لنقل المؤسسات التربوية والاجتماعية والثقافية ، ولتحقيق استقلال شبه ناجز في المناطق الخاضعة لسيطرتها ٠٠ وخصوصا لاعادة بناء الجيش ، بوصفه مؤسسة المؤسسات ومفتاح الوضع برمته ، على قاعدة صفاء طائفي يجعله لا جيشا طائفيا فحسب بل وجهازا نظاميا تابعا للميليشيات المسلحة ، على المستويين الايديولوجي والعسكري ٠

ولا شك ان تحقيق مثل هذا المشروع ، وخصوصا في جزئه المتعلق بتشكيل مركز مسيحي متماسك يشكل الارضية الصلبة للانقضاض على المناطق الاخرى ، يستدعي بالضرورة اسقاط الحاجز العربي الذي تشكله القوات السورية في المناطق الشرقية ، وفرض الانكفاء عليها نحو المناطق الوطنية ٠

ضمن هذا المنظور ، تكتسب تصريحات قادة « الجبهة اللبنانية » عن قيام « الجيش الجديد » وضرورة انهاء خدمات الردع واسترداد مسؤولية الامن معناها الفعلي واهدافها البعيدة المدى ، ويصبح مفهوما سبب هذه الهبة المفاجئة للدفاع عن « عنفوان الجيش وعزته وكرامته » ٠

ثانيا : بلوغ مختلف مشاريع الوفاق السياسي ابوابا مسدودة ، بعدما تبين بوضوح ان الوفاق الذي ترتضيه « الجبهة اللبنانية » هو ذاك الذي يحقق مشروعها بالكامل ، ويوفر عليها افتتاح مواجهة جديدة لتحقيقه بقوة السلاح ٠ وليست خلوة زغرتا ، باصرارها على اعتبار الوجود الفلسطيني عائقا دون الحوار وتشديدها على وظيفة مشبوهة للجيش ، ورفضها الاعتراف بعروبة لبنان الا نموذجا من عشرات سواه ٠

كما تبين ، أيضا ، صعوبة العثور على رديف اسلامي يوافق على هذا البرنامج ، مهما كانت استعدادات رموزه السياسية لمغادرة الحد الادنى من الموقع الوطني والالتحاق بالجبهة٠ أليس اضطرار القادة التقليديين في هذا الشارع الى انتقاد بيان خلوة زغرتا دليلا ملموسا على ان برنامج الجبهة ما زال عاجزا عن ان يشكل ارضية لقاء مع هذه القيادات ، الامر

الذي استدعى جوزف الهاشم ان يقوم بنقد ذاتي في « العمل » معتبرا ان بيان الخلوة « اعاق امكانيات تحرر الشارع الاسلامي » عوض ان يغذيها ٠

ثالثا : اتخاذ الوجود السوري في لبنان بدوره ، وضعية الهجوم الاستراتيجي بفعل استعدادات النظام المصري للخروج من دائرة الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وبفعل الشعور المتزايد لدى النظام السوري بانعدام وجود فرص للتسوية في ظل الميزان الراهن للقوى ، تحفظ له الحدود الدنيا من حقوقه الوطنية في الجولان ، الامر الذي يمنح وجوده على الساحة اللبنانية اهمية استثنائية ٠

ولعل نمو مثل هذا الشعور ، منذ دخول الردع حتى اليوم ، هو الذي يقف وراء التغييرات الملموسة في النهج العام لهذا النظام ،والتي عبرت عن نفسها باشتراكه في قمتي « الصمود والتصدي » واتجاهه نحو تعزيز تحالفه مع الاتحاد السوفياتي والمقاومة الفلسطينية ٠

من كل ذلك ، نخلص الى تحديد اللحظة السياسية التي حدث فيها التصادم :

لقد حدث التصادم بين الوجود السوري ، وقوات « الجبهة اللبنانية » في لحظة يستكمل فيها قادة المشروع الانعزالي انشاء مركز طائفي متماسك ، تمهيدا لاستئناف القتال وبسط الهيمنة الشاملة على البلاد ، وكجزء من الخطة الاميركية لتمرير اتفاق منفرد جديد ، لتطويع الموقع السوري وضرب الوجود الوطني الفلسطيني واللبناني ، ويولي فيها النظام السوري اهمية مركزية لاستمرار تواجده على الساحة اللبنانية بوصفها ساحة الدفاع الامامية عن النظام نفسه ٠

كان لا بد ، اذن ، من ان يحصل هذا الاصطدام بوصفه نتيجة حتمية لتصادم مشروعين سياسيين ، في لحظة شديدة الحساسية بالنسبة لكلا الطرفين ٠

وكان لا بد ان يحصل هذا الصدام حول موضوع الجيش تحديدا ، بسبب الموقع المركزي الذي يحتله في المشروع الانعزالي ـ كما في المشروع السوري ٠

فبالنسبة « للجبهة اللبنانية » ، يمثل الجيش دورا اساسيا في تثبيت الارجحية المسيحية داخل النظام السياسي اللبناني ، وفي المحافظة على الامتيازات الطائفية التي تطال الجناح المسيحي الحاكم ٠

والجبهة ، في تصورها هذا ، وفية للوظيفة التي حددت للجيش منذ ميثاق العام ١٩٤٣ وللتركيبة الداخلية التي قام عليها ٠

فمنذ ميثاق ٤٣ ، جرى توجيه الجيش لاداء مهمات القمع الداخلي بعد انتهاج سياسة الانسحاب من الصراع العربي ـ الاسرائيلي باسم العجز القسري مرة ، والدور الاعلامي « المميز » للبنان ، مرة اخرى ٠ وعلى مستوى تركيبته كان ثمة حرص دائم على تغليب الطابع المسيحي على القيادة بعد غلبتها على مستوى القرار السياسي الذي تخضع له المؤسسة العسكرية ٠

ورغم التحديثات التي ادخلتها الشهابية على الجيش ، غير انه استمر يؤدي وظيفة المواجهة الداخلية للتيار الوطني وحماية الامتيازات الطائفية ٠ وفي مواجهات العامين ٦٩ و ٧٣ تعززت هذه الوجهة التي نزعت عن الجيش طابعه الوطني العام ، ودمغته بالفئوية والطابع الطائفي ٠

ومع بداية الاحداث ، نشأت الميليشيات العسكرية بهدف تصليب الجيش وتشكيل قوة عسكرية الى يمينه ، تنوب عنه في تنفيذ المهمات التي يعجز عن ادائها بفعل بعض التوازنات التي ما زالت تحكمه ، وبسبب تولي قيادات سياسية ترفض زجه في الحرب الاهلية ٠

هذه اللمحة الشديدة الايجاز تعيننا على فهم الوظيفة المطلوبة في الجيش في اطار المشروع الانعزالي ، بما هي وظيفة مساعدة ودعم العمود الفقري المسلح الذي انشأته الجبهة ، والمتمثل بالميلشيات ٠ فالمطلوب من الجيش ان يكون ملحقا تابعا ، نظاميا، لجيش اخر اكتسب مؤهلات القتال وبات قادرا على المواجهة ٠

وتحقيقا لذلك ، فقد ضغطت الجبهة على الشرعية لتسلك مسلكا يقوم على اربعة محاور :

١ـ الانصراف الى اعادة بناء المجموعات العسكرية المتواجدة في المناطق الشرقية ، تسليحا وتدريبا وتجهيزا ، مقابل اتباع سياسة اهمال منظمة حيال المجموعات المتواجدة في مناطق نفوذ القوى الوطنية ٠

٢ ـ تزويد هذا الفريق من الجيش بأسلحة اميركية حديثة ، اشترطت الولايات المتحدة لتسليمها الا توضع في أمكنة ومخازن يسهل على الفريق الوطني والفلسطيني مصادرتها ، عند أية مواجهة عسكرية جديدة ٠

٣ ـ تنسيب مجموعات كبيرة من العناصر الحزبية المنتمية الى الكتائب والاحرار في حملة التطويع التي باشرتها القيادة منذ فترة ٠

٤ ـ اجاطة هذا « الجهد » بسرية مطلقة ، لاختيار وقت مناسب ، كما جرى تماما ، يصار فيه الى رفع الستار عن موضوع الجيش ، فاذا به قد استعاد تجهيزه وتدريبه وانضباطيته في المناطق الشرقية بينما يقبع الجنود والرتباء المتواجدون في ثكنات الغربية في حالة من الفوضى وانعدام التدريب والتسليح ٠

واذا رغبنا في اطلاق وصف على وظيفة الجيش ، كما يتبدى في المشروع الانعزالي ، لم نجد افضل من وصف « العمل » له بالقول : « لم يكن مقبولا او معقولا العودة الى بناء جيش من فخار يتحطم امام اي مواجهة ٠ لقد خلق لبنان جديد ٠ وهو موجود وبحاجة الى رعاية الشرعية ٠ لبنان الجديد هو الذي لا تتكرر فيه المأساة في كل مناسبة والذي يعرف جيشه واجباته والتزاماته فلا يقوم حولها اي اشكال » ٠ (العمل ٣ شباط ٧٨)

وبالنسبة للمشروع السوري ، يمثل الجيش بدوره حلقة مركزية من حلقات ضبط الوضع على الساحة اللبنانية وامتلاك مفاتيحها ، وذلككرديف للقوات السورية يحل محلها عند انتهاء مهمتها ٠

ومنذ الشهور الاولى للاحداث ، نشأ لدى القيادة السورية مشروع لاعادة بناء الجيش حول نواة « الطلائع » ، وبما يجعل ولاءه السياسي غير متعارض مع الخط السوري ٠ وقد استمر هذا النهج يتعايش مع المشروع الانعزالي بشأن الجيش ، بدون تصادم ، حتى قطعت عملية بناء الجيش ، بمواصفات « الجبهة اللبنانية » ، اشواطا جعلت التعايش مستحيلا او شبه مستحيل ٠ فكان الصدام ٠

والان ، بعد توقف الاشتباكات ، وانشاء المحكمة الاستثنائية كيف نرى الوضع ؟

نبدأ بالقول ان انشاء المحكمة جاء في الواقع نتاجا لتسوية (والتعبير لجريدة

« العمل ») بين القيادة السورية « والجبهة اللبنانية » لا تحقق كامل المطالب السورية التي رفعت اثر الاشتباكات ، لكنها لا تؤكد سلطة الجبهة المطلقة على الجيش « الجديد » ٠

فالمهم في هذه التسوية انها تؤكد الحق المبدئي لسوريا في التدخل بكيفية اعادة بناء الجيش وتسمح لها بتسييج الوجود الامني للردع بصورة قانونية ٠

ويبدو ، من خلال السياق العام للاحداث ، ان الجبهة قد اضطرت اليها ، بفعل عدم حصولها على الضوء الاخضر النهائي لافتتاح الطور الجديد من اطوار الصراع ، وان كانت تتمتع بموافقة اكيدة على اشغال الوجود السوري ، وارباكه واستنزافه ، وذلك كخطوة اولى على طريق تفجير الوضع في وجهه ٠

لقد دشن الصدام المسلح مرحلة جديدة من مراحل العلاقة بين « الجبهة اللبنانية » والوجود السوري ، تتميز بمواجهات محدودة ، مضبوطة ، متعددة ، متفاوتة الحجم ، اذا كانت تقع تحت سقف المواجهة الشاملة ، غير انها تشكل التمهيد الضروري لها ، والمقدمة المتعددة لاغراق المنطقة في بحار جديدة من الدماء ٠

خليـــل بركات

الجنوب بين الهجرة والتهجير

كان لاحتلال الصهاينة لفلسطين عام ١٩٤٨ آثاره الاقتصادية الضارة على جنوبي لبنان، بالاضافة الى النتائج الخطيرة لهذا الاحتلال على الامة العربية ككل ومنها الجنوب . ذلك ان جنوبي لبنان كانت تربطه بفلسطين علاقات تجارية واقتصادية وحياتية واسعة انقطعت مع بدء الاحتلال . اذ قلما نجد رجلا تجاوز الخمسين من عمره ، من ابناء الجنوب ، الا وذهب الى فلسطين قبل عام ١٩٤٨حيث عمل فيها من أجل تحصيل مورد زرقه ومساعدة أهله وأعالة بيته ، بحيث يمكن القول ان ابناء ذلك الجيل كانوا يعرفون حيفا ويافا وغيرها من مدن فلسطين أكثر مما كانوا يعرفون بيروت وغيرها من مدن لبنان ، خارج الجنوب . من هنا ، كانت الاضرار الاقتصادية التي لحقت بالجنوب على أثر الاحتلال كبيرة ، بحيث نتج عنها انفتاح هجرة ابناء الجنوب نحو العاصمة بيروت حيث اقاموا في الضواحي مشكلين ما يسمى بحزام البؤس في برج حمود ، والنبعة ، وتل الزعتر ، والمسلخ ـ وهذه المناطق جميعها « طهرها » الانعزاليون في اواخر عام ١٩٧٦ من الفلسطينيين والجنوبيين ـ والشياح وبرج البراجنة . كما هاجر قسم منهم الى افريقيا للعمل فيها .

وبالمقابل لم تعتمد السلطة اللبنانية ، بعد احتلال فلسطين ، سياسة انمائية تهدف الى تثبيت أبناء الجنوب في قراهم ، ولا اعتمدت سياسة دفاعية تسهم في الدفاع عن المنطقة ، في وجه المطامع الصهيونية التوسعية . فبقي الجنوب من جراء ذلك منطقة تعتمد على الزراعات التقليدية ، بوسائل بدائية ، الى جانب زراعة التبغ التي باتت فيما بعد تشكل المورد شبه الوحيد لابناء الجنوب المقيمين في المنطقة بعد أن تراجعت كثيرا زراعة الحبوب الى جانب الدخل الناتج عن الحرف الصغيرة ووظائف الدولة وبصورة خاصة قطاع التعليم . أما في الجانب الدفاعي ، فلم توفر الدولة الملاجىء الكافية والمطلوبة لايواء المواطنين عند حصول اعتداء اسرائيلي ، ولا عملت على تعبئة المواطنين معنويا ، وتدريبهم وتسليحهم عسكريا كما هو الحال في المستعمرات الصهيونية في الجهة المقابلة من الحدود، وانما كانت سياستها تقوم على معارضة بناء الملاجىء التي تقوم بها الهيئات الوطنية « كالمؤتمر الوطني لدعم الجنوب » ومحاولة منع اكمالها كما جرى في قرية « تولين » عام

١٩٧٢ وتحريض المواطنين عليها ، الى جانب ملاحقة كل من يشتم منه أنه أقدم على التدريب أو وصلت معلومات عنه من قبل المخبرين ، ان في حوزته سلاحا · وهكذا بقي الجنوب منذ عام ١٩٤٨ منطقة فقيرة تعتمد على الزراعة البعلية ، على الرغم من مرور مياه الليطاني في اراضيه والتي تطمع بها « اسرائيل » ، وعلى الرغم من انشاء « مصلحة الليطاني » منذ عام ١٩٥٤ والتي انشئت في حينه من أجل استثمار مياه الليطاني في الجنوب فبقيت مشاريع المصلحة منذ ذلك الحين حبرا على ورق · كما بقي الجنوب خاليا من تواجد المؤسسات الصناعية على ارضه ، حتى ان مصانع شركة الريجي التي تعتمد على زراعة التبغ في الجنوب اقيمت في « الحدث » و « بكفيا » و « الخنشارة » بدلا من اقامتها في النبطية وصوروغيرهامن مدن الجنوب · كذلك بقيت حدود الجنوب مفتوحة أمام العدو الصهيوني بحيث بات المواطن الجنوبي يشعر بأنه تحت رحمة الجنود الصهاينة ·

النزوح ما بين ١٩٦٧ ـ ١٩٧٥

بعد تواجد العمل الفدائي في لبنان اثر هزيمة الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ دخل جنوب لبنان مرحلة جديدة كان من المفروض أن تؤخذ بعين الاعتبار من جانب الحركة الوطنية في لبنان ، بحيث يصبح الجنوب محورا لنضالها الوطني ، اي انه كان ينبغي ان تعطى قضية الجنوب الاولوية في برامج الاحزاب الوطنية منذ ذلك الحين ، الامر الذي كان يتطلب بالضرورة العمل الجاد من أجل وضع برنامج للصمود الوطني في الجنوب ، والعمل على تنفيذه خطوة خطوة بحيث يصل الجنوب الى حالة تتوفر فيها الحدود الدنيا من مستلزمات الصمود للمواطن ، تمكنه من مواجهة الصعوبات في المجالات المعيشية والاجتماعية والدفاعية والامنية الناتجة عن تزايد الاعتداءات الصهيونية ، دون أن يعفي ذلك طبعا ، الدولة من واجباتها تجاه المواطن الجنوبي ·

لذلك فانه كان من المفروض ان تسهم القوى القومية ، والتقدمية ، الرسمية منها والشعبية ، في الوطن العربي في تحمل مسؤولية توفير مستلزمات الصمود هذه ، ذلك ان قضية جنوبي لبنان ، باتت منذ ذلك الحين ، قضية قومية ملتصقة التصاقا صميما بقضية فلسطين اكثر من أي وقت مضى ·

ولقد كان « المؤتمر الوطني لدعم الجنوب » الذي انطلق في اواخر عام سنة ١٩٦٩ الصيغة الوحيدة الجادة على طريق الصمود من خلال البرنامج العملي الذي طرحه للعمل في الجنوب · الا ان « المؤتمر » لم يستطع ترجمة هذا البرنامج الى واقع ملموس ، الا في حدود جزئية ، نظرا لعدم توفر الامكانات اللازمة لديه · ومن المؤسف ان هذه الصيغة، جوبهت بمعارضة شديدة من قبل بعض القوى الوطنية ، التي وصفت اعمال « المؤتمر » ، بأنها نوع من « المشاريع الخيرية » التي هي من اختصاص الجمعيات الخيرية واجهزة الدولة · هذا في الوقت الذي كانت فيه اجهزة الدولة تعمل على محاصرة « المؤتمر » وتحد من نشاطاته في الجنوب ·

ان غياب التوجه الجاد محليا وعربيا لتوفير مستلزمات الصمود للمواطن الجنوبي ، وعدم اكتراث الدولة بذلك ، كان سببا هاما دفع بقسم كبير من المواطنين في منطقة العرقوب وحاصبيا على الهجرة في الفترة ما بين ١٩٦٩ ـ ١٩٧٥ · وذلك ان المواطن في هذه المنطقة وجد نفسه يواجه الاعتداءات الصهيونية المتصاعدة ، برا وجوا ، دون ان تتوفر لديه الحدود الدنيا من مستلزمات الصمود · لقد بلغ عدد المواطنين الذين هجروا

من منطقة العرقوب ـ حاصبيا بسبب تلك الاعتداءات زهاء سبعة عشر الف نسمة اي ما يعادل نسبة اربعين بالمئة من مجموع سكان المنطقة الذين كانوا مقيمين فيها قبل التهجير ٠ وفي شهر كانون الثاني ١٩٧٥ تصاعدت الاعتداءات الصهيونية ، فبلغت حدتها بتدمير عدد وافر من المنازل في قرية « كفرشوبا » ، وتصديع القسم الاكبر من المنازل المتبقية بحيث اصبحت غير صالحة للسكن ، الامر الذي ادى الى هجرة جميع ابناء البلدة في حينه ٠

الوضع السكاني في الفترة ما بين نيسان ١٩٧٥ ـ تشرين الاول ١٩٧٦ :

عندما بدأ تنفيذ المؤامرة في ١٣ نيسان ١٩٧٥ ، توتر الوضع الامني في بيروت والضواحي ٠ ثم امتدت الحرب لتشمل معظم المناطق اللبنانية ، بحيث اصبح الوضع الامني في الجنوب ، نسبيا ، افضل منه في بقية المناطق اللبنانية الاخرى ٠ ذلك ان العدو الصهيوني جمد اعتداءاته ، مؤقتا ، على الجنوب ، واكتفى بمد ادوات المؤامرة ، من الانعزاليين في الداخل ، بالمساعدات العسكرية والمادية ٠ وهذا ما أعترف به المسؤولون الصهاينة فيما بعد ، في العديد من تصريحاتهم ٠

لقد كانت حالة الانفراج النسبي هذه ، سببا مباشرا للنزوح من بيروت والضواحي باتجاه الجنوب ، حيث شهدت المنطقة في صيف عام ١٩٧٦ اكتظاظا بالسكان لم تشهده من قبل ، اذ ضاقت منازل القرى بالمواطنين الوافدين الى الجنوب ، فاستخدمت مباني المدارس ، فضلا عن النوادي الحسينية ، وكل زاوية يمكن أن تصلح للسكن ، من أجل أيواء المواطنين فيها ٠ وبلغ عدد المقيمين في منطقة الجنوب في هذه الفترة حوالي مليون ومئة الف نسمة ، اي اكثر من ثلث سكان لبنان بكامله ٠ ونتج عن هذه الكثافة السكانية ازمة حادة في المجالات التموينية والصحية ، في الوقت الذي كانت مرافىء الجنوب تعاني من حالة حصار تضربها السفن الحربية الصهيونية ، بغية الضغط على المعسكر الوطني وخلق حالة من النقمة الشعبية ضد الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية ٠ واقدم العدو الصهيوني ، في هذا الوقت بالذات ، على اقامة ما يسمى « بالجدار الطيب » محاولا الاستفادة من الظروف المعيشية والتموينية والصحية السيئة في المنطقة ، واعلن استعداده لتلبية تلك الحاجات بادئا بالحاجات الصحية ، ثم المائية والتموينية ، وذلك تحت شعار من « المشاعر الانسانية » المزيفة ٠

لقد اراد العدو من فتح هذه البوابات ، دفع المواطن في الجنوب الى التعامل معه ، تحت ضغط الحاجة ، من أجل تحطيم الحاجز النفسي لديه ، وانتزاع الروح العدائية من نفسه ، على أمل الانتقال فيما بعد الى مرحلة التعامل الواسع الذي يهيء للعدو المناخ الملائم لتحقيق اطماعه في الجنوب ، وعلى مراحل ٠

وشكلت سياسة العدو الصهيوني هذه ، حافزا دفع المعسكر الوطني الى زيادة الاهتمام بصورة ملحوظة بالاوضاع التموينية والصحية للمنطقة ، في وقت وصلت فيه الازمة الى مرحلة حادة ٠ وادى هذا الاهتمام الى تفشيل سياسة « البوابات المفتوحة » التي اتبعها العدو ٠ فشكلت « اللجنة الصحية العليا في الجنوب » من جميع الهيئات الرسمية منها والشعبية ، العاملة في الحقل الصحي ٠ واستطاعت بدعم من الثورة الفلسطينية ان تعيد تشغيل جميع مستوصفات المنطقة ، وتفتح المزيد منها ، بعد ان كان معظمها قد اقفل بسبب الحاجة الى الدواء والاطباء ٠

لقد ادى اهتمام الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية باوضاع الجنوب ، الى التخفيف

من حدة الازمة . اذ لم يكن بالمستطاع حلها حلا شاملا في ظل الاوضاع القائمة آنـذاك الا انه كان بالامكان استثمار هذا الاهتمام بصورة افضل ، فيما لو احسن اشراك الجماهير في تسيير شؤونها في مختلف الحقول ، وافساح المجال امامها للمشاركة في تحمل المسؤولية ، خاصة في القضايا التموينية ، وعدم حصر هذه المشاركة بالعناصر المنتمية الى التنظيمات الوطنية ومن هم حولها فقط . ذلك ان من نتائج هذه المشاركة ، حماية هذه التنظيمات من العديد من التهم التي انصبت عليها بسبب عدم كفاية التموين لسد حاجات المواطنين بصورة كاملة . فضلا عن ان مبدأ المشاركة هو الاساس لاي عمل او تحرك بين الجماهير خاصة في الظروف الصعبة ، وكي لا تستنفذ جهود المنتمين الى التنظيمات في الامور الادارية .

الوضع السكاني بعد تشرين الاول ١٩٧٦

على اثر قرارات مؤتمري الرياض والقاهرة في تشرين الاول ١٩٧٦ ، توقف القتال في بيروت والضواحي وبقية المناطق اللبنانية خارج الجنوب . وبدأت الحياة الاقتصادية تعود تدريجيا ، ودعي العمال والموظفون الى الالتحاق بوظائفهم ، الامر الذي شجع على عودة الكثيرين من ابناء الجنوب المرتبطين بوظائف واعمال في العاصمة والضواحي الى بيروت . وهكذا عادت نسبة التواجد السكاني في المنطقة الى ما كانت عليه قبل الاحداث، في منتصف تشرين الثاني ١٩٧٦ .

وبعد هذا التاريخ ، بدأ الانعزاليون يحضرون بشكل جدي لنقل المؤامرة الى الجنوب ، بالتعاون الصريح والمباشر مع العدو الصهيوني ، مستفيدين من ظرف عدم تمكن قوات الردع العربية من الانتقال الى المناطق الامامية في الجنوب . وكان ذلك تحت شعار «تحرير كل لبنان من الفلسطينيين والمتعاونين معهم من اليساريين ، انطلاقا من الجنوب » ، اطلقه بشير الجميل قائد القوات الانعزالية الموحدة ، ورردده فيما بعد العديد من المسؤولين في الجبهة الانعزالية .

لقد كان من الواضح ان انفجار القتال في لبنان ، في ١٣ نيسان ١٩٧٥ ، هو مؤامرة صهيونية ــ أميركية ــ رجعية ، تستهدف ضرب الثورة الفلسطينية وحركة التحرر العربي في لبنان والمنطقة ، وتصفية قضية فلسطين ، واشغال العرب في صراعات محلية تؤدي الى انهاك الامة العربية وتفتيتها ، مستفيدة من ظروف التراضي والاستسلام في المنطقة العربية . كذلك فانه من الواضح أيضا أن نقل المعركة الى الجنوب ، وتوسيعها ، في ظل الحماية والمساندة الصهيونية ، يستهدف بالاضافة الى ذلك ، الضغط داخليا من اجل الاستجابة لمطالب الجبهة الانعزالية التي تسعى في جملة ما تسعى اليه تكريس الامتيازات الطائفية ، بحيث يتم بناء الدولة وفق تصوراتها الهادفة الى السيطرة على كل لبنان ، وطمس عروبته ، تحت التهديد والتهويل بالتقسيم . وكذلك الضغط عربيا ، من خلال التعاون مع الصهاينة ، لخلق الاجواء المؤاتية لتصفية الوجود الفلسطيني ، المسلح وغير المسلح ، والذي اخل على حد زعمهم « بالتوازن » الداخلي في لبنان ، وشجع المسلمين على رفع شعارات المشاركة في مختلف شؤون الحكم والوظيفة .

ولقد كانت الجبهة الانعزالية ترى ، ان نقل المعركة الى الجنوب سوف يؤدي الى خلق اجواء ضاغطة على المعسكر الوطني في المنطقة ، لن تعاني هي منه الا القليل ، لانوجودها ينحصر فقط في عدة قرى مسيحية . ولذلك فان حجم الاضرار التي يمكن ان تلحق بسكان

هذه القرى سوف يكون ضئيلاً اذا ما قيس بالاضرار التي تلحق بالسكان في العشرات من القرى الاخرى ٠

ان دراسة احصائية تقريبية تبين ان حوالي ثمانية الاف نسمة تركوا قراهم في «القليعة» و « برج الملوك » ، و « عين ابل » ، و « دبل » ، و « رميش » ، و « علما الشعب » ، وهي القرى التي تعتبر محسوبة على الجانب الانعزالي ، وبقي فيها جميعها حوالي ستة الاف نسمة ٠ يقابل ذلك نزوح حوالي مئة وعشرين الف نسمة من المدن والقرى التالية : الخيام ، مرجعيون ، دبين ، بلاط ، ابل السقي ، دير ميماس ، كفركلا ، عديسة ، الطيبة ، رب ثلاثين ، القصير ، دير سريان ، القنطرة ، بنت جبيل ، الطيري ، عيناتا ، كونين ، رشاف ، صربين ، حانين ، عيتا الشعب ، راميه ، مروحين ، البستان ، الزلوطية ، يارين ، الضهيرة ، الناقورة ، ضهر البياضة ، شمع ، طير حرفا ، الجبين ، شيحين ، النبطية ، حبوش ، كفرتبنيت ، يحمر ، زوطر الشرقية ، زوطر الغربية ، ارنون ، زبدين ، دير الزهراني ٠

والجدير بالذكر ان هذه الاحصائية هي غير ثابتة ، فهي تزيد وتنقص بحسب ما يطرأ من تغييرات على الصعيد الامني في المنطقة ٠ فعندما يتوقف القصف الانعزالي ـ الصهيوني لمدة تزيد على خمسة عشر يوما تبدأ محاولات العودة الى القرى ويتقلص عدد النازحين جزئيا ٠ أما في حال اشتداد القصف فان عدد النازحين يصل الى حدود المئة واربعين الف نسمة ٠

كذلك ، لا بد من الاشارة ، الى ان سكان قريتي « حانين » ـ قضاء بنت جبيل ـ و « يارين » » ـ قضاء صور ـ قد هجروا على أيدي الانعزاليين بعد وقوع مجازر فيهما ٠ لقد هاجم الانعزاليون قرية « حانين » في تشرين الاول ١٩٧٦ ، وشردوا أهلها بعد ان قتلوا منهم سبعة اشخاص ، كما هاجموا قرية « يارين » في شهر تموز ١٩٧٧ وقتلوا سبعة عشر مواطنا ، على الرغم من اتفاق سكان القرية مع الانعزاليين على تحييد قريتهم ٠ كما ان قرى « الطيبة » و « رب ثلاثين » و « يارين » و « البستان » و « مروحين » اصبحت غير صالحة للسكن بعد ان تصدعت معظم منازلها بسبب شدة القصف الانعزالي ـ الصهيوني عليها ٠

ان الهجرة الواسعة التي يشهدها الجنوب : منذ اكثر من سنة ، نحو القرى الخلفية ونحو بيروت ، تعود اسبابها الموضوعية الى ما يلي :

اولا : تردي الاحوال الامنية :

ان القصف الذي تتعرض له القرى ، مع عدم وجود ملاجيء فيها ، يجعل المواطن مكشوفا أمام الاخطار ٠ خاصة وان المنازل في القرى تتكون عادة من طابق ارضي واحد ٠ هذا بالاضافة الى ان القصف يستهدف المنازل بقصد التهجير ، الامر الذي يكشف الابعاد السياسية للتحالف الانعزالي ـ الصهيوني ٠

ثانيا : تردي الاحوال المعيشية :

لقد تعرضت زراعة التبغ لاضرار كبيرة نتيجة للظروف الامنية التي تشهدها المنطقة ٠

ذلك ان حوالي خمسين في المئة من رخص الزراعة بقيت في العام الماضي ، وستبقى ايضا هذا العام ، غير مستثمرة ، الامر الذي يعني بقاء نصف المزارعين تقريبا بلا مداخيل حقيقية مما يشكل بالتالي سببا رئيسيا للهجرة والتفتيش عن مورد للرزق ·

كذلك ، فان زيادة كلفة زراعة التبغ ، جاءت تشكل عاملا اضافيا الى جانب العامل الامني دفع بقسم من المزارعين الى ترك هذه الزراعة مؤقتا · فزراعة التبغ تعتمد في مراحلها الاولى على المياه ، وبسبب تعطل « مصلحة مياه جبل عامل » التي تؤمن المياه لقضائي « مرجعيون » و « بنت جبيل » كان المزارع يدفع في العام الماضي ، نفقات باهظة تصل الى الثلاثمائة ليرة لبنانية بدل نقلة المياه الواحدة في خزان الشاحنة ، لايصالها الى القرى الامامية في « مركبا » و « ميس الجبل و « حولا » وغيرها · وهذه النفقات ، بالاضافة الى الارتفاع في الاسعار الذي طرأ على المواد الكيماوية وغيرها ، تعتبر باهظة اذا ما قيست بمعدل الاسعار الذي تدفعه شركة الريجي للكيلو الواحد من التبغ الى المزارع ، الامر الذي بات لا يشجع على الاستمرار في زراعة التبغ في الظروف الراهنة التي يعيشها الجنوب ·

لقد كان بامكان القوى الوطنية ان تحل ازمة المياه التي تعاني منها منطقتي « بنت جبيل » ، و « مرجعيون » ، وذلك بحفر عدة ابار ارتوازية ، وضخ المياه منها بواسطة شبكة « مصلحة مياه جبل عامل » ، وايصالها الى القرى ، لسد حاجة المواطنين من المياه في الحدود الدنيا ، بعد ان ثبت اهمال الدولة المتعمد لحل هذه الازمة · الا ان هذا المشروع على أهميته الكبرى ، بالنسبة للمواطن والقوى الوطنية ، لم يعط الاهتمام المطلوب من قبل اطراف المعسكر الوطني ، على الرغم من توفر الاموال الكافية لشراء « حفارة » للتنقيب عن المياه ، فيما لو اعطي هذا المشروع الاولوية بالنسبة لغيره من المشاريع التي انجزت في المنطقة · ذلك انه بذلت جهود ، عن طريق الثورة الفلسطينية ، لتلزيم المشروع ، الا انها لم تؤد الى نتائج عملية حتى الان على الرغم من توقيع عقد التلزيم ، بحجة ان الملتزم لم يتمكن بعد من اقناع احد من اصحاب الحفارات بالعمل في المنطقة المنوي الحفر فيها ·

كذلك فان حالة الشلل التي أصابت الكثير من المدارس في القرى ، كانت ولا تزال ، تشكل سببا يدفع بالاهالي الى ترك قراهم والالتجاء الى قرى خلفية ، والى بيروت لتعليم ابنائهم في مدارسها ·

ثالثا – ضعف التعبئة الوطنية :

في ظل الظروف الصعبة التي يعيشها المواطن في الجنوب ، كان من المهم ان تأخذ التعبئة الوطنية مداها ، من أجل الوصول الى حالة من النهوض الجماهيري ، واثارة الحماس الوطني · الا ان ذلك لم يحصل ، فبقي المواطن يعاني من الازمات النفسية والمعيشية ويتملكه شعور داخلي بأنه يواجه لوحده ، كل نتائج الحرب دون اهتمام جدي بأوضاعه ، هذا الى جانب التجاوزات والاخطاء التي تحصل من قبل مسلحين محسوبين على الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية والتي تنعكس بصورة سلبية عليه وهو الذي يعيش حالة من التوتر النفسي منذ زمن · وسط هذا الجو تنشط القوى المعادية وتقوم بعملية تعبئة مضادة ، مستفيدة من كل الظروف السلبية ، بغية التحريض على الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية · وتتعالى اصوات هذه القوى ، بالتنسيق والتفاهم مع الجبهة الانعزالية ، مظهرة « غيرتها » الكاذبة على الجنوب ، وابناء الجنوب ، وهي التي لاذت بالصمت ولم يرتفع

صوتها بالاستنكار او الاحتجاج على المجازر التي ارتكبها الانعزاليون في « حانين » و « يارين » ، ولا على ما أصاب ابناء الجنوب ، على أيدي الانعزاليين ، في تل الزعتر ، وبرج حمود ، والنبعة ، والمسلخ ، ولا على تعاون الانعزاليين مع العدو الصهيوني ونقلهم الفتنة الى الجنوب ، ولا على الطروحات التي ما زالت تطرحها الجبهة الانعزالية ، والتي تعلن فيها استمرارها بالمحافظة على نهجها السياسي ، الامر الذي يبقي الجنوب ولبنان على حافة الخطر ٠

ان ضعف التعبئة الوطنية ، والنشاط الذي تبذله القوى المعادية في التعبئة المضادة ، ترك اثارا سلبية على المواطن الجنوبي ، مما اضعف من صموده ودفع به الى الهجرة ٠

احمد صدقي الدجاني

نظرة تحليلية في تاريخ فلسطين

(١) فجر التاريخ

تكررت مع بروز قضية فلسطين محاولات الكتابة في تاريخ فلسطين عبر العصور· ومن هنا فموضوع هذه الدراسة التي تتناول هذا التاريخ بنظرة تحليلية ليس جديدا ، وقد شعرت بالحاجة الملحة لمعالجته مع دخول قضية فلسطين مرحلة جديدة بعد حرب رمضان لجملة اسباب ، اشير من بينها الى سببين ·

الاول : استذكار عبرة التاريخ وتوظيفها في فهم ما يجري ورسم معالم طريق بلوغ اهدافنا ·

الاخر : تعريف الجمهور بالحقائق التاريخية التي تتعرض على يد الصهاينة لكثير من التحريف والتزييف في محاولتهم ايجاد سند تاريخي لغزوتهم الاستعمارية السكنية لارض فلسطين ·

وقد الح علي الشعور بالحاجة الى نشر هذه الدراسة بمناسبة الاحداث الاخيرة التي نعيشها · وذلك بما تحمله هذه الاحداث من تأثير على مسار القضية ، وما يرافقها من ادعاءات صهيونية تتحدث عن التاريخ ·

حين نلقي نظرة فاحصة على تاريخ فلسطين بهدف التعرف على « بعد الزمان » في قضية فلسطين ، تبرز امامنا منذ الوهلة الاولى حقيقة توغل هذا التاريخ في القدم · فهو لا يقف في مداه الى بدء عصر الكتابة في فلسطين اوائل الالف الثالث قبل الميلاد ، بل يتجاوزه الى عصور ما قبل التاريخ التي شهدت ظهور الانسان الحديث Homo Sapians في فلسطين ·

وتبرز النظرة الفاحصة ايضا حقيقة ان تاريخ الرقعة التي تحمل اسم فلسطين هو جزء لا يتجزأ من تاريخ سوريا بكاملها وتاريخ منطقة الوطن العربي عموما،

وهذه الحقيقة تجعل من المتعذر الفصل بين تاريخ فلسطين وتاريـــخ المنطقة ، وتقتضي منا حين نركز على تاريخ فلسطين ان نضع في اعتبارنا ما كان يمــوج به تاريخ المنطقة من أحداث ٠

ولعل اول ما يتبادر الى الذهن ويلفت النظر من خلال هذه النظرة الفاحصة المكانة التي احتلتها فلسطين في التاريخ الانساني ٠ وذلك باعتبارها الارض المقدسة التي تتجه اليها انظار معتنقي الديانات السماوية ، والتي كان فضلها عـلى رقي البشرية فكريـــا وروحيا أجـل شأنا من فضل اي بلـد آخـر ٠ ولقد عمت الرسالة الاخلاقية التي انطلقت منها اجزاء كبيرة من العالم ، كما جرت على ارضها احداث هامة كان لها آثارها في العصور المتعاقبة ٠

وواضح ان هذه المكانة انما هي ثمرة تفاعل الانسان في فلسطين مع الزمان والمكان ٠ فموقع فلسطين الاستراتيجي في قلب منطقة الوطن العربي وبيــن قارات العالم القديم الثلاث أهلها لان تكون مركزا لتفاعل الثقافات وجسرا لنقل التأثيرات الحضارية من مراكز الحضارات المجاورة لها ٠ وقد تجاوب سكانها مع معطيات موقفهم فأسهموا في التراث الحضاري الانساني ٠

ان النظرة الفاحصة لتاريخ فلسطين تكشف عن حقيقة هامة هي ان فلسطين كانت على مر العصور وطنا لشعب فلسطين ، وانها بحكم الموقع كانت ممــرا عالميا لشعوب كثيرة ٠ كما انها بحكم المكانة كانت وطنا روحيا لمعتنقي الديانات السماويـــة ٠

ظهر الانسان الحديث في فلسطين كما ظهر في اماكن مختلفة من العالـــــم في عصور ما قبل التاريخ ٠ وهناك اعتقاد بين بعض العلماء ان فلسطين ومنطقة الوطن العربي هي المهد الاول لـــلانسان العاقل « المدرك » ٠ وقــد اكتشفت اثاره في عدة مواقع منها جبل الكرمل وأم قطنة والزطيه ومجرى نهر الاردن ٠ ولا تزال حضارة هذا الانسان مجهولة ، ولكن ما وجد من آثاره يدل على انه كان يعيش في الكهوف ليقي نفسه من المطر والحيوانات المفترسة والاعداء ٠

وكان الطور الاقليمي في نهاية الدور الاول من العصر الحجري في فلسطين غزير المطر رطبا وكانت نباتاته كثيفة تعيش بينها بعض الحيوانات مثل فرس النهر والكركدن والحمود ٠ وقد استخدم هذا الانسان الادوات الحجرية واستعمــل الصوان كبلطات يدوية ومكاشط وسواطير ومطــارق ٠

ونستدل من الآثار التي بقيت من الدور الاخير للعصر الحجري القــديم ان الجفاف تزايد في فلسطين وان الانسان عرف أهمية النار ونجح في اشعالها واستخدامها كما عرف استخدام اللغة كوسيلة للتفاهم مع أقرانه ٠

وفي العصر الحجري الوسيط الذي دام في فلسطين ستة آلاف سنة نجـد ان

الانسان هناك لم يقتصر على صقل ادواته ولكنه استغل موارد بيئته بشكـــل يستحق التنويه ٠ وهناك من العلماء من يتحدث عن هجـــرة سكان من وراء الجبال ومن وراء البحار الى فلسطين ، ويسمون الآخرين شعب البحر الابيض المتوسط ٠ وقد ظهرت في ذلك العصر قرى أقامها سكان فلسطين ٠ وتعـــرف حضارة تلك الفترة بحضارة النطوف نسبة الى وادي النطوف في شمال غـرب القدس حيث نقبت الانسة جارود عام ١٩٢٨ ٠

دامت حضارة النطوف منذ أول العصر الحجري الوسيط حتى الالف السادس قبل الميلاد ٠ وقد عاش الانسان فيها على صيد البحر والبر ، وكان من أصول سامية حامية ٠ واستطاع ان يدجن الحيوان ويزرع الارض فاتجه في نهايـــة العصر الحجري الوسيط الى الاستقرار وبنى بيته من الحجارة ٠ وهو اول من شيد الغرف المقببة وقد تقدم في استخدام اللغة واعتقد بوجود حياة أخـــرى ومارس العبادة ٠ وعبر عن افكاره ومشاعره بأعمال فنية والجا عالم الخيـــال والجمـــــال ٠

ونلاحظ أن العصر الحجري الذي دام ألفي سنة في فلسطين شهد تقدمـــــا محسوسا في الزراعة وتربية الحيوان واستعمل الادوات الحجرية المصقولـــة والحياة المستقرة ٠ كما شهد اختراع الخزف واكتشاف المعدن ٠ وقد مكـــن اختراع الخزف الانسان من الابتعاد قليلا عن موارد المياه حيث صار بوسعـه خزن الماء الذي يحتاجه وطبخ طعامه وازدهر في نهاية هذا العصر الفن الخزفي القديـــــم ٠

وفي الالف الرابع قبل الميلاد دخلت فلسطين العصر النحاسي الحجري حيث بدأ استعمال النحاس الى جانب استخدام الصوان ٠ وتكثر آثار هذا العصـــر في تليلات الغسول الواقعة على بعد عشرة كيلو مترات الى الشمال الشرقـــي من البحر الميت ٠ وقد نشأت هناك حضارة مستقرة تعرف بحضارة الغســـول ازدهرت فيهـــا الزراعة المعتمدة على الري وتقدم الفن وخاصة التشكيلي منـه بعد ظهور المعدن ٠ وظهر مثيل لحضارة الغسول في جازر قرب الرملة التـــي كانت مدينة مسورة بسور من الحجارة والطين ، وازدهرت في حضارة جازر الزراعة كما عرفت الصناعة البدائية ٠ وكشفت الاثار عن ان الجازريين كانوا اهل ديانة ويحرقون موتاهم ٠ وقد ادى نمو صنع المعادن والخزف في هـــذا العصر الى ظهور حرف مختلفة ، وزادت العلاقات التجارية بين القرى والمدن فحدث التخصص في العمل وازدهرت مدن آهلة بالسكان في السهول والاودية٠ واتسعت الاتصالات التجارية والثقافية بين فلسطين والبلاد التي حولها ٠

ودخلت فلسطين العصور التاريخية مع انتشار الكتابة فيها آوائل الالـــف الثالث قبل الميلاد ٠ وحدثت في تلك الفترة بداية الهجرات الرئيسية من قلـــب

الجزيرة العربية الى الهلال الخصيب التي تتالى فيهـــا قدوم العموريين والكنعانيين والآراميين وغيرهم الى فلسطين ٠

□

كان تاريخ شعب فلسطين في العصور التاريخية المتتالية متصلا وحافـــلا بأحداث كثيرة ويمكننا ان نقسم هذا التاريخ الى قسمين رئيسيين تفصل بينهما الانطلاقة العربية بالاسلام في القرن الاول الهجري والقرن السابع الميلادي ، واختيارنا هذا الحدث كأساس للتقسيم انما يرجع لما كان له من تأثير على فلسطين والمنطقة العربية عموما ٠ وقد مر تاريخ شعب فلسطين في كل من هذين القسمين بعدة ادوار وكان بصفة عامة تاريخا طويلا متنوعا ٠

تفاعلت في هذا التاريخ عدة عوامل فعالة العامل الاول هو **الوضع الجغرافي** لفلسطين وسوريا حيث يتقطع سطح الارض ـ كما يقول حتي ـ فلم توجد عليه بيئة تتسع اتساعا كافيا لنشوء دولة قوية شاملة ٠ وحيث تتناوب الاراضـــي المنخفضة والاراضي المرتفعة وتحاذي بعضها بعضا من الشمال الى الجنوب ، ويتجاور السهل مع الجبل مع الصحراء ، وتتتالى الفصول الاربعة ويبرز فيهـا فصل ممطر يمتد حوالي اربعة شهور وفصل جاف يشمل بقية السنة كما هـــو الحـال في منطقة البحـر المتوسـط عمومـا ٠ والعامـل الثـاني هو **الموقـع الاستراتيجي** الذي يجعل من هذه الارض حلقة اتصال بين القارات التاريخيـة الثلاث فيعرضها من ثم لاخطار الغزو من جميع الجهات ، والعامـــل الثالث **مجاورتها لاقدم مركزين للحضارة عرفهما الانسان** وهما الحضارة السومريـة البابلية في الشرق والحضارة المصرية في الجنوب الغربي ممـــا جعل ارض فلسطين جزءاً من طريق دولي قديم ٠ والعامل الرابع احتواؤها على نمطـــي حياة البداوة والحضارة ما جعلها مسرح نزاع متواصل بين البدو الرحـــل والحضر المستقرين ، وربط تاريخها بتاريخ موجات تحول البدو الى الزراعة ٠

يلفت الانتباه في القسم الاول من تاريخ فلسطين الهجرات المتتالية التـــي جاءتها من الجزيرة العربية وحملت اليها اقواما استوطنوا فيها وامتزجوا مــع سكانها وتعرف هذه الهجرات بالهجرات السامية او الهجرات العربية ٠ ويرى « حتي » ان مصطلح السامية هو من وجهة علمية تسمية لغوية تطلق على الذين يتكلمون او تكلموا لغة سامية ٠ ويفضل جواد علي ومحمد علي دروزة وآخرون استخدام مصطلح العربية لاسباب موضوعية ٠

واللغات السامية هي مجموعة لغوية خاصة تضم اللغات الاشورية البابلية (الاكادية) والكنعانية (الفنيقية) والآرامية والعبرية والعربية والحبشـية ٠ ويرجح العلماء ان اسلاف من تكلموا هذه اللغات كانوا غالبا يشكلون جماعة

واحدة وان الموطن الاصلي لهذه الجماعة هو الجزيرة العربية (١) · وقد تتالت الهجرات منها بفعل عامل جغرافي وآخر اقتصادي الى الهلال الخصيب الذي يجاورها ·

كان العموريون اول شعب جاءت به هذه الهجرات الى سوريا الكبرى ـ وفلسطين جزء منها ـ وذلك قبل بداية الالف الثالث قبل الميلاد · واسمهم هذا اطلقه عليهم جيرانهم السومريون في جنوب العراق ويعني « الغربيين » · وقد تحول مركزهم من وادي الفرات حيث بنوا مدينة « ماري » الى الجنوب في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد حيث شيدوا في فلسطين عدة مدن مثل حبرون « الخليل » وهاي « دير دبوان » وتل الحسي بجوار بيت جبرين وتل النجيلة بجوار غزة (٢) · وكانت لهم حضارة مزدهرة تدرجوا فيها من الرعي الى الزراعة ومارسوا التجارة والصناعة · وقد عاصروا عهد الدولة الحديثة في مصر ، وتكشف لوحات « تل العمارنة » عن جوانب من حضارتهم ، وتصور احدى هذه اللوحات رحلة لقبيلة صغيرة من العموريين الفلسطينيين يقودها شيخها « ابشا » · وفي اللوحة نرى الرجال والنساء يلبسون ثيابا من الصوف خيطت من نسيج ملون جميل وينتعل الرجال صنادل جلدية في حين تنتعل النساء احذية كاملة ، ويحملون اسلحة فيها القوس والنشاب والسهم والرمح ويستخدمون الحمير لنقل امتعتهم كما نرى في اللوحة آلات موسيقية فيها العود والمزمار · ويتضح من آثار العموريين عموما ان عنايتهم بالاخرة كانت كبيرة وقد قامت ديانتهم على عبادة قوى الطبيعة وكانوا يمارسونها في معابد شيدوها ·

تداخلت هجرة العموريين الى فلسطين بهجرة الكنعانيين اليها · ويميز العلماء من خلال دراستهم لآثار فلسطين بين هذين القومين اللذين ينتسبان الى مجموعة الهجرة نفسها ، وذلك لان هذه الآثار تكشف عن وجود حضارتين مختلفتين · وهذا الاختلاف الحضاري ناشيء عن ان مركز العموريين الاصلي كان في شمال سوريا لذلك تعرضوا لتأثيرات سومرية بابلية ، بينما كان مركز الكنعانيين الجغرافي في الساحل ولذلك كانوا متجهين نحو مصر · اما الاختلاف اللغوي فكان في اللهجة فقط ، وكان الاختلاف الديني اختلافا في التطور والتكيف حسب البيئة المحلية ·

وعرفت فلسطين باسم « ارض كنعان » مع اجزاء من سوريا ولبنان · وكان هذا اول اسم لفلسطين وذلك بعد ان عمر الكنعانيون البلاد واصبحوا السكان الاساسيين لها منذ الالف الرابعة قبل الميلاد · وكان اسلافهم في فلسطين قد أنشأوا حضارات واقاموا مدنا من اقدمها مدينة اريحا التي تعتبر اقدم مدن العالم اطلاقا حيث يرجح انها وجدت منذ ثمانية آلاف (٨٠٠٠) سنة · وقد امتزج الكنعانيون بمن سبقوهم في فلسطين وجددوا مدينة اريحا كما انشأوا مدنا

اخرى على طول ساحل البحر المتوسط ٠ وقامت في هذه المدن ممالك واحيطت بأسوار وكانت هذه الممالك صغيرة في مساحتها ولكن اسوارها تمـــيزت بالضخامة ، حتى ان أسوار اريحا بلغت في ارتفاعها واحدا وعشرين قدما ٠ وقد دافع الكنعانيون عن مدنهم بالمركبات الحربية بعد ان استخدموا الحصان مـع مجيء الهكسوس ٠

استوطن الكنعانيون جميع ارض فلسطين بما في ذلك صحراء النقب وغور الاردن ٠ ويقال ان اسمهم من أصل غير سامي ويعني « بلاد الارجوان » ، وقد اطلقته عليهم الشعوب المجاورة ٠ وبقي الكنعانيون في فلسطين منذ دخولهـم اليها واندمجوا بموجات الهجرة التالية التي جاءت الى البلاد ، ويرجح عـدد من العلماء ان اكثرية فلاحي فلسطين الحاليين هم احفاد الكنعانيين الاقدمين ، وهم يلاحظون ان مساكنهم تشبه الى حد بعيد مساكن اسلافهم ٠ وقد شيـد الكنعانيون حضارة متقدمة فاهتموا بالزراعة حتى عرفت بلادهم بانها « تفيض لبنا وعسلا » ، ومارسوا الصناعة على نطاق واسع وتقدموا بصناعة الخـزف والمعادن والعاج والزجاج والاقمشة والارجوان ، وكان لهم نشاطهم التجـاري الواسع وقد ركبوا البحر وشقوا الطرق البحرية ٠ وهم اول من اخترعـوا الابجدية وقد كتبوا بها لغتهم المشتقة من العربية الاولى ٠ وكشفت لنا الآثـار والحفريات عن تقدم الادب الكنعاني في التعبير عن المعاني الانسانية وكانـت لهم ديانتهم وقد عبدوا اله الشمس بعل الذي هو ايضا اله الخصب ، وبنـوا الهياكل لممارسة طقوسهم ٠ وقامت بينهم وبين الشعوب المجاورة في وادي النيل وسوريا وبلاد الرافدين علاقات وثيقة حفظتها لنا الآثار الباقية ٠

ولقد شهدت فلسطين وهي تحمل اسم ارض كنعان احداثا هامة كان لها اثرها على مجرى الحياة فيها ٠ ونشير من بين هذه الاحداث الى هجرة ابراهيم عليه السلام من بلاد الرافدين وتنقله في سورية ثم انتقاله الى فلسطين في القـرن التاسع عشر قبل الميلاد ٠ وقد نزل في شكيم (نابلس) ثم انتقل الى جهـات رام الله والقدس ومر بالخليل ثم ارتحل الى مصر مع عائلته وعاد اخيرا الـى ارض كنعان ٠ ويلاحظ المؤرخون وهم يوردون القصة التوراتية لقدوم ابراهيم الى فلسطين ان الكنعانيين كانوا يشكلون معظم السكـان حينـذاك ، وان العموريين كانوا يسكنون المرتفعات ، وقد مضى على هؤلاء وهؤلاء اكثر من ألف سنة في البلاد ٠ وكان مجيء ابراهيم وعائلته هو الهجرة الاولى في هجـرات ثلاث حملت العبرانيين الى فلسطين ، وقد عاصرت هـذه الهجرة انتشـار الهكسوس والحوريين في ساحل البحر المتوسط الشرقي ٠

كما نشير من بين هذه الاحداث الى دخول فلسطين في حكم السلالة الثانية عشرة من فراعنة مصر (٢٠٠٠ ـ ١٧٨٨) ٠ وقد وصل الينا من تلك الفتـرة

اقدم وصف للحياة الاجتماعية في البلاد وهو الذي كتبه سنوحي رجل البلاد المصري الذي فر من بلاده في عهد سنوسرت وعاش بين البدو سنين عديدة ٠

وحين غزا الهكسوس مصر وحكموها كانوا قد مروا بفلسطين ثم حكموها ، وقد احتلوا اثناء وجودهم فيها بعض المدن الفلسطينية ومنها تل العجول وتل الفارعة جنوب غزة وتل جريشة في شمال يافا ٠ ولما بدأت موجة التحرير في مصر في عهد احمس مؤسس الاسرة الثامنة عشرة ونجحت في طرد الهكسوس شهدت « شاروحن » عاصمتهم في فلسطين في موقع تل الفارعة المعركة الفاصلة بين المصريين والهكسوس الذين قاوموا حصار مدينتهم لثلاث او ست سنوات٠ وعاد الحكم المصري لفلسطين وكان يمارس من خلال عدد قليل من الممثلين او من حكام البلاد انفسهم ٠ وعلى ارض فلسطين جرت معركة « مجدو » الفاصلة سنة ١٤٨٦ ق٠م٠ التي انتصر فيها تحوتمس الثالث (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦) على امراء سوريا وبقايا الهكسوس بعد حصار دام سبعة شهور اضطرت في اعقابه المدينة التي « كان الاستيلاء عليها كالاستيلاء على ألف مدينة » الى التسليم بعد ان عانت من المجاعة٠وقد قرر سقوط مجدو مصير فلسطين وتوطدت على اثره سيادة مصر على سوريا لفترة ولم تلبث ان ضعفت السيطرة المصرية على فلسطين وسوريا خلال الاسرة العشرين ، ثم اصبحت هذه البلاد خارجة عن الامبراطورية المصرية في القرن الثاني عشر ٠

وفي هذه المدة كان الحثيون قد وطدوا اقدامهم في القسم الشمالي من سوريا بعد ان اقاموا دولتهم في اسيا الصغرى ٠ ومع ان حكمهم لم يمتد الى فلسطين الا ان جماعات منهم سكنتها ونزلت في الخليل وبيتين بجوار رام الله٠ وقد تزاوج هؤلاء بالعبرانيين حين جاءوا الى فلسطين ٠

وفي الفترة نفسها ظهر الحوريون في المنطقة بعد ان اسسوا مملكة ميتاني شرقي الفرات وسكنت جماعات منهم فلسطين واقامت في نابلس والشمال ٠ وقد تبادلوا التأثير الحضاري مع سكان البلاد وذابوا في الكنعانيين حين قضى الحيثيون على ملكهم ٠

وتردد في وثائق تلك الفترة ايضا اسم « العبيرو » او « الخابيرو » في فلسطين وهم جماعة من المرتزقة اجتاحوا البلاد وربما كان اصلهم من اشور ، ويظن ان اللفظ لـ « مهاجر بائس » كما اعتبر بعض العلماء ان الكلمة تذكر بكلمة « عبري » او « عبراني » وقد استولوا على شكيم سنة ١٣٦٧ كما يتضح من رسائل تل العمارنة ٠ ويبدو من مجموع الوثائق ان « العبيرو » جماعة متعددة العناصر وبدون اوصاف مشتركة تجمعت في بلاد الرافدين وضمت بدوا رحلا واشقياء واجانب وعملت في الجيوش بأجر (٤) ٠

وجاءت خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر الهجرة الارامية من صحراء

جزيرة العرب الى بلاد الرافدين وشمال سوريا فكانت ثالث موجة بعد الموجتين العمورية والكنعانية ، وقد فتح قضاء الحثيين على مملكة ميتاني المجال امام حركة الاراميين ، وسرعان ما اصبح وجودهم ظاهرا في شمال سوريا ثم في منطقة دمشق ، وطغى هذا الوجود على وجود العموريين والحوريين والحثيين فأدى الى طردهم او امتصاصهم من تلك المناطق . وبقيت المدن الكنعانية في السهل الساحلي بعيدة عن نفوذهم حيث وقف جبل لبنان عائقا في طريق توسعهم ، وحين جاءت الهجرة العبرانية الى فلسطين اصبح العبرانيون على جوار مع الاراميين ، وقد تزاوجوا منهم . وكان اسلاف العبرانيين يتكلمون الارامية كما يظن قبل استقرارهم في فلسطين واقتباسهم اللهجة الكنعانية المحلية ، وقد اشتهر الاراميون بالتجارة وانتشرت لغتهم وحملت معها الابجدية الفينيقية ، وازدهرت حضارتهم .

واتصلت بهجرة الاراميين الى سوريا هجرة العبرانيين الثانية الى فلسطين في القرن الرابع عشر في عصر العمارنة ، ويحيط الغموض ببدء وجود العبرانيين في فلسطين وباخبار هاتين الهجرتين التي سجلت بشكل أسطوري ، والمرويات العبرية عن الهجرة الثانية تحكي كيف ترك ابراهيم وريثه اسحق الذي انجب يعقوب . وبعد أن اقام يعقوب في فدان آرام عدة سنوات وقع عليه الاختيار ليكون صاحب الشأن دون اخيه عيسو ، وتغير أسمه فاصبح اسرائيل، وحمل عيسو اسم ادوم ، وأزيل مع ورثته من حياة العبرانيين شأنه شأن اسماعيل ابن ابراهيم من قبل ، ومن بين أولاد يعقوب الاثني عشر انتقل يوسف الى مصر وفقا للقصة المشهورة وارتفع شأنه في الدولة المصرية . وبعد ان اقام ورثته اجيالا عديدة في مصر عادوا الى فلسطين تحت قيادة موسى . ويلاحظ العلماء ان هذا التاريخ العبراني القديم وضعه كتاب عاشوا بعد وقوع الحوادث بمئات السنين، وهو لذلك ليس بتاريخ وليس من السهل استخلاص الحقائق منه.

جاءت الهجرة العبرانية الثالثة اذن من مصر في أواخر القرن الثالث عشر، وكانت بقيادة موسى ويوشع . وبها يبدأ تاريخ بني اسرائيل الحقيقي كشعب . وقد وردت اقدم اشارة لاسرائيل كاسم شعب في فلسطين في نصب وجد بطيبة تاريخه ١٢٣٠ ق.م. وموجز تاريخ هذا الهجرة ان قبيلة راحيل العبرانية التي كانت قد وجدت لها في مصر مأوى في زمن الهكسوس قرب افاريس عاصمتهم، غادرت مصر الى سيناء وفلسطين . وقد حصل هذا الخروج في عهد مرنفتاح ابن رمسيس (١٢٢٤ ـ ١٢١٥ ق.م.) . وقضى افراد هذه القبيلة عدة سنوات في سيناء والنقب حيث تعرضوا لمتاعب كثيرة ، وتزوج زعيمهم موسى ابنة رجل دين من مدين في القسم الجنوبي من شبه جزيرة سيناء ، وتزاوج آخرون غالبا مع المدينيين وسائر سكان بادية شمالي الجزيرة العربية . وفي مدين اوحي الى موسى ، ولم يلبث هؤلاء العبرانيون ان اتجهوا لاحتلال

الاراضي الخصبة في فلسطين فجاؤوها من ناحية بادية شرق الاردن وكان عددهم لا يتجاوز ستة الاف او سبعة الاف ، وقد تجنبوا في تحركهم ممالك آدوم ومؤاب وعمون شرقي البحر الميت وشماله . وكان اول فوز لهم في شرق الاردن على ملك العموريين ثم على ملك باشان ، ولم يلبثوا ان احتلوا في فلسطين بعض المدن الكنعانية المحصنة مثل لاجاش (تل الدوير) وعاي واريحا ، وقد احرق يوشع اريحا بالنار بأمر الهه « وكل ما بها » . ولم تسقط مجدو في الشمال الا بعد قرن . وبقيت مدن كنعانية اخرى لم يستطيعوا احتلالها لفترة طويلة ومنها بيت شان واورشليم وجزر .

يلاحظ ان هذا الاحتلال العبراني لاجزاء من فلسطين تم من جهة بالغزو العسكري ومن جهة اخرى بالتغلغل السلمي البطيء الى ارض « اللبن والعسل » . فبعد ان نجح هؤلاء القادمون الجدد في الحصول على موطيء قدم في أراضي فلسطين المزروعة بدأوا يتغلغلون ويقوون من خلال التزاوج من السكان المقيمين حتى نجحوا في السيطرة على البلاد بطريق المعاهدة او الغزو أو الامتصاص التدريجي . وقد سجل مؤرخوهم المعارك التي خاضوها وغالوا في احداثها وجعلوها محور مروياتهم .

وبعد ان سيطر العبرانيون على بعض أجزاء فلسطين قسموها بين قبائلهم الاحدى عشر وتركوا قبيلة لاوي الكهنوتية موزعة بينها لتهتم بشؤونها الدينية. وشملت فترة الاستيطان تقريبا الربع الاخير من القرن الثاني عشر والارباع الثلاثة الاولى من القرن الحادي عشر ، وفيها ظهر القضاة . وهم حكام وطنيون قادوا شعبهم ضد الاعداء المجاورين ، ومن هؤلاء ديبورة وجدعون وشمشون الذي اشتهر بنزاعه مع الفلسطينيين وردد القصاصون العبرانيون قصة نزاعه مع اضافات كثيرة عليها (٦) .

وكان الفلسطينيون قد جاؤا الى ساحل البلاد الجنوبي من منطقة بحر ايجة حين أدت حركات غامضة لشعوب اسيا الصغرى وبحر ايجه الى تفرق قبائل بكاملها راحت تبحث عن موطن لها ، وقد وصل بعضها الساحل المصري فصدهم رمسيس الثالث في معركة بحرية وبرية حوالي ١١٩١ ق.م. ولكنه سمح لهم بالنزول في ساحل سوريا الجنوبي الذي صار يسمى فلسطيا وقد اقاموا هناك في خمس مدن رئيسية هي غزة وعسقلان واسدود وعاقر وجات (عراق المنشية) احتفظت باسمائها السامية . وكانت « جات » ابعد مدنهم في الداخل كما كان الكرمل الحد الفاصل بينهم وبين الفينيقيين . وقد استولوا على عدد من المدن الكنعانية وأسسوا مدينتي اللد وصقلع (تل الخويلفة) وكانوا حريصين على البقاء قريبين من البحر .

والفلسطينيون من الشعوب الهندية الاوروبية وتدل على ذلك رسوم لهم وجدت

على بناء تذكاري اقامه رمسيس الثالث ٠ وقد نظموا مدنهم على شكل ممالك مدن وشكلوا بينها اتحادا وكانت اسدود هي العاصمة ٠ وبلغوا ذروة قوتهم في النصف الثاني للقرن الحادي عشر وبدوا المنافس الاقوى للعبرانيين ، وقد كسروهم حوالي ١٠٥٠ واخذوا منهم تابوت العهد وحملوه الى اسدود ٠ وكان سر تفوقهم معرفتهم صهر الحديد واستخدامه في السلاح ٠

وهكذا يسجل لهم نقل حضارة المنطقة من مرحلة البرونز الى مرحلة الحديد كما انهم اعطوا جيرانهم الكنعانيين ميلا للاسفار البعيدة ، وكانت لهم تجارتهم مع مصر وكريت وبلاد اليونان ٠ وقد ضعفت سلطتهم بعد فترة لم تطل فغلبهم داود (المتوفى عام ٩٦٣) وما أسرع ما اندمجوا في السكان ، وكانوا قد نسوا لغتهم الكريتية وتكلموا اللغة الكنعانية كما اعتنقوا ديانة الكنعانيين ٠ ولم يتركوا الا اليسير لمعرفة لغتهم وديانتهم ومظاهر حضارتهم الاخرى ٠ ولكنهم تركوا اسم فلسطين لتعرف به « ارض كنعان » (٦) ٠

يحسن بنا قبل ان نتابع سلسلة الاحداث الهامة التي شهدتها البلاد ان نسجل اهم الدلالات التي ينطوي عليها تاريخ « ارض كنعان » حتى قدوم العبرانيين اليها ٠

اولا ان فلسطين كانت مأهولة بالسكان منذ اقدم العصور التاريخية ، وانها كانت على مدى تتالي الحقب التاريخية وطنا لشعبها ، وانها بحكم الموقع والجغرافيا كانت ممرا للشعوب الاخرى ٠

ثانيا ان فلسطين والهلال الخصيب عامة كانت منذ القديم منطقة جذب سكاني مرتبطة بجزيرة العرب التي كانت مركز طرد سكاني ٠ وقد تتالت الهجرات السامية العربية من جزيرة العرب الى فلسطين وبلاد الهلال الخصيب عموما فحملت اليها العموريين والكنعانيين والآراميين والعبرانيين ، وكان للهجرة الكنعانية اثر كبير في طبع البلاد بطابعها العربي الذي حافظت عليه ٠ وقد اندمجت جميع شعوب هذه الهجرات بمن كان مقيما على ارض فلسطين وأصبح افرادها ينتمون الى شعب فلسطين ٠ وفي جميع هذه الحالات ، وفيما بعد ايضا برهنت فلسطين ـ كجزء من سوريا عامة ـ على مقدرتها في امتصاص القادمين الرحل او نُصف الرحل بتشجيعهم على ان يصبحوا مستقرين ، وان يتركوا ذلك المصدر الغريب لقوتهم وهو التنقل ٠ ويضرب « حتي » مثلا على ذلك بالعبرانيين « فقد أتى الشعب الذي عرف فيما بعد بهذا الاسم بشكل متجولين ومغامرين ومرتزقة وجنود لا ارتباط لهم ، ثم استقر بالتدريج بين السكان الذي كانوا ارقى منهم فتعلموا حرث الارض ، وبناء المنازل وممارسة فنون السلم واهم من ذلك القراءة والكتابة واتخذوا اللغة الكنعانية لغة لهم ،واصبحوا ورثة المظاهر الاساسية للحضارة الكنعانية » (٧) ٠

ثالثا كانت فلسطين منطقة جذب لجماعات من شعوب اخرى مرت بهـا او اقتربت منها مثل الحيثيين والحوريين والفلسطينيين · وجميع هذه الجماعات هندية اوروبية في الاصل وقد مثلت شعوبها جبهة مقابلة لجبهة شعوب الجزيرة العربية السامية ، وكان مصير هذه الجماعات الانصهار في بوتقة شعب فلسطين والانطباع بطابعه ·

رابعا كانت فلسطين على اتصال وثيق بكل من مصر في الجنوب وسوريـا وبلاد الرافدين في الشمال الشرقي ، وذلك بحكم موقعها ، وقد حدثت علـى ارضها اكثر من معركة فاصلة حين وقع الصدام لسبب او لآخر بين شعـوب المنطقة · كما كانت بحكم هذا الاتصال مكانا لتفاعل حضارات هذه الشعوب ·

المراجـــع :

(١) انظر برو كلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١٥ في حديثه عن الجنس العربي دار العلم للملايين ـ بيروت ترجمة فارس وبعلبكي ·

(٢) يراجع للتوسع في تاريخ العموريين فضلا عن كتاب حتي السابق ذكره (الفصل السابع) كتابا :

Albert T. Clay

1 — The land of the Nothern Semites (Philadelphia 1909).

2 — The Empire of the Amorites (New Haven , 1919).

Rrchaology (1946).

(٣) يراجع للتوسع في تاريخ الكنعانيين الفصل الثامن من كتاب حتي وكتاب

W. F. Albright , « The Role of the Canaanites in the History of Civilization (Menasha , 1942).

(٤) يراجع للتوسع في التعرف على هذه الاحداث فضلا عما سبق ذكره من مصادر كتابي بريستد :

James Breasted , Ancient Records of Egypt (Chicago , 1906).

» » History of Egypt (New York , 1905).

(٥) يراجع بشأن تاريخ الاراميين وعلاقتهم بالعبرانيين كتاب :

Emil G. Kraeling , Aram and Israel (New York 1918).

(٦) الكتاب المقدس : سفر الخروج وسفر يوشع وسفر القضاة ·

Meek : Hebrew Origins (New York 1936) .

(٧) انظر حتي مصدر سبق ذكره ، الفصلين الرابع عشر والخامس عشر ·

ميشيل كيلو

لابد من سياسة بديلة

لا زلنا في هذا العالم العربي ، نعتقد ان نقيض الخطأ سيكون حتما الصواب فالذي يسير على الرصيف الايسر ويكون مخطئا ، سيصحح خطأه ان هو سار على الرصيف الايمن ٠ اننا لم نصل بعد الى حقيقة كثيرا ما تواجهنا ، وهي ان السير على الرصيف الايسر قد يكون غلطا كبيرا ، لكن تصحيحه لا يكون بالسير على الرصيف الايمن ، لان هذا قد يكون بدوره غلطا اكبر بكثير ٠

هذا ما يحدث تماما بعد زيارة السادات للصهاينة فالذين لم يوافقوا على ذهابه ، هم ولا شك على حق ولكن سلسلة ردود افعالهم لا تعني ان عدم الموافقة على الذهاب الى الارض المحتلة هو بحد ذاته الرد الصحيح على خطوة السادات ، ولا يعني ان الاقتصار على رفض الزيارة والنتائج التي ترتبت عليها هو الموقف الوحيد المعاكس للموقف الرسمي المصري ، وانه يملك مقومات الحياة والنجـاح ، متى ظهـر فشل الموقف الاخر ، المرفـوض ٠

على سبيل المثال ، هناك من ينتظر فشل المفاوضات المباشرة بين العدو والنظام المصري ، بعد أن طرح فهمه الخاص لبديل المفاوضات المباشرة ، وحدده بالعودة الى جنيف وبالمفاوضات غير المباشرة والحلول الشاملة ، بدل الحلول الجزئية ، التي ربما كان المتفاوضون في القدس والقاهرة يطمحون اليها ٠ هل صحيح ان فشل السادات سيكون نجاحا لخط جنيف والدولتين الكبيرتين والمفاوضات غير المباشرة والتسوية الشاملة ؟٠٠ انا شخصيا لا اعتقد ذلك ، واؤمن بأن فشل السادات هو فشل لكل خط ونهج وسياسة التسوية ، كما مورست بعد عام ١٩٧٠ ، وخاصة بعد ١٩٧٣ ، وان هذا الفشل لن يقتصر على الموقف المصري ٠

فالسادات حين ذهب الى القدس ، كان يحقق لاميركا واسرائيل مطلبين من مطالب ورقة العمل الاميركية ـ الاسرائيلية هما : المفاوضات المباشرة دون وسيط ، والحلول الجزئية ٠ والاميركيون بالاصل لم يروا في مؤتمر جنيف سوى اطار عام يتم الوصول

عن طريقه الى لجان جغرافية ثنائية (حلول جزئية) تجريها الاطراف المختلفة مع الطرف الصهيوني دون وسيط (مفاوضات مباشرة) ٠

السادات ازاح بضربة واحدة الجلسة الاولى ، العامة للمؤتمر ، وانتقل مباشرة الى اللجنة الثنائية المصرية ـ الاسرائيلية والمفاوضات المباشرة دون وسيط ، وبهذا قدم للاميركان والاسرائيليين خدمة مزدوجة ٠

ـ اراحهم من شكليات جنيف ، واظهر ان هذا برمته لم يكن سوى جملة شكليات الهدف منها الوصول الى المفاوضات المباشرة واللجان الجزئية ٠

ـ كشف ان جنيف ليس مؤتمرا لحل مشكلة الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، بل هو نفق يفضي الى ساحة اللجان الجغرافية والمفاوضات المباشرة ٠

لقد نقل السادات الاميركان الى مرحلة ما بعد الجلسة الاولى من مؤتمر جنيف ، ودخل الى صلب الموضوع ، « دون التوقف طويلا عند الاجراءات والشكليات » ، كما قال غير مرة ٠ وهذا ما دفع الاميركان الى تبني مؤتمر القاهرة بحماسة وقوة ، وجعلهم يعملون ، كما قال فانس قبل زيارته ما قبل الاخيرة للمنطقة ، « على تقوية اتجاه مؤتمر القاهرة واضعاف الاتجاهات الاخرى » ومنها بالطبع الاتجاه الداعي للعودة الى جنيف ٠

والان : اذا كان السادات سيفشل في المفاوضات المباشرة والحلول الجزئية ، فهل ستكون العودة الى جنيف هي البديل ، وجنيف لن يفعل سوى اعادتنا بعد الجلسة الاولى العامة الى حيث اوصلنا السادات ، وفشل ؟٠٠ ان جنيف ليس اذن بديل سياسة السادات ، واذا كان هو البديل ، فان فشل السادات سيكون فشلا لخط التسوية ٠

اولا : ان السادات لا يفاوض عن مصر وحدها ، بل هو يفاوض ايضا حول قضية الضفة الغربية وغزة ، وبقدر اقل حول الجولان ، واذا كان لا يجري مفاوضات مفصلة حولهما ، فهو يجري على الاقل مفاوضات ـ اطار لاقناع الاسرائيليين بمبدأ الانسحاب بالاصل ، وانهم يرفضون حتى الاقرار بمبدأ الانسحاب الكامل ، ولم يكن معناه ان السادات كشخص قد فشل ٠

هذا يعني ان اي شخص اخر كان سيفشل ، وان من رفض الانسحاب وهو يفاوض السادات المهادن المتهاون المستجيب ، سيرفض مبدأ الانسحاب امام غيره ٠ الفشل هنا لن يصيب السادات شخصيا وحسب ، بل سيكون ، قبل كل شيء ، فشلا للنهج الذي علق الامال على امكانية تسوية معضلة شائكة كمعضلة ترتيب الوضع العربي على ضو المشكلة الاسرائيلية ، ويمكن ان تتم بالمفاوضات والاقناع والاحاديث والخطب العذبة والودية ٠ هذا النهج القائم اصلا على ايجاد حلول للصراع العربي ضد الصهيونية واسرائيل عن طريق الامبريالية وبواسطتها ، مع انه جزء من الصراع ضدها ، هو الذي سيكون قد انهار ٠

ثانيا : لان بديل سياسة السادات لم يعد « تاكتيكا » اخر ضمن التسوية ، بل هو نهج اخر حيال القضايا التي تطرحها ، بدءا بالاوضاع الداخلية لمختلف الانظمة العربية ، وانتهاء بعلاقاتنا مع الامبريالية ، مرورا بعلاقاتها العربية ٠٠٠ الخ ٠ هذا

النهج الاخر ليس تاكتيكيا ، وليس قائما على جملة الاعيب سياسية الهدف منها اظهار الاعتدال اكثر من ادارة الظهر لوضع قائم ٠ وهذا البديل ليس قائما بعد في اي وضع عربي ٠

وتشير كل القرائن الى انه لن يقوم بين ليلة وضحاها ، وليس مرشحا للقيام بعد شهر او شهرين ٠

وما دام الوضع على هذه الحالة ، فان فشل السادات سيظهر ان التسوية لم تكن بالنسبة لواشنطن ايجاد حلول للمشكلة الوطنية والقومية العربية المتجلية في الاحتلال والقضية الفلسطينية ، بل كانت ترتيبا داخليا للاوضاع العربية يهدف الى استرداد المنطقة لصالح الامبريالية ، لفرض ما تراه هذه ملائما لمصالحها ومتوافقا مع وضعها الرأسمالي والدولي ، وطبيعي ان مثل هذا الترتيب كان يرمي الى نزع زمام المبادرة والقرار من العرب ، متى وصلت الامور الى غاياتها النهائية ، وظهر ان التسوية ليست حل المشكلة الوطنية ، مشكلة الاحتلال ، فيصل الوضع العربي الى درجة يعجز معها عن تحرير اراضيه بالقوة ، ويعجز ايضا عن الاستمرار حتى في صورته الراهنة ، بدون الدعم الامبريالي الخارجي ٠

ان فشل السادات يعني اذن فشل التسوية الاميركية فلا يعقل ان يرفض الاميركيون والصهاينة تقديم تنازلات له ، ليقدموها للذين رفضوا المفاوضات المباشرة ومبدأ الحلول الجزئية ، وهما الشكل الوحيد المطروح للوصول الى « حل » او تسوية ٠ وحتى لا يكون فشل السادات فشلا للجميع ، لا بد اذن من سياسة اخرى ، من وضع عربي اخر يعمل على اقامته اولئك الذين رأوا في سياسة السادات تفريطا بالحقوق العربية ، وقالوا بضرورة احباط نهجه وافشال نتائج جهوده ٠ وما اتخذ حتى اللحظة من اجراءات وسياسات ليس هو البديل المنشود ، كما انه لا يغني عن ضرورة اتخاذ قرارات كبرى ، تبدأ بالوضع الداخلي ، وبالعلاقات العربية التي تحولت الى اداة للتقهقر السياسي والاجتماعي العربي أمام الامبريالية ، وبأولويات ارتباطاتنا الدولية ، التي حافظت من حيث الشكل على روابط هنا او هناك ٠ واذا كنا لا نريد الحديث الان عن ملامح هذا القرار العربي الاستراتيجي ، الذي يفرضه الواقع السياسي العربي القائم ، وتفرضه ضرورة تحويل اقطارنا الى مرتكزات للصمود والدفاع ، فاننا نريد التأكيد مجددا على ان هذا القرار لم يتخذ بعد ، وان الايام تجعل اتخاذه حتمية لا مهرب منها ٠

ولكن ما هو فشل السادات ؟! ثمة نوعان من الفشل قد يواجهان مهمة الحكم المصري ٠ النوع الاول اكيد لا شك فيه : فالسادات لن يفلح في استرداد الحقوق المشروعة للشعب العربي الفلسطيني ، وفي استرجاع الاراضي العربية المحتلة ، كما كانت صباح الخامس من حزيران ١٩٦٧ ٠ انه لن يحقق ، على افتراض حسن النية والصلابة الوطنية ، « الهدفين المعلنين للنضال العربي » ، و « الاستراتيجية المتفق عليها عربيا » ٠ ان هذين الهدفين لن يحققهما العرب ، ما داموا في وضعهم الراهن ، ولو ذهبوا فرادى وجماعات الى اخر الكون ، وقبلوا أيادي كل الكائنات الحية الموجودة على وجه هذه الارض ٠ هنا لا يجوز ان ننتظر فشل السادات ، بل يجب ان نكون متأكدين منه مائة بالمائة ٠ لكن هذا الفشل ليس فشلا للسادات ، بل هو فشل لسياسة التسوية برمتها ، كما مورست حتى

اللحظة ، ومن ينتظر هذا الفشل ، ليثبت ان السادات لم ينجح ، وانه كان على حق في موقفه من زيارته للقدس ، لانه عرف انه سيفشل في تحقيق هذين الهدفين، هو كمن يحرق منزلا كاملا من اجل قتل برغوث ، لكي يثبت ان البراغيث تحترق ايضا بالنار · من الاجدى في حالة كهذه عدم الانتظار ، والذهاب فورا الى الوضع البديل ، الا اذا كان المراهنون على زيارة السادات قد توقعوا منها ان تنجح فعلا ، وعلقوا قراراتهم الصعبة على هذا الامل ، علّه يوفر عليهم اتخاذها !! هذا النوع من الفشل اكيد ، ولا داعي لانتظار حدوثه من اجل اتخاذ المواقف التي ننتظر منها ان تصحح مسار التدهور والانهيار العربي ، لنعيد اليه بعضا من قدرته على الوقوف على قدميه في وجه احتمالات المستقبل الصعبة ·

النوع الثاني من الفشل يرتبط بعجز السادات عن عقد صلح منفرد مع العدو ، يعيد اليه سيناء ، ويدفعه لاقامة علاقات طبيعية مع تل ابيب · هذا الاحتمال ، وهو مجرد احتمال ، يجعل بدوره اتخاذ قرارات صعبة وخطيرة بصدد السياسات العربية لكل قطر امرا حتميا · اذا نجح السادات في عقد الصلح المنفرد ، وخرج من المعركة مع العدو ،والقى بثقل مصر باتجاه افريقيا ، وادار ظهره للعرب نهائيا ، كما يقول خصومه ، فان ذلك لا يوفر علينا اتخاذ القرارات الصعبة والخطيرة ، بل هو يجعلها ايضا حتمية لا مهرب منها · واذا كان هناك من يعتقدون ان الحل الجزئي على الجبهة المصرية قد تعقبه حلول جزئية على الجبهات الاخرى، وان نجاح السادات هناك سيترجم الى نجاحات هنا ايضا ، فان منطق الاحداث يرد على « امله » هذا · فالاسرائيليون بنوا مستعمراتهم في سيناء قرب حدود فلسطين الدولية مع مصر ، كما كانت عشية الخامس من حزيران ، ومدوا قسما منها الى سواحل المتوسط وشواطيء خليج العقبة ، فأبقوا سيناء ، او المساحة الرئيسية منها ، خارج حدود مطامحهم · اما في الجولان والضفة الغربية فقد أقاموا المستعمرات على **خط وقف اطلاق النار ، وليس عند الحدود الدولية** · وهذا يعني ان البند الاخير في حلهم الجزئي مع مصر سيكون البند الاول في حلولهم الجزئية مع كل من سوريا والاردن · والنقطة التي لم يقفوا عندها طويلا ، لانها تقع امام المستعمرات في سيناء ، وهي الاراضي المحتلة ، سيقفون عندها طويلا جدا ، لانها تقع وراء مستعمراتهم في الجولان والضفة · واذا كانت مستعمرات سيناء هي حدودهم الدولية الجديدة التي لا يريدون التنازل عنها ، فان مستعمرات الجولان والضفة لن تشكل فقط حدودهم الدولية بل كذلك نطاق الامن الذي يحمي في نظرهم ، الاراضي المحتلة التي لن ينسحبوا منها باي ثمن ، ما داموا يتمسكون بمثل هذه الاستماتة بمستعمرات سيناء ، التي يقع بينها وبين مصر المأهولة بالسكان مئات الكيلومترات من الصحراء والرمال المميتة · ان علينا ان نتابع بدقة وتفصيل المفاوضات المصرية الاسرائيلية حول مستعمرات سيناء ، لانها تقدم لنا صورة واقعية وميدانية عن برنامج التوسع الاسرائيلي ، وعن حدود العدو كما يتصورها في المرحلة المقبلة ·

هذه النتيجة تقودنا خطوة الى امام بالنسبة لاستنتاجنا السابق : فالقرارات العربية الصعبة صارت حتمية ، سواء فشل السادات ام نجح · ان فشله يعني فشل الاساليب والوسائل العربية التي اتبعت حتى الان في الوصول الى التسوية

التي اعتمدتها غالبية الانظمة العربية ، ولم يقتصر اعتمادها على مصر السادات ٠
ونجاحه يعني نجاح مخطط فصل مصر عن النضال العربي ـ وهذا سيضعـــف
موقف الانظمة الاخرى ، وسيزيد من فرص العدو في التمسك باراضيها ، وسيقـلـل
فرصها في استعادة حقوقهابواسطة الاساليب الديبلوماسية لوحدها ٠ وفي الحالتين
لا بد من قرارات حاسمة وصعبة ٠

معن بشور

في الذكرى العشرين للوحدة

الأقليميات العربية : إزدهار أم انهيار ؟

بعد عشرين سنة على ميلاد اول تجربة وحدوية عربية في العصر الحديث ، يبدو ظاهريا وكأن الوحدة العربية ، كفكرة وكحركة وكنضال ، قد تراجعت كثيرا امام نزاعات المصالح الاقليمية وحروب العواصم والطوائف والقبائل هنا وهناك على امتداد الوطن العربي الكبير ٠٠ بل يبدو وكأن الوحدة العربية تمر بازمة عميقة عنيفة تمس الجذور وتهز البديهيات القومية الاولى ٠٠ في حين تنتعش الاقليميات انتعاشا ظاهرا وبارزا وتنتقل من كونها منطق الفئات الحاكمة لتصبح في بعض الاحيان منطق فئات واسعة من المواطنين وسط تغذية يومية ، وتركيز دائم مستمر ، تشترك فيه انظمة على ما بينها من خلاف ، وتدعمها كل القوى صاحبة المصلحة في ابقاء الواقع الراهن بدون تمييز ٠٠

فهل ما يبدو على السطح اليوم هو الحقيقة الثابتة والنهائية ٠٠٠ وهو التعبير الصادق عما يجري من تفاعلات وتطورات غير مرئية في الحياة العربية ٠٠ ام انه مجرد مظاهر خادعة بل ومعاكسة لحقيقة الحركة التاريخية المتواصلة لهذه الامة ٠

ازمة الوحدة العربية

ان الوحدة العربية ، كفكرة وكحركة وكنضال ، تعاني اليوم من ازمة بدون شك٠٠ لكن ازمتها ذاتية لا تتصل في مدى تعبيرها عن حاجات موضوعية وحيوية في هذه الامة بقدر ما تعبر عن قصور في ادوات وبرامج النضال من اجل تحقيقها ، بل عن قصور هذه الادوات والبرامج في الارتفاع باساليبها ونضالاتها الى المستوى الذي وصلت اليه اساليب القوى المضادة في تعميق التجزئة وتعميم التفتيت والتشرذم والتناحر على كافة المستويات ٠٠٠

... وازمة الاقليمية

بينما نجد الاقليمية ، كافكار وكيانات ومصالح ، رغم مظاهر انتعاشها وانتشار منطقها في معظم المحافل والمستويات ، تجابه ازمة موضوعية حقيقية تتلخص في مسألتين معا :

١ ـ عجزها الكامل عن مواجهة كافة التحديات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية التي يواجهها اي قطر عربي ، مهما بلغ حجمه واتسعت رقعته .

ان هذا العجز ينكشف اولا في تدني مستوى المجابهة القومية مع العدو الصهيوني او غيره من ذوي الاطماع في الارض العربية كما يظهر كذلك في مظاهر الارتباك المتواصل الذي تواجهه قضايا التنمية والتطور الاقتصادي والاجتماعي .

كذلك ينكشف حجم هذا العجز الاقليمي في عدم القدرة على اعداد « حل عسكري » لمسألة الصراع العربي ـ الصهيوني ، او حتى في عدم النجاح في انجاز « حل سياسي » لهذه المسألة ...

وعلى الصعيد الاقتصادي يكاد يظهر بدون اية صعوبة كيف ان مشاريع التنمية وخطط التطوير تترنح فشلا داخل السجون الاقليمية التي اذا تمكنت من توفير رأس المال فانها لا توفر اليد العاملة والسوق والخبرة والمواد الاولية ، والتي وان توفر لها عنصر أو اخر من عناصر الانتاج فأنها تفتقد بشدة الى العناصر الاخرى ...

٢ ـ بالاضافة الى هذا العجز ، وربما بسببه ، يعجز التركيب السياسي والاقتصادي والاجتماعي للاقليمية عن ان يعبر عن مصالح الاقليم ككل ، فيجنح الى التعبير عن مصلحة قلة في داخله ، مما يظهر ان الاوضاع الاقليمية ليست مصلحة **قطر** بكامله وانما تصبح مصلحة **عشيرة** او **فئة** او **جهة** داخل هذا القطر .

الاقليمية ـ جذورها وحقيقتها

ذلك ان (الاقليمية) في البناء السياسي العربي ليست مجرد انعكاس فوقي لتطور **داخلي** في البناء الاقتصادي والاجتماعي العربي ، وفي علاقات الانتاج وتطور الطبقات ، بل هي قرار **خارجي** اتخذه الاستعمار القديم وحافظت عليه الامبريالية كضمان لديمومة المصالح الاجنبية والهيمنة الاستعمارية على هذه المنطقة وثرواتها وخيراتها ...

فالاقليمية بهذا المعنى ليست وليدة طبقة بذاتها في الحياة العربية ، بل أنها هي التي تولد الطبقات والفئات التي تدافع عنها ، وهذا الذي يفسر تعاقب اكثر من طبقة او فئة اجتماعية على سدة الحكم في البلاد العربية وبقاءها جميعا مخلصة « للسيادة الاقليمية » و « المنطق الاقليمي » ... هكذا كان .

فالكيانات الاقليمية في الوطن العربي هي الجغرافية السياسية للامبريالية فيهذه المنطقة ، هي الحدود الامنة لمصالحها ومخططاتها ، فهي اذن تشكيل فوقي لبناء تحتي متصل بالمجتمعات الرأسمالية في مرحلتها الامبريالية وليس بالتطور الاجتماعي

والاقتصادي العربي ، بل على العكس من ذلك تشكل هذه الكيانات الاقليمية الاطار الذي تتشكل فوقه وضمنه الكثير من الطبقات والفئات الطفيلية في بلادنا ٠

فالاقليمية ليست ظاهرة اقطاعية او بورجوازية او بورجوازية صغيرة في بلادنا بقدر ما يبدو ان سيطرة هذه الفئات هي ظواهر مرتبطة بديمومة الكيانات الاقليمية كتعبير عن الوجود الامبريالي في هذه المنطقة من العالم ٠ ولهذا السبب لا نجد بورجوازياتنا العربية ، تناضل كمثيلاتها في اوروبا ، من أجل الوحدة بل على العكس من ذلك نجدها تعمل كل ما في وسعها لترسيخ الاقليمية وللتآمر على التجربة الوحدوية حين تقوم كما حصل عام ١٩٦١ في انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة ٠

الاقليمية ٠٠ والظاهرة الامبريالية

ومن هنا يمكننا بدون صعوبة ان نصل الى المدخل الحقيقي لازمة الاقليمية في الوطن العربي ٠٠٠

فالاقليمية ظاهرة امبريالية مدعومة بالطبع بالحركة الصهيونية ٠٠٠ وهي بهذا المعنى ظاهرة مرتبطة باستمرار استغلال الامة العربية ونهب خيراتها وثرواتها ، ومرتبطة باستغلال قلة محدودة من ابناء هذه المنطقة للاكثرية الشعبية العربية الواسعة ٠

ان كافة الظواهر التي تقوم على الاستغلال ، تحمل بالضرورة في طياتها تناقضا مميتا، بل تحمل بذور انهيارها معها ، وهي من حيث تستمد مصدر قوتها وحياتها تستمد ايضا مصدر ضعفها وزوالها ٠٠٠

فهل تنطبق هذه القاعدة على الاقليمية في وطننا العربي ؟!

مثالان من التاريخ الحديث

اولا : ان الاقرار بالترابط بين الظاهرة الاستعمارية او الامبريالية وبين الظاهرة الاقليمية تعود الى ان تفاقم ازمة الاستعمار سابقا ثم تفاقم ازمة الامبريالية حاليا يؤديان بالضرورة الى تفاقم أزمة الاقليمية في وطننا العربي ٠٠٠ وبالتالي انه كلما تنحسر مرحلة من النفوذ الاستعماري تبرز مرحلة من المد الوحدوي ٠٠٠

ومن التاريخ العربي الحديث نستخرج مثالين بارزين :

المثال الاول في النصف الاول من القرن التاسع عشر حين تمكنت قيادة محمد علي وولده ابراهيم في مصر من الاستفادة من تفكك الامبراطورية العثمانية لتنجح في توحيد مصر وبلاد الشام في فترة وجيزة ، ومن تكوين قوة دقت ابواب الاناضول لولا ان تداعت القوى الاستعمارية الجديدة انذاك (القوى الاوروبية) للضغط على محمد علي وأجباره على التراجع عن مشروعه الوحدوي والانكفاء داخل مصر ٠

المثال الثاني : في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين حين بدأ الاستعمار

القديم بركنيه البريطاني والفرنسي يتهاوى تحت ضربات حركات التحرر في العالم لا سيما بعد معركة السويس ١٩٥٦ ، فكانت الفرصة التاريخية التي التقطها عبد الناصر والبعث فاقاما الوحدة المصرية ـ السورية قبل عشرين عاما ، لتسارع الامبريالية الجديدة (الاميركية) بعد ان استكملت نفوذها ، واستولت على التركة الاستعمارية بكاملها ، الى الاجهاز على دولة الوحدة ٠

الوحدة وقوى الاشتراكية في العالم

اذن قوة التجزئة والاقليمية تكمن في الحماية الامبريالية والصهيونية لها ، وانتصار الوحدة العربية رهن بالهزائم التي تمنى بها الامبريالية والصهيونية سواء في بلادنا او في بلاد العالم باسره ٠٠٠

ان هذه الحقيقة هي التي تضع حركة الوحدة العربية في صلب حركات التحرر الوطني في العالم ، وفي قلب معسكر الاشتراكية والتقدم ، ذلك ان ما من وحدوي عربي حقيقي يستطيع ان يرى هزيمة الامبريالية النهائية وبالتالي افاق انتصار الوحدة العربية بدون ذلك الجهد الاممي الواسع الذي يضم شعوبا وحركات تحرر ودولا اشتراكية في نضالها ضد الامبريالية على كافة المستويات ٠٠٠ كما انه بالمقابل لا يوجد اشتراكي حقيقي في بلادنا او في العالم لا يرى الدور التقدمي الحاسم لحركة الوحدة العربية في نضالها وتصفية الامبريالية في اخر واقوى معاقلها حيث الخيرات العربية تشكل آخر شرايين القدرة والقوة للنظام الرأسمالي العالمي ٠

الامبريالية في عصر انهيارها

ولما كانت الامبريالية في عصر انهيارها في الوقت الحاضر سواء بسبب تفاقم ازمة النظام الرأسمالي في المركز الامبريالي الاول : الولايات المتحدة ، او بسبب اشتداد التناقضات الاقتصادية والاجتماعية بين اطراف المعسكر الامبريالي الثلاثة : الولايات المتحدة واوروبا الغربية واليابان ، او بسبب الاهتزاز المتواصل للنظام النقدي العالمي وتزايد دعوات التخلي عن حرية التجارة بين البلدان الرأسمالية او بسبب نمو واتساع القاعدة المادية للبلدان الاشتراكية اقتصاديا وعسكريا وبسبب تنامي قوى الاشتراكية والتحرر سواء في بلدان أوروبا الغربية (أيطاليا ، فرنسا ، اسبانيا) او في العالم الثالث ، لذلك كان لا بد ان ينعكس هذا التراجع في تفاقم أزمة الاقليميات العربية وفي تزايد العجز الامبريالي عن نصرتها وحل مشاكلها المختلفة ٠٠٠

الا انه من الضروري الاستدراك هنا لكي نؤكد ان ضعف الامبريالية البنيوي وتراجعها في مناطق اخرى من العالم لا يعني بشكل آلي ضعفها وتراجعها في بلادنا ، بل ان هذه الامبريالية ستخوض على ارضنا العربية اشرس واعنف معاركها على الاطلاق لاتصال هذه المنطقة بشرايين الحياة بالنسبة اليها ، وستستخدم آخر ما ابتكرته من أساليب التآمر من أجل منع نهضة الامة العربية ووحدتها ٠ الا ان كون معركة الامبريالية مع امتنا من أشرس واعنف معاركها لا ينفي انها آخر معاركها أيضا ٠

تناقضات ضرورية

ذلك ان الامبريالية وهي تجابه حركة النضال العربي تجد نفسها أسيرة تناقض متعدد الوجوه يدفع بازمتها الى المزيد من التفاقم ، ويزلزل بالتالي دعائم الواقع الاقليمي الى ابعد حد ..

فالامبريالية تريد من جهة تجزئة الوطن العربي وتعميق الانقسامات فيه الى درجة التفتيت ، ولكنها تريد من جهة أخرى ان تقيم تحالفا بين الانظمة بوجه حركة الجماهير بحيث تحمي هذه الانظمة بعضها بعضا الامر الذي يخلق درجة من **التضامن** تتناقض مع جو **التفتيت** الذي تريد خلقه ..

والامبريالية تريد من جهة ان تنهب الخيرات والثروات العربية برمتها اذا أمكنها ذلك ، لكنها تدرك انه لا بد من ان تترك فتات هذه الثروات بيد الطبقات الحاكمة كي تتمكن من البقاء في سدة الحكم « أن هذا الفتات من الثروة نفسه يصبح الى حد ما **عامل تكامل اقتصادي** حين يحتاج الى يد عاملة وخبرة ومواد اولية قد لا تكون متوفرة في الاقليم « صاحب » الثروة فيضطر الى استيرادها من الاقطار الاخرى ، كما قد تحتاج هذه الثروة الى شيء من الحركة باتجاه عواصم عربية اخرى بحثا عن فرص استثمار او دعما لاوضاع سياسية معينة مما يحكم من الروابط بين الاقطار في حين ان مخطط الامبريالية يقوم على تعميق **التجزئة** وتخليدها ...

ومن جهة ثالثة فان الامبريالية بالقدر الذي تريد فيه سيطرة كاملة على الموارد النفطية وغير النفطية للامة العربية ، تريد ايضا ان تحول السوق العربية الى مستورد ضخم للسلاح الاميركي باعتبار ان الدور الاقتصادي لصناعة الاسلحة والصناعات المرتبطة بها في الولايات المتحدة يتزايد باستمرار ، وان هذه الصناعة قد أصبحت منذ زمن طويل ، احد المصادر الاساسية للاستثمار والنمو في الاقتصاد الاميركي ، ان تحويل الامة العربية الى سوق للسلاح الاميركي يتطلب بالضرورة زيادة الاحساس بالخطر الخارجي لدى بعض الاقاليم والاقطار سواء كان هذا الخطر صهيونيا او ايرانيا او غير ذلك .. وهذا الاحساس بالخطر يؤجج بالتالي المشاعر القومية ، ويعمق بالتالي الحاجة الى المزيد من **التضامن والوحدة** ...

التناقض التاريخي للحركة الصهيونية

كذلك فان الاستراتيجية الامبريالية في المنطقة تقوم على ركيزتين هامتين هما « الاستقرار النسبي » للاوضاع الراهنة والمصالح الامبريالية في المنطقة ، و « البقاء الدائم الثابت » للكيان الاسرائيلي كمخفر حراسة رئيسي لهذه المصالح ... واذا كانت السياسة الامبريالية تنجح في أوقات عديدة في التوفيق بين هذين الاعتبارين الا أن الطبيعة العدوانية والتوسعية والاستيطانية للحركة الصهيونية تشكل مصدر احراج وارباك دائم للاوضاع العربية ، فتجعل الانظمة العربية ، مهما بالغت في تنازلاتها امام واشنطن وتل ابيب ، عاجزة عن الحصول على اي تنازل معقول من الكيان الاسرائيلي ، كما تصبح بالمقابل عاجزة عن اللجوء الى الحرب كوسيلة للضغط باتجاه انتزاع بعض المكاسب ...

وهكذا تصبح الطبيعة العدوانية والاستيطانية والتوسعية للحركة الصهيونية ، رغم اعتمادها الاساسي على التجزئة والتفتيت في المنطقة ، عامل اضعاف واحـــراج مستمر للقوى والمصالح الاقليمية العاجزة عن التقدم باتجاه الحرب او السلم على حد سواء ٠٠٠ لا بل وبعد أن كانت هذه الحركة تستهدف اقليما واحدا في الامة (فلسطين) انتقلت لتحتل اراض لاقاليم أخرى (سيناء والجولان) ولتهـــدد باحتلال اراض جديدة لاقاليم جديدة (جنوبي لبنان) ٠

وهكذا تتضح عملية التناقض التاريخية التي تقوم عليهـا مسألة الاغتصـــاب الصهيوني لفلسطين التي اريد لها ان تكون حاجزا موضوعيا في وجه الوحـــدة العربية ، لتصبح بما تطرحه من اخطار وبما تمارسه من عدوان عامل توحيـــد موضوعي في الامة العربية ٠٠٠

فبالقدر الذي تتطور فيه الظاهرة الصهيونية باتجاه استكمال حقيقتها وشخصيتها تتفاقم فيه الازمة الاقليمية الى درجة كبيرة ٠

وهنا بالتحديد يكمن الدور الموضوعي لثورة فلسطين في حركة الوحدة العربية ، بحيث يصبح النضال الوحدوي الحقيقي في مراحل كثيرة من النضال العربي هـو النضال الذي تكون فلسطين وجهته ، والكفاح الشعبي المسلح اسلوبه ٠ فلا يكون ثوريا فلسطينيا من لا يكون وحدويا عربيا ، ولا يكون وحدويا حقيقيا من لم يعتبـر ثورة فلسطين هي المقياس والمعيـار ٠

الاساليب الجديدة للامبريالية

واذا ضفنا الى هذه التناقضات التي تحكم السلوك الامبريالي تجاه منطقتنـــا العربية ، التعديلات الهامة في اساليب ادارة الصراع للابقـــاء على السيطـرة الامبريالية في العالم لاكتشفنا كيف ان تفاقم الازمة الامبريالية ينعكس بشكل واضح على تفاقم ازمات الاقليمية في بلادنا ٠٠

فعلى اثر الهزيمة الاميركية الساحقة في فيتنام ، وعلى اثر التزايد المستمر فـي العجز في ميزان المدفوعات الاميركي (بلغ عام ١٩٧٧ ٣٢ بليون دولار) تطورت أساليب التدخل الامبريالي العسكري والسياسي والاقتصادي باتجاهين اصبحـــا معروفين جـــدا :

اولا : الفتنمة اي استخدام الادوات المحلية في الصراع بحيث لا يضطر المركز الامبريالي الى التورط مباشرة بجنوده واساطيله في المعارك ضد حركة الشعوب ٠

ثانيا : تحويل عبء المساعدات الخارجية الاميركية تدريجيا الى دول غنيـــة تدور في الفلك الاميركي وتقدم هذه المساعدات نيابة عن الادارة الاميركية ولكن في خدمتهـــا ٠

ولقد شهدت الساحة العربية في السنوات الاخيرة اوضح النماذج عن استخدام الاسلوبين معا ، فازداد من جهة تدخل الدول العربية اليومي والفعلي والسافر فـي شؤون بعضها البعض ، فاخترقت السيادات الاقليمية ، وتحركت الجيوش مـــن قطر الى آخر في المشرق والمغرب على حد سواء ، في اسيا العربية وافريقيا العربية

معا ٠٠ على نحو اظهر اكثر من اي وقت مضى ترابط مصير الاقاليم والاقطار بعضها ببعض ، واستطاعت حركات التحرر والتقدم داخل كل قطر ان تدرك بوضوح ساطع ، وبتجربة ثمينة ومكلفة في الوقت ذاتها ، ترابط مصيرها وضرورة اندماج نضالها اكثر من اي وقت مضى ٠٠٠

كذلك ادى تزايد نمو المساعدات العربية من قطر الى آخر الى اتساع القاعدة الاقتصادية المشتركة بين الاقطار والى ارساء اسس موضوعية للعلاقة بينها بحيث بات من الصعب ان يستغني قطر عن قطر آخر ٠٠٠

بل واكثر من هذا نشأت في هذه السنوات واحدة من انشط واوسع حركات الانتقال للاشخاص والرساميل والمشاريع الاقتصادية بين الاقطار العربية فرضتها الحاجة الموضوعية داخل كل قطر ٠

ورغم ان حجم هذه الرساميل والمشاريع المتنقلة من قطر الى آخر لا يشكل سوى نسبة ضئيلة من حجم الرساميل التي تخرج من الوطن العربي ، الا ان هذا الحجم يبقى كافيا لتشكيل قاعدة اقتصادية متنامية لتطور العلاقة بين الاقطار العربية ٠٠٠

ان هذه الحركة المتنامية التي تنفذ من ثغرات العجز المتزايد في البنى الامبريالية واحكام سيطرتها على المنطقة ، والعجز المتزايد في قدرة البنى الاقليمية على التجاوب مع التحديات المعيشية واليومية والوطنية المطروحة ، هي اليوم بدون شك احد ابرز الموضوعات التي تتم دراستها من قبل العقل الامبريالي والصهيوني من اجل الاجهاز عليها ومنع نموها ٠٠٠

ولعل تجربة حرب تشرين ، بغض النظر عن النوايا التي سبقتها والنتائج التي وصلت اليها ، هي اعظم مثال على القوة الوحدوية الكامنة في الامة العربية ٠٠٠ ففي لحظات بسيطة من التاريخ العربي التقت مجموعة عوامل ايجابية وسلبية لتشكل قرار الحرب فاذا بهذا القرار يطلق في الامة سلسلة من التفاعلات لم يكن احد يتوقعها سواء على صعيد تحرك الجيوش بين عاصمة واخرى ، او على صعيد حرب النفط ، او على الاصعدة الاخرى ٠٠

وبهذا المعنى كانت حرب تشرين انذارا خطيرا للدوائر الامبريالية والصهيونية اكثر مما كانت انتصارا عليها ، انذارا بان الوحدة العربية قوة كبرى وأن لم تظهر على السطح ، وان سنوات طويلة من الممارسات الانفصالية والاقليمية المصحوبة بكل اشكال القمع والقهر لم تكن كافية لالغاء هذه القوة من الحسابات ٠٠٠

وتكاد تتلخص الخطة الامبريالية ـ الصهيونية المضادة لحركة الوحدة العربية بنقطة واحدة اساسية : اعادة النظر في الخارطة الراهنة للوطن العربي باتجاهين رئيسيين : ١ ـ المزيد من التفتيت والتجزئة للكيانات القائمة وسط حروب تعمق كل انواع العصبيات الاقليمية ، والطائفية ، والقبلية الخ ٠ ٢ ـ المزيد من تشجيع القوى صاحبة الاطماع في الارض العربية لمتابعة مشاريعها التوسعية والاغتصابية٠

وبغض النظر عن قدرة المخططات الامبريالية والصهيونية على النجاح في تحقيق اهدافها ، فان هذه المخططات بحد ذاتها تعبير صارخ عن الشعور بعجز الاقليميات الراهنة عن تأدية المهام الموكولة اليها ، وانه لا بد من تجزئة جديدة ، واغتصاب جديد ، يواصل تحقيق هذه المهام ٠٠٠

ولقد كان لبنان المجال النموذجي لبروز هذه الاتجاهات على اوسع شكل ...
فلقد ترنحت الفكرة الكيانية اللبنانية طيلة حرب السنتين تحت ضربات اتجاهين متناقضين :

الاتجاه الاول الذي عبرت عنه اكثرية الجماهير اللبنانية وقواها الوطنية والتقدمية ، وهو اتجاه عربي ذو نزوع وحدوي عبر عن نفسه في التلاحم المصيري مع الثورة الفلسطينية باعتبارها طليعة حركة التحرر العربية من جهة ، ونظرا لكونها قوة صدامية في وجه اطماع اسرائيل ونواياها التوسعية في ارض لبنان .

الاتجاه الثاني الذي عبرت عنه الجماعات الطائفية الانعزالية التي رفعت شعارات التعددية واللامركزية لتظهر ان تمسكها السابق بالكيان اللبناني لم يكن اكثر من ستار لاخفاء مصالحها الطبقية وامتيازاتها الطائفية .

وتجلت المفارقة بابرز اشكالها حين ظهر ان العروبيين والتقدميين والوطنيين ، وحتى الفلسطينيين ، هم الاكثر تمسكا بوحدة لبنان ، وان « القوميين اللبنانيين » هم دعاة الانكفاء الى كانتونهم الطائفي الذي لا يشكل اكثر من ٢٠٪ من ارض لبنان .. وهم المنظرون (للتعددية الحضارية) و (الثنائية) الخ ...

ومن هنا كان لا بد للخطة الامبريالية ـ الصهيونية ان تسير بالاتجاهين اللذين قررتهما لمجابهة الاوضاع العربية :

١ ـ تشجيع « التقسيميين » على المزيد من السلوك بشكل تقسيمي توتيري يهدد بنقل الصراع الى خارج لبنان .

٢ ـ التهديد المستمر بامكانية احتلال الجنوب اللبناني من قبل اسرائيل .
ان هذه « التجربة اللبنانية » بكل ابعادها مرشحة للانتقال بدرجة او باخرى ، بصورة مشابهة او بصورة مختلفة ، الى اقطار اخرى ، حيث اصبح واضحا ان الاطار الاقليمي او القطري اصبح عاجزا ومأزوما ومترنحا ...

غير ان هذه المخططات الامبريالية والصهيونية بحرصها على تفجير كل المصالح والنزعات الطبقية الطائفية والعنصرية والقبلية في وجه حركة الوحدة العربية انما تثير لدى الاكثرية العربية الواسعة المنسجمة اجتماعيا وقوميا ونفسيا شعورا بالخطر المصيري يهدد وجودها في كل قطر ، وفي كل موقع ، مما يدفعها تلقائيا الى تنظيم جهودها باتجاه الحل الوحدوي .

ذلك ان الحل الوحدوي الاشتراكي الديمقراطي لم يعد حلا لمشكلة الامة العربية ككل فحسب ، بل اصبح حلا لكل قطر من اقطارها ، هو الذي يحفظ وحدته ، ويصون ترابه ، ويبدد كل المخاطر التي تحيط به ...

واذا كان الحل الوحدوي التقدمي المطروح لمشاكل الامة العربية منذ اكثر من ثلاثين سنة كان يجد تجاوبا في عقل المثقف وضمير المواطن ، فانه قد اصبح اليوم مرتبطا بحياته اليومية ، بامنه ، باستقراره ، بحريته ، بلقمة عيشه ...

وحين ترتبط الوحدة العربية بالحاجة اليومية تصبح قوة من الصعب قهرها او التحايل عليها ، فهي التي ستفرض نضالها وادواتها وبرامجها ، وهي التي ستبني حركتها الثورية ..

صحيح ان تفاقم ازمة الاقليمية لا يعني ابدا ان الوحدة منتصرة ، ولكن صحيح ايضا ان عدم انتصار الوحدة اليوم لا يعني ان التجزئة خالدة ٠

وفي النهاية لا بد من التأكيد بكل صدق بان هذه المقال ليس دراسة سياسية او فكرية او اقتصادية للمسألة الوحدوية العربية ، بل هو مجموعة افكار مطروحة للمناقشة باتجاه فهم للوحدة لا يبقيها مجرد هدف او امنية او غاية عزيزة على قلب كل عربي ، بل يحاول ان يفهمها كحركة تاريخية منسجمة مع قوانين التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لهذه المنطقة في العالم ، وان التجزئة والاقليمية ظواهر قديمة صائرة حكما الى انهيار ٠

ان حركة الوحدة العربية حاجة موضوعية تمر بأزمة ذاتية لا بد أن يفرض التطور التاريخي تجاوزها ، اما الواقع الاقليمي فازمته موضوعية لا يغير من حقيقتها شيئا مظاهر التفشي الاقليمي الطافية على السطح العربي ٠٠٠

فكثير من الامراض الكامنة حين تتفشى في جسم الانسان تكون في مراحلها النهائية ٠

سعيد حمامي

غاب سعيد حمامي · غابت ابتسامة من حياتنا في الامطار الغزيرة · وفي كل مرة نقول : تعبنا من الرثاء · ومن يعرف سعيد حمامي لا يستطيع السيطرة على غيابه · ومن لا يعرفه لا يستطيع الاقتراب منه دون استنفار الحواس · لقد وجد اصدقاءه واعداءه في استحضار النار · لا يمر عنه احد بلا حماسة · وقد رأيناه في حالاته الكثيرة التي يخفي فيها ، او يظهر ، شراسة الفلسطيني الذي يأمره العمل الديبلوماسي باستخدام القفاز الناعم ·

كان يعرف انه يسير في الطريق الوعر وفي المهمة الشاقة ، مهمـــة تغيير الوجـــدان البريطاني المثقل بتراث الامبراطورية الغاربة ، من تقاليد العداء التاريخي لنضال الشعب الفلسطيني الى الاقتراب البارد من وعي الحق الفلسطيني ، ولكنه لم يعرف تماما انه يسير مع الشهداء · وقد نجح سعيد حمامي في ترجمة التطور الذي حقق المناضل الفلسطيني على اراضي الصراع الى تغير نوعي في الوعي البريطاني العام ، بتوظيفه خبرتـــــه الدبلوماسية في ادراج العامل الفلسطيني في جدول اعمال الذاهبين الى الاهتمام بالشرق الاوسط من زاوية الحرص على السلام العالمي ·

ولعل هذه اللغة ، لغة التخاطب مع الشعوب البعيدة عـــن ارض الصراع بقاموس مصالحها ، والسلام ابجديتها ، هي التي كانت تريب نقاد سعيد حمامي الكثيرين · ولعل اتقان سعيد حمامي لغة التخاطب مع الرأي العام العالمي من زاوية تأمين شروط السلام ، وفي مقدمتها الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني ، هو الذي اوصله الى طريق الشهادة ·

كان سعيد باحثا عنيدا عن صياغة علاقات بين الاجتهادات الفلسطينية تتميز عـــن علاقات البطش والوأد وسهولة الاتهام والادانة · وعند وداع سعيد حمامي يجب ان نعي اكثر من اي وقت مضى ان في وسع التجربة الفلسطينية ان تخلق مناخا متميزا من تعايش الافكار وصراع الاجتهادات التي يحكمها اطار الالتزام بأهداف نضالنا · وان الخروج عن قاعدة الديموقراطية التي تميز نشـــاط الســاحة الفلسطينية يشكل اعتداء على الشعب والثورة ·

غاب سعيد حمامي الذي كان يمقت الرثاء · ما زالت طريق البندقية والفكرة مليئة بالشهداء ودائرة الحوار بين يافا وابنها الجميل ما زالت ترسم بالدم ·

« شؤون فلسطينية»

شهادات

محاكمة الاستيطان

استمعت لجنة خاصة في مجلس الشيوخ الاميركي ـ الى شهادتين اسرائيليتين على الاستيطان الاسرائيلي في الضفة الغربية المحتلة ، فيالسابع عشر من اكتوبر الماضي ، قدم اولاهما الدكتور يسرائيل شاحاك استاذ الكيمياء في الجامعة العبرية الذي يرفض « شرعية» هذا الاستيطان ، وثانيهما يهودا بلوم استاذ القانون الدولي فيالجامعة العبرية ، الذي يدافع عن الاستيطان ، ويقول ان « حق » اسرائيل يشمل الضفة الشرقية لنهر الاردن ايضا! وقد ادار المناقشة الشيخ ابو رزق · وفيما يلي نص الشهادتين :

يسرائيل شاحاك :

السيد شاحاك : احب ان اركز لا على الاسئلة القانونية بل على اسئلة العدالة واسئلة الحالة اليومية لاراض محتلة معينة · وفي اسئلة العدالة هذه ، يمكن لاي مواطن ولاي كائن بشري منصف ان يفهم العدالة الاساسية · وسأتحدث عن الوضع الذي احدثته المستوطنات في شعب الاراضي المحتلة ·

قبل كل شيء احب ان اشير الى ان خلق المستوطنات في الاراضي ، التي لا يستطيع سكانها من ثم الاستقرار فيها ، يخرق ، في رأيي ، الحق في العدالة المتكافئة ، الحق الذي يقول ان الناس يجب ان يعاملوا في ظل قانون متكافيء · واني اعارض ، داخل دولة اسرائيل وفي كل مكان ومنبر في العالم ، تصريح رئيس وزرائي ، السيد بيغن ، القائل بان لليهود الحق في الاستقرار ، في ارض اسرائيل لان الحقوق يجب ان تعطى بصرف النظر عن الدين والعرق والقومية ·

وكما قلت في بلدي ، اقول هنا انه اذا كان من حق اليهود في تل ابيب ان يستوطنوا الضفة الغربية ، فانهم لا يملكون ذلك الحق الا بشرط اعطاء حق متبادل ومتساو لجميع الاخرين ، ولنقل ابناء الضفة الغربية ، في استيطان تل ابيب ·

ان اية حالة اخرى تخالف شروط الحرية كما هي معروفة في الدول الحديثة وتخرق المبادىء عينها التي اكدتها الثورة الاميركية والثورة الفرنسية والقوانين الاساسية للديموقراطية الحديثة · وهي تعيدنا الى المبادىء التي استخدمها اللاساميون ضد اليهود · واقول هذا خصوصا لانني يهودي · فان استيطان الاراضي بموجب هذا القانون غير العادل وغير المتكافيء يذكرني كثيرا بحالة اليهود الذين قاسوا الامرين في البلدان الاوروبية والاخرى حتى نهاية القرن الثامن عشر واحيانا بعد ذلك ، عندما لم يكن مسموحا لهم بالاستقرار حيثما يرغبون ، بل ابقوا في مناطق معينة او في غيتوات ·

ان السماح ليهود اسرائيل بالاستقرار في الاراضي المحتلة وعدم السماح لابناء هذه الاراضي بالاستقرار في اسرائيل بموجب قانون متبادل ومتكافيء ، يشبه اضطهاد

اليهود في نظري ·

والى ذلك ، اقول انه ما كان ينبغي ان نستخدم عبارة « مستوطنات اسرائيلية » على الضفة الغربية كما فعلنا هنا على هذه الخريطة (مشيرا اليها) ، اذ ان الجميع في اسرائيل يعلمون ان اليهود وحدهم (**وليس الاسرائيليين**) يسمح لهم بالاستقرار في تلك المستوطنات ·

فالحقيقة الراهنة هي ان لا ابناء الاراضي المحتلة ولا المواطنين الاسرائيليين من غير اليهود يسمح لهم بالاستقرار في المستعمرات على الضفة الغربية او في غزة او في اراضي الجولان وسيناء ·

ويشكل هذا اوقح واوضح نوع من انواع العنصرية ، تجاه كل من ابناء الاراضي المحتلة الذين لا يسمح لهم بالاقامة والعيش في مستوطنات تقيمها الدولة ومؤسسة في اراضيهم وايضا نحو المواطنين الاسرائيليين الذين ليسوا هم من اليهود ·

وبالاضافة الى ذلك يشكل هذا ايضا فعلا عنصريا ضد المواطنين الاميركيين ، وفي الواقع ، ضد مواطني العالم كله · فأمامنا حالة يدعى فيها الاميركيون الى الاستيطان في الضفة الغربية او قطاع غزة ، او اراضي سيناء ، او في الجولان وغيرها من الاماكن ولكن فقط بشرط ان يكونوا يهودا · ويعني هذا قانونيا وعمليا ان على المواطن الاميركي ، لكي يفيد من هذه الحوافز المادية العالية جدا المعروضة على مستوطني تلك الاراضي ، اما ان يعتنق الديانة اليهودية ، وأحد شروطها انكار دين أجداده ، او ان يثبت انه مولود من ام او جدة يهودية او من جدة جدة جدتها يهودية ·

وأقول هذا لا كبشري فحسب بل كيهودي : وهو انني كنت سأحتج لو ان الحكومة الاميركية أقامت مثل هذه المستوطنات سواء في الاسكا او بورتوريكو واذا كان مطلوبا من اليهود لكي يقيموا في هذه المستوطنات الاميركية ان ينكروا دينهم ويقبلوا ، على سبيل المثال ، ألوهية يسوع المسيح · فان هذا في رأيي سيشكل اوضح حالة من حالات اللاسامية · وطبقا للمنطق نفسه ، فان المستوطنات المفتوحة فقط لمثل هؤلاء المواطنين الاميركيين ، الذين هم يهود او اعتنقوا الديانة اليهودية وانكروا دين اجدادهم ، تشكل كذلك حالة عنصرية ·

وأخيرا اريد ان اشير إلى هذا الامر : وهو أن تلك المستوطنات تخدم كمراكز لتشغيل الاطفال واستغلالهم على اقبح واوضح نحو مستخدمة اجورا غير عادلة وغير متكافئة · واريد بنوع خاص ان الفت انتباه هذه اللجنة الى الحالة المريعة للايدي العاملة الرخيصة في المنطقة المسماة مداخل رفح في الزاوية الشمالية الغربية من سيناء في الاراضي المصرية ، حيث يمكنني ان اشهد مما رأيته بأم عيني واكده لي الكثير من الاسرائيليين ، كالدكتور آمنون كابليوك مثلا الذي نشر شهاداته في الصحف الفرنسية والعبرية · اذ يصار الى استخدام اطفال في السابعة او الثامنة من اعمارهم في قطف البندورة وغيرها من الخضار · وتستخدم عائلات بكاملها في اوضاع عمل الرق · وحتى بالنسبة للذين لا يستخدمون في اوضاع عمل الرق ، فانه يعرض على العامل العربي رسميا خمس ليرات اسرائيلية في الساعة بينما الاجور للعامل اليهودي تبلغ ١٢٫٥ ليرة اسرائيلية في الساعة ·

ومع ان الاوضاع في هذه المنطقة اسوأ من غيرها فاني اود ان اشير الى ان الاوضاع

نفسها سائدة في اماكن اخرى ٠ وأريد ان اشير الى مكان اخر حيث وجدت بمراقبتي الخاصة ومن معلومات اعطاها السيد مايفسكي ، المشرف على كريات ـ عربا ، في السادس عشر من ايلول (سبتمبر) في هاآرتس ، ان القرية بنيت خصيصا لاستغلال الايدي العاملة العربية الرخيصة وهي تقدم لهم من خمس ليرات الى خمس ليرات ونصف اسرائيلية بالساعة ٠ اما الاجور العادية فهي اعلى بكثير ٠

وباختصار ، فاني اعتقد ان جميع الشعوب في جميع بلدان العالم يجب ان تدعو الى الالغاء الفوري والتام لجميع المستوطنات في الاراضي المحتلة بوصفها مصادر ظلم وعنصرية او استغلال واضطهاد ٠

شكرا جزيلا لكم ٠

الشيخ ابو رزق : سنثبت تصريحك المكتوب في السجل عند هذه النقطة ٠ شكرا جزيلا لك ٠

انني ادرك ادراكا تاما انك لا تحب ان تستغل خلفيتك كوسيلة لتثبيت نفسك كناطق لوجهة نظرك ولكني اعتقد انه من الضروري ان نضع خلفيتك في السجل ٠

فهل لك ان تخبر اللجنة شيئا عن خلفيتك ؟

السيد شاحاك : ولدت في وارسو ، بولونيا ، عام ١٩٣٣ ٠ امضيت الحرب العالمية الثانية تحت احتلال هتلر ٠ ووصلت الى فلسطين في عام ١٩٤٥ وانا منذ ذلك الحين مقيم دائم اولا في فلسطين ثم مواطن في دولة اسرائيل ٠ وقد عشت دائما هناك تقريبا كجزء من فترتين لاحقتين لشهادة الدكتوراة او للقيام بالابحاث العلمية ٠

الشيخ ابو رزق : لقد علمت انك جئت الى الولايات المتحدة قبل الان ٠ وفي الواقع التقيت بك لثلاثة او اربعة اعوام خلت ٠ لا استطيع ان اتذكر التاريخ الدقيق وربما استطعت انت ذلك ٠ واعتقد اني ذكرت في ذلك الحين ان الطريقة التي تكلمت بها انت ضد التوسع المستمر لاسرائيل لا بد وان تكون سببت لك مصاعب كبيرة في اسرائيل ٠ فقلت لي في ذلك الحين ان المصاعب التي سببتها لك هناك هي اقل بكثير مما سببته لك هنا في الولايات المتحدة ٠ واني اتساءل ما اذا كان هذا ما يزال صحيحا ٠

السيد شاحاك : حتى اكثر من صحيح ٠ ويسرني ان اقول انه للعامين ونصف العام السابقين او اكثر لم اواجه اية صعوبة على الاطلاق في دولة اسرائيل ٠ والصعوبات من الولايات المتحدة تستمر ولكني سأتحملها ٠

الشيخ ابو رزق : ما الذي يحدث بالضبط عندما تأتي الى الولايات المتحدة لتعرب عن رأيك هنا ؟

السيد شاحاك : الامر في غاية البساطة ٠ اذا كانت ترعاني جماعة كنسية ، فان جميع المنظمات اليهودية في المدينة عادة تمارس الضغط على هذه الجماعة الكنسية لتلغي رعايتها لي حتى في اخر لحظة ٠

وكذلك فان مناشير مجهولة الهوية توزع ضدي ٠ وهي مليئة بالاكاذيب ٠ كما انها لا تحمل تواريخ ولا عناوين ٠ واني على استعداد لتقديم هذه المناشير الى اللجنة الفرعية كدليل اذا رغبت اللجنة في ذلك ٠

تلك الامثلة يجب ان تكفي · فهي سياسية وعامة · ولن اتحدث عن الافراد الاميركيين وهلم جرا · اذ لهم الحقوق في ان يعربوا عن آرائهم حتى ولو كانت اراء بذيئة ومؤذية ·

الشيخ ابو رزق : هل تجد نفسك عرضة للمضايقة والازعاج عندما تتحدث في انحاء الولايات المتحدة حول هذه القضية ؟

السيد شاحاك : اجل الى حد كبير جدا ·

الشيخ ابو رزق : اي نوع من الازعاج والمضايقة وممن ؟

السيد شاحاك : لا أدري ممن · فأنا لا استخدم جهازا من الجواسيس الذين يمكنهم ان يجدوا لي من هم هؤلاء الاشخاص · ولكني اكتفي بقولي هذا : ان الاشخاص الذين تعرفت عليهم يأتون من المنظمات الخاصة ، والمنظمة الرئيسية الموظفة في أزعاجي هي « بني بريت » وما يسمى بالعصبة المضادة للافتراء ·

الشيخ أبو رزق : بني بريت والعصبة المضادة للافتراء ؟

السيد شاحاك : نعم ·

الشيخ ابو رزق : هل تعرف اية جماعة اخرى او افرادا اخرين يشتركون في ازعاجك فيما تتجول حول البلاد وتتكلم ؟

السيد شاحاك : كلا ·

الشيخ ابو رزق : اريد ان الفت انتباهكم الى هذه الخريطة (يظهر الخريطة) ·

لقد حصلنا على هذه الخريطة من وزارة الخارجية الاميركية · وكما فهمت فان تلك هي المستوطنات القائمة التي اسست في الضفة الغربية حتى هذا التاريخ ، واني اتساءل اذا كنت قد قمت شخصيا بزيارة اي من تلك المستعمرات ·

السيد شاحاك : يمكنني القول بثبات ان تلك هي المستوطنات التي انشئت حتى حوالي الاول من اب (اغسطس) · ومنذ ذلك الحين انشئت مستعمرات اخرى · واعتقد اني زرت كل مستوطنة تظهر هنا باستثناء ناحال ريحان ، وقد زرت معظمها اكثر من مرة ·

الشيخ ابو رزق : هل لك ان تصف التاليف السياسي للمستوطنات وكيف تفهم انشاءها، وهل لك ان تصف لنا ماذا يحدث لدى انشاء احدى المستوطنات ـ كأوصافها المادية والسياسية مثلا ·

السيد شاحاك : عادة يصار اولا الى انشاء مستعمرة كمستوطنة عسكرية ومن ثم يمكنك ان تتفحصها من الخارج ولا تستطيع دخولها ·

وعندما تصبح مستوطنة مدنية يمكنك دخولها بمنتهى السهولة والحرية · وبعض المستوطنات زراعية ، وخصوصا تلك التي تجاور نهر الاردن · وتستخدم بعض المستعمرات الاخرى احيانا بعض الصناعة · ولا بد من القول ان معظم الصناعة التي تفحصتها هناك هي جزء من بلدة معال أدوميم ، التي تدعى ايضا ميشور ادوميم قرب القدس · وعلى سبيل المثال اذكر انه في كيبوتز يدعى نعران يبدو ان الصناعة هي النجارة ، النجارة الالية ، ولكنها لا تصنع منتجات مكتملة الصنع · بل هي فرع من

كيبوتز غني اخر ، يدعى غيفعات برينر في اسرائيل ، يرسل الى هناك بالخشب ليصار الى تقطيعه الى زنود معدة للنشر • ثم يعاد الخشب الى ساحل البحر الابيض المتوسط • وهذا يبدو لي اجراء اقتصاديا مبذرا جدا •

وفي مكان اخر ، وهو كيبوتز يدعى ميهوتا ، فان الصناعة كما وصفت لي وكما شاهدتها هي صنع اقفال • وبما انها تقع في اعلى الجبال كان من الصعب جدا صنع طريق تؤدي الى هناك ورؤية ما يفعلونه هناك • واني اشك في تلك الاقفال •

ولاعطي احد اسخف الامثال : ان احدى الصناعات الرئيسية لمستعمرة اوفرا هي صنع قمصان « تي شيرت » كتب عليها بالانكليزية : « السامرة هي قلب ارض اسرائيل » •

واني اقول بوجه عام انه فيما عدا معال ادوميم وفيما عدا العازر جنوبي القدس – فاني لم ار او اسمع اية صناعة جدية •

لقد رأيت زراعة جدية في جميع مناطق وادي الاردن • واريد ان اذكر بنوع خاص مستوطنة باتسائيل الناجحة جدا زراعيا وجميع المستوطنات المجاورة لها ، مثل «ماسوا» وغيرها •

الشيخ ابو رزق : هل هناك سياسة من اي نوع حول تعيين موقع المستعمرة ام ان الامر يقرره المستوطنون انفسهم ؟

السيد شاحاك : كلا ، الامر تقرره الحكومة ، لا اعتقد ان اية مستوطنة ، ما عدا « قدوم » اسسها المستوطنون انفسهم • وثمة دليل الان ايضا من مقابلة اجريت مع الجنرال شارون في ايلول (سبتمبر) بان ثمة تفاهما كاملا بين المستوطنين والحكومة •

ان مواقع المستوطنات الراهنة الظاهرة على الخريطة هي التي انشئت حتى الاول من اب (اغسطس) • ويظهر في الخريطة خطان في شمال الضفة الغربية ، وبوسعكم ان تروا كذلك خطا هو استمرار لاحد الخطين المتجهين نحو الضفة الغربية للبحر الميت •

الشيخ ابو رزق : لماذا تؤسس المستوطنات في خط ؟

السيد شاحاك : هذه هي خطة الون والان خطة شارون ، والقصد منها عزل ثلث ما يسمى السامرة بغية ترك الجزء الغربي لاي شيء يراد تركه له •

ولكن طبقا لخريطة مجاورة لخطة شارون فان المستوطنات الجديدة التي لا تظهر على الخريطة باتت الان تقطع الضفة الغربية الى مربعات وتدخل المناطق التي تبدو على هذه الخريطة هنا بيضاء ، وتقسم سكان الضفة الغربية الى مناطق لا يجب ، وفقا لخطة شارون ، ان تضم اكثر من مئة الف نسمة في أية منطقة • انها عملية صنع الغيتوات التي تظهر في رأيي النية لا للاحتلال الدائم فحسب بل لصنع الغيتوات الدائمة ، لابقاء السكان في خضوع دائم عن طريق حصرهم في مربعات تكون خطوطها فواصل المستوطنات • ولا يظهر هذا على الخريطة •

الشيخ ابو رزق : المستوطنات المقترحة لا تظهر على هذه الخريطة ؟

السيد شاحاك : المستوطنات المخطط لها والمستوطنات المنشأة في الشهر الاخير لا تظهر على الخريطة • فهذه الخريطة هي طبقا للنيويورك تايمز والمصادر الاسرائيلية • وبحسب

احصائي انا انشئت خلال الشهر الماضي ١٤ مستوطنة على الاقل ، جميعها لا تظهر على هذه الحريطة ٠

الشيخ ابو رزق : هل يمكنك ان تستعمل قلم رصاص وتشير اين تقوم تلك المستوطنات الاربع عشرة ؟

السيد شاحاك : كلا ، لانني لم استطع تفحصها انا شخصيا لكونها انشئت عندما لم اكن في اسرائيل ، وقد مضى على وجودي هنا شهر ٠ وكما قلت لكم فانني تفحصت شخصيا جميع المستوطنات الظاهرة على هذه الخريطة فيما عدا واحدة ٠ وبوسعي ان اشير الى خطوط المستوطنات لانني رأيتخريطة لها في الصحف العبرية ٠

الشيخ ابو رزق : اجل ، سنكون شاكرين لك اذا انت فعلت ذلك ٠ ان الذي رسم هذه الخريطة هي في الواقع وكالة المخابرات المركزية ٠ ويبدو ان النيويورك تايمز اكثر اطلاعا من وكالة المخابرات المركزية ٠

[ضحك] ٠

السيد شاحاك : ان الذي اشير اليه هو التلفزيون الاسرائيلي ٠ لقد رأيت هذه الخريطة ٠

[ضحك] ٠

يجب ان يكون هناك خطان للمستوطنات يمران هنا [مشيرا] من الشمال الى الجنوب ، وثلاث خطوط تتجه من الشرق الى الغرب [مشيرا] ٠

الشيخ ابو رزق : اذن هم يصنعون شبكة متسامتة ؟

السيد شاحاك : بالضبط ، والذي سيكون بين الخطوط يدعى « مربعات » ، خطان يذهبان في اتجاه عمودي وخطان في اتجاه افقي ٠ واضافة الى ذلك ، يقطعون توسيع القدس وبعض المستوطنات في الجزء الجنوبي هنا [مشيرا] ٠

سأقدم الخريطة كدليل ٠

الشيخ ابو رزق : هل تحمل الخريطة معك ؟

السيد شاحاك : اجل احملها معي ٠

الشيخ ابو رزق : اود ان اضمها الى السجل ٠

السيد شاحاك : احمل الخريطة معي ٠ انها بالعبرية ولكني وضعت الترجمة الانكليزية للاسماء وسأقدمها ٠

الشيخ ابو رزق : في هذا الوقت ايضا سأدون في السجل قائمة باسماء المستوطنات الموجودة الان ، وتاريخ تأسيسها ، وعدد السكان المقدر لكل من هذه المستوطنات ٠

هذا في جميع الاراضي المحتلة وليس في الضفة الغربية فقط ٠

اذن ، في رأيك ان الحكومة هي التي تقرر موقع المستوطنة وتقرر في الواقع ما اذا كان يجب او لا يجب تأسيسها ٠ هل هذا صحيح ؟

السيد شاحاك : اجل ، هذا اكيد · اعتقد انه يمكننا ان نعتبر هذه حقيقة ·

الشيخ ابو رزق : هل لديك رأي حول سبب انشاء الحكومة الاسرائيلية مستوطنات في ما هو بوضوح ارض محتلة ؟

السيد شاحاك : اعتقد انه الان مع هذه الحكومة لا يمكن ان يكون هناك اي سبب للشك في النية · واحدى المقالات من صحيفة جيروسالم بوست ، التي استطيع ايضا ان اقدمها كدليل ، تحمل في الواقع العنوان « رؤيا لاسرائيل في نهاية القرن » · وهذه المقالة تصف المستوطنات ·

اعتقد ان نية هذه الحكومة ، فيما يتعلق بالضفة الغربية وغزة والجولان وجزء من سيناء ، هي ابقاء جميع هذه الاراضي كمستعمرة دائمة لدولة اسرائيل ـ لا كجزء من الدولة بل كمستعمرة ـ لان ابناء هذه الاراضي لن يعطوا حقوقا · واعتقد ان المستوطنات تقام بغية تحقيق حكم استعماري يمكن الاحتفاظ به بسهولة · فستبقي الشعب هناك في حالة خضوع دائم ·

ولهذا السبب جاء في المقالة التي قدمتها مع الخريطة ان احد اسباب انشاء مستوطنات جديدة في اماكن خاصة هي منع الاستمرارية العربية · فاذا كانت هناك كتلة من مئة الف عربي ـ كما جاء في احد المقالات ـ وقربها كتلة اخرى من عدد مساو من الناس ، فان خطا من المستوطنات سيقام بين الكتلتين لمنع استمرارية الشعب ·

اعتقد ان الكثير من الانظمة الاستعمارية تتصرف على هذا النحو ، الا انها عادة تبني القلاع بدلا من المستوطنات · ولا يمكن فهم المستوطنات الا الان وفي ظل هذه الحكومة ، اذا افترضت ان القصد هو المحافظة على الاراضي حولها الى ما لا نهاية ·

الشيخ ابو رزق : اذا انت تعتقد ان حكومة اسرائيل تريد الاحتفاظ بالضفة الغربية الى ما لا نهاية ؟

السيد شاحاك : وكذلك قطاع غزة والاجزاء المستوطنة من سيناء والجولان ·

الشيخ ابو رزق : هل رأيك ان الحكومة الاسرائيلية لا تنوي التفاوض من اجل اعادة تلك الاراضي ؟

السيد شاحاك : انا متأكد بصورة مطلقة من ذلك حول الضفة الغربية وغزة · وهناك تصاريح عدة بهذا المعنى · وفيما يتعلق بالجولان فانا مستعد ان اقدم تصريحا للجنرال شارون متكلما باسم رئيس الوزراء بيغن في التاسع من ايلول · وهو تصريح قوي جدا · وبوسعي القول ايضا ، استنادا الى أدلة عامة ، ان عدم الرغبة هذه في عدم اعادة الاراضي مع المستوطنات يشمل حزب العمل الاسرائيلي والاحزاب الرئيسية الاخرى في اسرائيل ، التي تعتبر ان المستوطنات بعد تأسيسها ستبقى جزءا من دولة اسرائيل · هذا هو رأي الاحزاب الرئيسية الثلاثة في اسرائيل ـ وهي ليكود والحزب الديمقراطي للتغيير وحزب العمل ·

الشيخ ابو رزق : هل تعتقد انها جميعها متفقة حول تلك السياسة ؟

السيد شاحاك : حول تلك السياسة نعم · انها غير متفقة حول الخطط المتعلقة بمزيد من المستوطنات ولكنها متفقة على ان المستوطنات بعد تأسيسها ستبقى جزءا من منطقة

دولة اسرائيل ، وفيما يتعلق بحزب العمل فان وزيره السابق المسؤول عن المستوطنات السيد غاليلي قد أعرب عن رأيه بكثير من الوضوح حول هذا الموضوع · ولدي هذه المقالة في العبرية واستطيع تقديمها مترجمة الى اللجنة ·

الشيخ ابو رزق : لا ادري يا دكتور شاحاك اذا كنت تعلم ، او اذا كان باستطاعتك ان تعطي اللجنة فكرة عن الحقوق التي تعطى لعرب فلسطين الذين يعيشون في الضفة الغربية تحت ذلك الاحتلال او يحرمون منها ·

السيد شاحاك : اجل ، سأفعل ذلك بكثير من السرور لاني عالجت هذا الموضوع منذ مدة طويلة جدا ·

اول شيء اريد ان اشدد عليه هو الغياب التام للحقوق الديمقراطية الاساسية · انني لا اتحدث عن الحقوق الوطنية · بل اتكلم عن حقوق عقد اجتماع عام ، وعن حق تأسيس اندية ثقافية ، على سبيل المثال ، لدراسة الشعر او لدراسة اي جزء من اي ثقافة ·

انني اتحدث هنا عن الحق في تظاهرات سلمية وغير عنيفة ، وعن الحق في ان يكون في حوزة المرء علم فلسطيني ، وعن الحقوق في تأليف نقابات يدفع الاعضاء فيها رسوما ···

الشيخ ابو رزق : علم فلسطيني ؟

السيد شاحاك : ان يكون في حوزة المرء علم فلسطيني هو جريمة وليس هذا فقط ، بل انه جريمة ايضا ان يضع المرء ألوان العلم الفلسطيني على قميصه « التي شيرت » حتى ولو كان مجرد فتى · لقد نال الاطفال عقوبات وحشية جدا لوضعهم الوان العلم الفلسطيني على قمصانهم « التي شيرت » · لقد ادليت بشهادتي حول هذا الامر مرات عديدة ·

ويشتمل هذا الموضوع ايضا على الحق في التظاهر السلمي وغير العنيف · وانني اشير الى حق اغلاق الدكاكين كاحتجاج او كعلامة حداد ، ولا اعتقد ان هناك تظاهرة سلمية اكثر من اغلاق الدكاكين · فهذا ممنوع واصحاب المتاجر يعاقبون عقابات وحشية جدا على هذه الجريمة · ويمكن معاقبتهم بصورة اعتباطية ·

والى كل هذا اريد ان اضيف ما تتبناه كل دولة ـ بما فيها ايضادولة اسرائيل بالنسبة الى مواطنيها ـ وهو حق عدم الابعاد عن البلاد ·

فان اي شخص يسكن الاراضي المحتلة بما فيها القدس يمكن ابعاده عن البلاد ، يمكن اخذه من بيته ليلا وبدون اي اجراء قانوني على الاطلاق ابعاده الى خارج الحدود · اني اعتقد ، وفي الواقع استطيع ان استشهد بأحد كبار قضاة المحكمة الاسرائيلية ، السيد حاييم كوهين ، الذي قال ـ ولكنه كان عاجزا عندما قالها ـ ان النفي هو العقاب الاشد قسوة لانه العقاب الذي انزل بقايين ·

ومع هذا فان للحكومة العسكرية الحق في انزال هذا العقاب بصورة اعتباطية والاشخاص الذين يبعدون لن يسمح لهم بالعودة الى بلادهم ابدا ·

أريد ان اقدم لكم مثلا واحدا عن رجل كان صديقي الشخصي لعدة اعوام في القدس · انه السيد علي خطيب الذي كان رئيسا لتحرير صحيفة الشعب العربية · في

اوائل ١٩٧٥ سمعت بابعاده عن البلاد بالطريقة التالية : بعدما فتحت الراديو في الصباح لاصغي الى الاخبار ، سمعت ان علي خطيب قد ابعد عن البلاد وترك وراءه زوجة وسبعة اطفال · انني اقدم هذه الحقيقة خصوصا لهؤلاء الذين يقاتلون في هذه البلاد ، من اجل حق توحيد العائلات · ان عائلة علي خطيب تقيم في القدس ولا يمكن لم شملها الا خارج وطنها · واستخدم هذا التعبيرقصدا · انها لا تستطيع ان تلم شملها في وطنها حتى ولو اخذنا مدينة القدس فقط كوطن لعائلة علي خطيب ، لانه لم يسمح بالعودة ابدا لاي شخص من الاشخاص الذين ابعدوا ، وبدون اية اجراءات قانونية على الاطلاق ·

لقد طالبت مرارا عديدة ، وامام منابر عديدة ، بوجوب السماح للاشخاص الذين ابعدوا عن الاراضي المحتلة بالعودة وبلم شملهم مع عائلاتهم · ولكن كلامي كان بلا جدوى ·

واخر شيء اريد ان اذكره هو مسألة السجن الاداري ، لقد طبق السجن الاداري بحق رجلين اعتبرهما انا من اعظم زعماء الفلسطينيين في الضفة الغربية ، وهما الدكتور تيسير عاروري ، معلم الفيزياء في كلية بير زيت ، والسيد عطا الله رشماوي · وكلاهما قضى ٤١ شهرا من السجن الاداري ، وقد انتخب الثاني لبلدية بيت ساحور · اردت الاشارة الى هذه الحقيقة الاخيرة بالنظر الى اهميتها ، فقد ابعد عن الضفة الغربية الكثير من بلدياتها وهم في مناصبهم ، كذلك ابعد مرشحون او سجنوا بدون محاكمة · ولا بد من القول ان كل واحد من ابناء الاراضي المحتلة يعلم انه يمكن ان يسجن بدون محاكمة ، وانه يمكن ان يبعد عن وطنه ، وانه يمكن ان يعاقب بصورة اعتباطية ، وهذا اعظم خرق للحقوق الانسانية · انه يضع جميع هؤلاء القوم ــ اكثر من مليون نسمة ــ في وضع لا اخجل من ان اسميه « عبودية » او « استعبادا » · فليس لديهم اية ضمان على الاطلاق لاي نوع من انواع الاطمئنان الشخصي ·

اذا كان رجل في مدينة وجد نفسه في اليوم التالي مطرودا منها الى الابد ، فهذه عبودية واستعباد · وهذا ما يوصف في الادب حول الاستعباد في اميركا ببيع العبيد « في النهر » ، اذا شئنا ان نستعير تعبيرا من رواية « كوخ العم طوم » ·

الشيخ ابو رزق : هل لك علم ، يا دكتور شاحاك ، بامداد المياه في الضفة الغربية بأي شكل من الاشكال ؟ هل يوجد في رأيك ما يكفي من المياه او نقص من المياه ام ماذا ؟

السيد شاحاك : ان معلوماتي تشمل مناطق معينة يمكنني ان اشهد عنها ، بلدة جوار رام الله ووادي الاردن · الا انني ، عدا عن هاتين المنطقتين ، لم اقم بأية ابحاث خاصة · وانا مستعد ان اشهد حول هاتين المنطقتين ·

الشيخ ابو رزق : ربما كنت تعلم بوجه عام عن ربط المستعمرات التي يجري تأسيسها بالنطاق المائي او بشبكة المياه او بأي واحد منهما ؟ هل هذا يخلق نقصا في المياه للسكان الحاليين للضفة الغربية ؟

الدكتور شاحاك : من المؤكد ان هذا ما يحدث في وادي الاردن · في المناطق الاخرى لم اشهد الكثير من الدلائل عليه · وكذلك في المناطق الاخرى فان المستعمرات ليست زراعية الى اي حد كبير · ولم الاحظ انها تأخذ الكثير من المياه · اما في منطقة

الاردن ، فالامر مؤكد ٠

الا انني اود ان اقول شيئا حول رام الله ٠ فانا مطلع اطلاعا حسنا على الوضع هناك، والشيء نفسه ، في رأيي ، يحدث في المدن الاخرى ٠

كوسيلة للضغط على مدن مثل رام الله لربط نفسها بشبكة مياه دولة اسرائيل ، فان الرخص لمضخات المياه او لمضخات المياه الاضافية لا تعطى او يؤخر الحاكم العسكري اعطاءها ٠

يجب ان اشرح ان كل شيء في الاراضي المحتلة يحتاج الى رخصة ٠ فان مدينة من المدن لا تستطيع ان تشتري مضخة مياه دون ان تحصل على اذن من الحاكم العسكري ٠ ويجب ان اقول ان بلدية من البلديات لا يمكنها ان تستخدم حجابا اضافيين دون هذا الاذن ٠

ان انطباعي الاكيد هو ان المدن التي يجري الضغط عليها لربطها بشبكة المياه او بشبكة كهرباء اسرائيل لا تعطى الرخص لمضخات المياه او الالات للكهرباء او لقطع الغيار لهذه الالات او المضخات بغية ارغامها على الانضمام الى شبكة الكهرباء والمياه في اسرائيل ٠

ويمكنني ايضا ان اضيف الى هذا ما حدث في مدينة الخليل التي اجبرها النظام على الارتباط بشبكتي كهرباء ومياه اسرائيل ٠ وادوات الارتباط الرئيسية للكهرباء والمياه تقوم الان في مستوطنة كريات اربع لكي يتمكن اي شخص في كريات اربع في أية لحظة من ان يغلق كهرباء ومياه الخليل ٠ واعتقد ان هذا هو هدف الضغط ٠

الشيخ ابو رزق : هل تعتقد ان جزءا من هذا الضغط تقصد به الحكومة الاسرائيلية عدم تشجيع عرب فلسطين على البقاء في الضفة الغربية لكي يغادروها ؟ هل يمكن ان يكون هذا احد اهدافهم ؟

السيد شاحاك : الجواب هو نعم ، اذا كنت تتحدث عن رجال الفكر والطبقة الوسطى ٠ والجواب هو كلا ، اذا كنت تتحدث عن العمال العاديين ، لانه يوجد الان عدد كبير جدا من العمال الفلسطينيين في الاراضي المحتلة يعملون داخل اسرائيل ٠ وقد جاء في مقابلة مع قائد شرطة تل ابيب ، السيد تيومكين ، في التاسع من ايلول هذه السنة في صحيفة هاآرتس ، ان هناك في تل ابيب وحدها ٧٠ الف عامل من الاراضي المحتلة ٠ وارى ان هذا يعني انه سيكون هناك نحو ٢٠٠ الف عامل من الاراضي المحتلة يعملون في اسرائيل ٠ ولذلك في حين يصار الى الضغط على رجال الفكر مباشرة او مداورة لدفعهم الى مغادرة البلاد ـ مباشرة بسجنهم او ابعادهم ، ومداورة عن طريق افقار الاقتصاد وعدم توفير الاعمال لهم ـ فانني اعتقد ان دولة اسرائيل صارت مهتمة تماما الان في بقاء العاديين من الناس للعمل في الاقتصاد الاسرائيلي ٠

الشيخ ابو رزق : ولكنهم لا يريدون ان يبقى قادتهم السياسيون في الضفة الغربية ٠ هل هذا صحيح ؟

السيد شاحاك : نعم ٠ اي قادة استقلال سياسيين ٠ يجب ان اقول ان دولة اسرائيل تخلق الان شيئا يمكن وصفه بطبقة « كويز لينغات » ٠

سأعطي احد الامثلة ٠ لدينا السيد عبد النور جنحو ٠ هذا الرجل اغتال رجلا اخر في مدينة رام الله ٠ ومن ثم نقلت قضيته من المحكمة المدنية الى المحكمة العسكرية ٠

ووجدت المحكمة العسكرية انه تصرف دفاعا عن النفس · وهذا الرجل كان قد اضحى ثريا جدا لانه اعطي احتكار توزيع غاز الطبخ من المصادر الاسرائيلية الى سكان منطقة رام الله ·

ويمكن اعطاء امثلة اخرى في مناطق اخرى ، اني اعتقد ان الحكومة الاسرائيلية ، خصوصا الان ، هي في سبيل خلق طبقة (كويزلينغات) ، ولا يجب بأية حال الخلط بينها وبين الاعيان السابقين المتعاونين مع الحسين · فهؤلاء هم رجال مصنوعون حديثا · وهم في كثير من الاحيان مجرمون ، كما قلت ، والهدف ـ كما هي الحال في الكثير من الانظمة الاستعمارية الفاشمة الاخرى ـ هو صنع « زعماء » من هؤلاء الاشخاص · واذا اردتم امثلة فان انغولا والموزامبيق مثلان جيدان · واعتقد انكم على علم بأن هناك محاولة قوية في سويتو ، بجنوب افريقيا ، لاخذ عناصر مجرمة وجعلها زعماء لسويتو · والسلطات الاسرائيلية تقوم بالمحاولة نفسها في الضفة الغربية وفي قطاع غزة الان ·

الشيخ ابو رزق : لقد تحدثت باقتضاب عن خرق قوانين عمل الاحداث الذي اعتقدت انه يقع في الضفة الغربية · هل لك ان تتبسط بعض الشيء في الحديث حول هذا الموضوع ؟

السيد شاحاك : ليس في الضفة الغربية · ان المنطقة الرئيسية لاستغلال عمل الاطفال هي في الاراضي المصرية في سيناء ، شمالي غربي سيناء حول بلدة ياميت ، احدى المستوطنات ·

المنطقة الثانية لاستغلال عمل الاولاد من الاراضي المحتلة هي ، في الواقع ، دولة اسرائيل نفسها ، في القرى الاسرائيلية في المنطقة الجنوبية بين بئر السبع وريحو فوت ، خصوصا في المنطقة المسماة لاتشيش · وقد اوردت الصحف الاسرائيلية حالات عديدة جدا · وانا نفسي سجلت حالات عديدة ·

في هذه المنطقة يوجد اولا استغلال الاحداث في العمل ، ويوجد ثانيا الاخضاع الاقطاعي لعائلات باسرها تعيش عادة تحت شجرة او كوخ · وعندما اقول في كوخ فانني لست اشير الى كوخ العم طوم عبثا ، اذ انني شاهدت تلك الاكواخ والصور شبيهة بصور هذا الكتاب · وهذه العائلات هي في حالة اخضاع اقطاعي للمزارع المعين بحيث حدث مرارا كثيرة انه عندما يهرب فتى النقل من مثل هذه العبودية ، فان المزارع او ابن المزارع يطارده ـ وكان هناك حادث قام به ابن احد المزارعين بملاحقة فتى هارب فوجده يعمل لدى مزارع اخر وضربه حتى مات · انني اروي لكم هذا من الصحف الاسرائيلية · كما انني استقصيته انا نفسي ·

ان استعباد القادمين عادة من قطاع غزة في شمالي سيناء وفي مناطق مماثلة في اسرائيل هو احدى الظواهر المريعة حقا التي استطيع القول انها جريمة تصرخ طالبة من الله الانتقام · ولذا يجب ان اقول لكم انني في الواقع خائف على شعبي وعلى هؤلاء الذين ساعدوه في اضطهاد الاخرين طيلة هذه الاعوام العشرة وفي استغلال الاطفال ·

الشيخ ابو رزق : لدي سؤال اخير لك ·

لقد قلت ان هناك ابعادا عن البلاد دون محاكمة او تحقيق وان هناك سجنا دون محاكمة او تحقيق · فهل يمنح سكان المناطق المحتلة ، الفلسطينيون العرب ، اية من

الحقوق المعروفة ، او الحقوق الشرعية ، او الحقوق الانسانية التي تمنح ، على سبيل المثال ، لمواطني اسرائيل او لشعب الولايات المتحدة ؟

السيد شاحاك : لا اعتقد ذلك · فالمواطنون الاسرائيليون لا يمكن ابعادهم عن البلاد · وبحسب العادة وليس بحسب القانون ، لا يمكن سجن المواطنين الاسرائيليين دون محاكمة لخمسة اعوام كاملة ، ومع ان القانون قائم فانه لا يستخدم الان ابدا ·

واود القول ان الحقيقة الاهم التي لا يمنحون فيها حقوقا اساسية هي انهم لا يستطيعون ممارسة اي شكل من اشكال الاحتجاج الديموقراطي الاساسي بتأليف احزاب او جمعيات او نقابات او اندية ثقافية وهلم جرا · وفي رأيي ان هذا يشكل ، بعد عشرة اعوام ، الضيم الاهم ·

واسمحوا لي ايضا بان اختم بالقول انه لو عمد الجنرال ماكارثر بعد احتلال الاميركيين لليابان في عام ١٩٤٥ الى حرمان الشعب الياباني لاكثر من عشرة اعوام مثل هذه الحقوق بدلا من السماح بتأسيس الديموقراطية بسرعة نوعا ما ، خطوة فخطوة ، لما كان هناك الان دولة يابانية ودية نحو الولايات المتحدة كما هي الان · وكان سيكون لديكم شيء اسوأ بكثير ، اسوأ لكل من الشعب الياباني وللولايات المتحدة ·

الشيخ ابو رزق : اريد ان اعرب لك يا سيد شاحاك عن شكري الشخصي وشكر اللجنة لما اعتبره عملا شجاعا جدا · فانا اعلم ما هو شعور المرء عندما يتكلم من وجهة نظر الاقلية · وانا ادرك ان هذا هو المركز الذي تحتله ـ واحد من اقلية في اسرائيل · واعتقد انك خدمت قضية الحقوق الانسانية وقضية العدالة خدمة جلى في ما فعلته وفي ما تستمر في فعله ، وآمل ان تستطيع الاستمرار به ·

نيابة عن اللجنة اريد ان اشكرك جزيل الشكر لاسهامك الكبير في ما ادليت به من شهادة هنا اليوم ·

بلوم

الشيخ ابو رزق : هل تقول يا سيد بلوم ان اسرائيل تحتل السيادة المطلقة على الضفة الغربية ، التي تسميها انت اليهودة والسامرة ؟

السيد بلوم : دعني ارد اولا على السؤال المتعلق بالاسماء ـ الارض التي اسميها انا اليهودية والسامرة · انه من الصحيح ان نسميها اليهودية والسامرة لسبب بسيط وهو ان عبارة « الضفة الغربية » هي تلميحية وفي الواقع تحكم مسبقا على القضية التي نبحثها هنا ـ ولا معنى لها الا في نطاق الضفة الغربية للملكة الاردنية · وهذه بالضبط هي المسألة التي اعالجها انا هنا ، وخلاف ذلك ، لا معنى لعبارة الضفة الغربية من الناحية الجغرافية · فان حيفا وتل ابيب هما على الضفة الغربية من نهر الاردن بقدر ما هي الخليل ونابلس · ولهذا اعتقد ان اليهودية والسامرة هما الوصفان الجغرافيان الصحيحان للمنطقة التي نتحدث عنها ، تماما كما نشير الى الجزء الشمالي من اسرائيل بوصفه الجليل والى الجزء الجنوبي من اسرائيل بوصفه النقب · ومن المناسب لنا ان

نسمي الجزء الاوسط مما كان فلسطين ، اليهودية والسامرة . هذا هو الوصف الجغرافي الحيادي .

الشيخ ابو رزق : اذا انت قبلت بالتحديد الذي اعطاه رئيس الوزراء بيغن لليهودية والسامرة وهو انهما ارض اسرائيل التاريخية ، افليس استخدامك لعبارة اليهودية والسامرة حكما سابقا على القضية من الجانب الاخر ايضا ؟

السيد بلوم : كلا ، يا سيدي ، لا اعتقد ذلك . لا اظن انه يشكل حكما مسبقا على قضية الجولان ان نسميها مرتفعات الجولان ، وهو الوصف الجغرافي الصحيح لتلك المنطقة .

ونجيء الان الى مسألة السيادة ، ولا بد لي من قول ما يلي : اجل ، بالفعل ، فانا اعتبر اسرائيل الدولة ذات السيادة الممكنة على اليهودية والسامرة .

الشيخ ابو رزق : ماذا تعني بعبارة ممكنة ؟

السيد بلوم : من حق اسرائيل ، في اية لحظة تشاء ، ان تمد قانونها وسلطانها وادارتها الى اليهودية والسامرة ، وبالفعل فان العالم الخارجي قد اعترف بمد اسرائيل لسيادتها الى اية ارض من اراضي الانتداب الفلسطيني السابق التي تقع عمليا تحت السيطرة الاسرائيلية . منذ عام ١٩٤٨ كان لاسرائيل السيطرة الفعلية على مختلف مناطق الانتداب الفلسطيني السابق التي كانت ستقع ضمن حدود اسرائيل في ظل الدولة اليهودية التي اقترحتها توصية التقسيم ـ مثال ذلك الجليل الغربي او مطار بن غوريون الدولي .

اذا كنت افهم فهما صحيحا موقف هؤلاء الذين يعارضون اسرائيل في الحلبة الدولية الراهنة ، فانهم في الاساس يطالبون ، بصورة ظاهرة على الاقل ، بانسحاب اسرائيل الى خطوط الهدنة السابقة والى تحويل هذه الخطوط الى حدود دولية . وتلك الحدود ، بالطبع، ستشتمل على أراض معينة وضعت تحت السلطة الاسرائيلية بنفس الطريقة تماما التي وضع بها تحت السلطة الاسرائيلية مطار بن غوريون الدولي ومدينة جاف Gaffe في القدس الغربية وممر القدس .

ولا أرى اي فرق من وجهة النظر القانونية بين الوضع القانوني للجليل الغربي والناصرة ومطار بن غوريون الدولي وجاف من ناحية ، واليهودية والسامرة بما فيها القدس الشرقية من ناحية اخرى . فحالما يتم انهاء اتفاقية الهدنة ، نكون قد عدنا بوجهة النظر القانونية الى الوضع كما كان قائما قبل التوصل الى اتفاقية الهدنة .

ولذا، لا ارى اية عقبة منوجهة النظر القانونية لممارسة اسرائيل قانونها وتطبيق سلطتها على أية ارض من اراضي الانتداب الفلسطيني السابق دون ضمه رسميا ، لانني اعتقد ان كلمة « ضم » لن يكون لها تأثير . فان الارض التي تضم الى دولة اخرى هي ارض تخلت عنها دولة اخرى وكانت قبل الضم جزءا من الدولة التي تخلت عنها . وليست هذه هي الحال فيما يتعلق باليهودية والسامرة . ومن هنا اعتقد انه من حق اسرائيل ان تمد ادارتها وسلطانها الى الاراضي المنتدبة سابقا في فلسطين .

الشيخ ابو رزق : اذن بموجب حجتك اذا وقعت معركة قانونية حول الضفة الغربية، فانها ستشمل ايضا حق اسرائيل الشرعي في الجليل وفي مطار بن غوريون الدولي ؟

السيد بلوم : كلا · ليست هذه قراءة صحيحة ولا تفسيرا صحيحا لما قلته :

الشيخ ابو رزق : ظننت ان هذا هو ما قلته ·

السيد بلوم : انني لا اسميه حق اسرائيل · ولكن ما كنت اقوله هو انه حتى خصوم اسرائيل الاكثر تطرفا هذه الايام لا يسمون حق اسرائيل في اعتبار مطار بن غوريون الدولي جزءا من اراضيها ذات السيادة عدوانا ·

ولكنني دعوتك ، يا سيدي الرئيس ، الى ان تنظر بنفس الطريقة الى الاجزاء الباقية من الانتداب الفلسطيني لاننا خلاف ذلك سنكون اختياريين · ولن يكون هذا مسوغا من وجهة النظر القانونية ·

الشيخ ابو رزق : اية اجزاء اخرى من الانتداب الفلسطيني لا توجد تحت السيطرة الاسرائيلية الان ؟

السيد بلوم : ان الانتداب الفلسطيني الغربي السابق هو الان تحت السيطرة الاسرائيلية · كله · وكما أقول فانني اعتبر حقوق الانسان هناك افضل واكثر تفوقا من حقوق اي بلد اخر ·

الشيخ ابو رزق : اعتقد انك اسأت فهمي · هل هناك اية اجزاء من الانتداب الاصلي لا تقع تحت السيطرة الاسرائيلية ؟

السيد بلوم : طبعا ، اكثر من ثلثيه ·

الشيخ ابو رزق : هل يمكنك تحديد ذلك ؟

السيد بلوم : جميع شرق نهر الاردن ·

الشيخ ابو رزق : الى اي بعد شرقا ؟

السيد بلوم : حتى الحدود العراقية لان الانتداب الفلسطيني السابق كانت حدوده لبنان وسوريا الى الشمال ، والعراق الى الشرق ، والعربية السعودية في الجنوب ، ومصر في الجنوب ، والبحر الابيض المتوسط في الغرب ·

الشيخ ابو رزق : اذن لدى اسرائيل سيادة ممكنة على تلك الاراضي ايضا · هل هذا صحيح ؟

السيد بلوم : كلا ، فأنا لم ازعم ذلك · في عام ١٩٤٦ فصل الجزء الشرقي من الانتداب الفلسطيني عن بقية الانتداب · وخصص ثلثا الاراضي للانتداب الفلسطيني الذي هو الوطن القومي اليهودي · ومن عام ١٩١٩ الى عام ١٩٢٢ فصلا عن فلسطين الغربية وأقيمت دولة عربية مستقلة ، دولة عربية فلسطينية مستقلة ، في اكثر من ثلثي الانتداب الفلسطيني · وبريطانيا العظمى هي التي أقامت تلك الدولة مع الموافقة اللاحقة لعصبة الامم المتحدة ·

لذا فانني لا أشك في شرعية تلك الاجراءات ، وفي الواقع اعتقد انه نتيجة لتلك الاجراءات في عام ١٩٤٦ اصبح نهر الاردن حدودا دولية للاردن وفلسطين على السواء ، وهي حدود لم يستطع الاردن عبورها بصورة قانونية في عام ١٩٤٨ ·

الشيخ ابو رزق : في اعطائك الخلفية التاريخية لهذا الموضوع المثير للجدل في الشرق الاوسط ، يبدو انك فسرت بعض الحقائق المعينة تفسيرا خاطئا · فأنت تستعمل تلك الحقائق ، كما قلت ، كأساس لتثبيت اية اراض قد تريدها اسرائيل ضمن تلك المنطقة التي حددتها كجزء من الانتداب الاصلي الذي يمكن ان تشمله السيادة الاسرائيلية ·

في رأيك كمحام دولي ، هل يسمح ميثاق الامم المتحدة بامتلاك الاراضي بالقوة ام ان هذا ممنوع ؟

السيد بلوم : اعتقد ان امتلاك الاراضي واعلان السيادة على الاراضي الاجنبية ممنوع منعا باتا بموجب ميثاق الامم المتحدة ·

دعني اضيف ما يلي : بسبب رأيي هذا بالضبط اعتقد ان الاردن ، كممثل اجنبي لاراضي فلسطين ، كان ممنوعا من امتلاك السيادة على اليهودية والسامرة · والامم المتحدة لا تعالج مسائل المحتل الحربي – وبوسعي ان اقدم اليكم المصادر الموثوق بها حول هذه النقطة ، وقد كان هناك الكثير من الكتابة حول هذا الموضوع في الاونة الاخيرة · الا ان حقوق المحتل الحربي تنظمها الوثائق المتحكمة بالمحتل الحربي · ان حقوق المحتل الحربي هي حقوق قانونية طالما ان وضع المحتل العسكري لم يستبدل بترتيب دائم ، وعادة بمعاهدة سلام ·

ان ما قلته في الواقع – واود ان اعيد التشديد على هذا الامر – هو انني اعتقد انه فيما يتعلق بالانتداب الفلسطيني السابق – وانا اتحدث الان عن فلسطين الغربية التي هي اقل من ثلث الانتداب الفلسطيني الاصلي لعام ١٩٢٢ – فان اسرائيل لن « تكتسب » السيادة على تلك الاراضي ، بوصفها اراض اجنبية بالنسبة الى اسرائيل ·

وهكذا اعتقد ان اسرائيل لا تكتسب اراض جديدة في اليهودية والسامرة – ولا يقع هذا ضمن المنع المذكور في ميثاق الامم المتحدة · وبالمناسبة ، اذا اردنا ان نكون دقيقين جدا ، فان ميثاق الامم المتحدة لا يتكلم عن منع استخدام القوة وان اكتساب الاراضي باستخدام القوة هو شيء استنتج منه بصورة منطقية · فالميثاق لا ينص عليه ، هذا اذا اردت ان تكون دقيقا ·

الشيخ ابو رزق : اذا لنحاول ان نتطرق الى بعض الحقائق التي حذفت من الشهادة · هل تعتقد ان تأسيس اسرائيل كدولة عام ١٩٤٨ قد تم بموجب شروط ميثاق الامم المتحدة ام بصورة مخالفة لذلك الميثاق ·

السيد بلوم : ما من دولة تؤسس بموجب الميثاق او بصورة مخالفة له وذلك ببساطة لان الدول ، فيما يتعلق بالقانون الدولي ، تولد خارج الزواج اذا صح التعبير · فالدول لا تولد طبقا للاطار القانوني القائم · مثال ذلك ، ان الولايات المتحدة الاميركية لم تولد طبقا للقوانين السائدة في ذلك الحين في هذا الجزء من العالم · بل كانت انتفاضة ضد دولة سيدة شرعية · ولا اقصد ان انتقص من قدر ذلك العمل الذي وقع لمئتي سنة خلت او ان اشجبه · بل اشير ببساطة الى انه فيما يتعلق بالقانون الدولي فان كل دولة هي شرعية او غير شرعية حسبما تنظر اليها ، من وجهة نظر القانون الدولي ·

وينطبق هذا على جميع دول اميركا اللاتينية كما ينطبق على الاتحاد السوفياتي الذي يعتبر نفسه دولة جديدة بعدما قطع صلته الدستورية بالنظام السابق له · وهو ينطبق ايضا على الصين الحمراء ، او « الصين الشعبية » · كذلك ينطبق على افريقيا والعالم

كله . حتى انه ينطبق على بلدان قديمة مثل بريطانيا وفرنسا مع فرق مهم واحد وهو انها قديمة جدا ، بل هي قديمة الى حد ان وسائل الاعلام الجماهيرية ، انباء التلفزيون ، لم تكن موجودة في وقت ولادتها لتشهد على نقائص وعيوب ولادتها من وجهة نظر القانون الدولي . ولذا فان تسجيل تلك العيوب اكثر صعوبة بعض الشيء .

الشيخ ابو رزق : ولكن ما نتحدث عنه الان ، يا سيد بلوم ، هو ليس ما حدث لمائتي سنة خلت . وبسبب ما حصل منذ مئتي عام او منذ مئة عام فيما يتعلق بغزو دول لدول اخرى وضمها اليها وجعلها جزءا من اراضيها ، فان معظم امم العالم قد وضعت مسودة ميثاق الامم المتحدة ووقعته .

واعتقد أن هذا ما يجب أن نتحدث عنه : علينا ان نتكلم في ما اذا كنا ننوي او لا ننوي الالتزام بمبادىء ذلك الميثاق . فهل نحن عند نقطة ما في القرن العشرين بعد التوقيع على ميثاق الامم المتحدة ، سنتوقف عن اكتساب الاراضي بالقوة ام هل نتجاهل الميثاق ونسمح بالاستثناءات للبلدان المختلفة ، كاسرائيل مثلا ؟ هذا ما يجب ان نتكلم عنه . وهذا ما يتوجه اليه سؤالي .

والسؤال يتكرر اذن . اذا كان ميثاق الامم المتحدة اما بصورة ضمنية او بالاعلان المباشر ، يمنع اكتساب الاراضي بالقوة ، افلا يضع هذا ، حتى بموجب شروطك انت موضع الشك التأسيس الاصلي لاسرائيل كدولة ، وهو ما حدث بقوة السلاح عام ١٩٤٧ وعام ١٩٤٨ ؟

السيد بلوم : كلا . مطلقا . اعتقد انني تقدمت ببعض المقاطع من سجلات مجلس الامن لابين انه باجماع اعضاء الامم المتحدة عام ١٩٤٨ ، لم تكن دولة اسرائيل هي التي خلقت نتيجة لاستخدام القوة غير الشرعية ، بل على العكس تماما كان استخدام العرب للقوة عام ١٩٤٨ هو العمل غير القانوني .

لقد كان هذا هو اجماع اعضاء الامم المتحدة في عام ١٩٤٨ : وهو ان دولة اسرائيل كانت تدافع عن نفسها ضد عدوان غير شرعي ارتكب ضد دولة اسرائيل منذ لحظة ولادتها .

الشيخ ابو رزق : على الرغم مما تقول فيما يتعلق باجماع الآراء في ذلك الوقت ، فاني اعتقد ان عليك التسليم بأن اسرائيل لم تؤسس نتيجة لانتخاب ديمقراطي . هل تسلم بذلك ؟.

السيد بلوم : اسمح لي بالقول انني اجد هذه الحجة غريبة .

مع كل احترام ، فان اسرائيل بقدر ما اعلم هي الدولة الوحيدة في الشرق الاوسط التي جرت فيها انتخابات ديمقراطية غير متقطعة منذ عام ١٩٤٩ .

الشيخ ابو رزق : هل تشمل هذه جميع المقيمين في تلك المنطقة ؟.

السيد بلوم : جميع المقيمين في دولة اسرائيل ـ اليهود وغير اليهود على السواء .

الشيخ ابو رزق : بمن فيهم الذين طردوا خارج البلاد ؟

السيد بلوم : هل لي ان اضيف هنا انه كان بودنا لو اننا اجرينا انتخاباتنا العامة لا في عام ١٩٤٩ بل في تاريخ سابق لذلك . ولم نستطع ان نفعل ذلك لاننا كنا نخوض حرب دفاع عن النفس ونقاتل من اجل حياتنا عينها . لذلك كانت حكومة مؤقتة هي التي

حكمت اسرائيل حتى كانون الثاني (يناير) عام ١٩٤٩ · ولكن حتى الحكومة المؤقتة لاسرائيل انبثقت عن التمثيل المنتخب للجالية اليهودية في فلسطين خلال فترة الانتداب ·

ولذا ، بقدر ما يتعلق الامر بالقانون الدولي ، فان الانتخابات ، الانتخابات العامة ، ليست شرطا مسبقا لشرعية الدولة · اذا نظرت حولك في العالم ·

الشيخ ابو رزق : انا لا اقول هذا ·

السيد بلوم : لديك ١٢٠ من اصل ١٥٠ دولة تجري انتخابات مشكوك بها هذا اذا اجرت اية انتخابات على الاطلاق ·

الشيخ ابو رزق : لنعد الى النقطة البسيطة · لقد سألتك اذا كانت اسرائيل بالفعل قد اسست نفسها كدولة نتيجة للقوة · فرفضت التحدث عن هذا الامر · ثم سألتك اذا كانوا اسسوها بواسطة الانتخابات ورفضت ايضا التكلم حول هذا الامر ·

فكيف اذن تأسست اذا لم تؤسس بأي من الطريقتين ؟

السيد بلوم : الجواب بسيط جدا · ان كل الدول - باستثناء القلة المحظوظة المختارة مثل ليشتنشتاين وموناكو ولوكسمبورغ وربما بضع دويلات اخرى - ان على جميع الدول ان تؤكد وجودها ايضا عبر اصرار القوة المادية وتكون مستعدة للدفاع عن نفسها ·

انني اعالج الوجوه المختلفة للحالة · انا اعالج الوجوه القانونية · ولو لم تستند النواحي القانونية وتدعم دولة اسرائيل بالقوة المادية لما كنت اجلس امامكم هنا الآن لاتكلم عن سيادة اسرائيل او اي جزء من الانتداب الفلسطيني · ويصح هذا القول على اي بلد معين ·

الشيخ ابو رزق : يصح هذا القول على اسرائيل ، أليس كذلك ؟

السيد بلوم : يصح على اي بلد ·

الشيخ ابو رزق : افهم ذلك · ولكن هل يصح على اسرائيل ؟

السيد بلوم : لو لم تكن حقوقها مدعمة بالقوة المادية لاشتبهت بأن الاسرة الدولية كانت تجاهلت تلك الحقوق وابقتها معطلة ·

الشيخ ابو رزق : اعتقد اننا اثبتنا ان دولة اسرائيل اسست نفسها عن طريق استخدام القوة ·

السيد بلوم : كلا ، لقد اسست اسرائيل نفسها كأية دولة اخرى من وجهة نظر القانون الدولي لان دولة اسرائيل ، كأية دولة اخرى ، كان عليها ان تلبي ، وقد لبت بالفعل ، متطلبات الدولة كما ينص عليها اي كتاب مدرسي من كتب القانون الدولي · وهذه المتطلبات هي اراض معينة حسنة التحديد ومواطنون مستعدون للقبول بالولاء للدولة ، وادارة فعالة ، واعتراف الاسرة الدولية بها · ولا تختلف اسرائيل عن اية دولة اخرى ·

وكون اسرائيل اضطرت الى خوض حرب دفاع عن النفس منذ لحظة وجودها هو طريقة غريبة لتحدي حق اسرائيل في الوجود · واتمنى لو اننا لم نضطر الى خوض حرب

الاستقلال عام ١٩٤٨ ٠

الشيخ ابو رزق : اعتقد انكم على الارجح اضطررتم لخوض الحرب لانه ما كان باستطاعتكم ان تؤسسوا دولة اسرائيل في شكلها الراهن باجراء انتخاب للشعب هناك ٠ واقول انه ما كان باستطاعتكم ان تفعلوا ذلك لان عرب فلسطين كانوا اكثرية السكان في ذلك الحين ، الى ان طردوا خارج البلاد بأعداد كافية لجعلهم اقلية ٠

السيد بلوم : ما كنا نستطيع تأسيس دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ دون القتال من اجل وجودها واستقلالها لان الدول العربية المجاورة وعرب فلسطين كانوا يعارضون توصية الجمعية العامة للامم المتحدة التي كانت ستقسم فلسطين للمرة الثانية وتترك سبعة اثمان الانتداب الفلسطيني الاصلي في ايد عربية ، وما كانوا قانعين بالحصول على سبعة اثمانها ٠ بل ارادوا ثمانية اثمانها جميعا ٠

كان هذا هو السبب ٠

الشيخ ابو رزق : ولكن حقيقة ان قرار الامم المتحدة يوصي بالتقسيم دون ان يلزم – وانت قلت هذا في شهادتك – فان البديل الآخر الوحيد اذن ، غير القتال واخذ الارض بالقوة بغية تأسيس دولة اسرائيل ، هو اجراء انتخابات من نوع ما ٠ أليس هذا صحيحا ؟

السيد بلوم : كلا انه غير صحيح ٠

الشيخ ابو رزق : بأية طريقة اخرى كان يمكنكم فعل ذلك دون استخدام القوة ؟

السيد بلوم : انني احاول التمييز بين استخدام القوة ، وهو على العموم غير قانوني بموجب ميثاق الامم المتحدة ، واستخدام القوة دفاعا عن النفس الذي جيء على ذكره تحت المادة ٥١ من ميثاق الامم المتحدة ٠

اذا استثنينا الثقاة العرب حول هذا الموضوع ، فان جميع الثقاة الآخرين ، بمن فيهم الثقاة الاوروبيون الشرقيون عام ١٩٤٨ ، كانوا متفقين على ان الدول العربية هي التي استخدمت القوة غير القانونية وبذلك خرقت المادة الثانية ، الفقرة الرابعة من الميثاق وان دولة اسرائيل كانت تمارس حقها في الدفاع عن النفس ٠ وانني اجد صعوبة بالغة في قلب هذه الحجة وعكسها ٠

الشيخ ابو رزق : لا اعتقد انني ابتدأت اعكس الامور ٠ لست انا الذي ابتدأ يفعل ذلك ٠

ان لم اكن مخطئا ، فأنت تتجاهل استخدام الجالية اليهودية للقوة في ذلك الحين ٠ كانت هناك ثلاث وحدات قوات مسلحة منفصلة ومميزة قبل قيام دولة اسرائيل – الهاغاناه، وشتيرن او ليحي ، والارغون ٠ كان قد مضى على عملها بضعة اعوام وكانت تستخدم القوة ٠ وفي الواقع كانت تستخدم القوة لطرد البريطانيين من البلاد ٠ وهذا ما كان يفعله الارهابيون ٠ أليس هذا صحيحا ؟

السيد بلوم : الحركات السرية اليهودية المختلفة ، ليس الهاغاناه ، الا لفترة قصيرة من الوقت ٠ ولكن من المؤكد ، المنظمتان الاخريان اللتان ذكرت ، استخدمتا القوة بقصد ازالة الوجود البريطاني من اراضي الانتداب الفلسطيني السابق ٠

الشيخ ابو رزق : لسبب محدد وهو تأسيس اسرائيل ٠ صحيح ؟

السيد بلوم : اجل ، ومن الانصاف ان نشير الى ان التسويغ الوحيد للوجود البريطاني في فلسطين آنذاك هو تشجيع تأسيس وطن قومي يهودي في فلسطين · ولم يعد يحق لبريطانيا البقاء هناك في اللحظة التي انكرت فيها التزامها الدولي الذي كان المصدر الوحيد لحكمها في فلسطين · ولذا فان هذا كان هو تبرير استخدام القوة من قبل الحركات السرية اليهودية ضد البريطانيين ·

ولكن لا علاقة لهذا بالموضوع المطروح امامنا · فالمسألة المطروحة امامنا هي مسألة مختلفة ·

الشيخ ابو رزق : ان للموضوع صلة بمسألتنا من حيث استخدامك لمجموعة جزئية من الحقائق كأساس لحجتك القانونية ، معطيا اسرائيل الحق في اي شيء في نطاق منظورها تقريبا ·

السيد بلوم : هل لي ان اشير الى الفرق ؟

الشيخ ابو رزق : طبعا ·

السيد بلوم : الفرق هو انه يتوجب علينا ، من اجل غاياتنا الراهنة ، ان نميز بين الاستخدام الدولي للقوة والاضطرابات المدنية التي لا تبلغ حجم الاستخدام الدولي للقوة · وميثاق الامم المتحدة والقانون الدولي ليسا معنيين في الاساس بالاضطرابات الداخلية · مثال ذلك ان اضطرابات بادر ـ ماينهوف في المانيا ليست مسألة من مسائل القانون الدولي ، طالما ظلت محصورة في المانيا ·

فالقانون الدولي يصير مهتما بالعنف وباستخدام القوة كلما تجاوز الحدود الوطنية ·

وكانت هذه هي الحال عام ١٩٤٨ فيما يتعلق بالتدخل العسكري العربي في فلسطين · كانت هذه دولا خارجية · وقال بعض المتكلمين في مجلس الامن واماكن اخرى عام ١٩٤٨ انها كانت دولا خارجية لا شأن لها على الارض الفلسطينية ·

الشيخ ابو رزق : هذا يثير مسألة اخرى ، يا استاذ بلوم ·

تقول ان لاسرائيل الحق في السيادة الممكنة على اي شخص ضمن الدولة المنتدبة · وقد سوغت تأسيس المستوطنات على تلك الاراضي ارتكازا الى هذا الاساس القانوني · وماذا بشأن سيناء · هل كانت جزءاً من الانتداب ؟

السيد بلوم : كلا ، لم تكن ·

الشيخ ابو رزق : لدى اسرائيل مستوطنات في سيناء ، أليس كذلك ؟

السيد بلوم : نعم ·

الشيخ ابو رزق : كيف تستطيع تبرير ذلك ؟

السيد بلوم : من المؤكد انني لن اطبق هذه الحجة على سيناء · يجب ان اقول شيئا واحدا · بقدر ما يتعلق الامر بالمادة ٤٩ ، اقترحت السيدة هاوسر لهذه اللجنة الممتازة ····

الشيخ ابو رزق : آسف ، كانت تلك لجنة من لجان مجلس النواب · وهي لم تدل بشهادة هنا · بل ادلت بشهادتها في مجلس النواب · ومع هذا ، اكمل ·

السيد بلوم : فهمت · ولكن بقدر ما يتعلق الامر بالمادة ٤٩ فان التفسير الذي قدمته السيدة هاوسر ، وهو يمثل رأيي انا ايضا ، يمكن تطبيقه على سيناء كذلك ·

الشيخ ابو رزق : هل من القانوني تماما فعل ذلك لان اسرائيل مستثناة من المادة ٤٩ من معاهدة الصليب الاحمر ؟

السيد بلوم : كلا ، ليس لانها مستثناة · لم تكن هذه كلماتي · ان ما قلته هو ان المادة ٤٩ تتصور حالات معينة لابعاد السكان المحليين من اجل النقل الجماعي للسكان المحليين الى الاراضي المحتلة ·

وسأضيف كلمة تحذير اخرى · اقول هذا كمجرد كلمة تحذير · فأنا لم اتطرق الى المسألة التي اعتقد انه يجب ان نتطرق اليها · انني لم اتطرق الى مسألة طول مدة الاحتلال الحربي التي ينص عليها القانون الدولي · فالاحتلال الحربي الذي يزيد على مدة طويلة من الزمن لا يمكن ان يعمل ببساطة في ظل نفس القيود التي يعمل فيها الاحتلال الحربي الطبيعي ، هذا اذا صح استعمال كلمة « طبيعي » على حالة من هذا النوع · ومن الواضح ان معاهدة الصليب الاحمر وغيرها من الادوات الدولية كانت تتصور حالة « طبيعية » تتوقف فيها الحرب او تنتهي ثم توجد هناك فترة بضعة اسابيع من الاحتلال الحربي تليها مفاوضات يتم فيها التصرف بالارض اخيرا ·

وكلما طالت حال كهذه ، ازدادت صعوبة · ويعترف بهذا ايضا بعض مواد هذه المعاهدات ، ولكن تزداد صعوبة الالتزام الحرفي بتلك المواد ·

كذلك ، لديك هذه الحالة من اجل حماية مصالح السكان المحليين ، ولذا لا بد لنا من النظر في هذا الوجه من اوجه مدة الاحتلال · ولا بد لي من الاعتراف بأنني لم ادرس هذه المشكلة درسا كافيا يمكنني من بحثها على نحو حسن ·

الشيخ ابو رزق : لدي سؤال واحد آخر · اذا قبلنا بحجتك القائلة بأن لاسرائيل نوعا من السيادة المعدلة او السيادة الممكنة على الضفة الغربية ، فهل لديك اي تعليق او ملاحظة حول معاملة الحكومة الاسرائيلية لمواطنيها هناك ؟ فثمة حرمان تام للحقوق القانونية والحقوق الانسانية · فهل توافق على ذلك ام تستنكره ؟

السيد بلوم : ان ما قلته هو ان اسرائيل لم تمد سلطانها القانوني او ادارتها الى اليهودية والسامرة وقطاع غزة · والاكثرية الساحقة من سكان هذه الاراضي هم مواطنون اردنيون · ان حالة الامر الواقع هي ان اسرائيل تتصرف في تلك الاراضي نحو السكان المحليين كأنها ملزمة بمعاهدة جنيف الرابعة وكل موادها الانسانية ·

ان معاهدة جنيف الرابعة ـ وقد اذهلني الاستماع الى المتكلم السابق حول هذه المسألة لانه اهمل بوضوح هذا الامر عندما تكلم عن حقوق سياسية معينة ـ لكن معاهدة جنيف الرابعة للصليب الاحمر تتصور حالة لا يحق فيها للسكان المحليين بالاستمتاع بالحقوق السياسية الكاملة بالنظر الى الحالة غير الاعتيادية التي يجدون انفسهم فيها ·

فان معاهدة جنيف الرابعة للصليب الاحمر معنية بالحقوق المدنية والدينية ، وحقوق الملكية ، وحق الرجوع الى المحاكم وهلم جرا · واعتقد ان سجل اسرائيل حول هذه المسائل ليس شيئا يمكن الاستهزاء به على نحو ما فعل المتكلم السابق · وعندما يتحدث عن التظاهرات السياسية وما اليها ، فمن الواضح انه ينتقل الى صعيد آخر · اننا ننتقل

الى الحقوق السياسية التي تقلص على الدوام في الاراضي المحتلة من قبل الدولة التي لا تطالب بالسيادة للوقت الحاضر على الاقل ، والتي لم تحول السكان الى مواطنين لها .

كانت تلك هي الحالة في المانيا بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٤٩ . وكانت تلك هي الحالة في يابان مكارثر خلال الاعوام الاولى من الاحتلال الاميركي لليابان .

ولا اعتقد ان اسرائيل تختلف الا من ناحية مهمة واحدة . لقد اعطت اسرائيل قدرا كبيرا من حرية التحرك من الاراضي الى البلدان المجاورة ، ذهابا وايابا . ولن تجد الكثير من البلدان في العالم حيث يوجد هناك - قبل التوصل الى سلام - هذا العدد الكبير من السواح الذين يأتون الى الاراضي المحتلة من البلدان العدوة كما تجد في حالة اسرائيل ، على الرغم من جميع الاخطار الامنية التي ينطوي عليها هذا الامر .

الشيخ ابو رزق : اود ان اسألك مجددا اذا كنت توافق او لا توافق على حرمان الشعب الذي يقيم في الضفة الغربية من حقوقه القانونية والانسانية ؟

السيد بلوم : ان الصيغة التي وضع بها السؤال تذكرني بالسؤال : « هل توقفت عن ضرب زوجتك ؟ »

الشيخ ابو رزق : ربما استطعت ان تعيد صياغة السؤال نيابة عني .

السيد بلوم : ان الطريقة التي تطرح بها السؤال يا سيدي الرئيس هي : « هل توافق على حرمان الحقوق الانسانية ؟ » فالسؤال يفترض مسبقا ان هناك حرمانا كهذا . لا اريد ان توضع هذه الكلمات في فمي .

الشيخ ابو رزق : كان ثمة ادلة وافرة على ذلك . فلدينا الشاهد السابق . وكانت هناك تقارير تلفزيونية وصحافية لا تحصى حول حرمان الحقوق الانسانية .

وفي الواقع انا اعرف شخصيا عن الرئيس السابق او الحالي لجامعة بيرزيت ، الذي قال لي انه اخذ فورا ووضع كيس فوق رأسه ورمي به عبر الحدود اللبنانية في وسط الليل دون محاكمة او تحقيق او توجيه تهم . لنأخذ هذا المثل الواحد . هل توافق عليه ؟

السيد بلوم : هل تريدني ان اجيبك على سؤال الابعاد ذاك ؟

الشيخ ابو رزق : نعم

السيد بلوم : دعني اقول لك هذا يا سيدي الرئيس . ان شروط الابعاد موجودة في انظمة الطوارىء التي ورثناها عن سلطات الانتداب البريطاني والتي ورثها من ثم كل من اسرائيل والاردن في جزئي فلسطين اللذين سيطرا عليهما بعد عام ١٩٤٨ .

ان انظمة الطوارىء هذه موجودة في القوانين الاسرائيلية ايضا حتى يومنا هذا . وليس من الصحيح القول انها الغيت في اسرائيل . انا نفسي كان يسرني ان تلغى ، ولكن يصدف ان الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة لم تفعل ذلك ، لاسباب مختلفة .

ولذا فان اعمال الابعاد هذه ليست شيئا فكرت به اسرائيل واخترعته . وفي الواقع ، كما سبق ان قلت ، هي موروثة عن فترة الانتداب . انه القانون ، القانون المحلي ، كما وجدناه في اليهودية والسامرة في حزيران عام ١٩٦٧ .

وفيما يتعلق بأعمال الابعاد ، فهو ابعاد غريب بالفعل ـ كما يمكنني ان اضيف ـ عندما تأخذ مواطنا اردنيا وتضعه عبر نهر الاردن وترسله الى الاردن · وهذا ما حدث في معظم الحالات · كانت هناك نحو مئة حالة ـ لا اعتقد ان لدي الرقم الدقيق ولكني اعتقد انه ما يقارب المئة ـ ومن الانصاف ان نأتي على ذكر الارقام · اعتقد انه كان هناك نحو مئة حالة ابعاد من هذا النوع وشملت مئة فرد ، باستثناء الاثنين او الثلاثة الذين ارسلوا الى الاردن ، الى بلد جنسيتهم · ولذا فانهم لم يرسلوا الى المنفى ·

الشيخ ابو رزق : هل لديهم بيت في الاردن ؟

السيد بلوم : فيما يتعلق بالشخصين او الثلاثة اشخاص الذين ارسلوا الى لبنان بدلا من الاردن ، كان هناك انتقاد شديد في اسرائيل في ذلك الوقت على اساس انه كان من الافضل من وجهة النظر القانونية ارسالهم الى بلد جنسيتهم الاصلية بدلا من ارسالهم الى بلد يكون بلدا اجنبيا من وجهة النظر القانونية · وقد اعربت المحكمة العليا الاسرائيلية عن بعض الاستياء في ذلك الحين حول حالات الابعاد هذه ·

الشيخ ابو رزق : انني اجد هذه الحجة واهية جدا · اعني الحجة لاخذ شخص من بيته حيث يقيم على الضفة الغربية ورميه في الاردن لمجرد انه يصدف ان تكون هذه جنسية جواز سفره قبل عام ١٩٦٧ · انها حجة واهية جدا ·

السيد بلوم : انني اجدها حالة تعسة جدا في جميع انحاء العالم · اعتقد انه من المدهش بعض الشيء ان تحاول ان تطبق على دولة اسرائيل المجموعة الكاملة من الانظمة والمقاييس الدولية كما تطبق في البلد الذي ، لحسن الحظ ، لم يتعرض للغزو خلال المئة والستين عاما الماضية · انه من المدهش بعض الشيء ان تحاول تطبيق جميع تلك الانظمة ـ على بلد لم يعرف يوما واحدا من السلام خلال الاعوام التسعة والعشرين من وجوده ، بلد تستمر دولة ما على الاقل او بعض المنظمات في تهديده بالدمار حتى يومنا هذا ·

الشيخ ابو رزق : انه ليس مدهشا بالنظر الى اننا نسمع باستمرار من انصار اسرائيل انها بلد ديمقراطي حقا وانها تعامل عربها معاملة حسنة · اننا نسمع ذلك باستمرار · هذا عرضة للتغيير بالطبع · وكنت احاول اثارة هذا السؤال هنا اليوم ·

وهكذا اذا حاول احد ان يشير ، من جهة ، الى ان عربهم لا يعاملون معاملة حسنة ، فان العذر يكون اننا في حالة حرب · اظن اننا نجب ان نعود الى ابعد من ذلك · انت حاولت الدوران حول هذا الامر ·

لقد حاولت الدوران جوله ، لكن الحقيقة هي ان اسرائيل في حالة حرب لمجرد انها اخذت اراض بالقوة · آمل الا تتوقع من الناس ان يعطوكم جائزة على ذلك · على الاقل انا آمل ذلك · ان مقاومة اخذ اسرائيل لتلك الاراضي بالقوة هو الذي يسبب القتال اليوم وسيسببه في المستقبل · آمل ان تأخذ انت او اسرائيل جائزة ، جائزة دولية ، لاخذكم الارض من شخص آخر ·

وبدل ذلك تحصلون على ما يتوقعه المرء ، وهو حرب مستمرة · ولا اعرف اي شيء آخر يمكنكم ان تتوقعوا ·

السيد بلوم : اعتقد انه من التضليل الافتراض بأن اخذ اسرائيل للاراضي في عام ١٩٦٧ خلق التوتر بين الاسرائيليين والبلدان المجاورة · اننا بهذا نخطىء النظر الى

المنظور التاريخي • ففي عام ١٩٤٨ ضن العرب بأية ارض من اراضي فلسطين لليهود • وكان العرب سيضنون بدويلتنا مهما كان موقع تأسيسها على اي جزء من اجزاء الانتداب الفلسطيني وذلك لسبب بسيط ، وهو انهم لم يدركوا وجود شعب يهودي مميز عن الديانة اليهودية • وقد كان موقفهم على الدوام هو ان اليهودية هي مجرد ديانة ، وعلى هذا لا يحق لها بأن تكون لديها دولة خاصة بها ، بصرف النظر عن حدودها • وكانت حرب ١٩٦٧ والاستيلاء على الاراضي نتيجة لهذه الحالة التعسة • انا على يقين تام من ان اسرائيل دولة ديموقراطية ، احدى الدول الديموقراطية القليلة جدا الباقية في العالم ، لسوء الحظ • ولكنها دولة ديموقراطية في حالة حرب وتماما كما ان بريطانيا العظمى ، لم تتوقف ابدا عن ان تكون دولة ديموقراطية ولا حتى خلال الحرب العالمية الثانية ، كان عليها ان تتخذ اجراءات معينة ما كان البريطانيون ليتخذوها في زمن السلم ـ كذلك فان دولة اسرائيل كان عليها هي ايضا اللجوء الى اجراءات حربية معينة • ولا يعني هذا ضمنا ، كما يبدو انك افترضت يا سيدي الرئيس ، ان اسرائيل تعامل عربها معاملة سيئة ـ واعتقد انك تكلمت عن « عربهم او عرب اسرائيل » لا اذكر ما هي العبارة التي استخدمتها • وقد تكون قلت « مواطنون من الدرجة الثانية » او شيء من هذا القبيل • اننا لم نحرمهم من حقوقهم الانسانية •

عندما تتحدث عن عرب اسرائيل ، اظن انك تفكر بالمواطنين الاسرائيليين من اصل عربي • لدينا نحو نصف مليون منهم •

هؤلاء القوم يتمتعون بالحماية الكاملة للقانون الاسرائيلي ، علما بأنهم معفيون من بعض الواجبات في ظل القانون الاسرائيلي ، مثل واجب الخدمة العسكرية • وهم يخدمون في قوات الدفاع على اساس طوعي فقط • وبعضهم يفعل ذلك •

الشيخ ابو رزق : هل يستطيع هؤلاء العرب تأليف احزابهم السياسية الخاصة بهم ؟

السيد بلوم : اجل ، بالفعل • وقد فعلوا ذلك في الماضي •

الشيخ ابو رزق : اية احزاب ألفها هؤلاء العرب ؟

السيد بلوم : هناك عدد من العرب اعضاء في الكنيست •

الشيخ ابو رزق : اعلم ذلك ولكنهم اعضاء في احزاب سياسية قائمة •

السيد بلوم : آسف • انهم يمثلون برامج عربية ويخوضون الانتخابات على قوائم عربية وليس على قوائم يهودية •

الشيخ ابو رزق : تقول انه يحق للعرب ان يؤلفوا احزابا سياسية خاصة بهم ؟

السيد بلوم : اننا لا نتكلم عن عرب اسرائيل • بل نتكلم عن مواطني اسرائيل • ويحق لهم ان يؤلفوا احزابا كهذه وقد فعلوا ذلك • وقد خاضوا الانتخابات على عدة برامج وقوائم عربية مختلفة • وقد انتخبوا للكنيست • وكان لدينا نائب رئيس الكنيست ، عربي جاء الى الكنيست على قائمة عربية • وكان لدينا نائب وزير صحة ، عربي صدف ان خاض الانتخابات لا على قائمة عربية بل على قائمة يهودية • كان ممثلا عربيا على قائمة يهودية •

ولكني اعتقد انه من غير الصحيح القول انه لا يحق للعرب تشكيل احزاب سياسية · لقد فعلوا ذلك ·

الشيخ ابو رزق : هل يمكنك ان تعطي اسم حزب سياسي عربي ؟

السيد بلوم : « التقدم والتنور » ـ لاحزابهم اسماء مزدوجة عادة · وبدو النقب يخوضون الانتخابات على قائمة منفصلة خاصة بهم عادة · « الاخوة والسلام » واسماء كهذه ·

الشيخ ابو رزق : شكرا ·

حسنا ، لم يعد لدي اسئلة · اريد ان اعرب عن شكري لحضورك امامنا · اننا نقدر لك ذلك كثيرا ·

مراجعات

امين هويدي ، حروب عبد الناصر
(دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت ـ ١٩٧٧)

امضى امين هويدي حياته بين السلكين العسكري والمدني في عهد الرئيس جمال عبد الناصر . فقد بدأ ضابطا في القوات المسلحة المصرية وشغل عدة مناصب هامة فيها . ثم انتقل الى السلك المدني حيث شغل عدة مناصب هامة كذلك . اذ شغل منصب وزير للارشاد القومي ، ثم منصب وزير للدولة. وبعد نكسة١٩٦٧ عين وزيرا للحربية ثم رئيسا للمخابرات العامة . وبعد وفاة عبد الناصر بفترة فضل عدم الاشتراك في اي تشكيل وزاري .

الكتاب يقع في خمسة فصول حيث يتناول فيها الكاتب بالتفصيل الحروب التي خاضها الرئيس جمال عبد الناصر في الفترة ما بين عام ١٩٥٢ ـ ١٩٧٠ . اولى هذه الحروب كانت حرب التحرير (١٩٥٣ ـ ١٩٥٤) ، تلك الحرب التي انتهت بخروج البريطانيين من مصر . فمنذ اليوم الاول لتسلم عبد الناصر للسلطة وضع نصب عينيه هدفا ثابتا وهو خروج المستعمرين البريطانيين من الاراضي المصرية بصورة نهائية. وكان البريطانيون قد حصلوا على حق البقاء في منطقة قناة السويس بموجب معاهدة عام ١٩٣٦ التي رضيت بها الاحزاب القائمة في ذلك الوقت وعلى رأسها حزب الوفد . وللتخلص من الوجود البريطاني عملت قيادة الثورة في اتجاهات عديدة . فمن ناحية عملت على تعبئة الجماهير المصرية ضد هذا الوجود . وقامت بسحب اغلبية القوات المصرية الموجودة في سيناء حتى لا تعطي للبريطانيين مجالا للضغط عبر قطع خطوط الامداد لهذه القوات . وجهزت قوة من الفدائيين الذين قاموا بهجمات متواصلة على مواقع وقوافل القوات البريطانية الامر الذي سبب ارباكا كبيرا للقيادة العسكرية البريطانية واضعف من معنويات الجنود والضباط . ثم كانت حرب الاشاعات والحصار الاقتصادي ضد القوات البريطانية . كل ذلك دفع البريطانيين الى الاسراع الى طاولة المفاوضات التي انقطعت جلساتها مرات عديدة الا انها انتهت بتوقيع اتفاقية الجلاء يوم ٢٧ تموز (يوليو) ١٩٥٤ . وقد اعلن الرئيس عبد الناصر عن اتفاقية الجلاء في خطاب وجهه للمواطنين في نفس اليوم . وهنا يشدد الكاتب على ناحية هامة وهي ان الرئيس عبد الناصر كان وفيا للمناضلين الذين سبقوه ولم يحاول احتكار النضال لنفسه وتزييف التاريخ فقد جاء في خطابه « انني اتجه اليهم بقلب شعب واتجه اليهم بوفاء جيل ... اليهم جميعا ... الزعماء الذين كافحوا ... احمد عرابي ، مصطفى كامل ، محمد فريد ، سعد زغلول والشباب الذين باعوا ارواحهم للفداء ... على كل بقعة من ثرى الوطن » . بصورة غير مباشرة يذم الكاتب اولئك الذين يحاولون طمس تاريخ عبد الناصر والاساءة الى نضالاته ... « وهكذا تحدث عبد الناصر. لم ينهش جثث من ماتوا .. ولم يحتكر الجهاد لنفسه ... ولم يزيف التاريخ .. ذكر من سبقوه من الزعماء على درب الجهاد وفي احترام واكبار ... كان رجلا عظيما يقدر العظماء » .

وينتقل بنا الكاتب بعد ذلك الى حرب السويس (١٩٥٦ ـ ١٩٥٧) فيبدأ بالبحث عن الاسباب التي دفعت باسرائيل

وبريطانيا وفرنسا لشن عدوانها الثلاثي على مصر . اهم هذه الاسباب او لعل اكثر هذه الاسباب بروزا كان تأميم قناة السويس الذي حرم بريطانيا وفرنسا من نهب الاموال التي تجنيها هيئة القناة. ويذكر الكاتب اسبابا اخرى مثل مساعدات عبد الناصر للثورة الجزائرية وهذا بالطبع لم يرض فرنسا . واسرائيل التي كانت تنظر الى مصر على انها عدوها الرئيسي فشاركت بالعدوان لتحطيم ذلك العدو .

ان الاسباب التي يذكرها الكاتب صحيحة ولكنها ليست الاسباب الوحيدة . فقد اخذت ممارسات عبد الناصر في تلك الحقبة تشكل خطرا مباشرا على المصالح البريطانية ليس في العالم العربي فحسب وانما في افريقيا كذلك . لقد عمل عبد الناصر في تلك الفترة على بناء وتعزيز الخط القومي العربي التحرري والذي لاقى تجاوبا هائلا في جميع انحاء العالم العربي . وقام بانشاء اذاعة صوت العرب التي قامت بالتحريض ضد الاستعمار والاستغلال الاجنبيين في العالم العربي وفي افريقيا ، حيث كانت هذه الاذاعة تبث برامج خاصة بلغات افريقية متعددة من بينها « الزولو » وهذا الامر لم يرض البريطانيين على الاطلاق فكان لا بد لهم من الاطاحة بنظام عبد الناصر قبل فوات الاوان . وبالنسبة لاسرائيل يذكر الكاتب ان من اهم اهدافها كان تأمين حرية العبور في خليج العقبة . ومن المعلوم انه لم يكن في تلك الفترة اي وجود لميناء ايلات وبالتالي لم يكن يهم اسرائيل كثيرا تأمين حرية المرور في خليج العقبة . انما استخدمت هذه الحجة لاغراض دعائية لكي تستر على هدفها الاساسي وهو التوسع. فاسرائيل كانت تطمح الى ضم سيناء الى اراضيها وهو ما اعلنه بن غوريون صراحة في ذلك الوقت ، حيث اعلن عن ضم سيناء لاسرائيل بعد احتلالها مباشرة . ولكنه ما لبث ان تراجع عن ذلك ازاء الضغوط التي تعرضت لها اسرائيل من جانب الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الاميركية .

أسهب الكاتب في سرد التفاصيل الدقيقة للعمليات الحربية وللخطط العسكرية المختلفة التي طبقت في ذلك العدوان ويذكر ان القيادة السياسية في مصر لم تكن واثقة تماما من ان قوى العدوان الثلاثي ستقوم فعلا بالهجوم على مصر . والحقيقة ان الجميع كان يتوقع حدوث العدوان على مصر ، فبريطانيا وفرنسا كانتا قد بدأتا حشد قواتهما في قبرص . وقد قامت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي بالاتصال بالبريطانيين والفرنسيين وحثهم على عدم الاقدام على عملهم . الا ان هذه الجهود لم تفلح ووقع العدوان والاحتلال ، وعندها تحركت القوتان العظميان واجبرت المعتدين على الانسحاب . وهنا ترتسم علامة استفهام كبيرة : لماذا اقدمت الولايات المتحدة على مثل هذه الخطوة ؟ يذكر الكتاب مجموعة من الاحتمالات قد تكون وراء هذا الموقف الاميركي : ربما تكون الولايات المتحدة قد رأت ان اسلوب الغزو بالقوة المسلحة ليس الاسلوب الامثل للخلاص من عبد الناصر ... او ان الولايات المتحدة لم ترض ان يعمل اصدقاؤها في الخفاء ، بعيدا عنها .. او قد تكون الولايات المتحدة تأثرت بالتهديدات السوفييتية واتخذت هذه الخطوة لكي تتحاشى صداما نوويا .

الحرب الثالثة التي خاضها عبد الناصر هي حرب اليمن (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥) . في معالجته لهذه الحرب استخدم امين هويدي اسلوبا مغايرا لاسلوبه في معالجة الحروب الاخرى التي خاضها عبد الناصر، فتراه هنا يحاول تقييم هذه الحرب ومدى تأثيرها على القوات المسلحة المصرية بوجه عام ودورها في حرب عام ١٩٦٧ بوجه خاص . لقد تناول هويدي هذه الحرب بشكل تحليلي وليس فقط كأحداث

تاريخية متسلسلة يسردها بالتفصيل دون ان يحاول الاستنتاج او استنباط العبر ، كما فعل خلال تعرضه للحروب الاخرى .

يرى الكاتب ان حرب اليمن لم تؤثر سلبيا على القوات المسلحة المصرية مثلما حاول البعض ان يروج . ولم يكن لهذه الحرب اي تأثير على الوضع القتالي للقوات المصرية في حرب ١٩٦٧ حيث لم يكن هناك اي وجود لقوات المدرعات في اليمن او لقوات الدفاع الجوي ، وبالنسبة للطيران فقد كان هناك عدد محدود من القاذفات . اذن القوة الضاربة الرئيسية للجيش المصري كانت في مصر لدى نشوب القتال في حزيران ١٩٦٧ . وبالنسبة للتدخل المصري في اليمن ، ان التدخل المصري في اليمن لا يجوز ان ينظر اليه الا من زاوية واحدة فقط . انه تكريس للخط القومي العربي الذي رفع لواءه عبد الناصر فالقوات المصرية انما ذهبت الى اليمن لتقديم العون لشعب اليمن وثورته التي قامت لتنقله من عالم الظلمات الى نور الحضارة الانسانية . ذهبت تلك القوات للقيام بواجبها نحو شعب اليمن كجزء من الامة العربية الواحدة التي كان عبد الناصر يعمل لاجلها .

ونأتي بعدها الى حرب ١٩٦٧ وهي اهم حرب خاضها عبد الناصر اذ لا نزال نعاني من اثارها ليومنا هذا . يكشف الكتاب معلومات هامة حول ما كان يجري على الجبهة المصرية وداخل مصر قبل واثناء تلك الحرب . فالظروف التي وقعت فيها الحرب ، وكما يعلم الجميع ، لم تكن تسمح بوقوع مفاجأة ومع ذلك حدثت تلك المفاجأة . قبل الحرب كان عبد الناصر قد اغلق خليج العقبة بوجه الملاحة الاسرائيلية وطلب من قوات الطوارىء الدولية في سيناء الانسحاب لتحل محلها القوات المصرية . وحشدت القوات المصرية بكثافة وكان من المفروض ان تكون هناك حالة الاستنفار القصوى في صفوف القوات بمختلف فصائلها البرية والجوية والبحرية ، ومع ذلك حدثت المفاجأة . يحمل امين هويدي مسؤولية ما حدث للقيادة العسكرية ويشير في ذلك المجال الى مجموعة نقاط كلها تؤدي الى نفس الاستنتاج : ان القيادة العسكرية المصرية تتحمل المسؤولية الكاملة لهزيمة حزيران ١٩٦٧ . فعندما بدأ الهجوم كان اركان الجيش وعلى رأسهم المشير عبد الحكيم عامر على متن طائرة في طريقهم الى سيناء لتفقد القوات بدلا من ملازمة مقر قيادتهم والاشراف على العمليات ، علما ان الرئيس عبد الناصر كان قد نبه القيادة الى احتمال وقوع الهجوم صباح يوم الخامس من حزيران !! هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى يشير هويدي الى حادث لم يكشف النقاب عنه من قبل وهو ان العمليات العسكرية الاسرائيلية لم تبدأ بالضربة الجوية كما يعتقد الجميع . فقد قامت طلائع القوات الاسرائيلية على المحور الاوسط في سيناء بهجوم بري على احد المواقع المصرية الامامية انتهى باحتلال الموقع وكان ذلك في الساعة السابعة والربع صباحا اي قبل الهجوم الجوي بسبعين دقيقة . وكانت المواقع الامامية المصرية قد نقلت لقياداتها معلومات مفادها ان العدو يقوم باجراءات الفتح لقواته استعدادا للهجوم . ومع ذلك لم تحرك القيادة المصرية ساكنا . وهناك ايضا المعلومات المغلوطة التي قدمها قائد سلاح الجو للرئيس عبد الناصر . كانت تقديرات قائد السلاح الجوي تفيد ان خسائر سلاح الطيران المصري لن تتجاوز ١٠ ــ ١٥٪ من قوته في حال قيام اسرائيل بتوجيه الضربة الجوية الاولى ، فجاءت الضربة وكانت النتيجة تدمير سلاح الجو باكمله وهو على الارض . وبعد تدمير السلاح الجوي اعطت القيادة العامة امرا للقوات بالانسحاب الى غرب القناة خلال ٢٤ ساعة . وهذا القرار كان بمثابة المهزلة اذ من غير المعقول ان يتم سحب هذا الحشد الهائل من البشر والاليات

بشكل عشوائي الى غرب القناة خلال ٢٤ ساعة فالطرق والجسور لهـا قـدرات محدودة للتحمل ومن المستحيل مرور كل هذه القوات بدون اي تنظيم وبـدون انسحاب عسكري منظم يقلل من الخسائر الفادحة التي منيت بها . كان اول عمل قام به عبد الناصر بعد الهزيمة هو تنحية القادة العسكريين المسؤولين عن النكسة التي حدثت . وقام باعادة تنظيم وتسليح القوات المسلحة . وهنا لا بد من الاشارة الى الدور الايجابي الذي لعبه الاتحاد السوفييتي في عملية اعادة بناء القوات المسلحة المصرية . فقد قام الاتحاد السوفييتي بتزويد مصر بكل متطلباتها من الاسلحة الامر الذي استدعى في بعض الاحيان سحب بعض القطع من ايدي الجيش السوفييتي نفسه لتزويد المصريين بها . وحشدت القوات المصرية على قناة السويس ونقل حائط الصواريخ الى الضفة الغربية للقناة ، وكلنا نعلم الدور الذي لعبته هذه الصواريخ في حرب تشرين عام ١٩٧٣ . وبعد حشد القوات وتجهيزها بدأت حرب الاستنزاف ضد العدو على قناة السويس والتي استمرت حتى وفاة عبد الناصر في ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ .

وفي الختام لا بد من الاشارة الى ان الكتاب حافل بالمعلومات والتفاصيل الدقيقة لمختلف الحروب التي خاضها عبد الناصر ، ولكن الكاتب جعل جل اهتماماته سرد الاحداث والتفاصيل ولم يحاول تناول الجوانب السياسية لتلك الحروب الا بشكل سطحي وعابر . والكتاب بمجمله جاء بمثابة دفاع عن عبد الناصر ، اذ تكاد لا تمر فقرة الا ويشير فيها الكاتب الى انهم ظلموا عبد الناصر وان عبد الناصر فعل كذا ولم يفعل كذا ... الخ . على اية حال فان الكتاب يعتبر كتابا هاما لانه يكشف الكثير من ايجابيات الرئيس عبد الناصر التي دأبت بعض القوى في مصر ومنذ فترة طويلة على محاولة طمسها وتشويه تاريخ ونضالات القائد الراحل .

زاهي الاقرع

نزيه قورة

المشروع الصهيوني في مواجهة ازمته الداخلية

مؤسسة الارض للدراسات الفلسطينية ـ دمشق ١٩٧٧

لم ، ولن تكون الوطنية نقيضا للحقيقة . وان نكن وطنيين وثوريين ، فهذا لا يعني ان لا نكتشف سوى السلبيات عند بحثنا في الشؤون الاسرائيلية وعندما نسجل نقاط القوة في الكيان الصهيوني فهذا لا يضعنا في قائمة الخونة .. فبلا معرفة دقيقة بالخصم ، من الصعب رسم سياسة مواجهة صحيحة ، هذا اذا توفرت النية للمواجهة ، نقول هذا في بداية عرضنا وتعليقنا على كتاب المشروع الصهيوني في مواجهة ازمته الداخلية ، للزميل نزيه قورة الباحث في مؤسسة الارض للدراسات الفلسطينية ـ دمشق .. الذي وعلى مساحة ٢٧١ صفحة من الحجم المتوسط ، المتخمة بالاستشهادات الاسرائيلية ، يطمئننا بأن المشروع الصهيوني في ازمة داخلية ،

يستحيل حلها ٠٠ كما ويحكي لنا عن « التآكل » و « الاضمحلال » و «التصدعات» و « الشروخ » و « تركز العاملين في قطاع الخدمات » وكيف « يتصدع المجتمع » وتحدث « الحرب الاهلية » و « الطبيعة اللامنتجة » ٠٠٠ الخ من الاستنتاجات التي تعيد الى الاذهان النغمة التي كانت سائدة قبل ١٩٦٧ ، ولم تتوقف الا بعد وقوع النكسة ، وكذلك حديث الرئيس انور السادات الذي « صدر الازمة والتمزق الى اسرائيل » ، واذا بها تترجم بحرب اهلية في لبنان ٠٠ وحوادث طائفية في مصر ٠ ويعلم الله اين ستكون في المستقبل ، وعلى اية حال ، فبرجنسكي مستشار الرئيس الامريكي ، للامن القومي يقترح تعميم التجربة اللبنانية السياسية مقترحا انشاء دويلات طائفية ، وبالتأكيد ففي ذهنه احلام حروب طائفية جديدة ٠٠٠

المسافة والنتائج بين الانبهار ، والاستخفاف بالكيان الصهيوني هي واحدة ، فالانبهار يقود الى الاحساس بالعجز ، وبالتالي فلا طريق سوى الاستسلام والا فالبديل ، حرب ابادة تتهددنا !!! وهذه مدرسة في فهم الشؤون الاسرائيلية ليس مجال مناقشتها الان٠٠٠

والاستخفاف يؤدي النتيجة نفسها ، وان اختلفت الوسائل ، فعدم معرفة قدرة العدو ، يؤدي الى عدم الاعداد بشكل مناسب ، يؤدي الى هزيمة لا محالة ٠٠ وفي النهاية ، فلا فرق في النتائج بين ان نهزم انفسنا طوعا ونستسلم وبين ان نعد انفسنا بمستوى ، لا يمكن ان يؤدي بنا الى هزيمة ٠٠ واخطر من ذلك ان ننام على احلام وردية ، تقول لنا ٠٠ « توقفت الهجرة من الخارج بصورة شبه تامة ، وبدأت عملية نزوح الى الخارج تتسع باستمرار ٠ هذا التطور بالاتجاه العكسي هو السمة الاساسية التي تميز المشروع الصهيوني في مرحلته الحالية ٠ وهو التطور الوحيد الممكن في المرحلة المقبلة ٠٠»

« التطور الوحيد الممكن في المرحلة المقبلة هو الهجرة للخارج » ، هكذا يقدم السيد حبيب قهوجي ، دراسة الزميل قورة الذي بدوره ينبئنا في صفحة ٢٧٠ « بانه بفضل مشارفة الاوضاع المؤقتة على الانتهاء نستطيع ان نرى اكثر من ٣٥٠ الف يهودي يعيشون في الولايات المتحدة وكندا بعد ان غادروا المشروع الصهيوني ولا ينوون العودة اليه ٠ ونستطيع الان ان نرى ما بين ٢٠ ـ ٣٠ الف يهودي (اسرائيلي) يغادرون الكيان الصهيوني سنويا الى البلدان الغربية وفي الافق تبدو كل الاشارات الدالة على ان هذه الارقام سوف تزيد ، في حال توفر مراكز استقبال » ٠٠ ويتوقع « ان تتفاقم مشكلة الطاقة البشرية في المشروع الصهيوني مع استمرار توقف الهجرة من الخارج ٠٠ وان مرور خمس سنوات على حالة توقف الهجرة من شأنه ان يحول التصدعات والى شروخ ٠٠ » ص ٢٧١ ٠

هذه النتيجة التي يخلص اليها الكاتب، استنادا الى ان المشروع الصهيوني يواجه ازمة داخلية تجعلنا نستخلص ان الازمة التي يتحدث عنها هي « ازمة وجود » واضمحلال بمعدل ٢٠ ـ ٣٠ الف سنويا مرشحة للتزايد !!

ولكن ما هي مكونات الازمة واسبابها ودوافع المستوطن للهجرة ؟! هنا المسألة التي تستدعي تدقيقا لنحدد معنى كثير من المصطلحات ، وحجم الازمة ومقدار الاضمحلال والتآكل ٠٠ الخ ٠ فالازمة برأي الزميل قورة تبدأ مع توقف الهجرة ، حيث يتوقف نشاط الاقتصاد ، لا تجد المؤسسة العسكرية حاجتها من البشر ٠ انهيار الاوضاع الاقتصادية يؤدي الى هجرة

مضادة ·· الخ · ولكن هل المسألة بهذا المقدار من الميكانيكية ···

ان تناول موضوعا بخطورة الموضوع الذي نحن بصدده يستدعي دقة متناهية ، مع الاسف الشديد لم يتوفر للزميل قورة حتى الحد الادنى منها · وان الدقة التي نسائل الزميل عنها تتعلق بتحليله للوضع القائم حاليا والذي بنى عليه الكثير من النتائج · والمسألة المركزية بتقديري هي ما اصطلح على تسميته بالقاعدة التحتية لمجتمع ما · كيف تتكون ، ما هي حقيقة اوضاعه الاقتصادية ـ الاجتماعية؟! وهي عنصر حاسم في موضوع الهجرة للخارج · وهل صحيح حديث الزميل قورة عن الطبيعة اللاانتاجية للمستوطنين الصهاينة ؟ صحة نتيجة الزميل مشروطة بصحة المقدمات التي انطلق منها ، وهنا مع الاسف لم يحالفه الحظ ··

يقول الكاتب ، « اذا زاد حجم العاملين في قطاع الخدمات عن قدرة القطاع المنتج فلا بد ان يتصدع المجتمع وتحدث الحرب الاهلية ص ١٠٠ التساؤل الذي يطرح فورا ، كيف يمكن لنا قياس «تصدع» المجتمع ··· و « الحرب الاهلية » ما هو المعيار ؟· كيف يزداد الشرخ ·· التصدع ·· وكيف « تحمي » نار الحرب الاهلية ؟ بمقدار اختلال النسبة بين المنتجين وغير المنتجين ·· بين قطاع الخدمات والانتاج · والدقة في رؤية التصدع مرهونة بمقدار الدقة في رؤية الخلل بين الانتاج والخدمات ·

الكاتب اشار الى « المجموع العام للمستخدمين البالغ ٨و٩٩٣ الف مستخدم في قوة العمل المدنية لعام ١٩٧٥ » ص٩٤· « القطاع غير العامل في القطاعات المنتجة تبلغ نسبته حوالي ثلاثة ارباع مجموع قوة العمل·· ص٩٤» لانستطيع الا ان نعتبر « حوالي ثلاثة ارباع « تساوي أقل او اكثر قليلا من ٧٥٪ ولذا فلن نرجح اكثر او اقل ، وسوف نعتبرها ٧٥٪ ، رغم اننا نرجح ان الزميل قورة يميل الى اعتبار النسبة اقل ، فله رأي سابق تضمنته المذكرة التي قدمها لمؤتمر اتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين المنعقد في تونس في بداية العام الحالي ، يقول بالمذكرة « قطاعات الانتاج الاساسية وهي الزراعة والبناء والصناعة المدنية التحويلية تكاد تخلو خلوا شبه تام من العمال اليهود ··» ··· حسنا لنعتبر ان نسبة قطاع الانتاج تساوي ٢٥ ٪ ، اي ما يساوي ٤٥ر٢٤٨ الف عامل ·

الزميل حدد قطاعات الانتاج بانها الزراعة ، الصناعة ، البناء · فما هي نسبة العمال اليهود انها تساوي (٤ر٥٪ ٢ر٢٥٪ ٤ر٦٪) ٣٧٪ ، اي ٧٠٦ر٣٦٧ الف عامل اي بزيادة تبلغ ٢٥٦ر١١٩ الفعامل عن العدد الذي حدده الكاتب اي ما يساوي ١٢٪ من القوة العاملة اليهودية المدنية ·· فلماذا اسقط الزميل « حوالي » ٢٥٦ر١١٩ الف عامل من ٨ر٩٩٣ الف عامل ؟؟! لا أشك للحظة واحدة ان الزميل لا يعرف معنى ٢٥٦ر١١٩ ألف ·· اي ١٢٪ وهي نسبة لا تضيع تحت تعبير « حوالي » ·· فهي التي تحدد حجم الخلل في البنية التحتية للاقتصاد الاسرائيلي واستطرادا لذلك البنية الاجتماعية الاسرائيلية وبالتالي حجم « التصدع » و « الحرب الاهلية » التي تحدث عنها الكاتب · وهذا الخطأ ، سحب نفسه على كافةاستنتاجات الزميل قورة ·

المسألة الثانية التي تستدعي توقفا منا ، وتتعلق بصحة الارقام التي قدمها الكاتب واستطرادا صحة النتائج التي توصل اليها لتأكيد مقولته عن تبعية الاوضاع الاسرائيلية الداخلية للهجرة من الخارج ، حيث يقول « ان ارقام الهجرة

اكثر من اي مؤتمر اخر ، هي التي تقـرر الوضع العامللكيان الصهيوني ص٨٨ «وانه كلما انخفضت ارقام الهجرة تضـــــاءل النضال الاقتصادي » ٠

السؤال ، من يتبع من ، الداخل للخارج ، ام ان العكس صحيح !؟ نتفق مع الكاتب على اهمية الهجرة بالنسبة لاسرائيـل ، فلولاها لما قامت ، ولكن فيما لو توقفت الهجرة الى اسرائيل ، هل يعني هذا توقف المشروع الصهيوني واضمحلاله وتآكله ؟! استطرادا لحديث الزميل قورة عن عـــام ١٩٦٥ ، « الذي يشكل عاما حاسما فـي تاريخ المشروع الصهيوني ففي ذلك العام انتهت اخر موجات الهجرة الكبيرة ص ٩٥ فقد اعتبره « عام بداية سير المشـروع الصهيوني فيطريق التآكل والاضمحلال٠٠»

ولكن الاضمحلال والتآكل انتهى الـــى توسع فـ « المشروع الصهيوني تمكن منان يوقف هذه المسيرة عام ١٩٦٧ ، وان يخلق حالة من الانتعاش بفضل الهجرة اليهودية السوفياتية وبفضل احتياطـي العمـــــل العربي فيالاراضيالمحتلة ص١٠١»ولكنبعد ان تم استنفاد العمل العربـي وتبين ان الهجرة السوفياتية لم تكن هي المـــــادة البشرية التي يحلم بها اصحاب المشروع الصهيوني ٠٠ وخاب الامل الصهيونـــي الذي كان معلقا عليهم ٠٠ عاود المشروع الصهيوني مسيرتـــــه نحو التآكــــــل والاضمحلال ص١٠٢» واماكيفامكن« خلق حالة من الانتعاش بفضل الهجرة اليهودية السوفياتية » و « خاب الامـل الصهيوني الذي كان معلقا عليهم ٠٠ » فذلك سؤال لا يجيب عليه ٠ الكاتب يـقول بـان سبب الانتعاش كان الهجــــرة السوفياتيـــة واستيعاب اليد العاملة العربية ولكن بعـد خيبة الامل بالهجرة السوفياتية ، واستنفاد العمل العربي ٠٠ عادت الازمة ٠٠ اذا من المسؤول عن وقف « التآكل والاضمحـلال بين ٦٥ ـ ٧٤ ؟! » ٠ اي لمدة عشر سنوات وهي فترة زمنية تبلغ ضعف المدة التـــي توقع الكاتب ان تتحول بها الشروخ الـــى تصدعات ٠ بعد اسقاط عامل الهجـــرة (خيبة الامل باليهود السوفيات » السبب الوحيد الباقي الذي اوقف التآكل هو اليد العاملة العربية ٠٠ اذا كان الامر كذلـك فاين الصحة بالقول عن « ان ارقـــــام الهجرة اكثر من اي مؤثر اخـر ، هـي التي تقرر الوضع العام للكيان الصهيوني» ٠٠٠ الخ ٠٠ وانه كلما انخفضت ارقـــام الهجرة تضاءل النشاط الاقتصادي ٠٠٠ الـخ » ٠

لقد اخطأ الزميل قورة وقلب المعادلة ، فاستجلاب مزيد من المهاجرين يستدعـــي قدرة على الاستيعاب ، الامر الذي يؤكـد تبعية الخارج للداخـــل وليس العكس ٠ والامل لم يخب بالمهاجرين السوفيـات او بغيرهم حيث نسبة الاكاديميين مرتفعـة ،

وكان على الزميل قورة ان يحاول اكتشاف العلاقة بين المزيد من المهاجرين ، والمزيد من اليد العاملة العربية ، وارتباط تـوقف الاولى بنفاد الثانية ، ونضيف من عندنا ، استكمال هضـــم السوق العربيـة التـي وفرتها لاسرائيل هزيمة ١٩٦٧ ٠

فالمهاجرون ، يتمتعون بمؤهلات علميـة عليا ، ولاستيعابهم بشكل متوازن ، يجـب توفير يد عاملة غير فنية ٠ وهذا مـــــا وفرته اليد العاملة العربية غير الفنيـة ، هذه هي العلاقة بين توقف الهجرة ونفاد العمل العربي ٠

وهذا يقودنا الى مسألة خطيرة اخرى وضعها الكاتب بصيغة خاطئة ، الا وهـي العلاقة بين العمل العبري والعمل العربـي والمجتمع اللا منتج ٠

فقد سبق ان تبين لنا ان ٣٧٪ مـــــن اليد العاملة الاسرائيلية تعمل في قطـــاع الانتاج فهل صحيح قول الزميل قورة عن

ان العمل في الزراعة والصناعة والبناء يؤدي الى « اكتساب مهارات لا علاقة لها بالارض بالمصنع ولا بأدوات البناء ص ١٠٠ » والكاتب عندما يتحدث عن المهارات المكتسبة الا يستدعي الامر منه التوقف قليلا امام النسبة العالية جدا من الاكاديميين ، وهل « الاكاديمية » لا تعني اكتساب مهارات ؟!

انه يقول « في مقابل اتجاه السكان اليهود ٠٠ نحو استعادة خصائص الغيتو اليهودي ، يتجه السكان العرب في فلسطين المحتلة الى استعادة صفات المجتمع المتكامل والمنتج وهكذا ينشأ وضع في فلسطين المحتلة يكون فيه مؤتمعان :مجتمع منتج ومتكامل وهو المجتمع العربي ، ومجتمع غير منتج وتنقصه القاعدة البشرية الانتاجية ٠٠ المجتمع العربي ضروري ولازم لان الارض والمصنع وعملية البناء تحتاجه ٠ اما مجتمع السكان اليهود فمجتمع فائض عن الحاجة : لا الارض تحتاجه ولا المصنع يحتاجه ولا البناء يحتاجه ٠٠ » ص ٩٩ ماذا تعني كلمة « فائض عن الحاجة » و « مجتمع منتج متكامل » انها تعني ببساطة ان اسرائيل ، بما فيها ، من يد عاملة فنية ، غير ضرورية ولا تؤدي اي دور ، لدرجة انه يمكن الاستغناء عن الدور الانتاجي الذي يؤديه العامل اليهودي ، دون ان تتضرر العملية الانتاجية فيما لو استمر العامل العربي في تأدية دوره ، لان الاول « فائض » والثاني ضروري ٠

هنا اخطأ الزميل في وضع المسألة ٠ فضرورة وحيوية دور العامل العربي لا يعني الغاء دور العامل اليهودي ، ودور اي منهما لا يلغي دور الاخر ، بل يتكامل معه لاتمام العملية الانتاجية ٠ والتقسيم ليس على اساس « فائض » و « ضروري » بل على اساس عمل فني وعمل غير فني ٠ الاول يهودي والثاني عربي ولكن هل العمل الفني غير ضروري ٠ وهل مهندس البناء اقل اهمية من عامل البناء ٠٠ واذا كان العامل ضروريا ، لكن هل وجود المهندس « فائض » ؟ ولا يعتبر دوره منتجا ؟

هنا يكمن سر العلاقة بين مزيد من المهاجرين وبين مزيد من اليد العاملة العربية ٠٠٠ وهنا يكمن اصرار دولة العدو على المضمون الاقتصادي للسلام بينهما وبين العرب ٠٠

ان قراءة دقيقة في ارقام ومعدلات الانتاج القومي والهجرة تبين لنا بشكل واضح خطأ مقولة الزميل قورة عن تبعية الداخل للخارج ، مرتكزا على ارقام ومعطيات الفترة بين ١٩٦١ ـ ١٩٦٤ ٠ مع اهمية الفترة التي تناولها الزميل قورة ٦١ ـ ٦٤ ، ولكن لنقف امام ارقام الهجرة لاسرائيل في ضوء ارقام ومعدلات الانتاج القومي بوصفها المعبرة عن النشاط الاقتصادي ٠

وفيما يلي عدد المهاجرين بالالاف ونسبة الزيادة التي حققها الانتاج القومي بالاسعار الثابتة للاعوام ١٩٥١ ـ ١٩٧٣، ١٩٥١ ، ١٧٣ر٩٠١ ، ٢٩٪ » ١٩٥٢ ، ٢٣٣٧٥ر٤٪» « ١٩٥٣ ، ١٠٣٤٧ ، ٢٪ » « ١٩٥٤ ، ١٧ر٤٧١ ، ٢٠٪ » « ١٩٥٥ ، ٣٦ر٣٠٣ ١٤٪ » « ١٩٥٦ ، ٥٤ر٩٢٥ ، ٩٪ » « ١٩٥٧ ، ٦٩ر٧٣٣ ، ٨٪ » « ١٩٥٨ ، ٢٥ر٩١٩ ، ٧٪ » « ١٩٥٩ ، ٢٢ر٩٨٧ ، ١٢٪» « ١٩٦٠ ، ٢٣ر٤٨٧ ، ٦٪» « ١٩٦١ ٤٦ر٥٧١ ، ١٠٪ » « ١٩٦٢ ، ٥٩ر٤٧٣ ، ١٠٪ » « ١٩٦٣ ، ٦٢ر٠٨٦ ، ١١٪ » « ١٩٦٤ ، ٥٢ر١٩٣ ، ٩٪ » « ١٩٦٥ ، ٢٨٥٠١ ، ٩ ٪ » « ١٩٦٦ ، ١٣٤٥١ ، ١٪» « ١٩٦٧ ، ١٢٢٣٧ ، ٢ ٪ » « ١٩٦٨ ، ١٨٠٨٧ ، ١٣٪ » « ١٩٦٩ ، ٣٢ر٦٧٩ ، ١٠٪ » « ١٩٧٠ ، ٢٩ر٩٦١ ، ٧٪ »« ١٩٧١ ٣٦ر٢٠٥ ، ٩٪ » « ١٩٧٢ ، ٥١٥٦٤ ، ٩٪،»

« ١٩٧٣ ، ١٢ر٥١ ، ٥ر٥٪ » ٠

في ضوء ما تقدم لنناقش صحة القول عن « انه كلما ارتفعت ارقام الهجرة ٠٠ ازداد النشاط الاقتصادي ٠٠! وكلما انخفضت ارقام الهجرة تضاءل النشاط الاقتصادي ٠٠٠ وبعبارة اوضح « ان عملية النمو الاقتصادي في الكيان الصهيوني ، تتم اساسا بفضل وعلى حساب المهاجرين اليهود ٠٠ » حسب قول الكاتب ٠

هل هذا الكلام دقيق ؟ لماذا اختار الزميل قورة الفترة بين ٦١ ـ ٦٤ فقط ٠ لماذا؟ الازمة والاضمحلال والتآكل بدأت في ٦٥ حيث بلغت الهجرة الاجمالية ٢٨٥٠١ ، وليس عام ١٩٦٦ او ١٩٦٧ ، حيث هبطت ارقام الهجرة الى ٢١٣٤٥١ ، و ١٢٢٣٧ ، وفي حين كانت عام ٦٥ ٢٨٥٠١ مقابل ٥٢١٩٣ ، مهاجر عام ١٩٦٤ ، فان نسبة تزايد الناتج القومي للسنتين المذكورتين كانت ٩٪ ، واكثر من ذلك ففي حين حقق العام ١٩٦٧ هجرة اقل بالقياس للعام ٦٦ ، فقد حقق تزايدا في الناتج القومي يبلغ ضعف المعدل الذي حققه عام ١٩٦٦ ٠ ولو عدنا الى الخلف قليلا ، للاعوام ٥٥ و ٥٦ و ٥٧ ، فقد حققت الهجرة قفزة جديدة بلغت ٢٠٢ر٣٦، ٩٢٥ر٥٤ ، ٧٣٣ر٦٩ الف مهاجر على التوالي ، وذلك في اعقاب عام ١٩٥٤ حيث لم تبلغ فيه الهجرة سوى ٤٧١ر١٧ مهاجر وفي ذلك العام حقق الناتج القومي زيادة تبلغ ٢٠٪ وهي نسبة تزايد مذهلة فيما لو قورنت بالنسبة التي كانت عام ١٩٥٣ حيث انخفض الناتج القومي عن عام ٥٢ بـ ٢٪ ٠ السؤال الذي يطرح ، لماذا ٤٧١ر١٧ الف مهاجر عام ٥٤ يساوون ٢٠٪ زيادة في الانتاج القومي عن العام السابق و ٤٥١ر١٣ الف مهاجر سنة ٦٦ لا يرفعون الناتج القومي الا بـ ١٪ ؟ ٠

ولنتقدم قليلا للعام ١٩٦٨ ، حيث حقق الناتج القومي زيادة تبلغ ١٣٪ ، رغم ان عدد المهاجرين لم يبلغ سوى ٠٨٧ر١٨ الف مهاجر ، هي زيادة عادية في عدد المهاجرين ، في حين لم تتحقق نفس النسبة سوى بالعامين ١٩٥٥ ، ١٤٪ ، ١٩٥٤ ، ٢٠٪ ٠ علما بان اليد العاملة العربية التي استوعبها الاقتصاد الاسرائيلي في ذلك العام كانت اقل من ٩ الاف عامل ٠

المعيار الذي وضعه الكاتب لا يفسر لنا لماذا الصعود في الناتج القومي عام ٥٤ ، وبداية الهبوط سنة ٦٥ ، وعودة الصعود سنة ٦٧ ثم ٦٨ انتهاء بالعام ٧٥ حيث انخفض الناتج القومي حتى وصل المعدل الذي كان عليه سنة ١٩٥٢ وسنة ١٩٦٦ ٠ هل سبب الصعود والهبوط في النشاط الاقتصادي (الناتج القومي) كما يقول الزميل قورة لانه « يحمل المهاجرون معهم اموالا بالعملة الصعبة وعند استقرارهم يحتاجون للمساكن وعند شرائهم للمساكن يحتاجون لتأثيثها ، وكل هذا يخلق طلبا على هذه الضروريات ويؤدي الى انعاش ٠٠ قطاع البناء ٠٠ (و) توسيع حجم السوق الداخلي » ! اذا كان هذا هو السبب ولكن مهاجري اعوام الذروة ١٩٦١ ـ ١٩٦٤ والتي سماها اعوام الهجرة الكبيرة كانوا يضمون ١٣٦ الف مهاجر من المغرب العربي ، يصف الكاتب وضعهم فيقول : « يتميزون بالميزات التالية : ١ ـ الفقر ٢ ـ الامية ٠ ٣ ـ عدم القدرة على العودة الى بلدانهم الاصلية » ص ٩٦ ٠ اي انهم لا يحملون عملة صعبة ، ٠٠ وكذلك الامر بالنسبة لمهاجرين من الاتحاد السوفياتي٠ ورغم هذا تزايد الناتج القومي ٠ ان وضع مهاجري ٦١ ـ ٦٤ ، الفقراء والاميين ، والمهاجرين السوفيات القادمين بلا دولارات لا ينطبق على معيار الزميل قورة عن المهاجرين والعملة الصعبة والسوق

الداخلي · اذا ما هو التفسير ؟! وما هو سر صعود الاقتصاد الاسرائيلي منذ سنة ٥٤ الى ٦٥ وركوده بين ٦٥ ـ ٦٦ وبداية صعوده بين ٦٧ ـ ٧٣ ؟!

البداية في ٥٤ والنهاية في سنة ٦٥ ·· العامان هما بداية ونهاية تنفيذ اتفاق التعويضات الالماني الغربي لاسرائيل ، وتصنيع دولة العدو ، وزيادة امكانياته على الاستيعاب ·· ولهذا السبب قفزت نسبة تزايد الناتج القومي من ٢٪ عام ٥٣ الى ٢٠٪ عام ٥٤ وحافظت على نسبة تزايد عالية للسنوات ٥٥ ـ٦٥ · ومع نهاية الاتفاق سنة ٦٥ هبطت لـ ١٪ فقط عام ١٩٦٦ ·

ان اكتمال برنامج التصنيع سنة ٦٥ كان يحتاج للسوق بالدرجة الاساسية وللمهاجرين بالدرجة الثانية ، لذا وخلال عام واحد بعد الحرب (١٩٦٨) اختفت البطالة ، قفز الناتج القومي ليبلغ ١٣٪ زيادة على العام السابق ·

ان ظاهرة النهوض الاقتصادي الاسرائيلي الذي بدأ مع بداية برنامج التعويضات · وانتهى مع نهايته ، والذي عاد مع وفرة السوق سنة ٦٧ ـ ٦٨ وعاد للجمود سنة ٧٣ ـ ٧٤ مع اكمال هضم المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ (سوقا وايد عاملة) والذي عكس نفسه علىارقام الهجرة ، تجعلنا ايضا نقف امام سنوات معينة تشكل شذوذا في مسيرة اسرائيل على صعيدي الاقتصاد والهجرة ، الا وهي سنوات ١٩٧٠ (حرب الاستنزاف) و١٩٧٣ (حرب تشرين) فزيادة الناتج القومي عام ٧٠ كانت ٧٪ في حين بلغت ١٠ و٩٪ للسنتين السابقة واللاحقة (٦٩ و ٧١) وكذلك الامر على صعيد الهجرة (٢٢٦٧٩ ، ٢٩٩٦١ ، ٢٦٢٥٠) للسنوات ٦ ، ٧٠ ، ٧١ ·· والشيء نفسه حيث النسبة للعام ١٩٧٣ ·

ان ما تقدم يجعلنا نخلص بشكل جازم الى تبعية الهجرة الى ومن اسرائيل بالاوضاع الاقتصادية والامنية وليس العكس ·

ان مسار الامور، والوقائع الحسية التي بين يدينا تشير بشكل لا يقبل الجدل الى ان استمرار تدفق الهجرة من الخارج يتوقف على توفر اوضاع داخلية مناسبة لاستيعاب مزيد من المهاجرين الجدد بالشكل الذي يجعل من مجيئهم لارضنا المحتلة « ارتقاء طبقيا » حسب ما وعدهم به تيودور هرتزل في كتابه دولة اليهود ·· والهرم الاجتماعي المقلوب لا يمكن له ان يتوازن الا اذا ضمن مزيدا من الاسناد لقاعدته الضيقة ، وذلك بالتهام مزيد من اليد العاملة العربية غير الفنية لتوازن الفائض في اليد العاملة اليهودية الفنية ·

اننا لا نستطيع الا ان نفرق بين وجود الكيان وامكاناته على التوسع ، وعجزه عن تحقيق الثانية ؟ هل سيؤدي الى نفي الاولى · وهي اخطر فرضية ـ نتيجة طرحها الزميل قورة والتي تبرز في اكثر من موقع ، وتشكل روح مقالته تلك انما هي حديثة عن توقف الهجرة و اضمحلال الكيان الصهيوني في فلسطين · بشكل بدا معه ، وكان توقف الهجرة يعني بداية اضمحلال اسرائيل ·

الاضمحلال بالمعنى اللغوي ، يعني انتهاء الوجود هكذا وبشكل آلي وتحديد البداية يجعل من السهل تحديد نهاية

عملية الاضمحلال · وبكلمة اخرى فالزميل قورة هنا لا يضع هذه المسألة بوصفها حتمية تاريخية بل يشرطها بتوقف الهجرة ·· وهنا علينا ان نطرح التساؤلات التالية :

ـ اذا كان ينطبق على اسرائيل ما ينطبق على مجتمعات المستوطنين

وبالتالي فان « وجود الكيان » قد ارتبط بالمهاجرين فهل يكف الكيان عن الوجود فيما لو توقفت الهجرة ·· وهل « انشاء الكيان » في فلسطين او روديسيا او جنوب افريقيا ، كان بسبب تدفق المهاجرين ام توفر مجال للاستغلال وتكوين مجتمع سادة وعبيد ·

ـ فيما لو نجحت الحركة الصهيونية في تجميع يهود العالم قاطبة في فلسطين، وهذا يؤدي الى توقف الهجرة ايضا ،فهل هذا يعني ايضا ان الكيان الصهيوني سيبدأ عندها بالاضمحلال والتآكل ·

ـ هل « مبدأ » وجود الكيان يرتبط « بحجم الكيان » · كيان عدد سكانه ١٫٠١٢ مليون نسمة ٤٩ ام كيان سكان ١٫٨٥٨٫٨ سنة ٥٩ ام كيان سكانه سنة ٦٩ ، ٢٫٤٩٦٫٤ مليون ام كيان سكانه ٢٫٩٥٩٫٤٠٠ مليون سنة ٧٥ ؟ ام كيان عدد سكانه عشرة او خمسة عشر مليونا ·· هل انتفى المبدأ رغم تبدل الارقام · ام ان التبدل قد اصاب حجم وامكانيات الكيان ·

اذا كانت مجتمعات المستوطنين قد ارتبطت تاريخيا ببحث المستوطنين عن فرص استغلال جديدة ، وتوسع الهجرة مع توسع مجالات الاستغلال فهل هذا يعني ان « نفاد » فرص الاستغلال وعدم وجود مجالات جديدة يعني الغاء للمجالات القديمة ـ للمستوطنية القدم ·· وهل كان رحيل (السادة البيض) عن انغولا وموزمبيق وقبلهما الجزائر كان بسبب توقف الهجرة اليهما ، ام بسبب انتصار الثورة ، وانتفاء فرص الاستغلال·
فيما لو افترضنا ان الهجرة لاسرائيل قد توقفت كليا وبقي سكان اسرائيل عند الرقم الحالي · وتمكن كيان العدو من النجاح في خرق الحصار الاقتصادي ، وضمن تدفق اليد العاملة العربية ، هل ستستمر هجرة المهندسين والفنيين من اسرائيل ، وبكلمة اخرى فيما لو نجحت اسرائيل في ضمان اسواق لمنتجاتها وبالتالي ضمنت رفع نسبة تشغيل الطاقة الصناعية لديها ، من خلال رفع عدد العاملين العرب غير الفنيين من حوالي ١٧٥ الف عامل (مناطق ٤٨ ـ ٦٧) الى ٣٥٠ الف عامل ، او انها زادت من توجهها نحو الصناعات عالية التقنية والتي تستوعب يدا عاملة ماهرة اكثر وهي سياسية قد بدأتها على اية حال ، الا يعني هذا توفير فرص عمل للمهندسين وغيرهم من الاكاديميين المتسربين للخارج ·

ان الزميل قورة ، والذي حاول اثبات فكرة مسبقة لديه ، ورغم ركام الوقائع والاستشهادات ، لم ينجح في التنظير بشكل مناسب لفكرته القائلة بان المهاجرين اليهود ، يذهبون الى فلسطين لانه ليس هنالك من مكان اخر يهاجرون اليه ··· تلك الفكرة المتطابقة مع نشاطات البعض لافراغ اسرائيل من اليهود من خلال تهجيرهم ·

بغض النظر عن مقدار حسن او سوء النية ، وراء الفكرة ولا نسوق كلمة سوء عبثا ، فان ايقاف الهجرة الى اسرائيل وتنشيط الهجرة المضادة ، ليست رهن عوامل داخلية فحسب تتم بشكل الي ، بل رهن عناصر خارجية ايضا ·· ولكنها غير صهيونية ·· انها تتعلق بالضغط على كيان العدو بشكل يجعل من الهجرة اليه ، او البقاء فيه ، عملا غير مربح !! وليست مصادفة ان يكون مهاجرو الدول ، ذات الدخل المنخفض هم الغالبية

الساحقة ، وسنوات الامن والازدهار الاقتصادي هي السنوات التي ازدهرت بها الهجرة : فالهرم الاجتماعي المقلوب ، رغم وضعه الشاذ ، فانه يصبح في وضع

طبيعي حين يتحول الى مربع ، حيث يملأ الفراغ على الجانبين بالمزيد من اليـــد العاملة العربية ٠٠ وافقاد ذلك الهـــرم لتوازنه رهن بافقاد شعـار هرتزل عـــن « الخروج الذي سيكون ارتقـــاء طبقيا » لمضمونه ٠ وذلك بايقاف مجالات الاستغلال ولن تتوقف ، الا اذا توفرت القـــدرة العسكرية ٠٠ والتي ستجعل امن المستوطن اليهودي في خطر ٠٠ فالحل هنا ، وليس في الدعوة لانشاء مكاتب تعمل لتهجير اليهود من ارضنا المحتلة ٠٠ لن تجد زبائن لها ، الا اذا توفر الظرف الموضوعي الذي يجعل من بقاء المستوطن الصهيوني فـــوق ارضنا ، بقاء غير مربح ٠٠!!

ولن يتوقف « السادة » ، عن القدوم ، او البقاء ، ما لم نتوقف نحن عن تقديـم العبيد !! ولتتذكر ايها الزميـــل العزيـز ان روديسيا العنصرية قد انشئت منـــذ ماية عام ٠٠٠ ولم يهتز وجودها الا بعـد ان قررت دول المواجهة ، المواجـهة !!!!

حسين ابو النمل

شهريات

المقاومة الفلسطينية

ميزة دائمة للاحداث الفلسطينية انها وثيقة الصلة بالاحداث العربية والدولية . ولكن هذه المرحلة بالذات تشهد تداخلا كثيفا بين الاحداث بحيث يصعب الحديث عن اي موضوع مفصولا عن الاخر . فالحديث عن القضية الفلسطينية وتطوراتها هو حاليا حديث عن سياسة الرئيس انور السادات وعلاقاته الخاصة بالمخطط الاميركي ، كما هي حديث عن جبهة الصمود والتصدي العربية ومنجزاتها ، وهو في نفس الوقت حديث عن مسألة الوفاق الوطني في لبنان الذي تمحور بصدفة غريبة حول توطين الفلسطينيين في الجنوب ، وتبرع الجميع بحماس زائد لرفض ذلك .

والحركة الفلسطينية في هذا الجو هي حركة الصراع ، اذ ان كل موقف فلسطيني هو اما مع او ضد . لا وجود لموقف فلسطيني صاف موجه نحو العدو فقط .

ومعروف كيف ان الكثيرين لا يعجبهم هذا التداخل الفلسطيني مع كافة اجزاء الخارطة السياسية ولكن تناقض المواقف العربية الغى ، ولو مؤقتا ، نظرية الاجماع العربي على محاربة اسرائيل والصهيونية ، بل وبرز من يتحالف معهما للضغط على الفلسطينيين والعرب ، وبات بديهيا في غياب هذا الاجماع ، ان تتداخل المواقف الفلسطينية وتتقاطع مع مواقف لبنانية وعربية ودولية بكثافة لم تكن قائمة من قبل .

وخارطة الاحداث على امتداد فترة الشهر من ١٥ كانون الثاني الى ١٥ شباط من العام ١٩٧٨ تكشف ذلك بوضوح، وفيما يلي ابرز ملامحها .

١ ـ قمة الصمود الثانية

بعد قمة الصمود والتصدي الاولى التي انعقدت في طرابلس ردا على زيارة الرئيس

انور السادات للقدس المحتلة ، قام الرئيس الجزائري هواري بومدين بجولة عربية ودولية واسعة كان لها ثلاثة اهداف :

١ ـ استصلاح الوضع العربي ، وخاصة مواقف الدول الصامتة ، لمعرفة المدى الذي يمكن ان تذهب اليه هذه الدول في تحركها السياسي سلبا او ايجابا .

٢ ـ تأمين دعم دولي للاتجاه الذي تمثله «جبهة الصمود والتصدي» ،وخاصة من قبل الاتحاد السوفياتي .

٣ ـ محاولة انهاء الخلافات العراقية ـ السورية ، واقناع العراق بالانضمام الى الجبهة ، لما يمثله انضمامه وموقعه الجغرافي وامكاناته البشرية والمادية

والعسكرية من رفع لمستوى فاعلية الجبهة ، ومن تأثير على صورة التوازن العربي في وجه السادات ومؤيديه ٠

وقد استطاع بومدين ، وهو بصدد التهيئة لانعقاد قمة الصمود والتصدي الثانية ان يحقق نجاحا ملموسا في القضيتين الاولى والثانية ، وفشل في احراز اي تقدم بالنسبة لتغيير الموقف العراقي ، سواء على صعيد علاقاته مع سوريا ، او على صعيد مشاركته في اعمال الجبهة ٠

في جولته العربية التي شملت كافة الاقطار التي لم تعلن تأييدها لزيارة السادات نجح بومدين في اقناع هذه الدول بأن تجمد حركتها باتجاه السادات ، وان لا تنظر بعداء الى نشاط جبهة الصمود ٠

وفي جولته الدولية التي شملت الاتحاد السوفياتي ويوغسلافيا ، نجح بومدين في انتزاع مواقف محددة وصريحة حول : رفض زيارة السادات ، تأمين التأييد لخطة وسياسة جبهة الصمود ، التأكيد على الحق الفلسطيني بشقيه : تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني ٠ وانشاء الدولة الفلسطينية المستقلة ٠

وفور انتهائه من هذه الجولة ، وتحديده لنتائجها ، قام بومدين بايفاد مندوبين عنه ابلغوا الاطراف المشاركة في جبهة الصمود بنتائج الجولة ٠ اما الموضوع العراقي فقد بقي قائما ومعلقا ومر بأطوار مختلفة ٠ ومنذ ١٤ـ١ـ٧٨ ظهر في الصحف اول حديث عن لقاء سوري ـ عراقي في الجزائر يكون تمهيدا لانعقاد قمة الصمود الثانية ، وحين اعلن في ٢٦ـ١ بصورة رسمية ان قمة الصمود والتصدي ستعقد في الجزائر يومي ٢ و ٣ شباط ، لم يكن موضوع مشاركة العراق في القمة قد حسم ، فيما جرى التأكيد فقط على ان اللقاء الثنائي مع سوريا سيتم ، بل ان مسؤولا عراقيا اعلن (٢٧ـ١) ان هذا اللقاء سيتم في الجزائر يومي ٢٩ و ٣٠ـ١ ، ولفت النظر في تصريح هذا المسؤول انه تحدث عن مؤتمر للصمود يعقد في بغداد وليس في الجزائر ٠ وكان واضحا من هذا الغموض في المواقف أن ثمة مشكلة ما ، وقد اتضحت هذه المشكلة تماما في اليوم التالي (٢٨ـ١) حين اعلن العراق رسميا انه ليس معنيا بقمة الجزائر لانه سبق له وانسحب من قمة طرابلس ٠ واعلن في الوقت نفسه تعيين رئيس وفد العراق للقاء الثنائي مع سوريا في الجزائر ، في نفس اللحظة التي كانت فيها سوريا تعلن ان وفدها سيتوجه ايضا الى هناك لانجاز اللقاء ٠ وقد أدت مقاطعة العراق لقمة الجزائر ، وموافقتها على اللقاء الثنائي مع سوريا فقط ، الى ان تعلن سوريا رفض الموافقة على اللقاء الثنائي ، لانه سيكون لقاء لا غاية له ٠

ومما يلفت النظر في هذه التطورات ثلاثة أمور :

١ ـ انه بينما كانت تجري الاتصالات لاقناع العراق بحضور قمة الصمود ، نشرت الصحف (السفير ـ ١/٢٠) ان العراق دعا لقمة عربية شاملة وان السعودية وافقت على الدعوة ٠ واوضح عبد العزيز بوتفليقة وزير الخارجية الجزائري انه علم بذلك من رسالة تلقاها من سعود الفيصل وزير الخارجية السعودي ٠ وقد نفت العراق ذلك رسميا على لسان ناطق باسم وزارة الخارجية ، وشرحت الموضوع قائلة انها وجهت رسائل الى رؤساء دول قمة الصمود حول تصوراتها لكيفية بناء جبهة عربية ، وانها

ابلغت مضمون هذه الرسائل لكل سفراء الدول العربية باستثناء مصر ، موضحة رأيها بامكان اي دولة عربية من الانضمام لهذه الجبهة اذا عارضت نهج الرئيس السادات ، وان ذلك فهم على انه دعوة لمؤتمر قمة (١/٣٠) ٠

٢ ـ اقدم العراق رسميا يوم ٢ شباط ١٩٧٨ اي في يوم انعقاد قمة الصمود الثانية في الجزائر على اعادة فتح المكاتب التجارية والثقافية والقنصلية بينه وبين مصر ٠ وعقد نديم الياسين مدير عام العلاقات في وزارة الاعلام مؤتمرا صحافيا رحب فيه بهذه الخطوة ، وانتقد قمة الجزائر قائلا « لا نريد ان نخدع الامة العربية بالمشاركة في مؤتمرات لا تستند الى استراتيجية ثابتة » ٠

٣ ـ في هذه الاثناء نشرت الصحف اللبنانية (السفير ـ ١/٣٠) ، ثم نشرت الصحف العراقية بدورها ، مشروع ميثاق عراقي لانشاء جبهة تكون بديلا للجبهة التي انبثقت عن قمة طرابلس ، يكون اسمها « جبهة الصمود والتحرير » ، ونشرت الصحف العراقية في اليوم التالي (٢/١) نص رسالة الرئيس العراقي احمد حسن البكر لرؤساء دول قمة الصمود التي تشرح موقف العراق من كيفية مواجهة الاوضاع العربية بعد زيارة السادات للقدس المحتلة ٠

على ضوء هذه التطورات وبسببها ، انعقدت قمة الصمود الثانية في الجزائر دون مساهمة العراق ، وحاولت جهدها ان تكون تطويرا للقمة الاولى في طرابلس من الناحيتين التنفيذية والسياسية ، بعد ان انهت اعمالها يوم ٢/٤ ٠

من الناحية التنفيذية قررت الجبهة تقديم دعم اقتصادي وعسكري لسوريا ولمنظمة التحرير الفلسطينية ، تحت شعار السعي لتمكين سوريا من ان تصل الى مرحلة امتلاك التوازن الاستراتيجي مع اسرائيل ٠

أما من الناحية السياسية فقد جرى التأكيد على اربع قضايا :

١ ـ تكرار ادانة خطوة السادات باتجاه اسرائيل ، وتوضيح ان هذه الخطوة تستهدف ضرب التضامن العربي ، والحاق المنطقة العربية بالقوى الامبريالية العالمية والاخلال بالتوازن الدولي في المنطقة لصالح الولايات المتحدة الاميركية وضد الاتحاد السوفياتي ، مع السعي لجر مصر والمنطقة العربية الى الدخول في صراعات في افريقيا لصالح الامبريالية الاميركية وضد مصالح حركة التحرر العربية والافريقية ٠

٢ ـ توضيح ان خطوة السادات ومخططاته ، ليست بعيدة عن الاخطار المحيطة بثلاث ساحات تحتدم فيها المعارك : الخليج العربي الذي تهدده ايران ، والقرن الافريقي المهدد بالحروب المحلية والسيطرة الاجنبية ، والصحراء الغربية التي تتدخل فيها المغرب وفرنسا لتهديد الجزائر ، الامر الذي يقتضي العمل على مواجهة هذا المخطط بحلقاته المتكاملة، من ضمن تنسيق موحد بين دول قمة الصمود ، ومن ضمن تنسيق مع الاطراف الدولية الصديقة ، وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي ٠

٣ ـ مساعدة منظمة التحرير الفلسطينية ، سياسيا بشكل خاص ، لكي تتمكن من مواجهة المؤامرة التي تهدف الى انتزاع حقها في تمثيل الشعب الفلسطيني ٠ وبرزت بناء على ذلك فكرة ان يتولى ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية للمنظمة بعث رسائل الى فالدهايم والى ممثلي الدول الدائمة في مجلس الامن توضح وتؤكد عدم أحقية اي

طرف بتمثيل الشعب الفلسطيني او الحديث باسمه في اية مفاوضات ٠

٢ ـ المحادثات المصرية ـ الاسرائيلية

تم في لقاء الاسماعيلية بين بيغن والسادات الاتفاق على استئناف المفاوضات من خلال لجنتين : عسكرية تجتمع في القاهرة ، وسياسية تجتمع في القدس المحتلة ٠ وقد باشرت اللجنة العسكرية اجتماعاتها في القاهرة دون ان تنتهي الى نتيجة ، واعلن اللواء عبد الغني الجمسي وزير الدفاع المصري (١/١٤) ان مصر رفضت المشروع الاسرائيلي ، واوضح ان هذا المشروع ينص على النقاط الخمس التالية :

١ ـ اقامة منطقة تعمل فيها الامم المتحدة ، على الحدود المصرية داخل سيناء ٠

٢ ـ اقامة منطقة منزوعة السلاح داخل الاراضي المصرية ٠

٣ ـ بقاء المستعمرات الاسرائيلية في مواقعها على الحدود ٠

٤ ـ بقاء ٣ مطارات داخل الاراضي المصرية ٠

٥ ـ تمتد فترة الانسحاب الاسرائيلي من ٣ ـ ٥ سنوات ٠

وبدا واضحا بعد هذا الخلاف في اللجنة العسكرية انها لن تستأنف اعمالها

الا بعد اجتماع اللجنة السياسية يوم ١/١٥ واتفاقها على خطوط محددة لسير المفاوضات ، ولكن هذه اللجنة تعرضت قبل انعقادها وفي اثنائه الى جملة من المصاعب والخضات انتهت بتجميد اعمالها ٠

قبل الانعقاد ، برز بين مصر واسرائيل خلاف على جدول اعمال اللجنة دفع مصر الى اعلان ارجاء سفر محمد ابراهيم كامل وزير الخارجية الى القدس، وتمت الدعوة على اثر ذلك الى عقد اجتماع لمجلس الامن القومي صدر عنه بيان يعلن : ان اتصالات جرت مع واشنطن حول جدول الاعمال ، وان الولايات المتحدة تقدمت بمشروع جديد تمنت فيه ان يعبر عن وجهات نظر الاطراف المختلفة ، ويمكن اعتباره ورقة عمل صالحة لاعمال اللجنة السياسية ، وسافر وزير الخارجية على اثر ذلك ، والقى لدى وصوله الى مطار بن غوريون خطابا ذكر فيه بخطاب السادات في الكنيست ، مؤكدا انه لا يمكن ان يكون هناك سلام مع احتلال الارض ، ولا يمكن ان يكون هناك سلام مع نكران الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ، وفي مقدمتها حق تقرير المصير ٠

ومن جهتها ، كانت اسرائيل لها اعتراضاتها على جدول الاعمال ، الى ان اعلن مناحم بيغن انه تم التوصل الى تسوية اقترحتها اسرائيل ولقيت قبولا لدى مصر بفضل واشنطن ٠ وشرحت مصادر اسرائيلية الخلاف حول جدول الاعمال : ١ ـ اعلان مبادىء حول التسوية السلمية ، ٢ ـ تحديد طبيعة السلام ٠اما الخلاف فيتناول البند الذي يتعلق بالقضية الفلسطينية ، وله صيغتان : صيغة مصرية تقول ببحث : خطوط عريضة توجيهية فلسطينية تتعلق بالضفة الغربية وقطاع غزة ، تقابلها صيغة اسرائيلية عامة وغامضة وتصر على استعمال تعبير « يهودا والسامرة » ٠ وقد تم الوصول الى صيغة وسط حذفت كلمة فلسطين وحافظت على تسمية الضفة الغربية ونصت على : خطوط عريضة توجيهية تتعلق بالضفة الغربية،وقطاع غزة ٠

ولم تكن الوساطة الاميركية تتعلق بألفاظ جدول الاعمال فقط ، بل كانت هناك وساطة اخرى مهيأة حول المضمون ايضا • ففي ١/١٤ اعلن مسؤولون اميركيون انه اذا فشل الطرفان المصري والاسرائيلي في الاتفاق حول القضية الفلسطينية ، سيحثهما على اقرار « حل مؤقت » • وذكرت مصادر اميركية في اليوم التالي ان الحل الوسط المؤقت الذي يحمله فانس يدعوه الى :

١ ـ حكومة للضفة الغربية وغزة تشارك فيها : اسرائيل ، ومصر ، الاردن، الامم المتحدة ، الفلسطينيون •

٢ ـ استفتاء يجري في وقت لاحق للاختيار بين استمرار هذه الادارة او الانضمام للاردن •

وهدف هذا الحل الاميركي المؤقت التوفيق بين الموقف المصري الذي يطالب بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني والموقف الاسرائيلي الذي يوافق على منح الحكم الذاتي الاداري لسكان الضفة والقطاع فقط •

وبعد حل هذا الخلاف حول جدول الاعمال عقدت اللجنة السياسية اول جلستين لها يوم ١/١٧ لمدة قصيرة ، ثم تلاها لقاء بين دايان وكامل وفانس ، تسلم فيه فانس جدول الاعمال التفصيلي كما يقترحه كل منهما • وبدأت تبرز بعد هذا الاجتماع الخلافات الاسرائيلية ـ المصرية ، حول الامور التي تتعلق بمصر هذه المرة • فيوم بدء اجتماعات اللجنة اعلن بيغن أمام وفد أميركي : ان اي رئيس وزراء اسرائيلي يعرض التنازل عن المستوطنات في شمالي شرق سيناء سيرغم على التخلي عن منصبه ••• لكني سأستقيل قبل ذلك • وبعد الاجتماع الاول للجنة قال دايان في مؤتمر صحافي : ان المواقف ما تزال متباعدة ، وان المستوطنات في شمالي سيناء والقواعد العسكرية ، هي مواقع مهمة لامن اسرائيل وملاحتها في البحر الاحمر ، ثم اعلن بيغن في حديث للتلفزيون الاميركي : اننا لا نستطيع ازالة المستوطنات ولن نزيلها بل يجب ان تبقى •••ونحن لا نغير افكارنا بصدد الاقتراحات الخاصة بسيناء •

وادى امتداد الخلافات على رقعة واسعة من القضية الفلسطينية الى السيادة المصرية ، الى دخول المحادثات في طريق مسدود دفع الرئيس السادات لان يقوم بخطوة مفاجئة دعى فيها الوفد المصري الى قطع المفاوضات والعودة الى القاهرة ، فيما بدا انه موقف متصلب ، ولكنه لم يلبث ان ظهر بمظهر اخر • اذ بعد ساعتين من هذا القرار فقط جرى اتصال هاتفي بين السادات والرئيس الاميركي كارتر ، اعلن بعده موافقته على استمرار اعمال اللجنة العسكرية ، واعلن الناطق المصري بلسان الوفد في القدس المحتلة : لا اعتقد ان المحادثات انتهت • لقد توقفت •

وقد ردت اسرائيل على الموقف المصري بموقف مماثل ، قد اعلن بيغن بدوره انه سيدرس اذا كان سيرسل وفده الى اجتماعات اللجنة العسكرية في القاهرة ام لا •

وبدأت على اثر ذلك حملات اعلامية بين المسؤولين المصريين والاسرائيليين . اعلن فيها بيغن انه اذا كان الهدف من قرار السادات استجلاب ضغوط اميركية على اسرائيل فيجب ان يعلم بان « ضغوط الولايات المتحدة لا تستطيع تغيير موقف اسرائيل » (١/١٩) • ورد على قول السادات بانه قدم لبيغن الاعتراف

دون مقابل بقوله : ان اسرائيل لم تطلب قط من احد الاعتراف بحقها في الوجود ، وكرر ان اسرائيل لن تترك ابدا مستوطناتها في سيناء ، فنحن لم نبن المستوطنات لنحرقها · ثم اعلن بيغن بعد هذه الحملة الاعلامية انه ارجأ ارسال وفده العسكري الى القاهرة ، واعلنت القاهرة انه تم الغاء اجتماع اللجنة العسكرية ·

وقد بدأ وزير الخارجية الاميركي فور هذه التطورات بذل جهود مكثفة لمنع انهيار المفاوضات ، فاجتمع بعد قرار السادات مباشرة الى بيغن الذي صرح بعد الاجتماع قائلا : مستعدون لاستئناف المفاوضات على ان يتم الامتناع عن الادلاء بالبيانات العلنية (١/١٩) · وفي اليوم التالي (١/٢٠) وصل فانس الى القاهرة محاولا اقناع السادات باستئناف المفاوضات ، ولكن السادات رفض الاقتراحات التي قدمت اليه ، مشترطا « تغييرا جذريا في الموقف الاسرائيلي » · وتم نتيجة لذلك تكليف اثرتون مساعد وزير الخارجية الاميركي البقاء في المنطقة والقيام بجولات مكوكية بين مصر واسرائيل بهدف الوصول الى اسس مقبولة من الطرفين لاستئناف المفاوضات ·

ولكن السادات كما يبدو ، بات مقتنعا بأن الوصول الى استئناف المفاوضات لا يتوقف على اسرائيل بل على الولايات المتحدة · وهو لذلك حاول في الخطاب الذي القاه يوم ١/٢١ امام مجلس الشعب ليشرح سبب اقدامه على سحب الوفد المصري ، ان يدفع علاقاته مع الولايات المتحدة نحو مستوى استراتيجي جديد لعل ذلك يشجع الولايات المتحدة على ان تضغط على اسرائيل لانجاح المفاوضات · فبعد ان دافع في الخطاب المذكور عن مبادرته اعلن اتفاقه مع فانس على عدد من الخطوات للتحرك مستقبلا ، وهاجم ليبيا وجبهة الصمود والاتحاد السوفياتي، ثم اعلن انه قدم طلبا رسميا لفانس للحصول على اسلحة اميركية موازية للاسلحة التي لدى اسرائيل ، معلنا ان هذا السلاح لن يكون لمحاربة اسرائيل ، بل لمواجهة مسؤوليات مصر في القارة الافريقية · وذكر في نهاية خطابه ان مصر لن تفرط في السيادة ، ولا في الارض ، ولا في حق تقرير مصير الشعب الفلسطيني ·

وسارت الامور بعد هذا الخطاب باتجاهين : اولا متابعة اثرتون لمهمات الوساطة بين مصر واسرائيل · ثانيا بدء استعداد السادات لزيارة واشنطن عبر جولة واسعة تشمل المغرب ودول السوق الاوروبية المشتركة ·

وقد عاد اثرتون الى اسرائيل بعد مباحثات فانس في القاهرة ليطلع المسؤولين الاسرائيليين على نتائجها (١/٢١) ، وبدأ الحديث بعد ايام فقط (١/٢٦) عن تفاؤل اميركي ـ اسرائيلي بامكان استئناف المحادثات بين مصر واسرائيل وخاصة المحادثات العسكرية · واعلن في ١/٢٧ انه تم الاتفاق على ان تستأنف اللجنة العسكرية اعمالها ، كما تم الاعلان عن زيارة منتظرة للسادات الى واشنطن خلال ايام · وصدر في ١/٢٩ قرار اسرائيلي بالعودة الى محادثات اللجنة العسكرية ، وفي ١/٣١ وصل عازار وايزمان وزير الدفاع الاسرائيلي الى القاهرة وعقدت اللجنة العسكرية اجتماعا واحدا اعلن بعده تأجيل المباحثات الى اجل غير مسمى ، فيما قالت الاذاعة الاسرائيلية ان اللجنة لم تحرز اي تقدم ·

رحلة السادات :

تميزت رحلة السادات الى واشنطن

بمواصفات عدة :

١ ـ شمولها لكل حلفاء السادات : المغرب الذي ايد زيارته لاسرائيل بقوة · ثم واشنطن الامل بالسلاح وبالضغط على اسرائيل · ثم دول السوق الاوروبية المشتركية مصدر التمويل والاستثمار الرديف للمصدر الاميركي · واخيرا رومانيا التي كان لها دور بارز في ترتيب زيارة السادات للقدس المحتلة ·

٢ ـ اراد السادات من زيارته لواشنطن ان تكون مجال اتصال واسع مع الجالية اليهودية ومع كل اوساط الرأي العام الاميركي لتسهل مهمة اقناع كارتر والكونغرس الاميركي بتلبية طلباته ·

٣ ـ رفض كارتر لقبول خطة العمل والتحرك التي جاء على اساسها السادات، والضغط عليه باساليب عدة ، وصلت احيانا الى حد الخروج عن اللياقات الدبلوماسية لمنعه من تنفيذ ما يريد · وكان من أساليب الضغط هذه اعلان كارتر قبل مجيء السادات انه سيقنعه باعتماد الدبلوماسية الهادئة وبالغاء مؤتمره الصحافي ، ثم قوله على لسان مصادر مسؤولة انه لن يرضخ لاي مطلب مصري بالضغط على اسرائيل ، وان على المصريين ان يفهموا مبادرة بيغن بطرح اقتراح الحكم الذاتي للفلسطينيين وما فيها من ايجابيات (٢/٤) · ثم قرر كارتر موقفه هذا بعد انتهاء المحادثات في ٢/١١ ·

٤ ـ انتهاء المحادثات بدون الوصول الى نتائج محددة ، باستثناء الاتفاق على ضرورة استمرار المباحثات بين مصر واسرائيل ، والوعد بدرس موضوع المساعدات العسكرية ·

٥ ـ بروز جدول واسع بين واشنطن وتل ابيب حول موضوع المستوطنات الاسرائيلية · ففي ٢/١ ، وبعد ان اعلن دايان انه سيزور واشنطن ويصلها بعد مغادرة السادات لها بيوم واحد قال : ان اسرائيل ستواصل اقامة المستعمرات العسكرية المتقدمة ، في الاراضي العربية المحتلة ···· وستتحول مع الزمن الى مستعمرات مدنية · ونفى دايان ان تكون اسرائيل قد اعطت كارتر وعدا بانهاء سياستها الاستيطانية · ويوم وصول السادات الى واشنطن (٢/٣) اعلن بيغن انه : لم يحدث قط ان وعد مسؤول حكومي الولايات المتحدة بعدم انشاء مستوطنات جديدة · وفي اليوم نفسه رد البيت الابيض على أقوال بيغن مؤكدا انه ودايان اعطيا تعهدات بعدم اقامة مستوطنات جديدة · واعلن البيت الابيض في بيان رسمي عند نهاية مباحثات السادات (٢/٨) : ان اي مزيد من النشاطات الاستيطانية لن يكون منسجما مع الجهود الرامية الى التوصل لتسوية ·

وانتقل هذا الجدل في مرحلة لاحقة الى اعلان الخلاف بين الطرفين حول هذا الموضوع ، فقال دايان (٢/١٠) : اننا لا نتفق مع الرئيس كارتر حول السياسة الخاصة بالمستوطنات ، واوضح فانس موقف بلاده قائلا (٢/١٢) : ان المستوطنات في سيناء غير مشروعة وتشكل عقبة في طريق السلام · ورد دايان بالقول ان فانس منحاز ···· وسيؤدي ذلك الى تعقيد مهمته كوسيط ، ثم تلا ذلك بيان رسمي للحكومة الاسرائيلية تلاه بيغن واعلن فيه رفضه لتصريحات فانس حول المستوطنات ،وقال ان هذا الموقف يتناقض مع ملاحظات كارتر حين عرضت عليه خطة التسوية الشاملة، والتي تقترح ان تكون المستوطنات : ١ ـ ضمن منطقة الامم المتحدة · ٢ ـ ان تتواجد فيها قوات اسرائيلية لحمايتها ·

دور الاردن

ومع استمرار هذا الجدل واتساعه ،

سيعود اثرتون الى المنطقة لترتيب عودة المفاوضات ، وسيركز جهوده في هذه المرحلة على انجاز « بيان المبادىء » ، ليسهل عملية انضمام الاردن للمباحثات ، حيث يحظى هذا الموضوع باهتمام خاص في واشنطن ، خاصة وان الاردن يمضي ببطء وبالتدريج نحو الالتحاق بنهج السادات حين يجد ان الظروف اصبحت مناسبة له · فيوم بدء محادثات اللجنة السياسية في القدس المحتلة اتصل الملك حسين بالسادات وابلغه تأييده التام للخطوات التي يقوم بها · وفي ١/٢١ اي يوم القاء السادات لخطابه الذي شرح فيه اسباب سحب وفده من اللجنة السياسية صدر بيان رسمي للحكومة الاردنية يعلن تأييده الكامل لموقف مصر · وفي اليوم التالي (١/٢٢) اعلن الملك حسين استعداده للانضمام الى المحادثات المصرية ـ الاسرائيلية اذا تم الاتفاق على بعض المبادىء (مطالب السادات) · وبعد انتهاء مباحثات السادات في واشنطن (٢/١١) اعلن كارتر انه : يأمل ان ينضم الاردن سريعا الى المحادثات بين مصر واسرائيل ، ووعد بمتابعة التحضير للتوصل الى اعلان مبادىء ، واعرب عن أمله بان يكون « اعلان المبادىء » المنتظر ملائما للملك حسين ·

٣ ـ النشاط الفلسطيني

تابعت منظمة التحرير الفلسطينية التطورات على كافة الاصعدة المتعلقة بها وحددت تجاهها مواقف واضحة كان ابرز ما فيها تصدر ياسر عرفات للنشاط السياسي ·

فعلى صعيد تحديد المواقف حدد عرفات (١/١٤) في كلمة القاها في افتتاح احدى دورات التدريب موقف المقاومة من المباحثات المصرية ـ الاسرائيلية ومن قمة التصدي والصمود بقوله : ليفهم المجتمعون في اسوان (كارتر والسادات) والقدس (اللجنة السياسية) انه بدون الشعب الفلسطيني لن يكون هناك سلام او استقرار · وعن قمة طرابلس قال عرفات : ان الذين اجتمعوا في طرابلس ليسوا ستة اطراف، وانما هم تيار هادر في امتنا العربية · وعلق على مشروع بيغن للحكم الذاتي بقوله : في هذه الاونة اسمع اصواتا تتحدث عن الحكم الذاتي او الادارة المدنية او المحلية · ما هو الرد ؟ الرد مزيد من التصدي ·

وعند ايقاف اعمال اللجنة السياسية القى عرفات كلمة في المؤتمر السنوي للهلال الاحمر الفلسطيني (١/١٩) قال فيها : ان الحقوق الفلسطينية لا يمكن التوصل اليها عبر المفاوضات بل بواسطة الاستمرار في قتال اسرائيل ، واضاف : ان الحكام العرب الذين يعتقدون ان بامكانهم استرجاع الاراضي المحتلة بواسطة المفاوضات هم حالمون ·

وتحدث عرفات (١/٢٠) في لقاء مع كوادر وضباط جيش التحرير الفلسطيني والكفاح المسلح عن الحديث الذي دار بشكل واسع في لبنان عن موضوع توطين الفلسطينيين فقال : انهم يتكلمون عن التوطين ونحن لا نريد التوطين ، فقد عرض علينا توطين كثير ورفضناه ···· ولو كنا نقبل التوطين لقبلناه من زمان ·

وقام عرفات الى جانب ذلك بنشاط دبلوماسي (١/١٤) اذ وجه رسائل الى ملوك ورؤساء الدول الاسلامية والافريقية والعربية دعاهم فيها الى تأكيد التزامهم بان السلام في الشرق الاوسط لا يتحقق الا بتمكين الشعب الفلسطيني من بناء دولته الفلسطينية المستقلة · ولفت النظر في هذا المجال انه بعث برسالتين للملك حسين وتلقى جوابين منه عليهما ، كما تلقى اكثر من رسالة من القادة

السوفيات ٠

أما على صعيد الاتصالات الفلسطينية ـ العربية فقد جرى تنشيط اعمال اللجنة السورية ـ الفلسطينية التي اجتمعت يوم ١/١٤ واصدرت بيانا حول زيارة السادات ، وقررت خطوات تحرك عملية للرد ، ثم عقدت اللجنة اجتماعا ثانيا لها يوم ١/١٥ ٠ وجرى من جهة اخرى لقاء فلسطيني ـ سعودي بدأ التمهيد له برسالة وجهها الامير فهد ولي عهد السعودية الى عرفات (١/١٥) ابلغه فيها ان السعودية ملتزمة بكل ما سبق ان اعلنته بخصوص القضية الفلسطينية ٠ ثم توجه عرفات لزيارة السعودية يوم ١/٢١ يرافقه خالد الحسن بناء على دعوة رسمية ، وجرى له استقبال رسمي لفت انظار المراقبين ، وذكرت « وفا » ان الامير فهد اعاد لعرفات تأكيد موقف السعودية المؤيد والداعم لمنظمة التحرير ٠

وعلى صعيد مؤسسات منظمة التحرير، اصدرت اللجنة التنفيذية (١/٢٦) بيانا يعلن رفض مشروع السادات للضفة الغربية ، وهو المشروع الذي كشف السادات انه اتفق فيه مع الملك حسين على ان تتسلم الامم المتحدة ادارة الضفة الغربية وقطاع غزة لمدة ٥ سنوات ، وذكر البيان ان منظمة التحرير ترفض كل المشاريع التصفوية ، واكد ان قضية الشعب الفلسطيني ليست الضفة والقطاع، وانما هي مشكلة الشعب الفلسطيني في كل اماكن تواجده ٠ ثم عقد المجلس المركزي اجتماعا له بدمشق بعد انتهاء قمة الجزائر اعاد فيه تأكيد موقفه من زيارة السادات ، ثم التقى عرفات ووفد فلسطيني مع الرئيس حافظ الاسد ، حيث جرى تداول موسع بالوضع العربي وبالوضع في لبنان ٠

وشارك رؤساء البلديات في الضفة الغربية بالنشاط السياسي الفلسطيني ٠ (١/١٦) فأعدوا مذكرة لتسليمها لوزير الخارجية المصري جاء فيها : ان لمصر الحق في ان تبرم باسمها الاتفاقات التي تريد مع اسرائيل ولكن ليس لها الحق ان تتحدث باسم الفلسطينيين ، لان الشعب الفلسطيني له ممثله القومي ، ومنظمة التحرير هي الجهة الوحيدة المصرح لها التحدث باسم الشعب الفلسطيني ٠ ووجه رؤساء البلديات بيانا الى الرأي العام العالمي يؤكد نفس المعنى ٠

٤ ـ الوضع الفلسطيني في لبنان

برزت مع بداية العام فكرة انجاز الوفاق السياسي الوطني داخل لبنان بقوة ، فيما كان الحديث سابقا عن الوفاق مشروطا اولا بتطبيق الاتفاقات مع الفلسطينيين ، وخاصة اتفاق شتورا ٠ وبعد تعذر تطبيق المرحلة الثالثة من هذا الاتفاق المتعلقة بالجنوب ، بسبب معارضة الجبهة اللبنانية لفكرة الحل المتوازن ، واستمرار عرقلتها لهذا الحل عدة اشهر ، عاد الحديث عن الوفاق تحت شعار : الوفاق بالرغم من الجنوب ، بدلا من شعار الوفاق بعد حل مشكلة الجنوب ٠ وشاع على اثر ذلك جو سياسي يشير الى ان الرئيس الياس سركيس سوف يتولى طرح صيغة الوفاق ، بناء على مناقشاته المستفيضة مع كافة الاطراف اللبنانية المعنية ٠

وقد ارتبط حديث الوفاق هذه المرة بشكل ملفت للنظر ، بقضية توطين الفلسطينيين في لبنان ، وهي قضية طرحت في هذه الاجواء لاول مرة اثناء زيارة فانس الاخيرة للبنان ، وكجزء من حل ازمة الشرق الاوسط لمعالجة وضع الفلسطينيين في الاقطار العربية ٠ وقد قام الرئيس الياس سركيس في الخطاب الذي القاه في حفل استقبال الدبلوماسيين في القصر الجمهوري باعلان رفض لبنان لهذه الفكرة ، وتسجيل معرفته برفض

الفلسطينيين لها . وما ان اعلن سركيس موقفه هذا حتى انطلقت كافة القوى السياسية اللبنانية ، وبمختلف اتجاهاتها السياسية، تعلن تأييدها لموقف سركيس من التوطين ، وتعتبر الاجماع اللبناني على هذه القضية بابا مفتوحا باتجاه الوفاق السياسي . ولكن هذا الحماس والاجماع لم يكن بريئا ولا موحد النوايا، بل ان دلائل برزت فيما بعد تشير الى ان هذا الحماس قد استعمل لتغطية رفض الوفاق والسعي لتفشيله .

فالجبهة اللبنانية ربطت الوفاق برفض فكرة التوطين ، ولكنها اعتبرت ان ترجمة رفض التوطين انما هي بالتخلص من الفلسطينيين وتوزيعهم على البلاد العربية، ومن نماذج ذلك قول دوري شمعون (١/١٨) : ان التلكؤ حيال هذا الوجود (الفلسطيني) حتى انتظار حل قضية الشرق الاوسط قد يطول كثيرا . وليس باستطاعة لبنان ان يستمر في تحمل هذا العبء الكبير .

وحين عقدت « الجبهة اللبنانية » خلوتها الثالثة في زغرتا ، انتظر الجميع ان يصدر عنها بيان يساعد على فتح الطريق نحو الوفاق اللبناني ، ولكنها اصدرت بيانا يركز على نقطتين : اولا التعددية كأساس للوفاق ، ثانيا اعتبار ان « الوجود الفلسطيني على ارض لبنان عائق في طريق الوفاق ينبغي تذليله » . (١/٢٢) . واعلن كميل شمعون على الفور « نريد ان نتخلص من موضوع الفلسطينيين لاجئين او غير لاجئين » ، ثم كرر اقواله مؤكدا ومهددا (١/٢٣) : اذا لم يتم اجماع بين اللبنانيين على موضوع الفلسطينيين فهذه نهاية كل شيء ، وكان دوري شمعون اكثر وضوحا حين قال (١/٢٤) : الفريق الاخر (الاسلامي) يرفض توطين الفلسطينيين، ولكنهم يشترطون بقاءهم حتى استرجاع أرضهم .... انني اقترح تسفير الفلسطينيين على مراحل الى فلسطين او الى اي بلد عربي اخر . مدة وجودهم في لبنان بعد تحديدها لا يجب ان تتجاوز السنتين ، وبعد هذه الفترة لن يبقى فلسطيني على أرض لبنان .

وطور بشير الجميل هذه المواقف على تطرفها الى تطرف جديد حين اعلن في خطاب القاه في اختتام اسبوع الدامور (١/٢٩) انه : واجب محتم علينا تحرير لبنان انطلاقا من رفض فكرة توطين الفلسطينيين او اي غريب على أرض لبنان . واستمر التصعيد على لسان بيار الجميل (٢/٤) حين قال : ان الاستعدادات القائمة في المنطقة الجنوبية تعني ان الفلسطينيين يسعون الى تأمين مقومات تحقق لهم شبه دولة في الجنوب مجهزة بكل انواع الاسلحة . وواصل بيار الجميل حملته مشبها الوجود الفلسطيني في لبنان بالخطر الاسرائيلي (٢/٥) حين قال : اليس مؤلما ان نصبح في حالة خوف من احتلال وعدوان فلسطيني يوازي القلق والخوف من احتلال اسرائيلي ؟ .

وأمام سيل هذه المواقف المتشنجة ، كان الشك قائما حول مدى جدية « الجبهة اللبنانية » في السعي نحو الوفاق ، وكان الرأي الغالب ان طرح قضية الوجود الفلسطيني بهذه الصورة انما هدفها عرقلة قضية الوفاق ، او محاولة رسم وفاق على حجم ومقاس « الجبهة اللبنانية » .

ولكن الامر الملفت للنظر اكثر ، ان مجموعة من القوى السياسية اللبنانية التقليدية شاركت « الجبهة اللبنانية » في الحملة على الفلسطينيين ، واختارت لذلك مدخل الامن والتجاوزات .

فالحزب الديمقراطي الاشتراكي الذي يرأسه كامل الاسعد ، اعلن بعد اجتماع لقيادته (١/١٦) انه بحث موضوعين : موضوع التوطين في الجنوب ، وموضوع تجاوزات لم تعد مقبولة حتى بين المواطنين اللبنانيين انفسهم ، نتيجة لغياب السلطة والقانون غيابا كاملا ·

وفي ١/١٨ عقدت ثمانون شخصية شيعية اجتماعا لها بدعوة من عادل عسيران ، واصدرت بيانا قالت : اننا لا نقبل التوطين ولا نقبل ابدال الجنوب بالضفة الغربية · وجاء في قرارات الاجتماع : الطلب من فخامة الرئيس متابعة مساعيه الجليلة للذود عن كل شبر من ارض الوطن وصيانته من الاعتداء من اي جهة كانت ··· وتثبيت الامن في المناطق الجنوبية حفاظا على حياة واملاك المواطنين ودفاعا عن كرامتهم ·

وتلا ذلك اجتماع للمجلس الاسلامي (١/٢٠) صدر عنه بيان يعلن ان المجلس يبدي ارتياحه لمواقف جميع الفرقاء اللبنانيين والفلسطينيين برفض التوطين ، ولكنه أضاف الى ذلك تأييده لموقف الشخصيات الاسلامية الجنوبية (اجتماع عسيران) وان هذا يشكل مدخلا للوفاق·

ولكن هذه المواقف المنساقة مع مواقف « الجبهة اللبنانية » في منهج طريق قضية التوطين والتجاوزات وربط الموقف منها بالموقف من الوفاق ، لم تستطع الصمود والاستمرار على نفس المنوال بعد صدور بيان خلوة زغرتا الذي اشترط التعددية كأساس للوفاق اللبناني ، اذ اضطرت كثير من الاوساط الاسلامية التقليدية ، وفي مقدمتها صائب سلام مثلا ، ان تعلن رفضها لبيان زغرتا وتعتبره عقبة في طريق الوفاق ·

وهناك برزت الاصوات الوطنية لتضع الامور في نصابها · ففي ١/٢٣ اعلن وليد جنبلاط رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي : ان الوجود الفلسطيني في لبنان ليس بعائق اذا كانت هناك نيات حقيقية للوصول الى حوار او اتفاق ··· ولا داع لجعل هذا الوجود في كل مناسبة قميص عثمان · واعلن «المرابطون» ان : مقررات خلوة زغرتا كشفت زيف دعوة « الجبهة اللبنانية » للوفاق واستمرارها في تنفيذ المؤامرة · (١/٢٦)· واعلنت منظمة المسيحيين الديمقراطيين (١/٢٣) : ان الوجود الفلسطيني في لبنان لا يمكن حله الا بحل القضية الفلسطينية بالتعاون مع الدول العربية سياسيا وعسكريا لاستعادة الحقوق المشروعة والارض المغتصبة · وقال شفيق الوزان (١/٢٣) : ان الوجود الفلسطيني على ارض لبنان لا يجوز ان يكون عائقا في وجه الاتفاق ·

حادث صيدا :

وقعت يوم ١/٢٨ اشتباكات بين عناصر بعض فصائل المقاومة داخل احياء صيدا القديمة خلقت حالة من التوتر ، اقفلت على اثرها المدينة في ظل دعوة للاضراب دعت اليها غرفة التجارة في المدينة ·

وقد بادرت الحركة الوطنية وفصائل المقاومة في المدينة للاجتماع ، واعلنت في بيان رسمي انها اتخذت اجراءات أمنية رادعة منعت بموجبها تواجد المسلحين في المدينة ، ودعا البيان السلطات اللبنانية الى تحمل مسؤولياتها الامنية · وذكر البيان انه : "منذ فترة وجماهيرنا في صيدا تعاني من الاخطاء والممارسات الخاطئة التي تقوم بها ، عن قصد او عن غير قصد ، عناصر غير مسؤولة ····· ما نتج عنه مجموعة من الظواهر الاجتماعية والمسلكية الخطيرة ·

وعلى اثر هذا الحادث دعا جنبلاط (١/٣٠) المقاومة الفلسطينية : لضرب كل من يحاول ان يسيء الى سمعتها ... وحذر من اي مضاعفات قد تحدث وتجر الى انتكاسات جديدة . وفي اليوم التالي (١/٣١) عقد اجتماع موسع ضم لجنة طوارىء الحركة الوطنية ، واعضاء المجلس السياسي الاقليمي لمنطقة صيدا ، وقيادة المقاومة « للبحث في معالجة ذيول الحادث واتخاذ الاجراءات المناسبة » .

بلال الحسن

المناطق المحتلة

عقب زيارة السادات لاسرائيل، والحديث عن مؤتمر القاهرة ، وجه حزب مصر العربي الاشتراكي الحاكم دعوة الى عدد من « وجهاء » المناطق المحتلة لزيارة القاهرة ، بالتنسيق مع سلطات الاحتلال . وقصد من وراء ذلك امورا ثلاثة (١) الضغط على م.ت.ف. من خلال التلويح بـ « البديل » (٢) محاولة تنمية زعامة في الضفة الغربية وقطاع غزة لتقف في وجه م.ت.ف. في حال استمرارها مناصبة العداء لسياسة النظام المصري (٣) كسب ود وعطف سلطات الاحتلال .

وقد استقبلت سلطات الاحتلال الدعوة بالذهاب باعتبارها طعنة يوجهها الرئيس المصري لمنظمة التحرير ، وانعكس ذلك في المقالات الافتتاحية لعدد من الصحف الاسرائيلية التي دعت « الوجهاء » للخروج من اطار « الخوف » من م.ت.ف. والذهاب الى القاهرة «للتعبير عن رأيهم جهارا» .

ومن الطبيعي ان لا تجد دعوة حزب مصر العربي الاشتراكي اذنا صاغية الا من قبل فئة هزيلة تحالفت مع كل ما هو معاد للنضال الوطني للشعب الفلسطيني ، ومرتبطة ، حاليا بسلطات الاحتلال .

ومن الجدير بالذكر ان الوفود التي وصلت الى القاهرة ، وتلك التي لم يكتب لها الوصول قد عانت كثيرا ، بسبب المماطلة المصرية في تحديد موعد سفرها وتأخير استقبالها عند قناة السويس ، حيث بقي البعض منها ينتظر بضعة ايام في صحراء سيناء ، وبسبب استياء الشعب ضدها ، فضلا عن تهديدات العناصر الوطنية في الضفة الغربية لها ، واشفاع التهديد بالفعل . وربما تعود اسباب المماطلة المصرية الى هزالة رؤساء واعضاء الوفود .

كان اول الوفود التي توجهت الىالقاهرة وفد من قطاع غزة . يضم حوالي مئة شخص ، سافر الى القاهرة في الثاني من كانون الاول ، برئاسة الشيخ هاشم الخزندار امام غزة المعروف بعمالته لسلطات الاحتلال . ومن ابرز عناصر الوفد رئيس بلدية دير البلح محمد سليمان العزايزة الذي يبز اقرانه من اصحاب الولاء المزدوج لجهة الولاء لسلطات الاحتلال . ومن الطريف ان « العزايزة » القى كلمة في مجلس الشعب المصري هدد فيها م.ت.ف. ووجه انذارا لها بأن تعرب عن استعدادها لحضور مؤتمر القاهرة

« خلال يومين » ، والا فانه يعتبر نفسه مخولا للتحدث باسم الفلسطينيين ! ومن الجدير بالذكر ان عددا من اعضاء الوفد، تلقوا خلال مكوثهم في القاهرة تهديدات من خلال مكالمات هاتفية اجراها معهم « مجهولون »·

وفي الثاني والعشرين من كانون الاول الماضي اجتازت وفود اخرى من الضفة الغربية وسيناء قناة السويس ، بعد ان تم جمع افرادها في سيناء وابقائهم هناك لفترة بحجة عدم توفر فنادق خالية في القاهرة ، الامر الذي دفع البعض من افرادها الى العودة · وقد ضمت هذه الوفود ٣٨٠ شخصا يتوزعون على ثلاثة وفود ، وفد منطقة الخليل برئاسة برهان الجعبري ، ابن الشيخ محمد الجعبري سيء الصيت ، ووفد منطقة رام الله برئاسة العميل المحامي حسين الشيوخي ، ووفد منطقة العريش برئاسة احمد طنجير رئيس بلدية العريش ·

اما وفد نابلس برئاسة عضو البرلمان الاردني سابقا عبد الرؤوف الفارس ، فلم يواجه متاعب المكوث في سيناء لفترة بحجة عدم توفر اماكن للاستضافة ، بل واجه متاعب اشد من جانب العناصر الوطنية في المدينة التي حذرت اعضاء الوفد من مغبة الذهاب الى القاهرة بواسطة الاتصالات الهاتفية · ونجم عن التحذيرات انسحاب البعض من الوفد ، والحقت العناصر الوطنية التحذير بحرق بعض متاجر وسيارات تخص اشخاصا من اعضاء الوفد ، الامر الذي دفع عبد الرؤوف الفارس الى الاعلان عن « تأجيل » السفر الى القاهرة ؟ وفي غضون ذلك اعلن عن خطة بيجن التي واجهت استياء عاما في الضفة ، ولم يجد عبد الرؤوف الفارس وسط السخط الشعبي واستمرار العناصر الوطنية في ضغطها على اعضاء الوفد الا الغاء الزيارة تماما ·

وبذلك اقتصرت الاستجابة للدعوة التي وجهها النظام المصري الى شخصيات في الضفة الغربية على الرموز التي لا يستسيغ الجلوس معها احد في مصر حتى السادات، وتتمثل في برهان الجعبري ، حسين الشيوخي وهاشم الخزندار · ولم يستجب للدعوة اي رئيس بلدية باستثناء رئيس بلدية دير البلح المعروف بولائه لسلطات الاحتلال ، كما ان بعض الشخصيات المعروفة بتعاطفها مع النظام الاردني لم تتحمس للزيارة · وسنقف هنا على رأي رئيس بلدية غزة رشاد الشوا المعروف بولائه للنظام الاردني ، وتغليفه لهذا الولاء بالاعلان عن « تأييده » لمنظمة التحرير ، ورأي انور نسيبة من القدس المعروف بولائه للنظام الاردني ·

يقول الشوا في مقابلة مع صحيفة « عل همشمار » (٧-١٢-٧٧) : « اما هل سأسافر ؟ انني لا اعتقد ذلك · لا اريد ان اكون شريكا في الانقسام بين الفلسطينيين الذين يعيشون هنا وبين اولئك الذين يعيشون في البلدان العربية ، اعتقادا مني بأن المزيد من الخلافات في وجهات النظر لا يؤدي الى تقريب السلام بل الى ابعاده ··· »

وحول السؤال الذي وجه اليه « هل تعتقد ان م·ت·ف· هي الممثل الوحيد للفلسطينيين » اجاب رشاد الشوا الذي يحرص دائما عندما يوجه حديثه الى الرأي العام في المناطق المحتلة او العالم العربي على الاشادة بمنظمة التحرير، اجاب : «لقد رفضت حكومة اسرائيل بعناد قبول طلبات وتلميحات من جانب السكان منذ ١٩٦٧ بخصوص اقامة منظمة سياسية ، منظمة تنطق باسمنا وتمثلنا · انت كيهودي تعرف ان كل شعب بحاجة الى تنظيم يمثله · وقد

خلق فراغ بسبب رفض اسرائيل ، وهذا الفراغ شغلته م٠ت٠ف٠ التي تعتبر المتحدث باسم جميع الفلسطينيين ٠ ولم يبقوا امامنا اي خيار اخر ٠ ولم يبق امامنا الا الاعتراف بـ م٠ت٠ف٠ كممثل ينطق باسمنا ٠ وطالما لا يوجد شيء اخر ، فاننا نعترف بـ م٠ت٠ف كممثل ينطق باسمنا »٠

اما انور نسيبة فقد استبعد احتمال تمثيل الفلسطينيين بواسطة تنظيم من وسط سكان المناطق المحتلة ، وردا على سؤال وجهه اليه بهذا الخصوص مراسل صحيفة دافار (٢٠ـ١٢ـ٧٧) في اطار الحديث عن زيارة وفود من الضفة للقاهرة ، قال «لماذا لا يدرك الاسرائيليون انه من الصعب على سكان المناطق القيام بهذه المهمة ؟ خلال الحرب العالمية عندما كانت فرنسا محتلة من قبل الالمان اجرى المارشال بيتان مباحثات مع هتلر ، كيف نظر اليه ابناء شعبه اذا لم ينظروا اليه كخائن ؟ هكذا يرون بلورة تنظيم في المناطق لاجراء اتصالات مع سلطات الاحتلال ، ومن الافضل للاسرائيليين ادراك ذلك » ٠

موقف العناصر الوطنية

من خلال هذه الرؤيا ، وبغض النظر عن مواقف نسيبة المغايرة لها في كثير من الاحيان ، تحركت العناصر الوطنية في الضفة الغربية وتصدت لمحاولة السادات وسلطات الاحتلال ، الالتفاف حول م٠ت٠ف بهدف سلبها تمثيل الشعب الفلسطيني ٠ واتخذ التحرك قوالب عدة ، تمثلت في تظاهرات طلابية ، وتصريحات لرؤساء بلديات وعقد اجتماعات للعناصر الوطنية، والتوقيع على عرائض ، تشجب محاولة الالتفاف هذه ٠

فعلى صعيد التظاهرات ، جرت تظاهرات في رام الله واخرى في نابلس ردد المتظاهرون فيها شعارات تدين سياسة السادات والاحتلال الاسرائيلي ، وتؤيد م٠ت٠ف ، والقى كريم خلف رئيس بلدية رام الله كلمة امام المتظاهرين في رام الله اشاد فيها بمنظمة التحرير ، وذكر ان الوفود التي تعتزم مغادرة المناطق المحتلة الى القاهرة « لا تمثل احدا » ؟

وفي غضون ذلك اشارت المصادر الاسرائيلية الى تصريحات عدد من رؤساء البلديات ، تدين محاولة الالتفاف حول تمثيل م٠ت٠ف للشعب الفلسطيني ، ومن بين هؤلاء الرؤساء ، حلمي حنون رئيس بلدية طولكرم الذي « يعتقد ان الاكثرية الصامتة في الضفة والقطاع تؤيد م٠ت٠ف، وليس بوسع الملك حسين او شخصيات فلسطينية من الضفة والقطاع تمثيل الشعب الفلسطيني » وكذلك رئيس بلدية قلقيلية الحاج امين الناصر الذي يرى انه « ليس بوسع السادات الغاء مقررات مؤتمر الرباط ، وان م٠ت٠ف بقيت وفق هذه المقررات الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني »

الى جانب ذلك عقدت العناصر الوطنية المؤيدة لمنظمة التحرير الفلسطينية في الجزء الثاني من كانون الاول مؤتمرا في القدس حضره قرابة ٤٠ من الشخصيات الوطنية٠ ومن الجدير بالذكر ان جهاز الحكم العسكري حظر على رؤساء البلديات حضور المؤتمر ، الا ان البعض منهم جاء الى المؤتمر رغما عن الحظر ، وتمخض عن الاجتماع عريضة وقع عليها الحاضرون ، كما وقع عليها عدد كبير من الشخصيات والهيئات الوطنية ٠ ومن بين هؤلاء رؤساء واعضاء بلديات رام الله ، نابلس ، البيرة، الخليل ، طولكرم ، قلقيلية ، جنين ، اريحا، بيتونيا ، بير زيت ، سلواد ، محرابه ، حلحول ، دورا ، ونائب رئيس بلدية بيت لحم ، ونائب رئيس بلدية بيت حالا ، بلدية سلفيت ، بلدية غبثا ، وعدد كبير من

المؤسسات الشعبية والنقابات المهنية ٠

وتضمنت العريضة مقدمة ، ادانت زيارة السادات ، واشادت بمنظمة التحرير ، وخمس مبادىء هي :

« ١ ـ اننا في الوقت الذي نعلن فيه موقفنا هذا من زيارة السادات نؤكد ايماننا بدور مصر وتضحياتها من اجل القضية الفلسطينية وقضايا النضال العربي ، ونؤكد على عمق التحالف بين شعبنا والشعب المصري ، ايماننا الذي لا يتزعزع بالدور المركزي الذي تحتله مصر في معركة التحرير العربي ، ونحيي نضال شعبها وتضحياته الكبيرة ٠

٢ ـ ان شراسة المعركة في ظل الهجمة الامبريالية الحالية على مكتسبات شعبنا والشعوب العربية تستدعي اقامة جبهة عريضة تضم جميع الدول العربية الرافضة لكل اشكال الهجمة الامبريالية على المنطقة، وتضم كذلك المنظمات الشعبية العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية ، وتجيير الطاقات الاقتصادية والسياسية والعسكرية للوقوف امام هذه الهجمة ، ووضع حد للتآمر على جميع المكتسبات الوطنية ٠

٣ ـ ان شعبنا الفلسطيني في الاراضي المحتلة يؤكد بوضوح تام ايمانه بوحدة الشعب الفلسطيني في الداخل والخارج، ويؤكد على وحدة تمثيل الفلسطينيين ممثلا بمنظمة التحرير الفلسطينية ، وهي الجهة الوحيدة المخولة بالتكلم باسم هذا الشعب . ونشجب اي محاولة لاقامة قيادة بديلة او موالية ٠

٤ ـ ان حقوق شعبنا الفلسطيني والتي اكدتها قرارات الامم المتحدة المختلفة هي حقوق غير قابلة للمساومة ، وفي مقدمة هذه الحقوق حق كل شعب في تقرير مصيره على ارضه بحرية تامة، وعليه فنحن نرفض اي صورة من صور الوصاية مهما كان مصدرها واي شكل من اشكال الحلول التي تنتقص من استقلالية هذا الشعب واستقلالية ارادته ، ونرفض بالتالي اي ربط قسري للدولة الفلسطينية مع اي جهة اخرى ما دام هذا الاتجاه يتعارض مع حرية شعبنا في تقرير مصيره ٠

٥ ـ اننا من الاراضي المحتلة نحيي نضال جميع شعوبنا العربية ، ونحيي كذلك جميع القوى التي قدمت التأييد لنضالنا العادل ، ونحيي قبل هذا وذاك نضال شعبنا في الخارج بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية وندعو الى الوقوف بحزم ضد كل محاولات زعزعة التضامن العربي القائم على ارادة الامة العربية في التخلص من الهجمة الامبريالية » ٠

تصفية دفعة من العملاء

الى جانب ذلك اقدمت العناصر الوطنية في الضفة الغربية على تصفية دفعة من العملاء ، كانوا قد انخرطوا منذ مدة طويلة فيخدمة سلطات الاحتلال والمخابرات الاسرائيلية ٠ وتقتصر هذه الدفعة على منطقة رام الله ، ويتشكل افرادها من سليم جميل الاسمر من سكان مدينة البيرة ، وقد لقي مصرعه في اوائل شهر كانون الاول الماضي ٠ وحمدي القاضي من رام الله ، مدير سابق لمدرسة ثانوية ، ويعمل في جهاز الحكم العسكري في المدينة ٠ وقبل عامين اقدمت العناصر الوطنية على حرق سيارته لدفعه للتراجع عن خدمة جهاز الحكم العسكري الا انه لم يرتدع، وعوضته سلطات الاحتلال بسيارة جديدة ٠ وعرفته صحيفة الاتحاد الناطقة باسم راكاح بعد مصرعه بأنه « من رجالات العهد الاردني، ورثته ادارة الاحتلال والحكم العسكري فأصبح من ابرز المتعاونين معها ٠٠٠ ومعروف بميوله الواضحة المؤيدة لمشروع

بيجن والمعارضة لمنظمة التحرير الفلسطينية ... » وجرت عملية تصفيته على يد العناصر الوطنية في ٢٦ـ١٢ـ٧٧ .

اما ثالثة الاثافي فتتمثل في شخصية جمعت بين العمالة المتناهية والاجرام الحاقد ، وصاحب هذه الشخصية هو عبد النور خليل جنحو (وقد سبق ومر معنا في شهريات شؤون فلسطينية اكثر من مرة ، انظر عدد ٧٣) من رام الله ، الذي ارتبط اسمه باعمال سمسرة الاراضي ، وبصفقات بيع للاراضي وخاصة في قرية النبي صموئيل الى افراد يهود والى شركة هيمنوتا الاسرائيلية التابعة للكيرن كييمث، والتعاون السافر مع المخابرات الاسرائيلية، والتعاون السياسي مع مجموعة من العملاء المرتبطين بسلطات الاحتلال ، وبالجريمة البشعة التي اقترفها اثناء الحملة الانتخابية للبلديات التي جرت عام ١٩٧٦ ، حين تصدى للطلبة المتظاهرين في مدينة رام الله واطلق النار من مسدسه نحو فتى ، فارداه قتيلا . واودع السجن لفترة ثم مثل امام محكمة عسكرية ، وبرأته المحكمة من جريمة القتل ، وسط سخط شعبي عارم واحتجاجات حتى من بعض الصحف الاسرائيلية التي رأت في هذا الحكم انتصارا للمخابرات الاسرائيلية على «عدالة» القضاء الاسرائيلي. الا ان العدالة الحقيقية تحققت في الثامن من شباط الماضي .

وقد نسبت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في بيانات لها ، مسؤولية تصفية هذه الدفعة من العملاء ، الى عناصرها في الداخل .

مشروع « الحكم الذاتي » في الضفة الغربية وقطاع غزة

في الثامن والعشرين من كانون الاول الماضي ، وبعد اكثر من عشر ساعات من النقاش في الكنيست الاسرائيلي ، حظي مشروع بيجن بخصوص الضفة الغربية وقطاع غزة بالموافقة البرلمانية عليه . ومن الجدير بالذكر ان الصحف الاسرائيلية كانت قد سربت معظم بنود المشروع قبل نشره رسميا . وقد واكبت ردود الفعل في المناطق المحتلة على المشروع قبل وبعد نشره رسميا. وربما يكون مشروع« الحكم الذاتي » احد الموضوعات القليلة التي تشابهت حولها ردود الفعل الشعبية الوطنية ، وكذلك ردود الفعل لدى الزعامة التقليدية ، وان اختلفت في النبرة وطرح البديل . فعلى الصعيد الشعبي ، اشارت الصحف الاسرائيلية الى المعارضة المطلقة لمشروع بيجن في الضفة الغربية وقطاع غزة . ونقلت احاديث عن « رجل الشارع العادي » في الضفة الغربية، تتسم بالسخط والاستهجان » اي مشروع هذا ؟

ان البقاء تحت الاحتلال افضل من الموافقة على مشروع كهذا ، لا يمكن العثور على فلسطيني واحد يقبل اقتراح رئيس الحكومة الاسرائيلية . فهذا اقتراح حقير للغاية . من ناحية يقترحون علينا حكما ذاتيا ، ومن ناحية اخرى يريدون استمرار الاستيطان اليهودي في الضفة ، والجيش الاسرائيلي يحكمنا » .

ولا يختلف الموقف العام لسكان القطاع عن هذا الموقف ، فقد اعترف احد المعلقين الاسرائيليين بذلك قائلا « يفضل سكان غزة العيش عشرة او خمسة عشر عاما اخرى تحت الحكم الاسرائيلي على قبول الحكم الذاتي الذي يطرحه عليهم بيجن ..» ونقل وصفا للمشروع احد سكان القطاع « انه نبيذ قديم في زجاجة حديثة ، انه حكم عسكري بثوب اخر !» .

كما ان العناصر الوطنية بادرت الى رفض المشروع منذ بداية الحديث حوله ، ففي الاجتماع الذي عقدته العناصر الوطنية

في نادي الاكاديميين في القدس ، شجب الدكتور انور الخطيب رئيس ادارة النادي ورئيس الهلال الاحمر مشروع بيجن ، وقال انه لا يختلف عن مشروع الادارة الذاتية للتجمع العمالي ، واكد في سياق شجبه للمشروع « حق الشعب الفلسطيني في اقامة دولة مستقلة ذات سيادة ··· ويجب رفض اية صيغة اخرى » · كما ان رؤساء البلديات الوطنيين ، وكذلك رؤساء المؤسسات الشعبية والنقابات المهنية ، وخاصة اولئك الذين وقعوا على العريضة التي ذكرناها سابقا ، اكدوا في مقابلات واحاديث وبيانات في مناسبات مختلفة ، شجبهم القوي لمشروع بيجن ، واعلنوا تمسكهم بمنظمة التحرير الفلسطينية ·

وفيما يتعلق بموقف بعض الشخصيات التي تنعتها المصادر الاسرائيلية بـ«الاعتدال» والمؤيدة بشكل عام للنظام الأردني ، فقد اعلنت هي الاخرى عن رفضها للمشروع ، فالياس فريج رئيس بلدية بيت لحم « لا يتصور ان يكون هذا هو مشروع بيجن المقترح من جانب اسرائيل ··· واذا كان مشروع بيجن يشبه المشروع الذي نشر فاننا نرفضه بشكل قاطع » كما ان حكمت المصري رئيس البرلمان الاردني سابقا يرى انه « لا يمكن للنقاط التي طرحها بيجن ان تكون الجوات لمبادرة الرئيس المصري» واعلن رفضه لها· اما رئيس بلدية غزة رشاد الشوا فقد اعلن هو الاخر رفضه لمشروع بيجن ، مضيفا انه « اذا كانت اسرائيل ترغب الان في السلام والاستقرار في المنطقة ، فعليها الاعتراف بالحقوق الشرعية للفلسطينيين والموافقة على قيام دولة فلسطينية تكون مرتبطة بالاردن » ·

وفي النهاية لا بد من تسجيل الملاحظات التالية :

١ ـ ان المشروع لا يتطرق الى القدس العربية ، معتبرا اياها قد ضمت رسميا الى اسرائيل ، ويرى في الضفة الغربية باستثناء القدس، انها تتكون من منطقتين : يهودا والسامرة !

٢ ـ الحرص على استمرار الاستيطان الاسرائيلي في مناطق « الحكم الذاتي »·

٣ ـ الحرص على حق الاسرائيليين والمؤسسات الصهيونية في شراء واستملاك الاراضي في مناطق الحكم الذاتي ·

٤ ـ الحرص على تواجد القوات الاسرائيلية في مناطق الحكم الذاتي ، وتكليفها بمهام الحفاظ على الامن الداخلي، اي قمع التظاهرات والتحركات الوطنية في المدن والقرى ، وهذا يعني تواجدها اليومي في المدن والقرى ·

٥ ـ الحرص على عدم السماح للاجئين او النازحين الفلسطينيين الموجودين خارج المناطق المحتلة بالعودة الى مناطق الحكم الذاتي ، الا بموافقة جماعية من الاطراف الثلاث الاردن والادارة الذاتية واسرائيل · هذا مع العلم ان المشروع يسمح بالتواجد الاسرائيلي غير المحدود في هذه المناطق ·

هذا هو جوهر المشروع الذي لا يختلف عن الاحتلال اطلاقا ، والذي جعل الكثيرين في المناطق المحتلة يفضلون الاحتلال عليه ! ومن الملفت للنظر ان المشروع مليء بالبنود الخالية من اي معنى ، ولا شك بأن القصد من حشوه بهذه البنود الجوفاء يجيء كمحاولة للتخفيف من المعاني الاحتلالية البشعة ·

عبد الحفيظ محارب

اسـرائيليات

١ / زيارة بيغن لواشنطـن ولنـدن دوافعها ـ واهدافها

يعتقد المحللون السياسيـون فـي اسرائيل ، ان نقطة الانطـلاق لزيـارة مناحيم بيغن المفاجئة في كانـون الاول (ديسمبر) من عام ١٩٧٧ ، لواشنطن ، نابعة من موافقة الرئيس السادات عـلى تأجيل موعد افتتاح مؤتمر جنيف ، وزيارة وزير الخارجية الاميركي سايروس فانس لمنطقة الشرق الاوسط ، التـي اعـادت الولايات المتحدة الى دورها التقليدي في المنطقة ، بعد مبادرة السادات وزيارتـه للقدس المحتلة ·

اذ ان السادات كان يهدف في الاساس، في رأيهم ، من مبادرته هذه الى « اعـادة الولايات المتحدة الى وظيفتها بالحجم الذي يليق بها » ، بعد ان يكون قد خلق صورة مصداقة لدى الرأي العام الاميركي ، وهي صورة الدولة التي تسعى من أجل السلام، وذلك « لممارسة الضغوط على اسرائيـل ودفعها الى الاستجابة لهـذه المبـادرة المصرية ، بتنازلات اقليمية كبيرة فـي المناطق المحتلة » الامر الذي « خلق تخوفا اسرائيليا من تنسيق اميركي ـ مصري ـ سعودي ، على حساب اسرائيل وخلق جو من الضغط ضدها » (هآرتس ، دافـار ١٦ـ١٨ـ١٩ـ١٢ـ٧٧) ·

أما نقطة الانطلاق الثانية ، للدوافـع التي كانت تكمن خلـف هذه الزيـارة « البراقة » فتكمن في « وضع الرئيـس الاميركي ، وحاجته الى نجاح عملـي ملموس ، يمكنه من منافسة الرئيـس المصري على شاشة التلفزيون الاميركي ، الموجه الحقيقي لمبادرات السلام في الشرق الاوسط » (المصدر السابق) · ولذلـك فان اية ايماءة اسرائيلية لزيارة يقوم بها بيغن لواشنطن من اجل التشاور مع كارتر، والحصول على موافقته بالنسبة لمقترحات اسرائيل في المفاوضات المقبلة مع مصر ، ستقابل بالترحيب » · وهذا ما كان بيغن قد « لمسه من خلال محادثاته مع الوزير سايروس فانس » ابان زيارته الشـرق اوسطية ·

وكانت هذه هي الفرصة التي ينتظرهـا مناحيم بيغن ، للحصول من الولايـات المتحدة على ما كان يسعى اليه بعـد زيارة السادات لاسرائيل ، والخطـوات السياسية السريعة والتظاهريـة التـي اعقبتها ، كثمن « للبادرة السياسيـة الحسنة » التي يقدمها رئيس الحكومـة الاسرائيلية للرئيس كارتر الذي يسعـى جاهدا للسيطرة على منصبه بعد عـام على تسلمه الرئاسة » · (المصـادر نفسها) ·

ويبدو ان الاهداف التي كان بيغـن يسعى الى تحقيقها في تلك الزيارة وبغض النظر عن المسرح ، هي :

١ ـ ان يثبت للرئيس كارتر ، مـا تساويه اسرائيل بعد فقدان وزنها كشريك ذي فعالية في المنطقة (اثر حـرب اكتوبر وحظر النفط ، والتعلق الاميركي باستيراد

الطاقة من مصادر عربية) كعنصر يستطيع ان يمنح الرئيس الاميركي نجاحا في الحكم لسنوات اخرى مقبلة ٠

٢ ـ تقوية الدعم الاميركي للمبادىء المشتركة التي كانت اسرائيل قد توصلت اليها مع الولايات المتحدة خلال عهد رابين ـ كيسنجر ٠

٣ ـ الحؤول دون اي تنسيق اميركي ـ مصري ـ سعودي على حساب اسرائيل ، وامكانية خلق جو من الضغط ضدها ٠

٤ ـ خلق مثلث متوازي الاضلاع من اسرائيل ومصر والولايات المتحدة ، يكون التوازن فيه كاملا بين زواياه الثلاث ٠

٥ ـ تقوية الموقف الاسرائيلي في المفاوضات الجارية مع مصر ، والحصول على موافقة اميركية على المقترحات الاسرائيلية التي يحملها معه ٠

٦ ـ الاستمرار ـ في « تدجين » الرئيس كارتر ، واقناعه بان الحل ممكن في الشرق الاوسط بدون دولة فلسطينية، وان كل حل في الضفة الغربية لا بد وان يرتكز على الفرضية الاسرائيلية ، بان ثمة عرب كانوا يسكنون فلسطين ، وليس ثمة من شعب فلسطيني في حاجة لتقرير المصير ٠ وان كل تنازل محسوس من اسرائيل ـ كمنح الفلسطينيين استقلالا مدنيا ـ مصدره الفرضية القائلة ان ثمة مشكلة انسانية لسكان كانوا ذات مرة تحت حكم الانتداب البريطاني ٠

وهدف هذه المحاولة هو السعي الى استكمال عملية « تدجين » الرئيس الاميركي ، التي اسفرت حتى هذه المرحلة عن اقناعه بما يلي :

« أ ـ ان عدم اشتراك م٠ت٠ف في محادثات السلام الجارية ، لم يكن نتيجة لتصلب اسرائيل ، وانما هو في الواقع نتيجة للعناصر المتطرفة التي تسيطر عليها ، والتي ترى ان مبرر بقائها هو عدم بقاء اسرائيل ٠

ب ـ لم يكن رفض اسرائيل الانسحاب من الاراضي المحتلة هو العقبة في وجه السلام ٠ بل ان الحاجز النفسي في العالم العربي للتسليم بوجود اسرائيل ، هو الذي يشكل العقبة الرئيسية ٠

حـ ـ ان مفتاح السلام في الشرق الاوسط هو بحشد الدول العربية المعتدلة والتي تدور في الفلك الاميركي ، وان الطريق الى الحل الشامل تمر عبر هذه الدول في البداية ، وليس العكس ٠

د ـ ان ثمة بدائل اخرى لمؤتمر جنيف، وليس من الضروري اختيار منبر تسيطر عليه الاطراف الاكثر تصلبا ٠

هـ ـ ان السوفييت ليسوا عنصرا بناء في عملية السلام كما كان يعتقد ، وغير معنيين البتة بسلام اميركي في المنطقة » ٠

اما الزيارة القصيرة التي اجراها مناحيم بيغن للعاصمة البريطانية في طريق عودته من واشنطن ، وعشية زيارته للاسماعيلية ، فلم تكن فقط « بادرة سياسية حسنة » من رئيس الحكومة الاسرائيلية تجاه بريطانيا لتحويلها الى « شريكة في عملية السلام الجارية في الشرق الاوسط ، واعادتها الى دائرة النشاط التي كانت قد اخرجت منه قبل ذلك » (معاريف ٢١ـ١٢ـ٧٧) ، وانما كانت تنطوي ايضا على « تعبير عملي

لمجمل علاقات اكثر عمقا وحرارة بين لندن واسرائيل » (المصدر نفسه) ، ولكي يجدد فيها مناحيم بيغن هذه المرة « روح وعد بلفور » ، كما اعلن اثر وصوله الى العاصمة البريطانية : وهذا هو الثمن الذي كان يطمح بيغن للحصول عليه في زيارته للحكومة البريطانية ٠

ويرى البعض ان بيغن استطاع بالفعل « تخفيف الحماس البريطاني بالنسبة لـ م٠ت٠ف ودولة مستقلة بقيادتها » (المصدر نفسه) ، بعد ان كانت الحكومة البريطانية قد اظهرت ، في فترات سابقة، انتقادا لاذعا لسياسة اسرائيل ، ودعما مكشوفا لفكرة الوطن الفلسطيني ٠ كما كان واضحا من تصريحات رئيس الحكومة البريطانية ووزير خارجيته دافيد اوين ان الوطن الفلسطيني، « لا يعني بالضرورة دولة فلسطينية مستقلة » (معاريف ٢١ــ ١٢ــ٧٧) ٠

واكثر من ذلك ، فان المسؤولين البريطانيين كفوا وبتأثير من بيغن ، عن الحديث « عن المشكلة الفلسطينية » وراحوا يتحدثون « عن مشكلة الرافضين الفلسطينيين » ، والهدف من ذلك كان الحصول على الدعم البريطاني لمقترحات مناحيم بيغن التي كان يحملها معه الى مفاوضات الاسماعيلية مع الرئيس المصري انور السادات ٠

اما الهدف الثاني الذي كان بيغن يسعى لتحقيقه من زيارته للندن فكان « وقف الانجراف والتآكل المستمر في موقف دول السوق الاوروبية تجاه اسرائيل والتي كانت قد عبرت عنه في بياناتها المناهضة لاسرائيل » (المصدر نفسه) ٠

وكان بيغن قد ادعى امام كالاهان انه « ليس للدول الاوروبية التي كانت شاهدا على الكارثة اليهودية ، حقا اخلاقيا في مطالبة اسرائيل بالانتحار » ، اي بدعوتها الى الانسحاب من الاراضي المحتلة ، وقيام دولة فلسطينية ، لان « اوروبا » ، على حد زعمه ، « بطولها وعرضها ، من الفولغا وحتى المحيط ، هي مقبرة كبيرة لليهود » (المصدر نفسه) ٠ وطلب بيغن من كالاهان ان يسعى للتأثير على زملائه في القارة الاوروبية كي « يتركوا اسرائيل وشأنها في جهودها من اجل سلامها دون ان يتدخلوا » (المصدر نفسه) ٠ وقد قام جيمس كالاهان فعلا بتنفيذ هذه المهمة التي اوكلها اليه بيغن، وباخلاص ، اذ توجه الى جميع زملائه في غرب اوروبا وطلب اليهم بان « يكفوا عن تدخلهم في الشرق الاوسط ، في هذه المرحلة من الجهود الصادقة والفرصة الحقيقية لاحلال السلام » (المصدر نفسه) ٠

توفيق فياض

٢/ مشروع الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة : افضل الطرق لتحقيق اسرائيل الكبرى

اثار مشروع الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة الذي اقترحه رئيس الحكومة الاسرائيلية مناحيم بيغن ، ردود فعل متفاوتة منها المؤيد ومنها المعارض . ويتلخص رد الفعل المؤيد لهذا المشروع على « انه افضل الطرق لتحقيق ارض اسرائيل الكبرى » . واما الرأي المعارض والذي يمثله حزب العمل وغوش ايمونيم وبعض الجهات من حزب الليكود ، فيرى ان هذا المشروع سيؤدي ان عاجلا او آجلا الى اقامة دولة فلسطينية بين اسرائيل والاردن .

ويبدو واضحا ان هذا المشروع ليس جديدا ولا يختلف كثيرا في المضمون عن المشاريع التي سبقته ، ولكنه يمتاز عنها بالدهاء والمكر والاخراج ، حيث انه يعتمد كليا على اعتبار الضفة الغربية جزءا لا يتجزأ من ارض اسرائيل الكبرى . ولكن خوفا من ان يؤدي الاعلان عن ذلك الى فشل التسوية فقد جاء بيغن بمشروعه الداعي الى الحكم الذاتي ، لكي يوهم العالم بانه اعطى الفلسطينيين حقوقهم واستقلالهم ، بينما الحقيقة هي عكس ذلك تماما . فان ما سيحدث هو وضع الضفة الغربية وقطاع غزة تحت ظروف سياسية واقتصادية تؤدي في النهاية الى ابتلاعها داخل اسرائيل ، كما حدث في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، عندما وضعت فلسطين تحت ظروف سياسية واقتصادية معينة تمهيدا لانشاء وطن قومي يهودي فيها ومن ثم دولة يهودية . كما ان هذا المشروع يعطي بعض الجهات العربية المتورطة مع اسرائيل ، الذريعة للتخلص من القضية الفلسطينية والظهور امام الرأي العام العربي بصورة خاصة ، على انها حققت ما كانت تدعو اليه دائما بالالتزام بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني .

وقبل ان نعرض مختلف الاراء حول هذا المشروع لا بد لنا من ذكر الخطوط الرئيسية التي وردت فيه ، والتي تتمثل في الغاء الادارة العسكرية للشؤون المدنية في الضفة والقطاع ، واقامة حكم ذاتي اداري للسكان العرب هناك . وسيقوم هؤلاء بانتخاب مجلس اداري مؤلف من ١١ عضوا ، يشرف على الامور التالية : التعليم ، الدين ، المالية ، المواصلات والبناء والاسكان ، الصناعة والتجارة ، السياحة والزراعة ، الصحة والعمل والانعاش ، شعبة تأهيل اللاجئين والادارة القضائية والاشراف على قوة شرطة محلية . واما بالنسبة للامن والنظام العام في هذه المناطق فستتولاها السلطات الاسرائيلية ، وفيما يتعلق بالجنسية فانه يحق لهؤلاء السكان الحصول على الجنسية الاسرائيلية او الاردنية ، وكذلك سيمنح لجميع السكان ، عربا او يهودا ، الحق المتبادل لشراء الاراضي في اسرائيل او المناطق المحتلة . ويعتبر البند الرابع والعشرين من بين اهم هذه البنود ، اذ يشير صراحة الى نية اسرائيل في ضم هذ المناطق اليها ، بتأكيده على « اصرار اسرائيل على حقها في السيادة على الضفة الغربية وقطاع غزة ، [ولكن] ولمعرفتها ان هناك ادعاءات اخرى فانها تقترح من اجل الاتفاق والسلام ابقاء مشكلة السيادة مفتوحة في هذه المناطق » (هآرتس ٢٩ ـ ١٢ ـ ٧٧) .

وقد عرض هذا المشروع على الكنيست للمصادقة عليه ، وبعد مناقشة طويلة تمت الموافقة عليه باكثرية ٦٤ صوتا وامتناع ٤٠ صوتا وتصويت ٨ ضده منهم غيتولاه كوهين وموشيه شامير من ليكود والحاخام دروكمان من المفدال . وكان اخر المتكلمين في هذا النقاش ، موشي دايان وزير الخارجية ، الذي رد على استفسارات النواب وخصوصا فيما يتعلق بمسائل الجنسية وشراء الاراضي. واوضح دايان ان اقتراح منح السكان في تلك المناطق جنسية اسرائيلية او اردنية يهدف الى منعهم من الاعلان عن انفسهم دولة مستقلة في المستقبل . وسئل عن كيفية القيام بذلك فأجاب : « بقوة ذراع الجيش الاسرائيلي » . كما سيمنع الجيش الاسرائيلي بالقوة قدوم الاف اللاجئين الى هذه المناطق .

هذا وتتجلى سياسة الخداع والتضليل الاسرائيلية بالنسبة لمشروع الحكم الذاتي، في الادعاء الذي ورد فيه بانه يحق لكلا الطرفين شراء الاراضي لدى الطرف الاخر . وقد اثار هذا البند حفيظة الاسرائيليين لان تنفيذه قد يؤدي الى تدفق السكان العرب الى اسرائيل ما قبل عام ١٩٤٨ وهذا ما يعتبرونه خطرا كبيرا على المشروع الصهيوني برمته ، الا ان المشروع سيحقق عمليا تدفق اليهود فقط على الضفة والقطاع والاستيلاء على الاراضي الحكومية هناك ، ومن ثم وضع الضفة الغربية وقطاع غزة تحت ظروف واوضاع تجعل الحياة فيها صعبة تمهيدا لتهجير سكانها وشراء اراضيها . وهذا ما اشار اليه دايان صراحة بقوله انه لا وجود لخطر شراء الاراضي من قبل السكان العرب ، لان ٩٢٪ من اراضي اسرائيل هي املاك عامة وتملكها ادارة عقارات اسرائيل واما الاراضي المتبقية التي تبلغ مساحتها ٨٪ فهي ملك خاص ولكنها مأهولة جميعها (المصدر نفسه) .

واوضح دايان في كلمته امام الكنيست النوايا الحقيقية لهذا المشروع فذكر بان الجيش الاسرائيلي هو القوة الوحيدة التي ستتواجد غربي نهر الاردن وفي كل مكان يتطلب ذلك في الضفة والقطاع وذلك في سبيل تمكين اليهود من العيش هناك . واشار الى حق اليهود في شراء الاراضي في هذه الاماكن والاستيطان فيها ، وكذلك حقهم في التنقل بحرية دون اذن .

وأكد نائب وزير الدفاع الاسرائيلي مردخاي تسيبوري بان الجيش الاسرائيلي سيبقى في الضفة ويشرف على الحدود عند تنفيذ مشروع الحكم الذاتي . واشار الى صعوبة موضوع الضفة ، ولكنه قال « علينا ان نعرف كيف نأكل الكعكة ونبقيها كاملة » ، مؤكدا « عدم وجود نية للتنازل عن الضفة الغربية وايقاف الاستيطان هناك » (معاريف ٢٢-١٢-٧٧) .

مشروع بيغن يحقق اسرائيل الكبرى

أبدت بعض الدوائر الاسرائيلية تفهما كبيرا لمشروع بيغن ودافعت عنه بحرارة ، واعتبرته بانه افضل المشاريع والطرق لتحقيق ارض اسرائيل الكبرى . فقد هاجم بوعز عفرون ، ما سمي « جبهة الرفض الاسرائيلية » سواء كانوا غيتولاه كوهين او موشيه شامير او يسرائيل غاليلي او غولده مئير ، ووصفهم جميعا بأنهم « محدودوالفهم والتفكير » ، لانه « لو ناقشنا ما نشر من [المشروع] ، فانه يبدو الاحتمال الوحيد لتحقيق مشروع ارض اسرائيل الكبرى » . واشار عفرون الى خطة الحكومة التي تنوي دمج العرب في الضفة والقطاع في الحياة الاسرائيلية عن طريق اغرائهم وتشويقهم للبقاء ضمن اسرائيل . فاثنى على بادرة بيغن بتعيينه احد المحامين العرب ، محمد

نمر الهواري قاضيا في المحكمة العليا . واعتبر ذلك بداية لخلق اطر مشتركة للعرب والاسرائيليين ، « تؤدي في نهاية الامر الى ان يكونوا معنيين بارادتهم الحرة بالبقاء داخلها » . وعندها يصبح الجيش الذي يسيطر عليهم ، جيشا يحميهم . ولتحقيق ذلك ، طالب بتغيير الاطار الاسرائيلي ، والبدء قبل كل شيء بدمج العرب في اسرائيل بصورة كاملة في اطار الدولة . كما طالب بمنح الجنسية الاسرائيلية لكل فلسطيني يرغب في ذلك. ومساواة الخدمات التي تقدم للسكان الذين تسيطر اسرائيل عليهم . « وبواسطة هذه الطريقة يجب خلق اغراء قوي للبقاء في اطارنا السياسي ... فكل شيء متوقف على الامتيازات والاغراءات التي سنقدمها لعرب الضفة والقطاع وكذلك لعرب اسرائيل (يديعوت احرونوت ٢٣ـ١٢ـ ٧٧) .

ولا شك في ان مشروع بيغن نابع اساسا من البرنامج الانتخابي لحزب ليكود . ويرتكز المشروع وكذلك البرنامج الانتخابي ، على « ان الشعب اليهودي على ارض اسرائيل (فلسطين) هو ازلي، ولهذا فان الضفة الغربية لن تسلم لاي حكم اجنبي ولن يكون هناك اية سيادة بين نهر الاردن والبحر سوى السيادة الاسرائيلية ، واي مشروع فيه تنازل عن اجزاء من ارض اسرائيل الغربية ، سيؤدي الى اقامة دولة فلسطينية ويحبط احتمالات السلام » .

وقد شرح رئيس الحكومة بيغن والمقربون منه ، المشروع الجديد واكدوا على انه سيمكن حكومة اسرائيل من المحافظة على مبادئها والتي تتلخص فيما يلي :

- أن الضفة الغربية وقطاع غزة لن تسلم لاي حكم اجنبي ، وبصورة تلقائية فانه لا يوجد تنازل عن اجزاء من ارض اسرائيل الغربية .
- حق الاستيطان اليهودي في هذه المناطق قائم وسيستمر .
- سياسة الامن والخارجية ستبقى بيد اسرائيل .
- المحافظة على كافة العوامل التي تمنع اقامة دوله فلسطينية .

ويستطرد المعلق شلومو نكديمون في تحليله للمشروع فيقول بان المشروع ترك موضوعا واحدا مفتوحا الا وهو سريان السيادة الاسرائيلية بين البحر ونهر الاردن . « حيث ان التطبيق الفوري للسيادة الاسرائيلية لن يمكن من تحقيق المهمة الاخرى المعضلة في البرنامج الانتخابي وهو تجسيد الحق في الامن والسلام » . (يديعوت احرونوت ٢٣ ـ ١٢ ـ ٧٧) .

ومن جهة اخرى ، برر البعض موقف بيغن الداعي الى اجراء استفتاء بين السكان العرب بعد فترة من الزمن لكي يقرروا مصيرهم بانفسهم ، بأشارتهم الى اعتقاد بيغن بانه عندما تجري الانتخابات في الضفة والقطاع وليس في المخيمات في لبنان وغيرها ، فان ذلك سيؤدي الى ظهور طبقة جديدة من السياسيين . ويعرف بيغن كافة الاسبقيات التاريخية للصراع العنيف بين هؤلاء الذين بقوا تحت سلطة الاحتلال ومقارعته ، وبين الذين خرجوا الى المنفى ، فقد تغلب في كافة الحالات الذين بقوا في البلاد . ومن المعروف ان انشاء حكم ذاتي يتطلب جهازا جديدا مع كثير من الامتيازات للاشتراك في كافة اجهزة الحكم ، ومن شبه المؤكد ان سكان المناطق لن يتركوها تفلت من ايديهم . (حوتام ٢٣ـ١٢ـ٧٧) .

المشروع يؤدي الى اقامة دولة فلسطينية

جوبه مشروع بيغن بموجة من الانتقادات والاحتجاجات وذلك من مختلف الجهات الاسرائيلية وعلى رأسها حزب

العمل وبعض النواب والقادة من حزب ليكود نفسه ومن حركة غوش ايمونيم وغيرها . واثار زعيم حزب العمل شمعون بيرس عدة علامات استفهام حوله ، وخصوصا فيما يتعلق بالسكان والسيادة والحدود . وانتقد بيرس عدم رسم حدود الحكم الذاتي ، لان ذلك يعني ان ترتكز هذه الحدود على الخط الاخضر . واما بالنسبة للسكان ، فقد اشار المشروع الى استمرارهم في الاحتفاظ بالجواز الاردني . واعتبر بيرس ذلك امرا خطيرا، لانه سيؤدي الى قيام علاقة جماعية للسكان مع التاج الهاشمي ، بينما يسعى بيغن الى منع هذه العلاقة ، لان الامر سيفسر على انه « سيادة اجنبية » ، كان قد تعهد بمعارضتها . كما اشار بيرس الى ان الاردن سيرفض الارتباط مع مثل هذا الحكم الذاتي ، الذي يتواجد داخل حدوده جيش اسرائيلي ، ويبقى مصير القدس مفتوحا . كما ذكر بيرس انه اصيب بالدهشة عندما سمع بيغن يقول : « ان الحكم الذاتي الذي يقترحه لسكان الضفة انما يعني منحهم حق تقرير المصير » ، واعتبر بيرس ان ذلك سيؤدي على المدى البعيد الى المطالبة بدولة مستقلة في الضفة وقطاع غزة . كما ابدى تخوفه من ان السكان سينتخبون ممثلين عن م.ت.ف. وخلص الى القول انه في غياب علاقة فيدرالية بين المناطق المحتلة والاردنفان الطريق - ان عاجلا او اجلا - سيؤدي الى اقامة دولة اخرى . وانتقد بيرس حق الاستيطان المتبادل للعرب في اسرائيل ولليهود في المناطق ، مشيرا الى انه لا يوجد تمييز في اسرائيل بالنسبة لشراء الاراضي او البيوت ، واما في الضفة فان كل مواطن يبيع ارضا او بيتا ليهودي فانه عرضة للحكم بالاعدام (يديعوت احرونوت ٢٣-١٢-٧٧) . واذا ما قارنا اقوال بيرس هذه مع اقوال دايان التي سبق ان ذكرناها بالنسبة لبيع الاراضي ، فسيتضح لنا مدى الخداع والتضليل الاسرائيلي .

كما استنكر اعضاء من الليكود نفسه مشروع بيغن هذا ، فقد اجتمع النائب موشيه شامير وتسفي شيلواح ببيغن وعبرا عن معارضتهما لمشروعه ، ولم يقتنعا بتبرير بيغن الذي قال انه يرى في الحكم الذاتي لعرب الضفة الامكانية الوحيدة لمنع اقامة دولة فلسطينية وكذلك للمحافظة على ارض اسرائيل الكبرى .

وقد صوت النائب شامير في جلسة كتلة الليكود في الكنيست ضد المشروع ، واما تسفي شيلواح رئيس ادارة حركة ارض اسرائيل الكاملة ، فقد استقال من ادارة الليكود وقال ان بيغن قد خاض الانتخابات الاخيرة على اساس برنامج اسرائيل الكاملة ورفض المفهوم القائل اراضي مقابل السلام ، واما الان فان مشروعه يعتمد على ذلك . (معاريف ٢٥-١٢-٧٧) . واما في غوش ايمونيم، فان هناك من يطالب بالقيام باعمال عنف ضد مشروع رئيس الحكومة . وعلق السكرتير السياسي « للغوش » غرستون شفاط على المشروع بقوله : « نحن نعارض مشروع بيغن ، لانه ينفي السيادة الاسرائيلية على الضفة الان وفي المستقبل، وكذلك يعطي للعرب في الضفة والقطاع املا ، في ان يتنظموا في المستقبل في دولة مستقلة » . واما النائبة غيتولاه كوهين فقد اضافت : « لا اوافق على الحكم الذاتي لعرب الضفة الغربية . انني اعارض اي اعتراف بوجود كيان فلسطيني، والحكم الذاتي يعطيهم مثل هذا الخيار . اؤيد السيادة الاسرائيلية في الضفة مع كانتون عربي داخل الدولة حيث يكون لسكانه حقوق مدنية مختلفة . وان الحل المقترح حاليا انما هو قنبلة مؤقتة » . واما الدكتور يسرائيل الداد (من زعماء ليحي سابقا) فقد استخدم كلمات

عنيفة ضد بيغن ووصف مقترحاته بانها تشكل جريمة · ويعتقد الداد ان منح الحكم الذاتي للضفة الغربية يعني حتما اقامة دولة فلسطينية (معاريف ٢١ـ١٢ـ ٧٧) ·

كذلك جابه مشروع الحكم الذاتي انتقادا لاذعا ورفضا مطلقا من قبل المستوطنين في غور الاردن · فقد عقد ممثلوهم اجتماعا في موشاف بتسال واصدروا بيانا استنكروا فيه المشروع · وجاء في بيانهم « اننا لم نستوطن في الغور من اجل ان نصبح في المستقبل مواطني عرفات · مطالبنا هي ان نستمر في العيش هنا كمواطني دولة اسرائيل ··· نحن نريد ان تكون هذه المستوطنات في دولة اسرائيل ، تماما مثل حيفا وتل ابيب · لا نريد علما اردنيا او فلسطينيا ، وانما علما اسرائيليا » · (المصدر نفسه) ·

وأشار احدهم الى ان الحكم الذاتي ضمن اطار جغرافي محدد انما يحمل داخله جنين دولة مستقلة · ولا توجد هناك اية حالة لم يؤد فيها الحكم الذاتي الى الاستقلال او لم يشكل مصدرا للتوتر القومي الكبير · وحتى ان الدول الكبيرة صعب عليها التغلب على المشاكل الناجمة عن ديناميكية الحكم الذاتي · وكذلك الحال بالنسبة لاسرائيل فانها لا يمكن ان تبقى هادئة وان تجري عمليات الاستيطان على نطاق واسع ، اذا ما تم منح الضفة حكما ذاتيا واداريا · ان الحكم الذاتي سيؤدي بالضرورة الى دولة مستقلة ، الامر الذي ترفضه كافة الاحزاب الاسرائيلية ما عدا شيلي وراكح · (تسفي شيلواح ـ يديعوت احرونوت ٢١ـ١٢ـ٧٧) ·

وانتقد البروفيسور امنون روبنشتاين عملية الانسحاب من سيناء خلال ثلاث سنوات وكذلك عملية اعادة النظر في وضع المناطق بعد مرور خمس سنوات فقط ، لان ذلك سيؤدي الى ان تثور المسألة الفلسطينية بكل عنف بعد فترة قصيرة من انتهاء الانسحاب من سيناء ، وعندها ستكون هناك مطالبة عربية اجماعية باخراج « جيش الاحتلال الاسرائيلي » · وهذه المطالبة ستتم سواء رافقت الاضطراب والمظاهرات التواجد الاسرائيلي في الضفة او قبلها السكان بهدوء · واذا ما حدث الاحتمال الاول وحدثت مظاهرات واضطرابات مطالبة بالتخلص من « نير الاحتلال البغيض » ، واستمرار الدعاية المعروفة جيدا بالنسبة لنا ، او حدث الاحتمال الثاني ، وساد الهدوء في الضفة والقطاع ، فان العرب سيدعون ان الحياة الطبيعية قد عادت في القطاع الشرقي وانه حان الوقت لاخراج الجيش الاسرائيلي من منطقة لا تهدد اسرائيل من الناحية الامنية · ويضيف روبنشتاين ، انه سواء حدث هذا او ذاك فان موعد اعادة النظر بشأن الحكم الذاتي سيثير مشاكل صعبة في الفترة التي لا يتواجد فيها الجيش الاسرائيلي في سيناء (هآرتس ٢٧ـ١٢ـ١٩٧٧) ·

وأبدى الجنرال اهارون ياريف رأيه في ان مشروع الحكم الذاتي سيؤدي الى اقامة دولة فلسطينية ، ولكن هذه المخاطرة يجب ان تأخذها اسرائيل على عاتقها · لان اي مشروع يقبله السادات ينطوي على مثل هذا الخطر ، وان « اي مشروع لا ينطوي على مثل هذه المخاطرة من ناحيتنا ، لن يقبله المصريون » · ولذلك فان تواجد الجيش الاسرائيلي في الضفة وغزة ، هو الضمانة القوية والمثلى ضد خطر الدولة الفلسطينية (معاريف ٣٠ـ١٢ـ ٧٧) · واما مجلس حركة شيلي فقد قرر بعد نقاش سياسي طويل ، ان مشروع بيغن للحكم الذاتي الاداري في الضفة والقطاع ليس مشروع سلام ، لانه يعني استمرار السيطرة الاسرائيلية على الشعب الفلسطيني · وانه يجب على اسرائيل

ان تعترف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ، بما في ذلك حقه في اقامة دولة مستقلة الى جانب اسرائيل (المصدر نفسه ١٥ـ١ـ٧٨) ٠

ومن جهة اخرى انتقد الوزير السابق موشي كول ، مشروع بيغن وسياسه الحكومة الحالية والسابقة ، واشار الى انه طالب منذ حرب ١٩٦٧ حكومات اشكول ومئير ورابين بتكريس التفكير لعرب فلسطين ومستقبل الضفة والقطاع ٠ وذكر انه كتب مقالا في صحيفة « هآرتس » (٨ ـ ٥ ـ ١٩٧٠) طالب فيه الحكومة بتشجيع تشكيل زعامة فلسطينية مستقلة في الضفة « حتى لايظهر ياسر عرفات امام العالم كله كانه المتحدث باسم عرب فلسطين » ، ولكن هذا الكلام اثار غضب الحكومة ٠ وانتقد كول موقف بيغن والليكود القائل بانه يجب عدم السماح لاي حكم اجنبي على اي جزء من ارض اسرائيل ، لان هذا الموقف يحول دون البحث عن حل وسط اقليمي بين اسرائيل واتحاد فيدرالي اردني ـ فلسطيني ٠ ويجزم كول ان الحكومة ستعود مرة اخرى الى الحل الوسط الاقليمي عندما يتضح لها المخاطرة الكبيرة نتيجة لهذا المشروع والذي سيؤدي الى اقامة دولة فلسطينية حيث « لن يبقى الحكم الذاتي الى الابد وفق صيغة بيغن » ٠ ثم ان السادات لن يقبل ببقاء الجيش الاسرائيلي في الضفة كما ستحدث المظاهرات والاضطرابات في المناطق حيث سيطالب العرب المتطرفون و م٠ت٠ف بالاستقلال الكامل ٠ (هآرتس ٢٩ـ١٢ـ٧) ٠

مشروع الحكم الذاتي حصان أعرج

وصف المعلق حفاي ايشد الحل الذي يقضي بمنح سكان الضفة والقطاع الحكم بانه حصان أعرج باكثر من رجل واحدة ٠ وهو لا يختلف عن المشاريع التي اقترحها كل من شولاميت آلوني ويغئال الون ٠ وانتقد ايشد عبارة « الحكم الذاتي » ، لان ذلك سيؤدي الى الانفصال، واذا كانوا لا يريدون ذلك فيجب ان يقال « اتحادا فيدراليا » فيه حكم دستوري معين ومحدد ليس فقط لمنطقة واحدة ولقسم واحد من السكان وانما لكافة المناطق والسكان ، العرب واليهود على السواء٠ ثم ان من يريد ان يقدم مشروعا لكي يقبله الفلسطينيون عليه ان يقترح الاتحاد الفيدرالي ، الذي هو دولة مشتركة تقررفيها الغالبية الشؤون المتعلقة بكافة السكان وتقرر الاقلية لجنة للقضايا التي تهمها فقط ٠ ويشير ايشد ، الى ان كافة القوانين الفيدرالية لا تمنح الاقلية حق الانفصال ، وليس لها حق تقرير المصير الى درجة الانفصال بل الاغلبية هي التي تقرر ٠ وهكذا يمكن الحيلولة دون تقسيم اقليمي « لارض اسرائيل الغربية » ، الذي يرفضه بيغن بشدة ٠ (دافار ٢٣ـ١٢ـ٧٧) ٠

وأشار ايشد ايضا ، في تعليق اخر له ، الى مشروع الحكم الذاتي ، فذكر ان بيغن تظهر عليه عوارض « الحمل الفلسطيني » المتقدم وان ذلك واضح للعيان ٠ وقد بدا ذلك ، حسب اعتقاده ، عندما وافق بيغن لدى اجتماعه مع الرئيس الاميركي كارتر في شهر حزيران الماضي على وفد عربي مشترك ، ومن ثم ورقة العمل التي اعدها موشي دايان والذي وافق فيها على وفدموحد ، يشمل ممثلين سياسيين عن سكان المناطق الذين سيشتركون في المفاوضات مع اسرائيل حول المستقبل السياسي للضفة وليس فقط حول المواضيع البلدية او الادارية ٠ وانتقدبيغن لاستعماله سلسلة طويلة من المصطلحات ، التي تحمل مفاهيم محددة غير مشروطة بالتفسيرات الاسرائيلية الاعتباطية والاصطناعية ٠

« فتقرير المصير» يثير على الفور مسألة حق الانفصال عن اسرائيل وحق الارتباط بالاردن . واما الحكم الذاتي فيثير على الفور مسألة صلاحيات الحكم الذاتي بالنسبة للسلطة المركزية وطابعه واما « الحكم المحلي » او « الادارة الذاتية » فهي جاهزة لكي تطرح على جدول الاعمال مشكلة السيادة الفلسطينية ، وسيناضل ممثلو الفلسطينيين من اجل الحصول على الصلاحيات والاجهزة التنفيذية ولن يقبلوا ابقاء الحسم والتنفيذ بيد حكومة اسرائيل . ولفت المعلق نظر المسؤولين الاسرائيليين الى ان السلام ليس بين كتل المعارضة والائتلاف في اسرائيل وليس بين بيغن وغيتولاه كوهين ، وانما يجب ان يكون هذا السلام مقبولا لدى السادات وكارتر والملك حسين وحتى ممثلين فلسطينيين (المصدر نفسه ٢١-١٢-٧٧).

الانتقال من الحكم الذاتي الى دولة م.ت.ف سيكون قصيرا

تحدث الدكتور يهوشواع بورات ، احد المستشرقين الاسرائيليين حول مشروع بيغن ، فأبدى رفضه له وقال بأن بيغن قد بلور اقتراحه بصورة ذكية وماكرة ، من اجل ان يبيع لعسكره وللجمهور الاسرائيلي الجرعة المرة لاقامة كيان فلسطيني . وذلك بعد ان تأكد ان الادارة الاميركية تسعى لاقامة كيان كهذا وانه بدون استجابة اسرائيلية في هذا المجال فلن يكون باستطاعة السادات البدء بالمفاوضات بصورة فعلية حول السلام . وقد واجهت بيغن مشكلة كيفية « بيع » موقفه للجمهور الاسرائيلي ولهذا فقد فعل ما فعله .

وحسب تقدير بورات فان الحكم الذاتي الفلسطيني سرعان ما سيتحول الى مرحلة انتقالية لانشاء اطار سياسي مستقل ، و « بالنسبة لي فهذا واضح كوضوح الشمس » . واما فيما يتعلق بمسألة الزعامة المقبلة في المناطق والشروط المسبقة لنشاطها فان بورات يضع عدة شروط لنجاحها وهي : اولا ، تحديد واضح للصلاحيات بين ادارة الحكم الذاتي الفلسطيني وبين الجهات العسكرية الاسرائيلية . ثانيا، موعد الاستفتاء . وثالثا ، القضاء على النفوذ المصري في الاردن والضفة والقطاع وفي اجزاء اخرى من العالم العربي ، وذلك من اجل اعطاء مثل هذه الزعامة القدرة على النمو والعمل . وينتقد بورات سياسة بيغن فيقول انه فضل بيع « اختراع » مربح بالنسبة له ، للاسرائيليين على الاتفاق مع الاردن ، لان هذا يتطلب الانسحاب وسيثير ايضا الغليان في معسكر بيغن وربما لدى اجزاء اخرى من الجمهور . وحذر بورات من انتصار مؤيدي م.ت.ف. في الانتخابات التي ستجري في الضفة والقطاع وذلك كما حدث في انتخابات رؤساء البلديات وعندها سيطالبون بتقصير فترة الاتفاق بشأن تواجد القوات الاسرائيلية في الضفة والقطاع ، وسيكون « الانتقال من الحكم الذاتي الى دولة م.ت.ف قصيرا وسريعا » ، وليس هذا فحسب وانما يمكن ان يجيء مشروع الحكم الذاتي عرب المثلث الصغير والناصرة للانضمام الى الحكم الذاتي (دافار ٢٣-١٢-٧٧) .

وطالب البعض بقول الحقيقة للجمهور حتى ولو كانت غير مستحبة في هذه اللحظة ، وهي ان الادارة الذاتية في المناطق الخاضعة للسيطرة العسكرية والامنية الاسرائيلية هي حل سيء بالنسبة لتطلعات الفلسطينيين وكذلك خطر كبير جدا على أمن اسرائيل . ان مثل هذا الحل يمكن ان يكون قنبلة زمنية ، تحول التسوية المرتقبة بين اسرائيل ومصر الى هدنة اخرى قصيرة بين حربين ، « وان من يتفحص

كيف انهارت التسويات بعد حرب سيناء سيجد انه كان للارهاب الفلسطيني نصيب محترم في عملية التصعيد العسكري والتدهور السياسي الذي تسبب في حرب الايام الستة » (داني زمير ـ حوتام ٢٣ـ١٢ـ٧٧) ٠

اضافة الى ذلك ، فان مشروع الادارة الذاتية يمكن ان يغلق الطريق امام التسوية مع الاردن وخلق وضع يتناحر فيه ، داخل الضفة الغربية ، الحكم الاسرائيلي وجهات اردنية وادارة ذاتية محلية ، ورجال غوش ايمونيم ومؤيدو م٠ت٠ف٠

وهذه الظروف هي « مثالية » لموجة جديدة من النشاط الفدائي الفلسطيني وللتصعيد العسكري والتدهور السياسي٠ كما ان مسألة ترك السيادة على المناطق مفتوحة ليست مسألة سهلة ، حيث انها ستؤدي الى ثلاثة امور : اما ضم المناطق المحتلة الى اسرائيل او قيام دولة ثالثة، او الحرب ٠

الحل مع الاردن

عبر الكثير من المسؤولين والمعلقين الاسرائيليين عن تأييدهم لحل مسألة الضفة والقطاع مع الاردن ، لانه بحسب رأيهم لن يكتب النجاح لاي حل اخر ٠ ويقف على رأس هؤلاء حزب العمل الذي يعمل جاهدا وبكل ما في وسعه من اجل الحيلولة دون قيام اي كيان او دولة فلسطينية ٠ ومن هنا فان خلافه الاساسي مع حكومة بيغن يكمن في اعتقاده ان مشروع الحكم الذاتي سيؤدي الى قيام تلك الدولة ٠ ولذلك ، ولكي يغلق الباب نهائيا في وجه اي احتمال كهذا فان حزب العمل يرى تطبيق الحل الاقليمي الوسط مع الاردن لكي يتدبر الاردن نفسه عملية ضبط الفلسطينيين والحيلولة نهائيا دون تحقيق طموحهم في تكوين دولة خاصة بهم ٠ وقد علق شمعون بيرس على ذلك بقوله : « ان الحل الوسط في الضفة الغربية اذا لم يكن مرتبطا مع الاردن فهو سيتحول الى جنين للدولة الفلسطينية » ٠ وانتقد بيرس سياسة الحكومة الحالية بعدم اجراء اتصالات بهذا الصدد مع الاردن ، واعتبر ذلك ناجما عن « الالتزام الحزبي »لليكود الذي رفض تسليم الضفة « للسيادة الاجنبية » (دافار ٢٣ـ١٢ـ٧٧) ٠

كما انتقد حاييم تسادوك ، وزير العدل السابق موقف كل من الليكود والمعراخ فيما يتعلق بحل مسألة الاراضي المحتلة ، فقال ان من ينادي بموقف الليكود ، الذي ينص على السيادة الاسرائيلية في الضفة والقطاع ، فان عليه ان يكتب طموحاته . اذا ما اراد احلال تسوية متفق عليها ، لانه لا يوجد هناك اية جهة عربية مستعدة للتوقيع على الاعتراف بالسيادة الاسرائيلية على هذه المنطقة ٠ كما ان الذي ايد البرنامج الانتخابي للمعراخ حول التسوية الاقليمية الوسط ، ينبغي عليه ايضا ان يجمد مشروعه اذا ما اراد تحقيق تسوية متفق عليها ، لانه لا يوجد هناك اي عربي على استعداد للتوقيع على تقسيم الضفة والقطاع والاعتراف بالسيادة الاسرائيلية عليها ٠ وانتقد تسادوك من جهة اخرى مشروع بيغن للحكم الذاتي ، لانه يصعب على الاردن القبول به ٠ واكد انه اذا لم تتوصل اسرائيل الى حل مع الاردن وتحاول تطبيق الحكم الذاتي دون العناصر « الاردنية » فسيظهر خطران : لن يوجد في المناطق جهة عربية ـ فلسطينية جديدة تشرك نفسها في تنفيذ الحكم الذاتي والاخطر من هذا فان عناصر م٠ت٠ف٠ سيسيطرون على الادارة الذاتية ويحولوها الى اداة لتنوير السكان ولاستمرار

النضال ضد اسرائيل ، بهدف اقامة دولة فلسطينية غير مرتبطة بالاردن ٠ ولهذا وخوفا من تغلغل منظمة التحرير ، فانه يجب ان يكون هناك ارتباط قوي للاردن بالادارة الذاتية ، وذلك لكي تؤثر على المجلس الاداري وتجعله « معتدلا » وكذلك لكي تساهم في الحفاظ على النظام العام ٠ وفي مثل هذه الحالة ، هناك احتمال لتطور التعاون الوثيق بين الاردن واسرائيل وسكان المناطق خلال سنوات الحكم الذاتي (معاريف ٦ـ١ـ٧٨) ٠

وحذر المعلق بوعزعفرون ، انه اذا ما شعر سكان المناطق بان « الحكم الذاتي » ليس الا وسيلة للتخلص منهم والتخلي عنهم للحكم الاسرائيلي ، عن طريق صيغة تخلص مصر والدول التي ستتعاون معها والتوصل الى تسوية شاملة مع اسرائيل ، فان الغليان لن يتوقف بينهم ٠ ولذلك فان الطريق الوحيد الذي يمكن بواسطته التوصل الى تسوية للمشكلة الفلسطينية هو الاستقلال او الحكم الذاتي ضمن الاطار الاردني ٠ كما لا يمكن ان تتم اية تسوية من وراء ظهر الفلسطينيين دون ان يخربوها ٠ ولو تجرأ بيغن وسار الى الامام عدة خطوات وابتعد مسافة كافية عن المواقف الايديولوجية التي تمسك بها طيلة حياته لادرك ان المصلحة الاسرائيلية الاساسية تكمن في جلب الفلسطينيين الى مؤتمر وحل مشكلتهم بصورة لائقة قبل اي حل اخر والزامهم بالتوقيع على الاتفاقية التي يتم التوصل اليها (يديعوت احرونوت ١٦ـ١٢ـ٧٧) ٠

الحكم الذاتي يؤدي الى دولة ثنائية القومية ٠

ابدى البعض تخوفه من ان يؤدي مشروع الحكمالذاتي الى قيام دولة ثناتيه القومية ، وذلك في اعقاب شمل المناطق المأهولة بالعرب في الضفة الغربية وقطاع غزة ضمن الاطار السياسي لدولة اسرائيل ٠ واولئك السكان العرب ، بالاضافة الى الذين سينضمون اليهم في اطار « جمع شمل العائلات » والزيادة الطبيعية ،ستؤثر على الوضع الديمغرافي، مما يحول اسرائيل الى دولة ثنائية القومية ٠ وكان على رأس هؤلاء المعلق دوف براسلر ، الذي اعلن صراحة انه يفضل اقامة دولة فلسطينية مستقلة الى جانب اسرائيل على دولة ثنائية القومية، التي ستحقق في النهاية ادعاء م٠ت٠ف في اقامة دولة ديمقراطية يعيش فيها المسلمون واليهود والمسيحيون ٠ واضاف براسلر انه يجب علينا الا ننسى ان ما يحدد هوية وطابع اي منطقة اقليمية ، ليس العلم الذي يرفرف على مبنى الادارة ، وانما هوية السكان الذين يعيشون هناك ٠ ولذلك « علينا ان نكون صادقين مع انفسنا ومع العرب ، والا نستمر في الكذب انه في اطار الدولة اليهودية يمكن ان يطوروا هويتهم القومية وتراثهم التربوي بصورة متساوية، ولهذا يحظر على اسرائيل ان توسع حدودها الى درجة تؤدي الى زيادة عدد السكان العرب فيها بصورة كبيرة لان ذلك يشكل خطرا على طابعها اليهودي المحض » (معاريف ٢٨ـ١٢ـ٧٧) ٠

حمدان بدر

مشروع الحكم الذاتي

النص الحرفي لخطاب رئيس الحكومة الاسرائيلية مناحيم بيغن حول الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، كما ورد في خطابه امام الكنيست في ٢٨-١٢-١٩٧٧ ٠

سيدي الرئيس ، سيداتي وسادتي اعضاء الكنيست ٠

من اجل احلال السلام ، فاننا نقترح ان نمنح الحكم الذاتي الاداري للسكان العرب في يهودا والسامرة واقاليم غزة ، على اساس المبادىء التالية :

١ – ادارة الحكم العسكري في يهودا والسامرة واقاليم غزة ستلغى

٢ – سيقام في يهودا والسامرة واقاليم غزة حكم ذاتي اداري للسكان العرب في هذه المناطق ، من قبل سكانها ولهم ٠

٣ – يقوم سكان يهودا والسامرة واقاليم غـزة بانتخاب مجلس اداري يضم ١١ عضوا ٠ وسيعمل هذا المجلس الاداري وفقا للمبادىء المحددة في هذه الوثيقة :

٤ – كل مواطن عمره ١٨ عاما فما فوق وبغض النظر عن جنسيته ، او اذا كان فاقد الجنسية ، من حقه ان ينتخب هذا المجلس الاداري ٠

٥ – على كل مواطن يبدي رغبة في تقديم قائمة مرشحين تضم اسمه للمجلس الاداري ، ان يكون عمره ٢٥ سنة فما فوق ، وسيكون من حقه ان يقترع للمجلس الاداري ٠

٦ – يجري انتخاب المجلس الاداري في انتخابات عامة ، مباشرة ، شخصية ، متساوية وسرية ٠

٧ – يكون الحد الاقصى لفترة عمل هذا المجلس الاداري اربع سنوات من يوم انتخابه ٠

٨ – سيكون مقر المجلس الاداري في بيت لحم ٠

٩ – ستكون كافة الشؤون الادارية المتعلقة بالسكان العرب في مناطق يهودا والسامرة واقليم غزة ، من ضمن مسؤوليات المجلس الاداري ٠

١٠ – يشرف المجلس الاداري على الدوائر التالية : دائرة التعليم ، دائرة الشؤون الدينية ، الدائرة المالية ، دائرة المواصلات ، دائرة البناء والاسكان ، دائرة الصناعة ، دائرة تأهيل اللاجئين ، دائرة الادارة القضائية والاشراف على قوات الشرطة المحلية ٠
ويقوم المجلس الاداري بوضع اللوائح المتعلقة بعمل هذه الدوائر ٠

١١ – يكون الامن والنظام العام في مناطق يهودا والسامرة واقليم غزة من اختصاص السلطات الاسرائيلية ٠

١٢ – يقوم المجلس الاداري بانتخاب رئيس المجلس ، بعد اذاعة نتائج الانتخابات

١٣ – تعقد الجلسة الاولى للمجلس الاداري بعد ثلاثين يوما من اعلان نتائج الانتخابات ٠

الى هنا سيدي الرئيس ، هذه هي الناحية الادارية للحكم الذاتي للسكان العرب في يهودا والسامرة واقليم غزة ٠
والان سأتحدث عن الناحية البرلمانية ٠

١٤ ـ سيمنح سكان يهودا والسامرة واقليم غزة ، دون فرق بين الذين يملكون جنسية او الذين لا يملكون جنسية ،امكان الاختيار الحر في الحصول على جنسية اسرائيلية او جنسية اردنية ٠

١٥ ـ السكان في يهودا والسامرة واقليم غزة ، الذين سيطلبون الجنسية الاسرائيلية ، سيحصلون عليها وفقا لقانون التجنس في الدولة ٠

١٦ ـ سيكون من حق سكان يهودا والسامرة واقليم غزة ، الذين سيختارون وفقا لحقهم في الاختيار الحر ، الجنسية الاسرائيلية ، الانتخاب وترشيح انفسهم للكنيست وفقا لقانون الانتخابات ٠

١٧ ـ اما سكان يهودا والسامرة واقليم غزة الذين يحملون الجنسية الاردنية ، او الذين سيحصلون على الجنسية الاردنية ، وفقا لحقهم في الاختيار الحر ، فسيكون من حقهم الانتخاب وترشيح انفسهم للبرلمان في المملكة الاردنية الهاشمية ، وفقا لقانون الانتخابات في تلك الدولة ٠

١٨ ـ اما القضايا المتعلقة بالانتخاب للبرلمان الاردني من قبل سكان يهودا والسامرة واقليم غزة ، فسوف تحدد في مفاوضات بين اسرائيل والاردن ٠

١٩ ـ ستقام لجنة من ممثلين عن اسرائيل والاردن والمجلس الاداري ، لدراسة التشريعات القائمة في يهودا والسامرة واقليم غزة ، وسوف تقرر اللجنة التشريعات التي ستبقى سارية ، وتلك التي سيتم الغاؤها ، كما ستقرر اللوائح ، على ان تتخذ قرارات اللجنة بالاجماع ٠

٢٠ ـ سيكون من حق سكان اسرائيل شراء الاراضي والاستيطان في مناطق يهودا والسامرة واقليم غزة ٠ وسيكون من حق العرب سكان يهودا والسامرة واقليم غزة ، الذين سيكونون وفقا للاختيار الحر حاملين للجنسية الاسرائيلية ، شراء الاراضي والاستيطان في اسرائيل ٠

٢١ ـ ستؤلف لجنة من ممثلين عن اسرائيل والاردن والمجلس الاداري ، من اجل تحديد لوائح الهجرة الى مناطق يهودا والسامرة واقليم غزة ٠ ستقوم اللجنة بتحديد هذه اللوائح التي بموجبها يسمح للاجئين العرب خارج يهودا والسامرة واقليم غزة ، الهجرة بصورة معقولة الى هذه المناطق ٠ وتتخذ قرارات هذه اللجنة بالاجماع ٠

٢٢ ـ تؤمن حرية الحركة لسكان اسرائيل وسكان يهودا والسامرة واقليم غزة ، وكذلك حرية النشاط الاقتصادي في اسرائيل وفي يهودا والسامرة واقليم غزة ٠

٢٣ ـ يقوم المجلس الاداري بتعيين احد اعضائه لتمثيله امام الحكومة الاسرائيلية من اجل بحث المواضيع المشتركة ، كما سيقوم عضو اخر من المجلس الاداري بتمثيل المجلس امام الحكومة الاردنية من اجل بحث المواضيع المشتركة ٠

٢٤ ـ تتمسك اسرائيل بحقها ومطالبتها في السيادة على يهودا والسامرة واقليم غزة ، وحيث ان اسرائيل تدرك ان هناك مطالب اخرى ، فانها تقترح من اجل الاتفاق والسلام ، ترك موضوع السيادة في هذه المناطق مفتوحا ٠

٢٥ ـ اما فيما يتعلق بادارة الاماكن المقدسة للاديان الثلاثة في القدس ، فسيتم اعداد وتقديم اقتراح خاص ، من خلال ضمان حرية الوصول لجميع ابناء الاديان الى اماكنهم المقدسة ٠

٢٦ ـ تكون هذه المبادىء خاضعة لاعادة النظر بعد فترة خمس سنوات ٠

رأأ ٢٩ـ١٢ـ١٩٧٧

هاتسوفيه ٢٩ـ١٢ـ١٩٧٧

قضـايا عسكـريـة

« اسلحة جديدة لسوريا »

نشرت الصحف في ١٩ـ١ـ١٩٧٨ ، نقلا عن وكالة « رويتر » ، نبأ مفاده ان دفعة كبيرة من الاسلحة السوفييتية ، تشمل نوعا متطورا من صواريخ « سام ـ ٦ » ونحو ١٢ طائرة قاذفة مقاتلة من نوع « ميغ ـ ٢٣ » وكمية غير معروفة من دبابات « ت ـ ٦٢ »، يتوقع ان تصل الى سوريا خلال شهر كانون الثاني (يناير) من العام ذاته ٠ وان هناك نشاطا غير عادي في ميناء اللاذقية يؤكد صحة هذه المعلومات ، وان هذه الشحنات الجديدة من الاسلحة المتطورة جاءت ، على الارجح ، نتيجة زيارة اللواء « حكمت الشهابي » الى « موسكو » خلال كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٧ ، حيث اجرى مباحثات مع وزير الدفاع السوفييتي « ديمتري اوستينوف » ونائبه الماريشال « نيقولاي اوغاركوف » ، لم ينشر عنها شيء ٠ وفي ١٢ـ١ـ٧٨ قالت صحيفة « هآرتس » الاسرائيلية ان الاتحاد السوفييتي يزود الان سوريا والعراق وليبيا ومنظمة التحرير الفلسطينية بكميات كبيرة من الاسلحة ، دون ان توضح معلوماتها عن نوعية وكمية هذه الاسلحة لاي من الجهات المذكورة ٠ وفي مقابلة له مع الاذاعة الاسرائيلية ، جرت يوم ١٣ـ١ـ٧٨ ، قال الجنرال «غور» ، رئيس الاركان الاسرائيلي السابق ، اثر حضوره جلسات اللجنة العسكرية الاسرائيلية ـ المصرية في القاهرة ، معلقا على هذه الانباء « اننا نراقب ما يجري هناك ٠٠ وان جبهة اسرائيل مع سوريا والعراق والى حد اقل مع الاردن ،يمكن ان تصبح ناشطة » ٠ وذكرت مصادر ديبلوماسية ان صفقة الاسلحة الجديدة لسوريا ستمولها الجماهيرية الليبية وذلك وفقا لما يقال انه تم الوصول اليه من اتفاق في قمة طرابلس من موافقة الاخيرة على شراء سوريا اسلحة من الاتحاد السوفييتي قيمتها مليار دولار (كما نشرت النهار في ٢٥ـ١ـ٧٨) ٠وقد أشار وزير الخارجية السوري « عبد الحليم خدام » ضمنا الى صفقة الاسلحة الجديدة المذكورة ، في محاضرة ألقاها في جامعة دمشق يوم ٢٤ـ١ـ٧٨ حيث قال انه « من الطبيعي ان نبادر الى ترتيب اوضاع جديدة من شأنها ان تعيد التوازن الاستراتيجي بيننا وبين العدو الصهيوني وان تمكننا من متابعة الصراع حتى تتحقق اهداف امتنا » ٠

ولا شك ان الاسلحة الجديدة ستدعم قدرة سوريا العسكرية في مواجهة القوة العسكرية الاسرائيلية المتزايدة وذلك للاسباب المفصلة التالية :

١ ـ اهمية الطائرة « ميغ ـ ٢٧ » :

« الميغ ـ ٢٧ » هي الطراز المعدل من « الميغ ـ ٢٣ » للقيام بمهام القصف التكتيكي والدعم الارضي القريب والاختراق في العمق ٠ وكانت تعرف من قبل في كتابات الطيران الغربية باسم « ميغ ـ ٢٣ ب » (فلوجر ـ د) ، قبل ان يعرف اسمها الحقيقي وهو « الميغ ـ ٢٧ » ٠ ولما كان النبأ المنشور يقول « ١٢ طائرة « ميغ ـ ٢٣ » قاذفة مقاتلة » ، فاننا نرجح ان الطائرات المذكورة هي « الميغ ـ ٢٧ » ، والتي يوجد منها نحو ٤٨ طائرة من قبل لدى السلاح الجوي السوري ، وذلك لان « الميغ ـ ٢٣ » مقاتلة معترضة لجميع الاجواء في الاساس وقدراتها في القصف

الارضي ، رغم فاعليتها ، تعتبر قدرة ثانوية على حين ان « الميغ ـ ٢٧ » هي قاذفة ـ مقاتلة ذات قدرة ممتازة على الاختراق في العمق على ارتفاعات منخفضة ، وهي تقابل في الغرب الطائرة « جاغوار » ، وان كانت في الواقع افضل من الاخيرة في بعض النواحي ، كما سنرى عند مقارنة بعض مواصفات « الميغ ـ ٢٧ » الفنية ٠ وهي تتشابه مع « الميغ ـ ٢٣ » من حيث الشكل العام نظرا لاحتوائه على جهاز الليزر الخاص بتقدير مدى الاهداف الارضية ، وكل من الطائرتين مزود بمحرك واحد من طراز واحد تبلغ قوة دفعه العادية ٨ الاف كلغ ، ولكن الحراق الخلفي الموجود بالميغ ـ ٢٣ اقوى ويرفع قوة دفع المحرك عند التسارع الى ١٢ الف كلغ ، على حين ان حراق « الميغ ـ ٢٧ » يرفع قوة الدفع الى ١٠ الاف كلغ تقريبا فقط ٠ ويرجع ذلك الى حاجة « الميغ ـ ٢٣ » لقوة دفع اكبر عند التسارع ضمن ظروف القتال الجوي ، على حين ان « الميغ ـ ٢٧ » تقاتل اساسا قرب سطح الارض ولا تستخدم الحراق الخلفي بالدرجة ذاتها التي تستخدمه بها «الميغ ـ ٢٣» ٠ وكل من الطائرتين لهما نظام الاجنحة ذات الهندسة المتغيرة التي تستخدم لزيادة السرعة عند طيهما او تخفيضها عند بسطهما ٠

وفيما يلي ابرز مواصفات « الميغ ـ ٢٧ » الفنية : (١)

المحرك : « قوته العادية ٨٠٠٠ كلغ / ١٠٠٠٠ مع الحراق (الجاغوار : ٢ محرك قوتهما ٤٢٠٠/٦٥٠٠) ٠

الوزن : فارغة ١٠٧٠٠ كلغ (الجاغوار ٦٨٠٠ كلغ) ٠

الوزن العادي : ١٤٧٠٠ كلغ (الجاغوار ١١٠٠٠ كلغ) ٠

الوزن الاقصى : ٢٠٤٠٠ كلغ ، (الجاغوار : ١٥٥٠٠ كلغ) ٠

معدل الوزن لقوة الدفع : ٧ر٠ للوزن العادي و ٥ر٠ للوزن الاقصى (الجاغوار ٦ر٠ للوزن العادي و٤ر٠ للوزن الاقصى)٠

السرعة القصوى : ١٩٠٠ كلم/ساعة (٨ر١ ماك) على ارتفاع ١٢ الف متر ٠ (الجاغوار : ١٦٠٠ كلم/ساعة « ٥ر١ ماك » على ارتفاع ١٢ الف متر) ٠

١٣٥٠ كلم/ساعة (١ر١ ماك) على ارتفاع سطح البحر ، (الجاغوار : ١٣٢٠ كلم/ساعة (١ر١ ماك) على ارتفاع سطح البحر) ٠

السرعة القتالية : ١٦٠٠ كلم/ساعة (٥ر١ ماك) على ارتفاع ١٢ الف متر ٠

سرعة الاختراق : ١٢٠٠ كلم/ساعة (٩٨ز٠ ماك) على ارتفاع سطح البحر ٠

(الجاغوار : ١٢٠٠ كلم/ساعة (٢ر١ ماك) على ارتفاع ١٢ الف متر) ٠

(الجاغوار : ٨٥٠ كلم/ ساعة (٨ر٠ ماك) على ارتفاع سطح البحر) ٠

اقصى ارتفاع عملي : ١٦٥٠٠ متر (الجاغوار : ١٤٣٠٠ متر) ٠

المدى العادي للرحلات (دون وقود خارجي) ٢٥٠٠ كلم (الجاغوار ٢٦٠٠ كلم) ٠

المدى الاقصى للرحلات (وقود خارجي اقصى) ٤٢٠٠ كلم (الجاغوار ٤٢٠٠كلم)٠

---

١ ـ المواصفات مستندة اساسا الى :
G. Panyalev. The Mig 23, International Defense Review, April 1977 p.p. 48—53.

المدى القتالي : الحمولة	الارتفاع عالي ـ منخفض ـ عالي	الارتفاع منخفض ـ منخفض ـ منخفض
١٠٠٠ كلغ قنابل	١٢٥٠ كلم (الجاغوار ١٣١٥ كلم)	٦٥٠ كلم (الجاغوار ٧٥٠ كلم)
٢٠٠٠ « «	١١٥٠ كلم (الجاغوار ١١٤٠ كلم)	٦٠٠ كلم (الجاغوار ٦٢٥ كلم)
٣٠٠٠ « «	٩٥٠ كلم (الجاغوار ٨١٥ كلم)	٤٥٠ كلم (الجاغوار ٥٧٥ كلم)
٤٠٠٠ « «	٧٧٥ كلم (الجاغوار ٧٢٥ كلم)	٣٥٠ كلم (الجاغوار ٤٠٠ كلم)

ويلاحظ هنا التقارب الكبير بين قدرات الطائرتين في حالة حمولة الـ ٢٠٠٠ كلغ قنابل ، التي تعتبر الحمولة النموذجية لهما ، مع ضرورة الاخذ في الاعتبار ان مدى « الجاغوار » في حالة الاختراق على ارتفاعات منخفضة محسوب على أساس سرعة ٨٥٠ كلم/ساعة ، على حين ان مدى « الميغ ـ ٢٧ » في هذه الحالة محسوب على اساس سرعة ١٢٠٠ كلم/ ساعة الامر الذي يزيد من استهلاكها للوقود ومن ثم فان مداها يزيد بنحو الثلث في حالة طيرانها بسرعة ٨٥٠ كلم فقط ٠

كمية الوقود الداخلي القصوى : ٤٣٠٠ كلغ (٥٣٨٠ ليتر) ٠

(الجاغوار : ٣٣٤٠ كلغ « ٤٢٠٠ ليتر ») ٠

كمية الوقود الخارجي القصوى : ٣٥٧٥ كلغ (٤٥٠٠ ليتر) ٠

(الجاغوار : ٢٨٦٠ كلغ « ٣٦٠٠ ليتر ») ٠

التسليح: مدفع دوراني سداسي الفوهات عيار ٣٠ ملم و ٤٠٠٠ كلغ قنابل ٠ (الجاغوار : مدفعان عيار ٣٠ ملم و ٤٥٠٠ كلغ قنابل) ٠

المعدات الالكترونية : جهاز رادار للرصد والانذار المبكر ، ورادار لتلافي التضاريس الارضية يتيح لها الطيران على ارتفاعات شديدة الانخفاض من خلال التخفي وراء التضاريس من تلال واشجار ومباني ، ومقدر مدى يعمل بأشعة ليزر ، ونظام تحكم في اطلاق النار يعمل في جميع الاحوال الجوية ، ونظام للتشويش الالكتروني على الرادارات المعادية ٠

ويلاحظ ان قدرات «الميغ ـ ٢٧» تتساوى تقريبا مع قدرات « الفانتوم » في القصف الارضي ، اذ انها تستطيع ان تصل بحمولة ٢٠٠٠ كلغ لمدى ١١٠٥ كلم على ارتفاع عالي و ٦٠٠ كلم على ارتفاع

منخفض ، على حين ان مدى « الفانتوم » في الحالتين المذكورتين هو ١٠٥٠ كلم و ٦٥٠ كلم على التوالي ٠ مع ضرورة الاخذ في الاعتبار بقدرة « الميغ ـ ٢٧ » الافضل بكثير في المناورة على الارتفاعات المنخفضة لانها مصممة على هذا الاساس ، وتكشف هذه القدرات للميغ ـ ٢٧ ، ان بامكان الـ ٦٠ طائرة تقريبا الموجودة منها الان لدى الطيران السوري ، ان تصل الى اي نقطة في عمق اسرائيل بحمولة ٢٠٠٠ كلغ من القنابل على ارتفاعات منخفضة طوال رحلة الذهاب والاياب لتقليل فرص اكتشافها او مطاردتها ٠

٢ ـ اهمية « سام ـ ٦ » المطور :

وهو صاروخ ارض ـ جو مضاد للطائرات ، يحمل ويطلق من فوق عربة مدرعة ذات جنازير ، تحمل ٣ صواريخ مثبتة فوق منصة قابلة للحركة في جميع الاتجاهات دون تحرك العربة التي تحملها ، وهو يستطيع التعامل مع الطائرات التي

تطير على ارتفاع ١٠٠ والى اكثر من ١٨ الف متر ، ويصل مداه الاقصى افقيا على ارتفاعات متوسطة وعالية الى نحو ٦٠ كلم ، وفي حالة الارتفاعات المنخفضة يصل مداه الى نحو ٣٠ كلم ٠ وهو ينطلق في البداية بسرعة تبلغ ١ر٥ ماك ، ثم تصل الى نحو ٣ ماك بعدقليل لتكفل له سرعة اصابة الطائرات على اي ارتفاع تكون عليه ٠

ويتم توجيه الصاروخ في البداية بالراديو عبر احداثيات الرادار ، وعند حصول تشويش لاسلكي يتم توجيهه بواسطة بيروسكوب بصري ٠ وفي المرحلة الاخيرة يتولى الرادار المركب في مقدمة الصاروخ توجيهه نحو الطائرة ٠ وعند حدوث تشويش الكتروني مضاديقفل الرادار المذكور ويتحول التوجيه الى جهاز الاشعة تحت الحمراء الموجود بمقدمة الصاروخ ، وهذا هو سر عدم افلات الغالبية الساحقة من الطائرات الاسرائيلية

التي تعرضت للصاروخ المذكور اثناءحرب ١٩٧٣ ، رغم محاولات التشويش المختلفة التي طبقتها ٠ ويبلغ طول الصاروخ ٦ر٢ امتار ، ووزنه ٥٥٠ كلغ تقريبا ، منها ٨٠ كلغ وزن رأسه المتفجرة ٠ وجهاز الرادار الخاص به (بخلاف الرادار الصغير المركب في مقدمته) مركب على عربة مجنزرة هو الاخر ، ليتمتع بالحركية وسرعة المناورة الذي تتمتع به عربة الصواريخ ، وله هوائيان ، احدهما للارتفاعات المنخفضة والاخر للارتفاعات العالية ٠ وقد ظهر منه نوع مطور بعد حرب ٧٣ ليواجه احتمالات الوسائل المضادة له ، التي جرى تطويرها في الولايات المتحدة الاميركية عقب الحرب المذكورة على ضوء نماذج منه وقعت كغنائم اثناء الحرب وتم نقلها الى الولايات المتحدة ٠ ولا تعرف حاليا بطبيعة الحال نوعية هذه التطويرات ، ولكن الطيران الاسرائيلي سيدخل في حسابه

على نحو كبير مخاطر التعمق فوق الجبهة السورية التي تحميها صواريخ « سام ــ٦»، فضلا عن الصواريخ الاصغر منه واقلمدى والتي تشكل معه شبكة متكاملة الاداء ،من انواع « سام ــ ٢ » و « سام ــ ٣ » و«سام ــ٨ » و « سام ــ ٩ » و « سام ــ ٧ » ورشاشات « زد اس يو ــ ٢٣ » الموجهة بالرادار وغيرها من اسلحة الدفاع الجوي السوري التي تحمي الاجواء السورية بفاعلية ٠

٣ ــ اهمية الدبابة « ت ــ ٦٢ » :

يبلغ وزن الدبابة المذكورة بحمولة القتال ٣٦ر٥ طنا ، وطول هيكلها ٦ر٧امتار وعرضها ٣ر٣ امتار ، وارتفاعها ٢ر٤مترا٠ وتبلغ قوة محركها الديزل ٧٠٠ حصان عند تحقيقه ٢٢٠٠ دورة في الدقيقة ، ومن ثم تبلغ نسبة قوة الدفع الى الوزن فيها ١٩ر١٧ حصانا لكل طن ، مما يعني توفر قدرة جيدة علىالمناورة بالنسبة للدبابة المذكورة ٠ على حين ان الدبابة « م ــ ٦٠ »

الاميركية الصنع والموجودة لدى الجيش الاسرائيلي يبلغ وزنها بحمولة القتال نحو ٤٩ طنا ، وتبلغ قوة محركها ٧٥٠ حصانا عند تحقيقه ٢٤٠٠ دورة في الدقيقة ،وهذا يعني نسبة قوة دفع تصل لاكثر قليلا من ١٥ حصانا لكل طن فحسب ٠ واقصى سرعة لدبابة « ت ــ ٦٢ » على الطرق ٥٠ كلم ــ ساعة ، واقصى مدى لها على الطرق بدون تزود بالوقود اثناء السير ٦٠٠ كلم٠ ويبلغ سمك درع برجها في المقدمة ١٧٠مم و ٨٠ مم في الجانبين ، وسمك درع الهيكل الامامي ١٠٠ مم ٠ وهي مسلحة بمدفع عيار ١١٥ مم ، ورشاش ٧ر٦٢ ، واحيانا يركب عليها رشاش م/ط عيار ١٢ر٧ مم ٠ وكان المعتقد ، في الكتابات الغربية الفنية ، ان المدى المؤثر للمدفع

الرئيسي بقذيفة خارقة للدروع نابذة للكعب «Apfsds» يبلغ نحو ١٦٠٠ متر لخرق درع سمكه ٣٠٠ مم ، ونحو ١٠٠٠ متر لخرق درع سمكه ٤٥٠ مم بقذيفة شديدة الانفجار خارقة للدروع «Heat» · ولكن التجارب العملية التي اجريت على المدفع المذكور بواسطة الجيش الاسرائيلي ،عقب حرب ٧٣ وسقوط عدد من هذه الدبابات كغنائم لديه ، اثبتت قدرة خرق المدفع لدرع الدبابة « السنتوريون » الامامي بالنوع الاول من القذائف من مسافة ٣٠٠٠ متر على الاقل ، وكذلك الحال بالنسبة للنوع الثاني من القذائف · بل انها فعالة على مدى ٤٠٠٠ متر اذا ما كان من المكن تقدير المدى بدقة وتم اطلاق عدة قذائف بسرعة نحو الهدف · وذلك كما يقول الكاتب العسكري الاميركي « جاك ويلر »في مجلة « ميلتري ريفيو » الاميركية في عدد ايار (مايو) ١٩٧٦ ، الذي قال ايضا « ان افضل شيء في الـ ت ـ ٦٢ هو مدفعها ذو الجوف الاملس عيار ١١٥ مم · فليس هناك اي شك في ان القذائف المطلقة منه ذات فاعلية ضد الهدف ، اكبر من فاعلية أي مدفع دبابة اخرى في العالم حاليا ، حتى بالنسبة للمدفع المحلزن عيار ١٢٠ مم المركب على الدبابة شيفتن البريطانية » وبخصوص وزن الدبابة الخفيف بالنسبة لدبابات «السنتوريون » و « الباتون » و «م-٦٠» نظرا للتضحية قليلا بسمك الدروع مقابل الحصول على قدرة مناورة مع قوة نيران يقول الكاتب«ان هذا الوزن الخفيف واقترانه بالمحرك الديزل القوي الجديد والجنازير الاكبر ، يعني نسبة افضل في قوة الدفع بالنسبة لكل طن من الوزن ووزنا اقل على كل بوصة مربعة من الارض الرملية » · وبالاضافة الى ذلك فان الدبابة مزودة باجهزة رؤية وتصويب ليلية تعمل بالاشعة تحت الحمراء، وهي قليلة العطب وسهلة الصيانة .

ويستطيع طاقمها المدرب ان يرمي ٧ قذائف في الدقيقة · ولا شك ان الدفعة الجديدة التي وصلت للجيش السوري ، والتي لم يعرف عددها التقريبي ، ستزيد من قوة مدرعاته ، التي تضم نحو ٢٦٠٠ دبابة في منتصف العام ١٩٧٧ ، من بينها نحو ٨٠٠ دبابة « ت ـ ٦٢ » ، وتجعله في موقف افضل في مواجهة الجيش الاسرائيلي الذي يمتلك نحو ٣٣٠٠ دبابة ·

« صواريخ م/د فرنسية لسوريا » ·

ونشرت الصحف في ٩ـ٢ـ١٩٧٨ تصريحا لشمعون بيرس ، وزير الدفاع الاسرائيلي السابق ، ادلى به في مؤتمر صحفي عقده في « بون » بالمانيا الغربية انتقد فيه تزويد فرنسا لسوريا بصواريخ مضادة للدبابات· وذلك استنادا لما كان الامين العام للحزب الديمقراطي الاجتماعي الحاكم في المانيا الغربية قد كشف عنه قبل ذلك باسبوع من عقد فرنسا لصفقة صواريخ م/د مع سوريا قيمتها نحو ٢٤٠ مليون دولار ، تضمنت صواريخ « هوت » التي تصنع بواسطة فرنسا والمانيا الغربية ، فضلا عن صواريخ « ميلان » المصنعة بالطريقة ذاتها ·

والصاروخ « هوت » يبلغ طوله ١٢٧٥ مم ، وقطره ١٣٦ مم ووزنه ٢٣ كلغ وهو يطلق من انبوبة طولها ٣ر١ متر ويبلغ وزنها ١١ كلغ ، وهو يوجه سلكيا، ويمكن اطلاقه من فوق عربة مدرعة او من طائرة هليكوبتر او من فوق سطح سفينة، ويتراوح مداه بين ٧٥ مترا واكثر من ٤٠٠٠ متر · ويمكن له ان يخترق درعا سمكه ٨٠٠ مم ، ويستغرق وصوله الى الهدف على مسافة ٢٠٠٠ متر في ٧ر٨ ثانية والى ٣٠٠٠ متر في ٥ر١٢ ثانية والى ٤٠٠٠ متر في ٣ر١٦ ثانية · وهو يوجه بصريا ثم يوجه نفسه آليا بعد اطلاقه بالاشعة

تحت الحمراء ٠

اما الصاروخ « ميلان » فهو اصغرحجما واقل مدى ، اذ يبلغ طوله ٧٧٠ مم ،وقطره ٩٠ مم ، ووزنه مع القاذف وجهاز التوجيه ١٥ر٥ كلغ ، ويتراوح مداه بين ٢٥ مترا و ٢٠٠٠ متر ، ويستغرق وصوله الى مسافة ١٠٠٠ متر فترة ٧ر١ ثانية و ١٢ر٥ ثانية للوصول الى ٢٠٠٠ متر ٠ ويمكن اطلاقه من منصب ارضي او من فوق آلية٠

وستنضم هذه الصواريخ الى الصواريخ م/د الاخرى السوفييتية الصنع الموجودة لدى الجيش السوري لتدعم دفاعه المضاد للمدرعات ، والذي اثبت كفاءة كبيرة خلال حرب ١٩٧٣ ٠

« رفائيل ايتان » رئيسا للاركان الاسرائيلية ٠

اصدرت حكومة « بيغن » قرارا في ٢٩ــ١ــ١٩٧٨ بتعيين اللواء « رفائيل ايتان » ، او « رفول » كما يسمونه رئيسا للاركان العامة خلفا للواء « موردخاي غور » ، الذي شغل هذا المنصب منذ نيسان (ابريل) ١٩٧٤ خلفا لدافيد العازر رئيس الاركان ابان حرب ١٩٧٣ ، والذى جددت له حكومة حزب العمل عشية الانتخابات العامة عام ١٩٧٧ فترة رئاسته سنة رابعة، خلافا للمبدا العام الذي يقضي بالا تزيد مدة رئاسة رئيس الاركان عن ثلاث سنوات. وهو القرار الذي اثار وقتئذ « بيغن » . لانه كان يقيد سلفا وزيرالدفاع الجديد برئيس اركان اختارته عن عمد الحكومة السابقة ٠

وقد شهد العام الماضي ، حتى صدور قرار تعيين « ايتان » الاخير ، ما سمي بالسباق الى رئاسة الاركان في الصحافة الاسرائيلية ، التي تداولت اسماء عدد من الضباط الذين اعتبروا مرشحين اكثر من غيرهم للمنصب العسكري الهام ، الذي يعد بمثابة قائد عام للقوات المسلحة الاسرائيلية ٠ وضمت قائمة المرشحين المذكورين اسماء اللواء « هرتسل شابير » قائد المنطقة الجنوبية ، الذي كان مساعدا لوزير الدفاع « عيزر وايزمن » وقت ان كان الاخير رئيسا لشعبة ادارة العمليات ٠ واللواء « ايتان » ، الذي كان قائد المنطقة الشمالية عند مجيء«وايزمن» وزيرا للدفاع ٠ واللواء «يكوتيئيل ادام»، الذي كان رئيسا لشعبة ادارة العمليات في عهد « غور » . وكان مسؤولا عن تنفيذ عملية مطار « عنتيبي » وادارها من مركز العمليات الطائر ، في طائرة رافقت القوة التي نفذت العملية ٠

ولكن بعد ان عين « وايزمن » « ايتان» رئيسا لشعبة العمليات في الاركان العامة في ٢٢ــ٨ــ١٩٧٧ ، خلفا للواء « يكوتيئيل ادام » الذي اوفد الى الولايات المتحدة الاميركية لمتابعة دراسته العليا ، انحصر المرشحين الاكثر ترجيحا لشغل منصب رئيس الاركان في اثنين فقط من المرشحين السابقين ، وهما « ايتان » و « شابير » ، واصبح « ايتان » في الواقع هو الاكثر توقعا لشغل المنصب ، نظرا لان رؤساء الاركان السابقين كانوا رؤساء لشعبة العمليات قبل ذلك ٠

فقد شغل هذا المنصب ، قبيل تعيينه رئيسا للاركان ، كل من « ايغال يادين » و « موردخاي ماكليف » و « موشي ديان» و « حايم لاسكوف » و « اسحق رابين » و « حاييم بارليف » و « دافيد العازر » و « تسفي تسور » ٠ ولكن هذه القاعدة ليست مطلقة فموردخاي غور لم يكن رئيسا لشعبة العمليات عشية تعيينه رئيسا للاركان عام ٧٤ ، وانما كان قائدا للجبهة الشمالية ٠ كما ان ليس كل رئيس لشعبة العمليات اصبح رئيسا للاركان فقد شغل

هذا المنصب « يوسف افيدار » بين ١٩٥٣ و ١٩٥٥ ولم يعين رئيسا للاركان لان«ديان» شغل المنصب من١٩٥٣ حتى ١٩٥٨ ٠وكذلك شغله « مييروزويا » من ٥٦ حتى ٥٨ .كما شغله « اسرائيل تال » من ١٩٧٢ حتى اذار (مارس) ١٩٧٤ حيث قدم استقالته ، كما شغله مؤخرا « يكوتيئيل ادام » من ١٩٧٤ حتى ١٩٧٧ حتى تعيين « ايتان » كما سبق ان اوضحنا ٠

وقد سبق للمعلق والكاتب العسكري « زئيف شيف » ان علق على احتمالات تعيين رئيس الاركان الذي سيخلف « غور». اثر تعيين « ايتان » رئيسا لشعبة العمليات فقال ، في صحيفة « هآرتس » يوم ٢٦ـ٨ـ٧٧ ، « سيكون مدى نجاح رفول في هذا المنصب ذا اهمية كبيرة فياختيار رئيس الاركان المقبل ٠ وسيشغل رفول هذا المنصب قرابة نصف سنة وربما اكثر ٠٠٠ وهناك مسألة مهمة ستؤثر كثيرا في قرار وايزمن ، وهي تقديره للمرحلة التي ستواجهها اسرائيل : هل يحتمل ان تواجه حربا خلال السنوات الثلاث او الاربع المقبلة ؟ وفي مثل هذه الحالة سيقرر ، طبعا اختيار قائد محارب ٠وينبغي كما هو مفهوم ، أن نضع في حسابنا احتمال ان تكون هذه الاعتبارات خاطئة٠ فبعد حرب الايام الستة كان واضحا ان من سيخلف اسحق رابين سيقتصر عمله على بناء الجيش ٠ ولم تطل الايام حتى واجه الجيش الاسرائيلي حرب استنزاف مربكة ومعقدة من الناحيتين العسكرية والسياسية » (٢) ٠

و « رفول » يعتبر من وجهة النظر هذه قائدا محاربا ، وخبرته في مجال الاركان ضئيلة بالقياس لخبراته الرئيسية كضابط مقاتل وقائد تشكيلات ميدانية ، فقد كان في سلاح المظليين وشارك في العمليات التي جرت قبيل حرب ٥٦ تحت قيادة «شارون»، ضمن ما عرف بالوحدة ١٠١ ، كما تولى قيادة كتيبة المظليين الرابعة التابعة للواء ٢٠٢ ، التي اسقطت قرب المدخل الشرقي لممر متلا يوم ٢٩ـ١٠ـ١٩٥٦ عند بدء عدوان ١٩٥٦ الثلاثي على مصر ، كما قاد كتيبة المظليين ، التي استخدمت كمشاة ميكانيكية معاونة لكتيبة دبابات « باتون » في الالتفاف حول دفاعات « رفح »الجنوبية ضمن مجموعة عمليات « اوغدا » الجنرال « تال » التي هاجمت القطاع الشمالي من الجبهة المصرية يوم ٥ـ٦ـ١٩٦٧ ٠ وفي اثناء حرب الاستنزاف كان قائدا لسلاح المظليين وساهم في تخطيط وتنفيذ بعض عمليات « الردع » او « الرد المرن » ضد مصر في خليج السويس وفي صعيد مصر (اغارات نجع حمادي « وسوهاج » و « دافو » و « اسيوط » و « رأس غارب» و « شدوان » الخ في اعوام ٦٨ ـ ٧٠) ٠ ويقال ايضا انه قاد عملية الاعتداء على مطار «بيروت» عام ١٩٦٨ ٠ وفي حرب ١٩٧٣ قاد مجموعة عمليات « اوغدا » في جبهة الجولان بقطاعها الشمالي ، ضمت اللواء المدرع ٧ ولواء المشاة الميكانيكية « غولاني » ولواء المظليين ٣١ ، وقام بدور هام في صد الهجوم السوري هناك ، ثم في مرحلة الهجوم المضاد الذي اسفر عن ثغرة « سعسع » ، ثم عين قائدا للمنطقة الشمالية في نيسان (ابريل) ١٩٧٤ ، واستمر فيها حتى عين رئيسا لشعبة العمليات ٠ وهذا سجل يرشحهللقيام بدور رئيس الاركان المحارب الذي تحدث عنه « زئيف شيف » ، ولكن منصب رئيس

---

٢ ـ نشرة م٠د٠ف٠ ١/٧ ـ ١٦ ـ ٨ـ ١٩٧٧ ، صفحات ٥٧٠ ، ٥٧١ ٠

الاركان لا يحتاج لمجرد قائد محارب ،وانما يجب ان تتوفر لديه ايضا رؤية استراتيجية شاملة مبنيةعلى ثقافة عسكرية واستراتيجية كبيرة ، وقدرة جيدة على التخطيط ، وحسن أعداد القوات المسلحة بجميع فروعها ، فهل تتوفر لدى « رفول» ضابط المظليين المغامر مثل هذه الصفات ؟ هذا ما ستكشف عنه المرحلة المقبلة من تطور القوة العسكرية الاسرائيلية وعملياتها المحتملة ٠ ولكن على اي حال يبقى ان نقول ان اختيار « رفول » يشكل مؤشرا على استعداد اسرائيل لحرب تبدو قريبة مع العرب ، وبالذات على الجبهة الشمالية التي كان قائدها حتى وقت قريب ، وسوف يتسلم « ايتان » مهام منصبه الجديد اثر انتهاء مدة « غور » في نيسان (ابريل) المقبل ٠

محمود عزمي

ملحوظة : صفقة الطائرات الاميركية لاسرائيل والسعودية ومصر اعلن عنهما متأخرا ولم يتسع الوقت في هذا العدد لعرضها تفصيلا وتوضيح اثرها علىميزان القوات الخ ونأمل في عرضها الشهر القادم بعد ان يتضح مصيرها في مناقشات الكونجرس ٠

عبد الرزاق عيد

حنا مينه ، رحلة الكشف والاكتشاف

يقول هلدرلين :

« تعلم الفن في الحياة ، وتعلم الحياة في العمل الفني » تلك أساسية في جدلية الكشف والاكتشاف ، يضعنا حنا في جنبات رحلته الطويلة والشاقة ، وهذه الرحلة الغنية الثرة تأخذ مناحيها المتشعبة والمتشابكة :

أ ـ الكشف : وهو يجسد الجانب الموضوعي في عالم الكاتب ، كليته المستقلة ، ويسير على محورين :

١ ـ كشف « موضوع » العمل ، ويتمثل بعكسه للحادثة المنظومة في شبكية الزمان والمكان التاريخيين ٠

٢ ـ كشف « مضمون » العمل ، المتضمن للتصور الاجتماعي لدى الفنان ، (وهو مركب حي من مشاعر وافكار تبحث عن تعبيرها ، تتحد بالشكل الجديد الذين يتم اكتشافه والاعلان عنه وتطويره تحت ضغط ضرورة باطنية ، تحت ضغط طلب نفسي جماعي ، له ، ككل البسيكولوجيا الانسانية ، جذوره الاجتماعية) (١) ٠

ب ـ الاكتشاف : ويجسد الجانب الذاتي في عملية الابداع ، وهو يسير على عدة محاور ايضا :

١ ـ اكتشاف الذات ، ٢ ـ اكتشاف العالم ، ٣ ـ اكتشاف القاريء لذاته وللعالم ، من خلال عملية الكشف الموضوعية التي يعرضها الكاتب ٠

مما لا شك فيه ان تقسيمات كهذه تؤدي الى ضغط رياضي على هذه العوامل المتشابكة والمتناغمة والمتداخلة بدينامية ٠ بالاضافة الى ضرورة ادراك ان هذه العناصر التي فرزناها بتلك الطريقة لا بد وان نفهمها ضمن اطار قانون النسبية ، فما هو موضوعي

قد يتحول الى ما هو ذاتي ، وبالعكس ايضا ٠

ان عملية الاكتشاف التي تنطوي على هذه المحاور الثلاثة يحكمها قانون الحياة والفن الذي يرفض هذه التقسيمات العقلية بوحدته العضوية ذات الايقاع المتناغم ٠

لكننا عمدنا الى وضع هذه المحاور ، لنتمكن من ولوج عالم حنا وفي يدنا المفتاح ، لنتمكن ما وسعنا ان نضع يدنا على النسخ الجوهري ، سابرين الناظم الرئيسي الذي يحكم وحدة عالمه الفني ٠

فعملية الاكتشاف تتم ـ وبدون تقسيم ـ حيث ان الشخصية التي تبحث عن ذاتها في عالم تقف أمام سره مشدوهة حيرى ، لا يمكن لها ان تكتشف ذاتها الا من خلال اكتشاف العالم ، لتتمكن من تأصيل وجودها في احدى محطاته ، وعند ما تكتشف العالم فهي تسيطر عليه ، وتعيد صياغته وتركيبه عبر الثورة ٠

ومن هنا تتم عملية الانتقال من مملكة الضرورة الى مملكة الحرية ٠

فـ « أنجلز » يعرف الثورة الاشتراكية بأنها قفزة من ملكوت الضرورة الى ملكوت الحرية ٠

وعلى هذا فالحرية اذن ليست مسألة فردية ، وانما هي مسألة تاريخية اجتماعية ، ان الوعي الجماعي الطبقي التاريخي لحكم الضرورة هو الكفيل بالثورة عليها ، وعبر الثورة يتم الانتقال الى مملكة الحرية ٠

واذا كانت الحرية تحكم بقانون تاريخي اجتماعي ، فهي تختلف من مجتمع الى آخر ، ومن مرحلة الى أخرى ٠ فـ « الحرية في ظل المجتمع العبودي ، غير الحرية في ظل النظم الاقطاعية ، غير الحرية في النظام الرأسمالي ، غير الحرية عندما تزول النظم السياسية وتختفي الدولة ، ويتحقق ارقى وارفع مستوى للحرية » (٢) ٠

واذا كانت الرواية تهدف الى رصد أفراد ، فان حنا الكاتب الواقعي ينمط قيم الطبقة من خلال هؤلاء الافراد ، ولذا فان الفرد المحكوم بشبكية الضرورة الخارجية تفرز الاغتراب وضرورة داخلية هي جزء وانعكاس للضرورة الخارجية ٠ وعلى هذا فان كاتبنا رصد في أعماله الاولى (المصابيح الزرق ـ الشراع والعاصفة ـ الثلج يأتي من النافذة) الضرورة الخارجية ، المتمثلة بمواجهة العسف (الاستعماري المتحالف مع البورجوازية) ٠ فكان طابع الصدام خارجيا يترك انعكاساته الخفيفة على الضرورة الداخلية ٠

اما في اعماله (الشمس في يوم غائم ـ الياطر) فهو يرصد الضرورة الداخلية والتي هي بذاتها محصلة ونتاج للضرورة الاولى الخارجية) ٠

على حين ان (بقايا صور ـ المستنقع) ستأخذ منحى جديدا تلتقي فيه كلتا الضرورتين لتسحق بفظاظة مريعة كل انشداد انساني للوقوف على الاقدام ٠

واذا كانت الثورة هي القفزة بين المملكتين ، فان كاتبنا لا يألوا جهدا في تصعيد وتسعير التناقضات القائمة الى أن تصل الى تراكم سعيري لبشاعة الضرورة ، لترتطم بعنف وقسوة بالتعطش الشديد للحرية من قبل ابطاله المشدودين ابدا بأعينهم نحو مملكتها المستقبلية ٠

وعلى هذا فان كاتبنا الذي يمارس كشفه للواقع التاريخي · انما يعري ابعاد الضرورة المستحكمة ، لتتم عملية الاكتشاف (الوعي) من قبل شخوصه لعناصرها ·

وعندما تعرف الضرورة تلغى عشوائيتها ، ويتم السيطرة عليهـــا ، والانتقال الـــى الحرية لا بمعناها الليبرالي الفردي ، وانما بمعناها الانساني الاشتراكي ، فـ (الضرورة عمياء ما دامت غير معروفة) · كما يقول هيغل ·

ان عالم حنا المفعم بهذا الغنى الدرامي ، هو مبعث هذه العلائق الجدلية التي تحكـم شخوصه وحركية الحدث الروائي ، ولذا (فالغربة والانتماء) (٣) ، و (الخـــوف والجرأة) (٤) · لا تخرج عن اطار هذا الصراع المميت بين الحريـــة والضرورة · فالضرورة نتاجها الاغتراب الخارجي والداخلي كما ذكرنا ، ونتاجها الخوف من قمعيتهـا العسفية ، والحرية هي في امتلاك الانتماء الواعي لعسفيتها ، من أجل التجرؤ علـــى مواجهتها والانتصار عليها ·

فالكاتب يعرض شخوصه في غربتها وانتمائها في خوفها وجرأتها ، كاشفا علائقهـــا بالتاريخ والواقع ، ليمنح القارىء كشفا لذاته ولعالمه ، بعد تجربة الشخوص الماثلة ·

نوع من المحاكاة الاندماجية الواعية يقيمها (حنا) بينموضوعية العمل وذاتية حركته الداخليـــة ·

وفي هذه الدراسة سنتعرض لرحلة الكشف والاكتشاف في عالم حنا مينه من خـلال روايته **الياطـر** ·

يقول مينه في صدد الاجابة عن امنيته :

« أن اعتزل الكتابة وأسافر ، بحارا على ظهر باخرة ، لان الكتابة مهنة حزينة » (٥)·

ان متوحشي افريقيا يعبدون الثعبان لانه يلمس الارض بكل جسده ، فيعرف جميـــع اسرار العالم ، انه يعرفها ببطنه ، بذنبه ، برأسه ، انه يلمسها ، يتحد بها ، يشكل كلا واحدا مع الام · اما نحن المثقفين فاننا لسنا الا طيورا طائشة في الفضاء · (٦)

الكتابة مهنة حزينة ، عندما تتوجه بصدق وحرارة لمعانقة الهم الانساني ، عندما يكون الحرف مسؤولا أمام التاريخ والانسان ، سيلتهب باحتراقات الواقع ومآسيه ، سيكـون وسيط الحزن بين الفنان وحزن العالم · وليتمكن الفنان من مسح الحزن عن الجبـــاه البشرية ، سيتحمل مزيدا من الحزن ، سيغوص في عمق الجرح ·

وشخوص ـ حنا ـ ينبجسون من صدر الحياة يحملون نبضها والقها ، يلتحمون بشكل خلاق بالشؤون البشرية ، في نبضها يتفاعلون ، ويمارسون تميزهم لانهـــم يلامســون الارض بكل أجزائهـــم ·

و ـ حنا ـ صاحب مزية في هذا المضمار ، فهو لا يتعامل مع الحرف بهم ثقافـــي محترف ، بل هو يتمازج مع تجربته الفنية بانصهار رائع ، ، ويتفرد بتجربة ومعانـــاة قل من يناظره بها بين الكتاب العرب · فالحياة بالنسبة له هي مصدر كل هذا الغنـــى والتدفق الشعري في عالمه ، ولذا فهو يرغب ان يسافر بحـارا بجموح (جلجاميشي) لمعانقة المطلق الانساني ، لسبره ، للغوص في مجاهله ، كي لا يتحول الى طائر طائـــش في الفضاء · ·

« ان العمل الفني بتسجيله صور العالم انما يعكس بصورة عضوية خصائص وعي الفنان الذي يكون ابدا مؤرخا تسجيليا محايدا ، لقضايا عصره ، بل هو يدافع دائما عن الافكار التي تحمل في رأيه معنى عصره ، والاتجاه الرئيسي لهذا العصر » (٧) .

ولذا فان كاتبنا لا يلامس الحزن الانساني بتعاطف وشفقة حيادية ، بل يلتحم بشكل تفجيري احراقي ، ليشتعل العالم القديم ، مبشرا بعالم جديد ، من خلال رؤية فلسفية عميقة لقوانين التطور .

البحر مملكة الحرية الصماء التي لم تكتشف ، ولذا فضرورته الطبيعية أشد استعصاء، فلا بد اذن من كشف مجاهل العالم الابكم هذا ، من أجل التقاط قانون الطبيعة ، ومن يلج محراب الطبيعة ، تتفجر الينابيع في داخله ، وتمنحه سرها . و ـ حنا ـ يتفرد بولوجه عالم البحر ، فمنحه البحر لغته ، سر عظمته ، مغاليق سحره ، فكان من اليسير على ـ زكريا المرسنلي ـ ان يكون رب الشاطىء .

فعلى الرغم من تأكيد الكاتب بأن أبطاله مركبون لهم حياتهم العريضة وأفكارهم المتشعبة وهمومهم النابعة من مشاكلهم ، فلماذا يمدون له لسانهم ؟

لانهم تشكلوا بلحمهم ودمهم في اتون توهجه الداخلي المستمد من توهج العالم ، ولذا فهم ينقذفون للعراء حارين كدفقة الكون ، نابضين ، مشعين ، ممتصين لون الحياة والقها . وهذا لا ينافي رائحة الواقع التي تخرج من مسام جلودهم ، بل تلك هي جدلية العلاقة بين العالم الفني ، والعالم الواقعي .

عظمة شخوصه التي يكن لها الحسد ، والحب والكره ، تتأتى من كونها ، تعانقت مع شعاع قوته الداخلية الفائقة ، لتتحدى جسمانيته الفانية ، ليس حديثا بالميتافيزيك ، بل حوارية التضاد بين ابدية دفقة الكون ، هيولاه ، وفنائية قوامه الخارجي الذي يحكمه نفي النفي .

من هنا ولد ـ زكريا المرسنلي ـ من غمار الحياة المتحد مع غمار النفس .

على سطح الواقع يتدحرج ككرة مقذوفة ، لكنه يكبر عليه كانسان ، يجتر مع ـ سانتياغو ـ (٨) مرارة اخفاق المواجهة ، لكن الهزيمة لا تحبطه ، بل ينهض من جديد للمواجهة ، لمواجهة الحوت الذي يهاجم شطآن البلدة .

كتلة آدمية سديمية ، تسكنها حماقة الواقع وضروراته المستعصية على وعيه الجنيني ، ويواجه الواقع كلعنة قدرية لبدائية فهمه ، وبدائية الوسائل المعروفة في تلك المرحلة التاريخية التي يرصدها الكاتب .

يضع ـ الكاتب ـ هذه الكتلة السديمية على مفارق الكشف والاكتشاف ، لتسعيد ذاتها المصادرة في جوف غول الضرورة « أنا زكريا المرسنلي ، رابط الحوت في الماء ، الراقص على ظهره في الماء ، الذي تحدثت اسكندرونة كلها عن فعلته ، ونشرت جريدة (اللواء) صورته مع الحوت » (٩) .

هذه هي مأثرة ـ زكريا ـ الرجولة المتفردة ، الفعل المتفرد ، انسان الفعل وحده قادر على الثبات في شريط الزمن الفار ، زكريا المرسنلي يقوم بفعل القتل (قتل زخريادس) ابن اليونانية الخمار ، بعد أن اوهمه من حوله ، بأنه مخدوع من قبل (زخريادس) الذي

اعطاه برميلا من الخمر مقابل ان يعطيه احشاء الحوت ، اوهم الناس ـ زكريا ـ بأن في احشاء الحوت ذهبا وماسا ، اخذه زخريادس مقابل خمس ليرات وبرميل من الخمر ٠

قتل « المرسنلي » زخريادس مدافعا عن حقه الموهوم ، القتل فعل يستمد نبله من خوضه شرف المعركة ، ويستمد لعنته التدميرية عندما تنحل غائيته في ذاته ، ويصبح جريمة عندما يتوجه لطعن الجوانب الخيرة كقتل الخياط ٠

تبدأ التراجيديا المرسنلية عبر صراع الاهواء الشخصية لانها تعكس الدرك الاسفل من شكل المواجهة ، وتتحول الى تراجيديا انسانية عبر المعاناة المطهرة ، تبدأ بحكم قدري ، وتنتهي بانتصار انساني ٠

ان الكاتب يعرض علينا صورة قتل ـ زخريادس ـ دون ان يمتنها بسببية عقلانية ، عاكسا بذلك بعدا تراجيديا مغلقا بقدرية الصراع المحكوم بشرطية تاريخية وفردية ٠ وعي زكريا الابكم تسوقه مبررات بكماء للقتل ، فيتحول الى لعنة تطارده كقدر اغريقي ، فالقدر خلقته العفوية الانسانية ، الوهم الانساني في عجزه عن ادراك قانون السببية ٠ لماذا قتل ـ المرسنلي ـ زخريادس ؟ لان الذهب كان في كرشه ، كرشه كان السبب « يا سيدي الحاكم ، انا ضربت بساطور البسطرمة زخريادس ابن اليونانية فبعجت كرشه ٠٠ أنا مذنب واعترف ، وهو ايضا مذنب لانه صاحب كرش ٠٠ لماذا كان له كرش ؟ اذا رأيت يا سيدي القاضي ، يوما ردف امرأةجميلة عارية فماذا تفعل ؟

أنا أعضه ، اشنقني ، ولكني اعضه ، ثم اشنقها معي ، لانها صاحبة الردف ، هي السبب ، لا تنتهرني ، ارجوك ، لا أعرف مثل « الافوكاتو » ولا أفهم ما يقول » (١٠) ٠
زكريا المرسنلي يدخل مع الواقع معركة البحث عن بقعة في مساحاته ، بقعة يبني فيها هيكل وجوده ٠

امكانية البطل عند ـ حنا ـ لا تأتي من خلال فردية الطاقة ، بل هي من خمير مخزون الطاقة البشرية ، ولذا فزكريا ، ومن قبل ـ الطروسي ـ على الرغم من نكهتهما المحلية الحادة ، فهما يتطاولان الى بعد الفعل الملحمي ، انهما يتوجان الفعل الانساني من خلال صراعهما المسقوف بمحلية انتمائهما ، وكذلك الخياط ، وامرأة القبو ٠

كيف يمنح الكاتب هذا اللون الشمولي لشخوصه ؟

الشمولية هذه تتأتى من خلال هذا التناغم الداخلي الذي يتضافر مشكلا ايقاع الممكن من خلال ما هو كائن في الانسان ٠

زكريا المرسنلي عاشق ابدي ، وفاشل مؤقت ، لان الانسان سينتصر ، وفلسفة التاريخ التي يؤمن بها كاتبنا لا تكذب ٠ اذا شرب فانه يشرب حتى الثمالة ، واذا ضاجع فانه يلعج الوسادة ويلطخ الفراش ، ويقرض اذن زوجته ٠ وان احب شف ورق ، وتداعى حتى درجة الانتحار ، واذا اصطاد ، فهو يصطاد بشغف وعشق ولذة « عملية الصيد لا يمكنني ايقافها ، انا لا يمكن الا أن اصطاد ، حتى لو اعدت السمك ، ثانية ، الى البحر » (١١) ٠

الطاقة المخزونة الحبيسة تبحث عن مساربها ، تنبث في كل خلجة من خلجات الرغبة النهمة والفعل العشوائي ، فعل تحكمه آنية غير مشروطة الابغائية تنحل في ذاتها ، ببؤرة سديمية تكونه المشروط بالمرحلة والواقع والتاريخ ٠ وبذلك يشكل الافق السديمي ، الذي

يطوق الفعالية في جدران ضغط الضرورة الداخلية التي تمثل اشد انواع الاغتراب في اقصى حالات تراكمه ، المؤدي الى التغيير النوعي في الذات الباحثة المستكشفة لروابطها العالم ، تمتد نورانية معرفته لتضيء اعماق الذات المكتشفة ، ولتنتصر على النوازع
العالم ، تمتد نورانية معرفته لتضيء اعماق الذات المكتشفة ، ولتنتصر علىالنوازع
اللاانسانية فيها . ولتحطم حدود الغائية المنحلة في ذاتها ، لتتحول الى غائية انسانية لا متناهية .

في المرحلة المرسنلية ـ السديمية ، تنحل الفعالية في غائيتها الذاتية ، فهو سيصطاد حتى ولو اعاد السمك ثانية الى البحر ، يربط الحوت لا بهدفية مواجهة خطره المدمر ، بل من اجل اثبات الجدارة ولو عرض حياته للخطر ، يعشق المرأة لتكون بالوعة تفريغ ، يحب البحر والشاطيء لان فيهما اتساعا لضغط العنفوانية الجسدية فيه . وباكتشاف الذات من خلال اكتشاف الوجود ، تتسامى هذه الرغبات الحبيسة عن تفجرها الآني على حدود الذات لتتحول الى تفجر انساني يكشف عن لا محدودية العطاء الكامن .

تبدأ رحلة اكتشافه لذاته منذ ولوجه الغابة ، ففي رحابها السحري ، تستيقظ هواجسه مستحمة في طقس الطبيعة وفيضها الامومي .

فيتلامس عالمه العاري مع قاموس القيم البشرية ، يعيش وطأة احساس حاد بالذنب لقتله ـ زخريادس ـ ، ويتذكر صديقه ـ عبعوب ـ الذي يفكر عنه ، في حضن الامومة الطبيعة يمارس بوحه الداخلي ، وفي جحيمه الاحساس بالذنب ، ينشط تفكيره ، وعند ذاك يعرف لماذا لا يفكر الحمار الا وهو تحت الحمل ، فالتفكير يستيقظ في أوقات الشدة .

المحنة دفعت به باتجاه الغابة ، وبمحنته هذه تبدأ عملية امتحان ذاته على مواجهة الظروف الجديدة ضمن اطار الكشف . وعملية استشفاف النوازع الخيرة المغمورة ضمن اطار الاكتشاف .

فالبحر خالطه ، اتحد به ، لكن الغابة هذه التي تخيفه والذي يمنحه اتساعها مجالا لاستخدام دماغه المعطل . تجربة جديدة اينعت عن سر الكشف والاكتشاف ، ستضاف اليها شكيبة لتتمخض فيه عن انسان آخر . الآخرون بالنسبة له كانوا كذبة ، كانوا « كحمير النواعير ، ينفذون الاوامر وايديهم على رؤوسهم » (١٢) .

كان منغمسا في حياتهم عبر طاقة الفعل الجسدي المتميز ، « كنت حمارا كما قال عبعوب ، جلفا مع الكل ، وهذا عقابي » (١٣) . ولكنه منذ نفذت رهبة السكينة وقدسيتها المطهرة الى اعماقه ، بدأت الذات ـ المرسنلية ـ الخبيئة تنبثق في اعماقه عبر الانقاض التي خلفها واقع اجتماعي ، قتل فيه كل جوانب النبل المتأصلة فطريا فيه .

هل يتبنى ـ حنا ـ فلسفة (جان جاك روسو) في قصته الفلسفية « اميل » او « في التعليم » ، الذياعلنأنالانسان حر في طبيعته ، ودعا الى الرجوع الى الطبيعية لتنشئة البشر تنشئة بعيدة عن القيود الاجتماعية المثبطة ؟

هل ـ زكريا المرسنلي ـ هو حي بن يقظان السهرودي « الذي تخيل نفسه فيها طائفا بين مغرب الارض ومشرقها وبين الارض والسماء ، ويشرح في تلك السياحة حالا من الوصول (الاتصال بالالوهية) وهو يفعل ذلك بطريقة رمزية واسلوب غامض ، يشير فيه الى عدد من الآيات الكريمة المتعلقة بالانبياء خاصة ، وتتلخص سياحته بأنه لما وصل

الى قمة جبل سينا ، ظن انه وصل الى المكان الذي يصل فيه الى الله · ولكن السهروردي يدرك ان فوق جبل سينا جبالا كثيرة ، ووراء هذا الاب الروحي الذي خاطبه آباء روحيون كثر ، ثم ان الذي كلم السهروردي على جبل سينا افهمه انه يجب ان يعود الى الارض ثم بشره بأنه سيصل الى الله بعد ذلك » (١٤) ·

اذا كان هناك ثمة وجه للصلة ، فهي الرغبة الانسانية منذ وعيها الطفولي لاكتشاف ذاتها واكتشاف العالم من حولها · واذا كان كاتبنا القى ببطله في احضان الطبيعة لامتحانه الانساني ، فانه يهدف الى صياغة نوع من المقابلة بين صفاء الوجود ، والتشوه في صورة تشكله ·

تعرية شديدة اللهجة للواقع الانساني عبر مقابلته بصورته الفطرية النقية ، لصياغة لوحة التضاد بين النقاء الاصلي ، والتزييف الطاريء ، مقابلة تضاد لا تتفق مع ديموقراطية روسو التي تعلن : « ولد الانسان حرا » او المفهوم الذي طرحه ـ عمر بن الخطاب ـ « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا » · فروسو لم يكن يأخذ في الحسبان « هذا الواقع البسيط وهو ان الطفل الذي يطلق اولى صرخاته عند ولادته في كوخ فلاح لم يتمكن من ان يكون حرا ، نظرا لانه لا يرث فقط ملامح ابويه الخارجية بل يرث ايضا وضعهما المالي ، وان الطفل المولود في قصر احد النبلاء ، او في دار تاجر محترم هو اكثر حرية بكثير من الطفل الاول » (١٥) ·

فكاتبنا لا يدافع هنا عن الحرية بصفتها حقا طبيعيا للانسان الطبيعي ، وانما يطلق الفعالية الانسانية الحرة المكبلة بشبكة القمع الطبيعي والاجتماعي · فزكريا المرسنلي ورث الاضطهاد والتعاسة منذ نعومة اظفاره « في صغري ضربوني كثيرا ، والذي جعل العصا معلمي الوحيد · كان يضربني باستحقاق ، ولكنه كان يضرب نفسه · والدتي نصحتني ، حبستني ، فعلت كل ما تستطيع لاصير بشرا ، وخابت مساعيها · تركتني وشأني ، قالت : انت ازعر لا خير فيك ، لم افهم شيئا » (١٦) · وهكذا فان حنا يرصد شخصيته وتطورها وفق ارتباطهابالواقع ، معيدا انتكاساتها واحباطاتها الى سببية تكمن في جوهر العلاقة التي تحكم الفرد بالمجتمع ·

السديمية التي انتهى اليها ـ المرسنلي ـ تتناقض مع الوهج الحي المستمد من نبض الق الكون ، فما هي الا نتاج الصدأ الطاريء على الجوهر الانساني النابض · ولهذا فان كاتبنا ينقب عن كل ابعاد الروابط الاجتماعية التي تحكم الشخصية ، وتبعث العطب فيها ، بداية من نقطة الصفر ، من عتبة الطفولة ، فمصادرة الاحساس بالغبطة الانسانية تتجذر في اعمق خلايا النسيج الداخلي للواقع الاجتماعي والتاريخي الذي تترعرع في بنيانه هذه الشخصية · ـ ابن طفيل ـ من خلال بحث (حي بن يقظان) عن سر الوجود ، يضغط الوجود المادي ، ليتبدى عن هيولاه ، عن الكمال المطلق ، المتجسد بـ (الله) · أما ـ حنا ـ فمن خلال كشف (المرسنلي) لسر وجوده ، فانه يضغط الوجود ، دون ان تكون الذات بديلا له ، ليتبدى عن هيولاه ، عن قيمته العظمى ، المتجسدة بـ « الانسان » ، يبحث بين فوضى انقاض العالم عن انسان الفعل وحده الذي يتملك امكانية تأييد التاريخ ، فاضحا قمعية العلاقات الاجتماعية التي تشيء الفعالية البشرية، وتضغطها ، فالطبيعة ليست بديلا للعلاقات البشرية ، وانما تجسيدا للصفائية الكونية المنبعثة في الذات الحرة فينا ، والمضغوطة بفعل علاقات غريبة عن جوهر الطبيعة والحياة ، فالمرسنلي في وحدته مع الطبيعة ، لم تكن الطبيعة بالنسبة له بديلا للاخر

الانساني ، ولذا فهو يطمح حتى لصداقة كلب ـ شكيبة ـ « لا يمكن ان احتمل هـــذه الوحدة ، روحي تطلب روحا ، شيئا حيا ، اراه ، اسمعه ، اضع يـــدي عليه ، احس بوجوده ، بقربه بحركته من حولي » (١٧) ٠

فعلى الرغم من ظلم الآخرين له ، فهو غير قادر على العيش بعيدا عنهم ٠ فحتـــى الروح تنشد روحا اخرى فالانسان مجموع علاقات اجتماعية ، ذلك هو منطق الوجـــود الانساني لا الطبيعي ، ان الاندغام الحقيقي بالوجود يرفض منطق الوحدة ، فالاخـــرون ليسوا هم الجحيم كما تزعم الوجودية بل من خلال تماسنا بهـم ننسج خيوط تفردنـــا الانســـاني ٠

على حين نجد ان (حي بن يقظان) ـ ابن طفيل ـ ينتهي الى العودة الى الطبيعة ، بعد ان « تصفح طبقات الناس فرأى كل حزب بما لديهم فرحون : قد اتخذوا الههم هواهم ، ومعبودهم شهواتهم ، وتهالكوا في جمع حطام الدنيا ، والهاهم التكاثر حتى زاروا المقابر ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم » (١٨)٠

ان موقف ـ ابن طفيل ـ المعقلن للعالم الطبيعي لم يواكبـه رؤيـــة مماثلـة للعـالم الاجتماعي ، بل كان على درجة كبيرة من الاحتقار للناس ، على حين يلقي حنا ببطله ـ المرسنلي ـ في اتون مشاغلهم ٠ فقد خرج ـ المرسنلي ـ من الناس لظلمهم وانكارهـــم له ، وعاد اليهم ، منخرطا في همومهم ، فعوضا من عودة ـ حي ـ الى الطبيعة يعـود ـ المرسنلي ـ الى الناس ، لبلدته مدافعا عنها امام هجمة الحوت ٠ ومن هنا يغدو مـــا اكده البعض على الصلة القائمة بين فلسفة حي بن يقظان والياطر ، مسألة لا تتعـــدى التشاكل الخارجي في تجربة البحث عن المعرفة ٠ والامر ذاته ينطبق على (حي بن يقظان) السهروردي الذي كان يطمح الى امساك مطلقه الفردي عبر المطلق الالهي ٠ غير ان حنا يبحث من خلال حلم الجماعة البشرية عن مطلق الفعالية الانسانية ، يطلقها ، يجردهـا ، متوجا مجد الحياة وقيمتها العظمى ٠

الغابة في الياطر تجاوز حدود مصطلح القاموس الجغـــرافي ، لتخضـع للقانـــون الاحيائي في منطق الفن الذي يجسد فيها الامومة النقية ، عودة للدم النقي ، عبـــر مصافحة الروح الرطبة ، لحرارة الكون المنبثة في اضلاعها ، عودة للطفولة عـــودة للخطة الشاعرية التي سحقتها همجية القحط في الواقع الخارجي ٠ « اغتالتني الطبيعـة فكرهتها ٠٠ اغتالت الشيطان في داخلي كنت منسجما مع شيطاني ٠ كان ملائما لجسمي وروحي ٠ هجرني لاني تنسكت » (١٩) ٠

فكما كان الفقراء وامرأة القبو ، المطهر في (الشمس في يوم غائم) فان الطبيعـــة وشكيبة هما المطهر في الياطر ٠ ولذا فقد بدأ المرسنلي الجديد يستيقظ من بين انقـــاض القديم ، كلما امعن تجربة وكشفا واكتشافا ، بدأت تتفتح في ذهنه معان للقيم ، بعد ان كان يجهل ما معنى الخوف ؟ ما معنى الشجاعة ؟ ما هي الفضيلة ؟ وما هي الرذيلة ؟٠ يزهر الندم في أعماقه رغبة صادقة في التجاوز ، يحزن للاساءات التي وجهها لزوجتـه وابنه ، تتنامى في داخله نزعة الابوة ، بعد ان كاد ـ سابقا ـ ان يفتك بابنه لاتفـــه الاسباب « يا بني لماذا كتب علينا ان نقتل ، انا وانت ، ونتعذب ونتشرد ونسجن ، ونعذب أمك معنا » (٢٠) ٠ وبذلك يحقق المرسنلي في مسيرة الاكتشاف بعدا جديدا في تنامـــي وعيه لذاته ، وللفعل الصادر عنه ، انه يتحدث عن قتله لزخريادس كأمر قدري مكتوب ، فلم يعد يتحدث عن كرشه والذهب ٠ وهذه خطوة في رحلة اكتشاف العالم وضروراته ،

من أجل التحرر الذي سيتوج بالحب ، وعبر الحب الفردي لشكيبه ، تتفجر طاقة الحب الكلية ، لتتشكل على صيغة انتماء ترفع من درجة احساسه بجدارته في الدفاع عن بلدته المهددة · ولهذا فهو عندما يراوده خاطر قتل حارس المنارة يتراجع عن ذلك ، بعد صراع داخلي يتنصر فيه الجانب الخير في ذاته ، انه نموذج ـ لا يحكم في اطار التنميط ـ لشعبنا الخير « ما عشته من الحياة كان دائما على الشاطيء ، وهناك كان قلبي نظيفا مثل الرمل يغسله الموج » (٢١) ·

زكريا شخصية تتفرد في الرواية العربية بغناها الدرامي ، انه لا ينمط قيم وطبائع طبقة ، ولكنه ينمذج ك (الطروسي) كل الطاقات المهدورة ، يكشفه الكاتب ، يعريه امام ذاته ، ليدفعه الى مزيد من الاكتشاف لذاته من أجل الانتصار عليها ويتجاوزها ، ويدفعنا الى مزيد من اكتشاف الحياة من خلال تكثيفه لاعمق عناصرها الدرامية الثرة ·

ومن خلال استبطانه لجوهر حركتها ، من خلال انغماس كلي في الهم الانساني ·

وتشف الرؤية عبر تراكم زخم الواقع ، وبمقدار ما تغوص هذه الرؤية في طيات الحدث ، تمارس حضورها على نحو اشد بروزا ·

« المرأة والمستقبل هما قضية ادبي ، ويأتي الحب دائما رباطا انسانيا فيه كل الاحترام للمرأة وكل التجلي لانبل الصفات فيها » (٢٢) ·

ومن هنا تتأتى اهمية شكيبة في تفجير كوامن العطاء في ذات المرسنلي وتطهره من نوازع الشرور · كما كانت عليه امرأة القبو (في الشمس في يوم) واهميتها في تطهير عالم الشاب الداخلي ·

ان ـ زكريا ـ الذي يحمل فهما ذكوريا رجعيا عن المرأة « كانت امرأة ، وكنت اظن المرأة بنصف عقل ، او بدون عقل ، بل أقل من لا شيء ، مثل البطيخة ، مثل المجدرة ، اذا جعت اكلت منها والسلام » (٢٣) · ترغمه شكيبة بما فتحت في نفسه من احاسيس كان يغطيها انغلاقه عن شموس الحرية ، اكتشافه لهذه الآفاق الرقيقة الحانية الواثقة ، حولت نظرته للمرأة لتحظى منه باعتبار الانسانة ·

فالمرسنلي الذي يحمل في ذهنه فهما ذكوريا للمرأة ،ورغبة اغتصابية لها ، هذا المفهوم نتاج للشكل اللاانساني للعلاقة بين الرجل والمرأة ، المحكومة بالزواج الاحادي كمؤسسة تقنن الحس الانساني ، وتحجم عواطفه ·

ولذا فقد كان يقرض اذن زوجته صالحة ، ويبعج الوسادة ، في لحظات اغتصاب ينصب فيها كل تراكم العدوانية التي ورثه اياها مجتمع بطريركي قمعي · العلاقة الاغتصابية التفريغية نفسها كان يمارسها مع (ام زخريادس) اليونانية ·

غير ان ـ شكيبة ـ اثبتت للمرسنلي بأن سروالها لا ينزل الا من خلال الالتحام بعلاقة انسانية متكافئة ، يكون المخ الجسدي فيها تعبيرا عن رغبة عميقة لا للارتواء الجنسي فحسب ، بل للارتواء الانساني التكاملي التفاعلي حتى درجة الانصهار · لقد تسامت شكيبة التي ينبجس في انوثتها نبل الطبيعة ، وقانونها الذي يتعالى على سلعية العلاقات التي تواضع عليها الناس في مجتمع الملكية · رغبت بذكورته وسمكه لجوعها، لكنها رفضته عندما شعرت بأن سمكه سيكون مقابلا لجسدها ·

لقد منحته الطبيعة سرها عبر الابتهال لامومتها ففاضت في اعماقه النظيفة معاني

النبل ، وكشفت له شكيبة لا عن حاجته الى جسدها فحسب ، بل عن حاجته الانسانية لهـــا ٠

لتمنح ذاته الباحثة عن التكامل ايقاعا متناغما ، يتفجر منه نبـل عطـاء الطبيعة ، وفيض المنح البشري ٠ لقد تبلور المفهوم الانساني الصحيح في ذهنه عبر تماسه الالتحامي المندمج في منطق الكون ونواميسه المعبرة عن سرمديته ٠ هكذا تتصافح اعماق الذات ، مع اعماق الطبيعة ، فتتكشف ملامح العطاء كأنبل قيمة ٠

الانسان فيض عطاء لا ينضب ، عندما لا توصده الضرورة الاجتماعية ، وعندمـــا ننتصر على الضرورة الاجتماعية تمنحنا الطبيعة مفاتيح سرها ٠

انساننا المكبل الذي وأدت انظمة الملكية والقمع ارادته الحرة ، نبله المنبث في انسانيته كقيمة ، سيكون ضحية جرائم لا علاقة عقلانية له فيها ٠ ان عملية الاكتشاف تتوج بشكل حاسم بالهزيمة التي يتلقاها ـ زكريا ـ من شكيبة ٠

لقد هزمت ـ المرسنلي ـ السديمي فيه ، لينتصر المرسنلي التفتح ، فتحت في نفســه فجوة الحرمان الذي ألفه ، فتفتقت الحياة فيه عن نهم لا يرويه الا الاتحاد الصميمــي بنبضهـــا ٠

« قهزتني ـ شكيبة ـ هزمتني ، هزمني زوجها ، ولكن هزمني قبله (زخريادس) ابـن اليونانية ، هزمتني الدنيا قبل ان تهزمني شكيبة » (٢٤) ٠

في اعماق الهزيمة يولد ـ المرسنلي ـ الجديد القادر على المواجهة ان حبه لشكيبة نما في ذاته حبا كليا ، اعاد صياغته المثلى ، رفع من درجة احساسه بجدارته على الفعــل المتوج بالغائية النبيلة ٠ المرأة ـ الحب ـ الحياة ، ثلاثية تفتح العشق ، قادته الى رفض الشكوك التي تحكم الحب الانساني ، « ان المرأة لاعظم من الحب بكثير ، وان الحيـــاة لاعظم من المرأة بكثير ٠ ولا يكون الانسان حيا الا اذا عشق » (٢٥) ٠ عشقه دفعه الى ترجيح مشروعية حبه لشكيبة ، على شرعية حق زوجها فيها ٠

من جوف قمعية الماضي يولد زكريا المستقبل ، وفي تراكم عوامل المصادرة وغربــة الذات ، يولد الانتماء ، وبالحب تتسامى الذات على فرديتها لتكتسب افاقها الشموليـة ، وفعلهـــا الكلـي ٠

ولذا فان ـ زكريا ـ يرفض التقوقع في الغابة مع ـ شكيبة ـ لينطلق الى المدينة التـي يداهمها الخطر ، وهو يعرف معرفة تامة عجز هؤلاء الذين نصبوا انفسهم سدنة لها ٠ « ماذا اقول أنا ؟ اقول مدينتي شردتني ؟ والرجال ؟ تراهم تشردوا مثلي ؟ منعوهم مـن النزول خوفا على القوارب ؟ أنا أعرف أصحاب القوارب ، واعرف جماعة الميناء ، هؤلاء الذين يتولون العملية من المقهى ، من وراء النراكيل ٠ هم لا يقاتلون الحيتان ، وحتـى حين تدوخ لا يأمرون بربطها ، ينتظرون ان تموت في ارضها ، او تذهب كما جاءت » (٢٦) ٠

هذه المدينة التي شردته ، اراد ان يمد لها لسانه ، ان يشتمها ، لكنها في قلبه ، وهو يرفض ان يكون نذلا ويشمت بها ٠ فسار باتجاهها ٠ « سرت على طول الشاطىء ٠ ببطء اولا ، ثم بعجلة ، ثم ركضت ، وضاعفت ركضي » ٠ (٢٧)

هذه الخاتمة على الرغم من التوافق الروائي الذي يضبط توالي الاحداث ، واحكــام تسلسلها ، لكنها تحقق نقلة من اطار الواقع المحدد الى اطار الرمز الشامل ٠

لتحقق الرواية البعد التكاملي لعناصر الواقع التي تسير بشكل متواكب ، وليكون الرمز السياسي جزءا حيويا من حركة الواقع الكلية ، بل هو العنصر الاكثـــر جوهرية فـي صيرورته الفنية ٠ والعنصر الاسطوري في (الياطر) أقل ايقاعا منه في (الشمس فـي يوم غائم) ، حيث تتضاءل نسبته التضمينية ، ويتكثف في طاقة الفعل وسببيته ، مـن خلال الشخصية المشحونة بعناصر الحلم والتصور ، وطابع العلاقة التي تتفاعل بهـا الشخصية مع عالمها ووسطها الروائي والواقعي ٠

فيتمازج الواقع الفني بالواقع المادي دون الاخلال بطرفي المعادلة ، مفضيا الى تناغـم وتواشج يدفع بالرواية الى تجاوز اطار محليتها في رصدها ، وطموحاتها ، لتجد لذاتها حيزا صلبا في الابداع الانساني ٠

المحور السياسي جزء حيوي – كما ذكرنا – في صيرورة الواقع الخارجي والداخلي، يتمحور هذا الجزء في المرحلة ، ويتنامى ويسف في اطار الرمز ليعبر عنازمة كلية ، عن صراع كلي ، وطموح كلي ٠ يتجاوز افق الرواية التاريخية ، ليمارس حضوره في خلايا الحاضر بعنف ، رافعا ضرورته الكمية ، لتكون بمثابة تحول نحو المستقبل من خـلال الانشداد للحرية ٠

انظمة الملكية القمعية ، تصادر الانسان الكل ، و – المرسنلي – الذي ينتمي الـى مرحلة مبكرة في اوائل هذا القرن ، يكبر همه المرحلي ليعانق همومنا الحاضرة ، مـا دام نظام الملكية قائم ٠ هذه الانظمة التي صادرت وعي المرسنلي ، وأزهقت طاقاتـه على عتبات جريمة غير مسؤول – بوعيه البدائي – عنها ٠

هذه الانظمة عندما يهددها الخطر الخارجي لا تقاتل الحيتان ، تنتظرها ان تمـوت في ارضها ، او تستيقظ القوى الجبارة الغافلة لدرء الخطر ، – المرسنلي – هو الجماهير، في مصادرة وعيها وقمعها ، في ابعادها عن محاور الفعالية ، هذه الجماهير المسيجة بالاكفان وهي حية ، تخترم اعماقها كتل حممية من طاقات الفعل ، لكن السلطة تبدد هذه الامكانيات عبر الترويض والتدجين ، او عبر اهدارها في معارك لا تهدف الى تحريـر وعيها ، بمقدار ما تهدف الى تثبيت سلطاتها ٠

ولذا فان كاتبنا القى بزكرياه (الجماهير) في حضن الحياة ليكتسب القها المبـدد للتزييف والتدجين ، فجر كوامن الاندفاع النهمة فيه ، ليثور على الاسوار الرصاصيـة التي غلفته بها انظمة القمع والتدجين ٠ فعندما تستعيد الذات وعيها ، تسيطر لا على الضرورة الطبيعية فحسب بل وعلى الضرورة الاجتماعية والسياسية ٠

انهـا دعوة حادة للمواجهة ، للدفاع عن براءة الحياة ، مسح الصدأ العالق بجنباتها٠

وفي الوقت الذي يدين فيه – حنا – ابعاد الجماهير وعزلها عن ممارسة فعالياتهـا الثرة ، فانه يرد على الواقع السياسي ، الذي يمارس عملية تحجـيم وترويض لحس الرفض في انساننا العربي ، باطلاق هذه المشاعر والاحاسيس من عقالها لتتعانق مـع شمس الحياة ، يطلق – حنا – المرسنلي – من الكوكبة القطيعية ، سابرا بحميا جبـارة عن مذل الرجولة فيه ، في شعبنا للرد على المؤامرة المحبوكة بتنظيم محتـرف علـى الحس الوطني الرافض ٠

انه يقذف وعي القارىء مباشرة بالفعل المدهش ، يوقظ الاحاسيس الغافية ، علهـا تشع عن قبس ، يجرد الطاقة الانسانية المدهشة من مكامنها ، ويفلتها في قاع الحياة ،

لنفض غبار التأسن التي علقت بأعماقنا ، يحرض على ثقب الارض ، على ضربها حتى تستيقظ ابنة الكلب النائمة ، يجرد من المرأة طاقة انثوية توازي قحط الواقع ، ويبـاس الحياة ، وفقدان الانتماء ٠

هل هي دعوة (زورباوية) كما فهم او استنتج البعض عن سوء نية او حسنها ؟

بين زوربا والمرسلني :

يقول الراوي :

« وتوقفت لحظة على الرمل ، ونظرت ، كانت الوحدة القدسية تمتد امامي ، حزينة ، مغرية ، كالصحراء ، وبرز الشعر البوذي من الارض وتغلغل حتى اعماق كياني : « متى أنزوي اخيرا في الوحدة ، بمفردي ، دون رفاق ، دون فرح او حزن ، ولا يصحبني سوى اليقين المقدسي ، بأن كل شيء ليس الا حلما ، متى اعتزل فرحا مـــع اسمالي ـ دون شهوات ـ في الجبل ؟ متى اختلي ، بعد ان اتبين ان جسدي ليس الا مرضا وجريمـة وشيخوخة وموتا ، في الغابة حرا ، دون خوف ، مليئا بالفرح ، متى ؟ متى ؟ متى ؟ » (٢٨)٠
ان المرسلني وزوربا يرفضان هذا المنطق التصوفي اللاهث وراء مطلق ميتافيزيكـي عبثي ، المعادي لدفقة الكون التي تسكنهما ٠

لقد عاش زكريا الوحدة القدسية هذه في احضان الطبيعة حتى خشي ان يتحول الـى ناسك ، غير أنه برم بها وايقن ان الاخرين هم مصدر احساسه بانسانيتـــه ، فتمنى ان يكون له حتى كلب يستأنس به في وحدته الموحشة ٠

الا ان وحدة زوربا ، هي وحدة (أناه) التي ترفع من ذاتيتها الى درجة المركزيـــة الفردية التي تحس بأنها شاغلة الوجود ومحوره ، فهو لا يؤمن الا بزوربا وحده « عندما أموت أنا ، فكل شيء يموت » ٠ (٢٩)

وهو باندماجه بالاخرين يتمتع باحساس عظمة تفرده ، ويتهمهم بالقطيعية معلنا انـــه لا يؤمن بالانسان ، يقول زوربا للرواي : « الانسان بهيمة ، بهيمة كبيرة ، ان سيادتك لا تعرف ذلك وكل شيء على ما يبدو سهل بالنسبة لك ، لكن اسألني أنا ٠ بهيمة ، اقول لك ! اذا كنت سيئا معه احترامك وخافك ، واذا كنت طيبا فقأ عينيك » (٣٠) ٠

المرسلني يشارك زوربا تهمة اللامحدود للاتحاد بالحياة ، لكن حرمـان ـ المرسلني ـ واحباطيته هي التي تقوده الى بوهيمية لاغائية ، على حين ان اشباع ـ زوربا ـ وامتلاءه يقوده الى هذه اللاغائية ٠

بيد ان ـ المرسلني ـ عندما تنعتق حواسه من قمع الضرورة ، تتفتق فيه الحياة عـن غائية وقيم مثلى تتبلور بموقف يتحد بالاخرين للمواجهة والدفاع عن المدينة ٠

ـ زوربا ـ بطل (فرويدي) ، يمثل السائمة في انطلاق (الهو) اللامحدود فيها ، التي تبحث بنهم (ابيقوري) عن المتعة الآنية غير المشروطة بهدفية ٠ (الانا) التي تعيش حالة انفصال عن الماضي ، تغوص في عندية الحاضر حتى درجة الاستغراق المغفل للمستقبل ، فهو عندما يقبل ثغر امرأة فانما هو يقبل ثغر الانثى المجرد ، ابتـــداء بـ (عشتار) وانتهاء بأية امرأة في العالم ٠

« لقد كففت عن التفكير بما جرى امس ، كففت عن التساؤل عما سيجري غدا ، مـا

يجري يا زوربا ؟ انني انام ـ اذن نم جيدا ٠ ماذا تفعل في هذه اللحظة يا زوربا ؟ ـ انني اعانق امرأة اذن عانقها جيدا ، يا زوربا ، وانس كل الباقي ، فليس في العالم شيء آخر ، ليس فيه الا هي وانت ٠ هيا ! » (٣١) ٠

المرسنلي يعيش عمق هذه الاتحادية بالحياة ، لكنه يفترق معه بالنتائج ، بل يمكننا القول بأن المرسنلي يوازي زوربا قبل دخوله الغابة ، لكنه بتجربته ومعاناته يكتشف انتماءه ، لكن زوربا يكتشف ان الحياة لحظة يجب ان تعيشها مستغرقا بآنيتها الراهنة ، المرسنلي وافق زوربا في البداية ، ثم ما لبث ان تجاوزه على طريق اكتشاف ذاته والعالم٠

فالمرأة لم تعد جسدا يلبي حاجة الارتواء الجنسي ، بل اصبحت انسانة ـ في نظر ـ المرسنلي ـ تلبي حاجة ارتواء انساني ٠ ان زوربا يحول ما لا بد منه الى ارادة حرة ٠ على حين يطلق ـ حنا ـ فعاليات المرسنلي ـ ليواجه الضرورة بارادته الحرة ٠

النقلة من النهمية البوهيمية الى الفعل الارادي الواعي يتجسد بأعلى اشكال تكثيفه بعودته الى المدينة للدفاع عنها ، بالعودة الى الانتماء للاخر ، الناس ، الوطن ، هاتان المقولتان اللتان كان يرفضهما ـ زوربا ـ ويدينهما ، بأنسنة (كوسموبوليتية) تدفع بالعالم للانتماء اليها ، لا بانتمائها للعالم ٠

الشاب في (الشمس في يوم غائم) يطلق ـ حنا ـ كوامنه الحياتية ، كردة صارخة على واقع الرتابة والقوانين المصاغة خارج الحقيقة الانسانية ٠ من اجل نفي كل ما هو كائن استلابي ٠ ويرقص كـ ـ زوربا ـ ليخرج ما يضج في اعماقه وما لا يستطيع التعبير عنه ٠

الا أن هذا الاطلاق لا يفضي الى العدمية ، بل هو رغبة جارفة للانتماء بالقوى الفاعلة ، تسقط في مطب الخضوع للانتماء الاول الذي يحكمه كضرورة ٠ فالتضاد ينشأ بين إنتمائين ، انتماء للثبات والسكون ، وانتماء للصيرورة الحياتية ٠ وعندما يضيع بين الانتمائين ، ويسقط في فراغ الاهتزاز والتأرجح ٠ نخلص الى نتيجة مفادها :الادانة لهذه الشريحة التي لا تتمكن بموضوعية بنيتها الطبقية ان تندغم بعضوية في حركة التاريخ المتصاعدة ٠

فأزمة لا انتماء الشاب تقودنا الى ادانته ، وحقيقة لا انتماء ـ زوربا ـ وعدميته ، تعرض على انها الطريق الوحيد للخلاص، انه يستدعي للرثاء، لكن ليس هناك غيره (٣٢)٠ نخلص من عرض هذا التباين الموجز الى أن (الياطر) ليست رواية زورباوية ، وشخوص حنا تشارك ـ زوربا في حميمية اندماجه ، مستحمة معه بألق الحياة ، ممارسة دهشتها تجاه كون رائع ، غير انها تتعارض معه جذريا في الرؤية والموقف ٠ بعد هذه الجولة في عالم حنا مينة ـ العامر ، ومرافقته في رحلة الكشف والاكتشاف ، نخلص الى ان ـ حنا ـ يثبت جدارته كفنان وكروائي فذ ، قادر لا على اخصاب الرواية العربية فحسب، بل يرتفع بها الى ان تحتل مكانتها على مستوى عالمي بجدارة ٠

المراجع

١ ـ الادب والثورة ـ تروتسكي ٠ ترجمة جورج طرابيشي ـ دار الطليعة ، ص ٥٥ ٠

٢ ـ محمود امين العالم « معارك فكرية » ـ دار الهلال ، ص ٢٠٥ ٠

٣ ـ دراسة لغالي شكري نشرت في مجلة الطليعة المصرية ـ عدد اكتوبر ١٩٧٠ ٠

٤ ـ مقدمة رواية « بقايا صور » للدكتورة نجاح العطار ٠

٥ ـ من مقابلة مع الكاتب ـ الاسبوع العربي ٨٤٧ في ٨ـ٩ـ١٩٧٥ ٠

٦ ـ زوربا ـ نيكوس كازنتزاكي ـ ترجمة جورج طرابيشي ـ الطبعة الثانية ١٩٦٦ ٠

٧ ـ بوريس سوتيشكوف ـ المصائر التاريخية للواقعية ـ دار الحقيقة ـ بيروت ٠ الطبعة الاولى ـ اب ١٩٧٤ ٠

٨ ـ بطل رواية (الشيخ والبحر) ـ ارنست همنغواي ٠

٩ ـ الياطر ـ مكتبة ميسلون ـ دمشق ـ ١٩٧٥ ٠

١٠ ـ الياطر ص ٥٤ ٠

١١ ـ المصدر السابق ـ ص ٤٩ ٠

١٢ ـ المصدر السابق ـ ص ٣٣٠

١٣ ـ المصدر السابق ـ ص ٣٤٠

١٤ ـ عمر فروخ ـ ابن طفيل وقصة حي بن يقظان ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٥٩ ٠ ص ٢١

١٥ ـ بوريس سوتيشكوف ـ المصائر التاريخية للواقعية ـ دار الحقيقة ـ بيروت ٠

١٦ ـ الياطر ـ ص ١٠٨ ٠

١٧ ـ المصدر السابق ـ ص ٨٣ ٠

١٨ ـ عمر فروخ ـ ابن طفيل وقصة حي بن يقظان ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٥٩ ـ ص ٥٨٠

١٩ ـ الياطر ـ ص ٨٤ ٠

٢٠ ـ المصدر السابق ـ ص ١٢٤ ٠

٢١ ـ المصدر السابق ـ ص ٢٣٧ ٠

٢٢ ـ من مقابلة مع الكاتب ـ الملحق الثقافي للثورة ٢٢ـ٤ـ١٩٧٦ ٠

٢٣ ـ الياطر ـ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ ٠

٢٤ ـ المصدر السابق ـ ص ٢٣٤ ٠

٢٥ ـ مالك حداد ـ سأهبك غزالة ٠ ص ٢٩ ٠

٢٦ ـ الياطر ـ ٢٩٣ ٠

٢٧ ـ المصدر السابق ـ ٢٩٦ ٠

٢٨ ـ زوربا كازنتزاكي ـ ترجمة جورج طرابيشي ـ الطبعة الثانية ١٩٦٦ ص ـ ٣٠ ٠

٢٩ ـ المصدر السابق ٠

٣٠ ـ المصدر السابق ـ ص ٥٩ ٠

٣١ ـ المصدر السابق ـ ص ٢٧٧ ٠

٣٢ ـ المصدر السابق ـ ص ٢٧٥ ٠

توفيق فياض

الشيخ لافي الملك "قصة"

اختلفت الروايات في قرية البارد حول اختفاء الشيخ لافي الملك ، ولا زالت تختلف ٠ والذي يعرف البارد ، هذه القرية الصغيرة التي يخالها المرء كلما نظر اليها ، انها تكاد تقفز من اعلى قمة في جبال جنين ، الى قلب مرج ابن عامر مباشرة في الشرق، او الى البحر في الغرب، فانه لا يستغرب ذلك اطلاقا، اذ ان هذه الظاهرة هي ميزة تلازمها منذ عمر الشيخ لافي الملك نفسه ، بل وقبل ان يولد فيها ، وقبل ان يختفي ٠

ولكي يعرف احد كم كان عمر الملك حين اختفى ، فلا بد وان يستمع الى العديد من الروايات ايضا ، لكي يستخلص وبالتخمين ، وبعد عملية حسابية قد تدوم شهرا على الاقل ، انه كان قد تجاوز الاربعين ٠

اما اذا اراد معرفة ذلك من حسن المعتوه ، والذي كان اقرب الناس للملك ، وامين سره في عز ملكه ، فالامر عندها يختلف ، ولا اظنه سينتهي من عمليته الحسابية هذه ، الا اذا راجع ، وبعين المؤرخ الباحث ، تاريخ الاتراك في فلسطين ، والاستيطان الصهيوني ، في الخمسين عاما الاخيرة ما قبل « السفر برلك » ، واسماء السلاطين والولاة وقادة الجيوش ، والباشوات الفلسطينيين ، وبالتحديد في قضاء مدينة جنين ، ومن ثم وقائع الحرب العالمية الاولى « والسفر برلك » ، واحتلال الانجليز لفلسطين ، ناهيك عن سنوات القحط والثلج ، والكوليرا ، والجدري ، والمشانق التي حلت بفلسطين ، مما يجعل البحث في

+ من مجموعة **البهلول** التي تصدر قريبا عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٠

هذه الحالة مستحيلا ، وذلك بعد ان نكون قد سلمنا سلفا ، نزولا عند رغبة حسن المعتوه ، ان الشيخ لافي الملك ، لا يزال يحارب الباشوات والانجليز واليهود في الجبال ، ولا بد ان يعود يوما بعد ان يهزم الاعداء وينتصر .

وسواء توصلنا الى نتيجة في بحثنا ، الى معرفة كم كان عمر « الملك » ام لم نتوصل ، فالرواية شبه المتفق عليها ، وهذا امر غريب عند اهل البارد ، هي ان عمره كان من عمر اقدم بيت في القرية ، التي اعاد جد « الملك » بناءها ، بعد ان احرقها الاتراك ، وشتتوا اهلها ، لتمردهم على الباب العالي ، وانضمامهم الى ثورة ظاهر العمر « رضي الله عنه » ، بعد ان امتد سلطانه الى مرج ابن عامر والجبال المحيطة به ، وكاد يخلص الناس من ظلم الاتراك واستعبادهم .

ولكن متى بني هذا البيت ، وهو العقد الكبير الذي يتوسط القرية تماما . هذا ايضا ، لا يزال مدار اختلاف حتى الان ، فالشيخ عبد الحميد الحمد ، وهو اكبر اهالي البارد سنا ، بعد حسن المعتوه يروي ، ان المرحوم اباه قد روى له فيما روى ، انه شارك في بناء العقد قبل ان يتزوج من امه صحية ، الا ان حسنية بنت خديجة الحمد ، وهي مطلقة الشيخ عبد الحميد الحمد الثانية ، من بين مطلقاته الثلاث ، وحلاله الاربع ، فتؤكد ان ابا اولادها قد افقدته زوجاته الجدد عقله ، وانه كان قد خرف تماما ، منذ ان دخل ضرتها ، مطلقته الثالثة ولم يعد يذكر شيئا ، لان امها خديجة بنت حليمة البرمكية ، والتي كانت تقول للبدر « غيب تقعد محلك .. وما ظل حدا فتنتو بزينها » ، حدثتها ، انها قد جبلت طين العقد بيديها يوم علق « المحروق بترابه » ، جمال باشا ، المشانق للثوار في بلاد الشام ، وكان الملك يومها في عز شبابه ، وصواري السلطان يبحثون عنه في الجبال ، « وخديجة يا حسرتي قلبها عليه ، وعالفراق مشلوحة » .

غير ان الرأي السائد في القرية، وهو رأي الدراويش الذين لايزالون ينصبون حلقات الذكر كل ليلة جمعة في بيت « الامام لافي الملك » ، والذي تحول الى زاوية لطريقته ، فيؤكد ان ليس جد الامام الملك هو الذي بناه ، بل وليس « الامام الملك » ، وانما كان قائما قبل ان تكون هناك قرية اسمها البارد . اما من الذي بناه ؟ وكيف ظل واقفا بعد ان احرق الاتراك القرية ؟ فهذه مسألة ايضا فيها وجهة نظر ، ولكن الرواية التي يؤكدها الشيخ المبروك محمود الحمد ، وهو ابن الشيخ المبروك احمد الحمد ، الذي كان يدق « النوبة » للامام الملك ايام ملكه ، هي انه كان لاحد اولياء الله ، الذي اعتصم في قمة هذا الجبل الحصين ، ايام غزا الافرنج فلسطين ، قبل مئات السنين، وكان انذاك يسمى الجبل البارد ، لشدة برده وصقيعه ، حتى في عز الصيف ، حيث ظل يحاربهم من فوق بغلة تشبه البراق الى ان استشهد فوق ظهرها ، ولا يزال قبره موجودا تحت قبة العقد .

وتصديقا لكلامه ، فانه يروى ، انه عندما كان « الجندرما » الاتراك يشعلون

الثار في القرية ، رأوا فارسا مجللا بالبياض ، يمتطي بغلة من نــور ، يخرج اليهم من طاقة صغيرة في قبة العقد ، شاهرا سيفا من لهب ، وما كاد يهوي به ، حتى صعقوا جميعهم ، ومن نجا منهم راح يفر امامه ملقيا نفسه فــي لهيــب النير ن التي اضرموها بانفسهم ، لكي يكونوا عبرة لمن اعتبر ٠ وهــي نفس الرواية التي يؤكدها الدراويش في قرية العرقة المجاورة ، وفي خربتي الطــرم والشيخ عبد الله ، الذين فر اجدادهم يومها من وجه « الجندرما » الاتــراك ، والتجأوا الى المغاور المنتشرة في الجبال ، ثم بنوا هاتين الخربتين ، ولم يعودوا بعد ذلك ، ولكنهم ظلوا مرتبطين مع اهلها بافراحهم واتراحهم « وبطبهم وردهم» ٠

□

اما لماذا لقب لافي الحمد ، بالشيخ ، ومن ثم بالملك ، فهي الرواية الوحيــدة التي لا تختلف الروايات فيها ، وان كانت سيرته قبل ان يصبح ملكا ، تختلــف وفقا لاختلاف الرواة ، حتى في قرية البارد نفسها ، وهي القرية التي ولد فيها ، في سنة المحل الكبير ، أيام غزا الجراد فلسطين ، وفي نفس السنة التي نقــل فيها السلطان عبد الحميد الولاية من الشام الى بيروت ، وطوب » الاراضي فــي المرج ، على اسم المحروقين بترابهم دار سرسق والسعد وعبد الهــادي اللــي باعوها بعدين لليهود المسكوب والالمان وهججوا الفلاحين من اراضيهم ، ومــا قبلوش يخلوهم يفلحوها حتى على القسم » ٠

وكانت ارض حسن العبد الله الحمد ، والد الشيخ لافي الملك ، رحمة اللــه عليه ، من بين اراضي البارد ، وغير البارد ، التي « طوبها » السلطان علــى اسم « القمرجي » فؤاد افندي السعد من ام الفحم ، و « الخمرجي » حافــظ باشا عبد الهادي من جنين ، اللذين اضاعاها بعد ذلك على « الخمرة واليهوديات بحيفا والكبانيات » ، فحمل حسن العبد الله « عود الحراث وعصمليته وســاق فدانه وهود عالموراس بحذا سيل المقطع وولاد عمه بظهره وقال : ان كان فــي بدار السعد وعبد الهادي رجال يلحقوني ويخبطو فيها ، وانا بوك يا لافــي » ٠ فثارت ثائرة حافظ باشا وفؤاد افندي السعد ، وارسلا له اكثر مــن خمسيــن خيالا مسلحا ، برفقة الصواري الاتراك ، ليحرسوا الحراثين الذين ارسلاهم كي يحرثوا الارض ، فاشتبك حسن العبدالله واولاد عمه معهم ، وظل يقاتلهم الى ان استشهد مع اثنين من اولاد عمه ، وفر الاخرون الى الجبال ٠

وكان لافي أنذاك لا يزال « على بزامه » ، فربي عند خاله الشيخ المبــروك احمد الحمد ، الذي كان يصحبه بعد ان كبر قليلا ، الى حلقات الذكر في الزاوية، في مقام سيدي الشيخ حامد ، حتى ان الجميع كانوا ينادونه وهو لا يزال فــي السابعة من عمره بالشيخ لافي ٠ لصوته الجميل وبراعته في ضرب الصنــج

والشيش ، بل وكان الدراويش يعتقدون ان الشيخ لافي الصغير « متصل » رغم صغر سنة ، لكثرة ما كان « يغيب » اثناء الذكر ، وانطلاق لسانه «بالسنسكريتي» الى حد ان خاله الشيخ المبروك كان يعجز عن مجاراته في فهم كل ما كان يقوله وهو « غائب » ، ولا يستطيع « الاتصال » به وتهدئته ، بينما كان هو ، يفهم كل ما كان يقوله خاله الشيخ المبروك ، حين كان « يغيب » ويطول « اتصاله » به عز وجل ، فيداريه الى ان يهدئه ، ويمسح وجهه بالرحمن ٠

ولان الشيخ المبروك احمد الحمد ، خال الشيخ لافي ، كان قد حلل الغزو على املاك ومواشي « الفاسقين » حافظ باشا وفؤاد افندي السعد ، و « احواشهم » في قرى مرج ابن عامر ، بل وعلى املاك ومواشي كل دار السعد وعبد الهادي ومن لف لفهم من دار جرار والعبوشي ، وقطع الطريق على قوافل غلالهم المتجهة الى عكا وبلاد الشام ، بعد ما طوب السلطان عبد الحميد اراضي البارد على اسمهما ، ولم يبق لاهل البارد شبر ارض في المرج يدفنون امواتهم فيه ، فقد تحول رجال البارد كلهم مثل الكثيرين من اهالي اليامون وكفردان والسيلة ، الى « رجال ليل » ٠ ولكي لا يظن الاخرون ان « عليهم الطبة وللدراويش الجبة » ، كان الشيخ المبروك يشبك « دمايته » بحزامه بعد صلاة العشاء ، ويحمل عصمليته ، ويمشي امامهم ، « ويا بطن ما خلفت حدا احسن من حدا ٠ وهااللي بجيبه الطير الك وللغير ، وان جاب جاجة وللا قماجة لكل ثم حصته ، وعلى سنة الله ورسوله » ٠ وما ان بلغ الشيخ لافي السادسة عشرة من عمره ، حتى كان « شيخ الشباب وسيد من غاب وجاب ٠٠ واسمه وين ما طب يسبقه » ٠

□

ولكن الشيخ لافي ما كاد يصل التاسعة عشرة من عمره ، حتى كان قد تغير، ولم يدر احد ما الذي حصل له فجأة ،فقد فارقه الفرح ، وغابت تلك البسمة التي كانت ترف على شفتيه حين كان يمسك بالصنج ويتربع في صدر الزاوية الى جانب الشيخ المبروك ، ويرفع صوته الجميل موشحا بذكر الرسول « صلى الله عليه وسلم » ، وزوجته السيدة خديجة ٠

ويروي الشيخ محمود الحمد عن ابيه الشيخ المبروك احمد الحمد ، ان الشيخ لافي اصبح كلما اتى على ذكر السيدة خديجة ، كان يصمت ، ثم يغيب وعيناه تلمعان صبابة ، وكأنه يقص حكاية تناسخت معه منذ الازل ، ثم يعود ليرفع صوته من جديد بكلام لم يسمعه احد من الدراويش من قبل ، وعيناه لا تزالان معلقتين في البعيد ، وكأنه كان يتلقى ما ينشده من وحي ينزل عليه وكلما كان يغيب في النشيد اكثر ، كلما كان صوته يرق ، وصنجه يخفت ، فتترقرق الدموع

في عينيه ، ثم ما تلبث ان تتلألأ على اطراف اهدابه ، وتسح على وجنتيه ببطء ، لتنعقد على اطراف لحيته السوداء ، فتبدو وكأنها سرج تتمايل في مهب ريح خفيفة تتسلل من شقوق باب الزاوية الموصد ، ثم تنسكب مرة واحدة في خيط متلاحق ، كانفراط عقد تتناثر حباته على الصنج الذي كان يبدأ بالخفوت بين يدي الشيخ لافي المتمايلتين شيئا فشيئا ٠٠ ويجهش بالبكاء المرير حتى لا يعود يقوى على ضبط نفسه ، فينهض وهو لا يزال يجهش بالبكاء ، ثم يتوسط الحلقة ويبدأ بالدوران على نفسه على ايقاع صنجه الذي يأخذ بالارتفاع شيئا فشيئا ، ثم ينسل من الحلقة خارجا ليهيم على وجهه في الجبال ، في اتجاه مغارة سويد حيث كان يتوحد بالذكر حتى مطلع الفجر ، ولا يجرؤ على اللحاق به سوى حسن المعتوه ، الذي كان لا يزال في الثانية عشرة من عمره ، والذي لم يكن معتوها بعد ، اذ كان الوحيد الذي يسير على خطى الشيخ لافي سواء في تصوفه او قوة قلبه في ليالي الغزو المظلمة ، الى حد انه كان يكاد يجاريه في ضرب الصنج او التكلم « بالسنسكريتي » ، بعد الشيخ المبروك احمد الحمد ٠

وكان حسن يقفز ، كلما اجهش الشيخ لافي بالبكاء ، الى وسط الحلقة وهو ينتحب ، ويبدأ بالدوران حول نفسه وهو يردد « الله ٠٠ الله ٠٠ الله ٠٠ » ، الى ان يسقط مغميا عليه ، ولا يصحو الا بعد ان يتوقف صنج لافي حين كان يخرج من الحلقة هائما على وجهه ، فيتبعه وهو يجوح بأعلى صوته « شيل الله يا سيدي وامامي الشيخ لافي » ، الى ان عاد ذات ليلة ، وهو يصرخ بأعلى صوته ، صراخا يمزق القلب ، ثم قفز وسط الحلقة ، وراح يدور حول نفسه ، وهو يجهش بالبكاء ، مرددا كلمات لم يستطع احد فهمها مطلقا ، ثم سحب « الشيش » من وسطه ، وراح يمزق به لحمه والدم يتدفق منه ، في غمرة الذكر من حوله ، الى ان فقد وعيه تماما ، وسقط في حضن الشيخ المبروك احمد الحمد صارخا « حبيبي » ثم اغمي عليه ٠ فحمله الشيخ المبروك وخرج به ، وهو يقرأ آية الكرسي فوق رأسه عله يصحو ، الا ان حسن وان كان قد صحا من غيبوبته فانه ظل طريح الفراش عدة ايام ، لا يأكل ولا يشرب ، ولا يتكلم الا كلما اشتدت به الحمى ، حيث كان يتمتم بكلمات متقطعة لم يستطع احد فك طلاسمها ٠

الا ان والدته صحت عليه ذات ليلة وهو يردد اسم الشيخ لافي وخديجة بصوت متقطع مرتفع ٠ وحين اصخت السمع جيدا ، سمعته يردد اسم مغارة سويد ، ولكنه عاد وصمت مرة ثانية ، فظنت انه يطلب رؤية الشيخ لافي ، فخرجت لتوها الى الزاوية تطلب اليه ان يأتي ويقرأ فوق رأس حسن آية الكرسي ، عله بذلك يفك عقدة لسانه ، غير ان حسن ما كاد يراه يدخل عليه ، حتى راح يرتجف مثل زغلول حمام مذبوح ، ثم اغمض عينيه وصرخ « حـ ٠٠ حـ ٠٠ حي » وأغمي عليه ٠ وفي اليوم السابع ، وقبل صلاة الجمعة ، فوجىء الناس بحسن يعلق في وسطه « تنكته » ، ويجوب الازقة في عز الظهر وهو يقرع « التنكة »

مرددا « لـ ٠٠ لـ ٠٠ لا اله الـ ٠٠ الـ ٠٠ الا الله يـ ٠٠ يا نا ٠٠ نايـــم وحـ ٠٠ وحـ ٠٠ وحد الله » ، ثم يقفز كالقرد « بسم الله الرحمن الرحيـم » صارخا « حـ ٠٠ حـ ٠٠ حي » ، بينما كانت امه تجري خلفه وهي تلطم علـــى خديها داعية « الله يتجزا منك يا خديجة يا بنت حليمة البرمكية » ٠

ولكن احدا لم يعرف ما الذي جنته خديجة على حسن المعتوه ، وان كـــان قد شاع ، والعلم عند الله وحده ، انه عندما كان حسن المعتوه يتبع الشيخ لافي في الجبل ، ظن انه قد دخل مغارة سويد ، فدخل خلفه وهو لا يزال في نوبـــة الذكر ، واذا به امام خديجة وهي تنام عارية كما خلقها ربها ، وشعرها كالليل محلول على صدرها فانبهر ، واندور عقله ٠

وتضيف العجائز ، انه من غير المعقول ان يكون حسن المعتوه قد رأى خديجة على هذه الحال وحدها ، ولا بد انها كانت مع ملك من ملوك الجـــان ، لان مغارة سويد ، « من زمان وجا ي» ، وهي مسكونة ٠ ومن يدري ، فربما كـــان ، والله وحده العالم ، على هيئة الشيخ لافي نفسه ٠ هذا ان لم يكن قد اختلـط عليه الامر ، ورأى جنية ، ارسلها الله للشيخ لافي نفسه فعلا ، على هيئـــة خديجة بنت حليمة البرمكية ، لكي يمتحنه ٠

ومهما يكن الامر ، فقد اصبح حسن بعدتلك الليلةمعتوها، واصبحت خديجة اجمل ، وصدرها ، يا صلاةالنبي ، تكور اكثر ٠ وحين كانت النساء تتهامسن كلما تمر ، كان وجه خديجة يشرق كالبدر التمام ، وكأن الرحمن اودع فيـــه سره ٠ اما الشيخ لافي ، فكان يصمت كلما راح الشيخ المبروك يسأله عن سر تغيره ، ثم يشرد بعينيه بعيدا ، ووجهه يتهلل ، كما لو كان يصغي لصوت بعيد يناديه من اعماق مغارة سويد في قمة الجبل ، فينحني له خاله الشيخ المبروك متمتما « سبحانك اللهم تصطفي من عبيدك من تشاء » ، ثم ينسل بهدوء خافضا عينيه ، وكأنه كان في حضرة امام له ، كي لا يقطع عليه اتصاله ، بـه عـــز وجـل ، وتوحـده ٠

غير ان حليمة البرمكية ، ام خديجة والتي كانت على فراش الموت ، قد كشف الودع بين يديها، حين شاع ما شاع عن خديجة ابنتها، عن عجوز شمطاء وجهها وجه تركية ، صدئة الاسنان شائبة ، رثة الثياب ، تجلس في زاوية مظلمة ، في مغارة لا تنتهي ، وتطبخ في قدر ضخم امامها ، رأسا يشبه رأس الشيخ لافي ٠ ولا تنفك تزيد النار حطبا ،بينما وقف ولد يشبه حسن ينظر اليها وهـو يرتعد ، ولا يستطيع الفرار ٠ وحين سألها الشيخ المبروك احمد الحمد الذي كان يقيم ذكرا لروحها قبل موتها ، عما يعنيه الودع ، حملقت به ، ثم شهقت واسلمـــت الروح دون ان تجيبه ٠ فاطرق الشيخ المبروك وبكى ٠ واستعاذ بالله مـــن شر ودع حليمة ٠

وقبل ان يستطيع الشيخ المبروك تفسير ما قاله الودع بيـن يـــدي حليمـة

البرمكية ، كان الجنود الاتراك يداهمون قرية البارد ليلة الجمعة · وهي الليلة التي كانت « الطبات » فيها محرمة ، فاقتحموا الزاوية والدراويش في عز « النوبة » ، واقتادوهم جميعا مع كل من وجدوه من الرجال في القرية الى مدينة جنين ، كي يؤدوا ولاء الطاعة الى حافظ باشا علنا ، بعد ان يشهدوا شنق الشيخ لافي امام السراي في ساحة المدينة ·

ويروي الشيخ محمود الحمد عن ابيه ، انه ما كادت تشرق في اليوم التالي ، حتى غصت ساحة المدينة بأهالي القرى المجاورة الذين تدفقوا بنسائهم ورجالهم ، ليشهدوا شنق الشيخ لافي بامر الحاكم التركي ، وانه لم تبق « زاوية » او « طريقة » الا واتى دراويشها بكامل عدتهم واعلامهم · مما جعل الحاكم التركي الذي كان يجلس على منصة عالية مع حافظ باشا ، ان يأمر باحضار المزيد من الجنود والجندرما والصواري كي يمنعوا الدراويش من الوصول الى الشيخ لافي وانقاذه ·

وما كاد الشيخ لافي يطل حاسر الرأس امام الجلاد ، حتى دق جميع الدراويش « النوبة » مرة واحدة وهم يصرخون « حي » ثم راحوا يرددون « لا اله الا الله ·· لا اله الا الله » بينما كان الشيخ لافي يتقدم نحو عود المشنقة، مرفوع الهامة ، بخطى وئيدة على ايقاع طبول وصنوج الذكر بين الاعلام المتمايلة من كل صوب ، ولكنه ما كاد يقف تحت حبل المشنقة ، ويضعه بنفسه حول عنقه ، حتى اطلقت خديجة صرخة علت على جميع اصوات الدراويش ، فاخترقت حاجز الجند الى وسط الساحة ، وقد حلت شعرها الليلي الطويل ، وشقت ثوبها عن صدرها الناهد ، وراحت تتلوى وتميل على ايقاع الطبول والصنوج وهي تشهق من شدة الوجد ، الى ان سقطت على أقدام الشيخ لافي ، فتوقفت جميع الطبول والصنوج والاعلام ، والذكر ، بقدرة قادر ، مرة واحدة وفي رمشة عين ، بينما نهض الحاكم التركي عن كرسيه ، وراح يتقدم من منصة المشنقة وهو يمزق ثوبه عن عنقه والعرق يتصبب منه كالسيل وكأنه يفك من حوله حبل مشنقة يكاد يخنقه ، الى ان وقف امام الشيخ لافي وهو يرتجف كالقصلة ، فاستل سيفه وقطع حبل المشنقة ، ثم استدار نحو خديجة التي انتصبت امامه بكامل جمالها وسحرها ، ولكنه لم يستطع النظر اليها ، فالتفت الى الجلاد يأمره باقتياد الشيخ لافي الى السجن ، وهو لا يقوى على الوقوف ، ولولا ان اسرع الجنود اليه يركبونه حصانه ، لسقط على اقدام خديجة التي سحرته ·

□

ما كاد الشيخ لافي يمكث بضعة اشهر في سجن عكا ، حتى اقتاده الاتراك

الى العسكرية ، وشحنوه مع مئات الشباب الفلسطينيين الى جبال اليمن ، كي يقاتل الثوار اليمنيين الذين شقوا عصا الطاعة على السلطان التركي تحت راية الامام حميد · الا انه ما كاد يصل الى اليمن ، حتى فر اثناء احدى الغارات التي شنها اليمنيون على معسكر الاتراك قرب صنعاء ، والتحق بالثوار اليمنيين ، مقسما انه سيظل يحاربهم الى ان يخرجوا من اليمن ، بل ومن بلاد العرب كلها · ورغم انه اصيب اكثر من ثلاث مرات في هذه الحرب ، الا انه كان يعود الى صفوف الثوار ثانية ، حتى قبل ان تلتئم جراحه ·

وعندما كان يصل الشيخ لافي عند هذه النقطة من سرد حكايته في اليمن ، كما تروي حسنية حسين الحمد نقلا عن امها خديجة بنت حليمة البرمكية ، فانه كان يصمت ساهما ، وقد شع من جبينه الاسمر العريض ، ألق بعيد ، فتتعلق عيون السامعين بعينيه الواسعتين الشاردتين ، اللتين كانتا تذكرانهم بايام شبابه حين كان يهيم على وجهه في الجبال متيما بخديجة ، اذ كان يخيل اليهم انهما تكادان تنطقان بحكاية حبه ، التي يتناقلها الناس ، لفتاة يمنية بارعة الحسن والجمال ، وكأنها ، سبحان الخالق نسخة طبق الاصل عن خديجة ، كان التقاها في الجبال وهي تحمل للثوار ماء وخبزا ، فعشقها وتيم بها ، ثم تزوجها وانجبته توأما ، ثم تتوقف الحكاية ولا احد يعرف بعد ذلك عن حكاية الحب هذه شيئا، غير حسن المعتوه الذي يأبى ان يتفوه بها · حتى ولو عقدوا له على ابنة السبع عشر ، ويقسم ان كل ما يعرفه هو ان « الملك » كان قد اشتاق ذات يوم للبلاد ، والله العليم ، لخديجة بنت حليمة البرمكية ، فوجه وجهه صوب فلسطين وقال ، « يا مسهل الدروب » ، ثم غاب في الصحاري ·

ولكي يتقي الشيخ لافي شر الاعراب والجنود الاتراك في الصحراء ، علق في عنقه سبحة يسر طويلة ، وتعمم واشترى له صنجين من نحاس ، وراح يقيم حلقات الذكر في كل قبيلة تصادفه في طريقه ، حيث كان الرجال يتجمعون في « الشق » حوله ، وعيونهم الخاشعة تتعلق به ، ثم يبدأون بالترديد خلفه « الله ·· الله » ··، وهم يترنحون خشوعا ، الى ان يبدأوا بالتساقط واحدا واحدا ، وهم في حالة من فقدان الوعي ، فيتركهم وينسل الى خيمته التي كانوا يفردونها له ، حيث تبدأ النسوة بالتسلل اليه واحدة تلو الاخرى كي يتبركن منه ، خاصة وانهن كن يبهرن بجماله وطول قامته المنتصبة كالرمح ·

ومع ان « الحرام » غير وارد حين يتكلم الناس في قرية البارد عن الشيخ لافي الملك ، الا ان الشيخ محمود الحمد يروي عن ابيه ان خديجة بنت حليمة البرمكية ، التي كانت قد قطعت الامل من عودة الشيخ لافي ، فستر عليها ابن عمها حسين الحمد الاكتع ، وانجبت منه ثلاثة اولاد قبل ان يعود ، رغم ما اشيع عن ابن عمها من انه كان لا يصلح « لا للسدة ولا الهدة » وان حسنية ابنتها البكر ، لولا مخافة الله ، لقالوا انها ليست منه ، وانها تكاد تكون ،

نستغفر الله العظيم ، صورة مصورة عن الشيخ لافي ، كانت تهز « عبها » كلما اتت على ذكر مباركة الشيخ لافي للبدويات وكتابة الحجب لهن في الخيمة عند منتصف الليل ، وذلك لانه كان ، على ذمة خديجة ، يتحسس عنقه ويكز على اسنانه ، كلما اتى على ذكر هذه « السالفة » ، ثم يشرد فكره ويشت عن الحاضرين ، ولا يعود لنفسه الا عندما كان حسن المعتوه يسأله ، وعيناه تكادان تنفران من وجهه ، ما اذا كان صحيحا ما يشاع عن النساء البدويات انهن لا يلبسن « الشنتيان » مطلقا ، وان لهن سيقانا جميلة وقوية ، و « يكلبن » بالرقبة ، حتى يكدن يطلعن الروح ، ويا ويل من لا يفلح . فيشده « الملك » من اذنه قائلا « وانا اشعرفني يا حريق الوالدين » ، فيصرخ المعتوه وهو يرتجف هلعا « خ ‥ خ ‥ خديجة اللي بتقول » ، ثم يفلت من بين يديه عائدا الى مكانه وهو يتمتم غاضبا « قا ‥ قا ‥ قال اشـ ‥ اشـ ‥ اشعرفو قال ؟‥ »

وسواء عرف الشيخ لافي او لم يعرف ، فقد كف حسن المعتوه عن توجيه هذا السؤال اليه ، بعد مدة قصيرة على عودته ، رغم تحريض خديجة ام حسنية له ،واغرائه « بالزلابية » التي كان يحبها كثيرا . وذلك ليس لان الشيخ لافي كان قد نقده « مجيدية بحالها » ، اخرجها من « الكمر » الذي كان قد جمعه من البدويات بدل الحجب التي كان « يكتبها » لهن ، وظل يتحزم به خلال ضربه في الصحاري وفي بلاد الشام عامين كاملين حتى عاد بالسلامة ، كما تدعي خديجة، وانما لانه اصبح لا يجوز توجيه مثل هذا السؤال اليه ، بعدما فعل ما فعله « بابو طربوش احمر » من جنين ، الذي ارسله حافظ باشا ، « الله يحرقه بقبره » .

وما فعله الشيخ لافي « بابو طربوش احمر » ، وهذا على ذمة الشيخ عبد الحميد الحمد ، زوج حسنية بنت خديجة السابق ، ان حافظ باشا عبد الهادي ، « حط كعاره بكعار البارد واهلها » ، منذ ان طوب الاتراك له ارضها في المرج، ومنذ ان اخذوا الشيخ لافي « عالعسكرية » . و « حط عينه على هالأكم عرق زيتون وحاكورة الله ظلن في البارد » ، بعدما طوب معظم زيتون برقين وكفرذان والمنشية على اسمه ، ولم يبق عليه غير زيتون البارد ، يقف كالشوكة في العين ، على حد قوله ، فأرسل اليهم رسولا يبلغهم لاخر مرة ، انهم اذا تنازلوا عن كروم الزيتون المحاذية لكرومه في الناحية الشرقية من البلد ، فانه مستعد للتوسط اليهم لدى الوالي في بيروت لكي يعفيهم من ضريبة العشر ، ومن العسكرية ، ناهيك عن انه يعرف بان الشيخ لافي قد عاد ولكنه لم يبلغ الوالي عنه بعد ، ولذلك فهو مستعد لان يتوسط له ، ويحصل له على عفو عام من الوالي ، لانه اذا كانت خديجة قد انجته من المشنقة في المرة السابقة ، فهذه المرة لن يشفع له احد ككل « الفرار » من العسكرية . ثم اضاف الرسول و « اللي بيجيش بالمليح بيجي بالعاطل هالمرة » .

ورغم انه لم يكن للشيخ لافي عرق زيتون واحد ، لا في شرقهـــا ولا فـــي غربها ، الا انه كان الوحيد الذي تنطح لرسول حافظ ، وهو يجلس مثل ديـــك الحبش على فراش خاله الشيخ المبروك احمد الحمد المختار ، فـــي الديوان ، فامسك به من رجليه ، وراح يجره بكل قوته ، دون ان يراعي خاطر احد فـــي القرية ، حتى ولا خاطر خاله بنفسه ، الذي راح يجري خلفه لانقاذه من بيـــن يديه خوفا من بطش وانتقام حافظ باشا ، اذ تيقن الجميع انه لا بد وان يجـــر الويل بفعلته هذه على البارد ، ويتسبب بحرقها هذه المرة كما فعل جد جده مـــن قبله · بل ظل يجره في الازقة ، وسط زغاريد النساء ، بينما شمر حسن المعتوه عن ذراعيه وساقيه وراح يضرب على تنكته قافزا كالقرد في الهـــواء امامه ، والصبية يزفونه من خلفه :

حافظ باشا يا تركي

زيتون البارد مش تركه

حافظ باشا يا وضيع

ارض البارد مش للبيع

ولم يكتف الشيخ لافي بذلك ، بل جره الى مزابل البلد ، وسحب خنجره مـــن تحت حزامه ، واعطاه لحسن المعتوه وامره ان يقص له شاربه ، الا ان حسن راح يرتجف وهو يرى نصل الخنجر يلمع في يده ، وكاد يرميه ويفر ، لولا ان صـــاح به الشيخ لافي يأمره للمرة الثانية ان يفعل ، فانحنى عليه حسن وهو يمد يده نحوه ، ولكنه توقف فجأة وهو يحدق بالشارب الاسود المتراقص فوق شفتـــي الرجل المرتجفتين من الغيظ ، كما لو كانا عقربين يقتتلان ، ثم نظر الشيـــخ لافي وهو يكاد يبكي من الخوف ، ثم حدق به ثانية وراح يحومحوله ، ويـــداه الراجفتان تقتربان منه تارة وتبتعدان اخرى ، بينما راح الاطفال يعيرونه قارعين اتناكهم الصغيرة وهم يرددون :

حسن الخايب

بيخاف من الشارب

فعض حسن على شفتيه ، ثم لعق لسانه ، وانقض على ذيل الشارب المعقوف فجأة ، وهو يقطعه بالخنجر مثل لمح البصر ، ثم يقذف به الى المزبلة مسلمـــا رجليه للريح وهو لا يزال ينفض يده ، كما لو كان ينفض عقربا عالقا بهـــا · فانحنى الشيخ لافي على رسول حافظ باشا الذي كاد يتفجر غيظا وهو يتحسس جناح شاربه المقصوص ، وعلى مرأى من جميع اهل البارد ، مرغ لحيته المحناة ، بروث البقر ، وساقه امامه قائلا « روح خبر عما شفت ، وقول لحافـــظ باشا

ودار عبد الهادي كلهم صغيرهم وكبيرهم ، انو مال الناس مش مشاع ، واللي مقرب عزيتون البارد شاربه بقصه ، ولحيته بمرغها باللطع ٠٠ وان كان الباشا ناقصه حنا للحيته يخبط بالبارد ، وانا اسمي لافي الحمد » ٠

ويروي الشيخ عبد الحميد الحمد ، ان احد الذين كانوا في ديوان حافظ باشا ذلك اليوم ، قد روى له ، انه كان قد عاشره سنين طويلة ، وعرفه في كل احوال غضبه وسورته ، الا انه لم يره على مثل تلك الحالة التي رآه عليها ، حين دخل عليه رسوله بتلك الهيئة المزرية ، وقد جف الروث على لحيته وشاربه المقصوص ٠

وكان الديوان عندها يغص بمخاتير ومشايخ القرى المجاورة الذين اعتادوا التجمع حول مائدته بعد صلاة الجمعة من كل اسبوع ، فقفز من مكانه وراح يطرد كل من في ديوانه ، مقسما بالطلاق ثلاثا ، انه سيبيد الزرع والضرع في قرية البارد ، حتى لا يبقى لهم فيها شبر ارض يدفنون موتاهم فيه ٠

□

وقبل ان تشرق الشمس صبيحة اليوم التالي ، كان رعيان حافظ باشا ورجاله المسلحون ينزلون بقطعان الماعز في زيتون البارد وزرعها ، فماكان من الشيخ لافي ، الا ان حمل بندقيته « وسلحلكه » ، ثم امتطى فرسه التي اخذها من رسول الباشا ، وراح يجول في القرية ، يسبقه حسن المعتوه ، قارعا تنكته ، معلنا للناس ان رجال الباشا قد احتلوا زيتون البارد وانزلوا فيه قطعان الماعز ، وان الشيخ لافي حمل سلاحه وركب « الكحيلة » ، كي يطردهم ومن لا يريد اللحاق به فليأخذ ماله وعياله ويرحل عن البارد ٠

فما كان من رجال الباشا الا ان لاذوا بالفرار ، حين وقعت عيونهم على الشيخ لافي وهو يغير عليهم ، وقد تبعه الصغير والكبير من الرجال والنساء بكل ما اتى لايديهم من فؤوس وشواعيب ونبابيت وبنادق ، تاركين خلفهم قطعان الماعز التي ساقها الشيخ لافي الى ساحة القرية ، وراح يوزعها بالتساوي على اهل القرية ، معارضا بذلك الشيخ المبروك احمد الحمد ، الذي راح يحثه على ارجاع الماعز للباشا ليكف شره عنهم ٠

وكان واضحا ان حافظ باشا لن يحتمل هذه الاهانة والهزيمة التي الحقها الشيخ لافي واهل البارد به وبدار عبد الهادي جميعا ، ولم يعد امامه سوى ان يكتب الى الوالي في بيروت ، لجر جميع رجال البارد الى السجن وتأديبهم ، لتمردهم على الباب العالي ، كما ادعى ، وعصيانهم عن دفع العشر والميري ، وقطع الطريق على مواشيه وسرقتها ، لكي يكونوا عبرة لاهالي قرى مرج ابن

عامر كلها ، قبل ان يتحردوا هم الاخرون ، ويفعلوا به ما فعله الشيخ لافي ، بعد ان قلل من هيبته وهيبة الباب العالي بين الناس ·

ولان حافظ باشا كان ذا حظوة كبيرة لدى الوالي التركي في بيروت ، بل كان شريكه بالاملاك على ذمة الشيخ عبد الحميد الحمد ، فقد ارسل الى السنجقدار في نابلس ، يأمره باسترجاع قطعان حافظ باشا فورا ، وتأديب اهالي البارد ، بان يسوقهم مشيا على الاقدام ، وعقلهم في رقابهم الى قصر حافظ باشا في جنين ، كي يؤدوا له ولاء الطاعة راكعين علنا وامام اهالي القرى كلها ، بعد ان يشهدوا شنق زعيمهم الشيخ لافي الحمد ، في الساحة امام السراي ، بتهمة التمرد على الباب العالي وقطع الطريق على اموال الناس وحلالهم ·

ولكن الشيخ لافي ما كاد يعرف بتقدم جنود السنجقدار نحو البارد ، حتى ركب فرسه وتمنطق سلاحه ، وفر الى الجبال مع باقي الرجال البالغين ، بعد ان نحر كل ما تبقى من ماعز الباشا في مدخلالقرية · فساق الجنود الاتراك كل من صادفوه من شيوخ القرية ونسائها بالسياط الى مقر حافظ باشا في جنين ، بينما بقي قائد الحملة مع سرية كاملة للبحث عنه ومن معه في الجبال ، وجره حيا او ميتا الى المشنقة ، وخاصة بعد ان صحا الناس في الليلة التالية ، على تلك الصاعقة الحارقة ، التي انزلها الله على زيتون حافظ باشا من دون خلق الله ، في كل الجبال وفي جميع القرى مرة واحدة ، حيث ظلت النيران تلتهمه لعدة ايام متتالية ، دون ان يستطيع رجال حافظ باشا انقاذ سوى القليل منه ، بعد ان سخر الاتراك الاهالي في القرى المجاورة لقطع الاشجار امام النيران لحصر الحريق ·

ويشهد الذين رأوا حافظ باشا تلك الليلة ، حين ايقظه الخدم ليخبروه بما حل بزيتونه ، انه شهق من الغيظ وراح « يلعبط » كالثور المذبوح وهو يشد بكلتا يديه على صدره ، والزبد يرغي على شفتيه ، وهو يكاد يختنق ، ولولا ان لحق الطبيب به على اخر رمق ، لكان لفظ انفاسه وارتاح الناس منه · وسرعان ما شاع بين الناس ، ان الشيخ لافي ورجاله ، هم الذين احرقوا زيتون الباشا انتقاما منه على شنق خاله الشيخ المبروك محمود الحمد امام السراي في جنين ، بعد ان افلت هو من بين يدي الاتراك ولم يستطيعوا القبض عليه · وانه سبب لحافظ باشا جلطة في قلبه ، لا بد وان تقتله قريبا ·

ولم يكتف الشيخ لافي بذلك ، بل اغار بعد عدة ايام على الجنود الاتراك ، الذين يبحثون عنه في الجبال ، وكاد يبيدهم لولا انهم تراجعوا نحو المرج قبل شروق الشمس ، ثم راح يغير على « احواش » حافظ باشا وغيره من الباشوات والافندية في قرى مرج ابن عامر ، مقسما انه لن يبقى « رأس مطربش تلعب الريح بذيله » ، فذاع صيته بين الناس ، واصبحت جبال البارد قبلة

الخارجين على القانون والفارين من وجه الاتراك والباشوات ، الذين ارسلوا الى الباب العالي في اسطنبول ، يستنجدون به لحمايتهم وحماية ممتلكاتهم من سطوة الشيخ لافي ورجاله من قطاع الطرق ، بعد ان عجز الوالي في بيروت عن ذلك . وسرعان ما شاع في القرى ، ان جمال باشا السفاح ، قد جاء على رأس جيش من دمشق لتأديبه وتعليقه مع جميع رجاله وكل من يأويهم ، على اعواد المشانق التي راح الاتراك ينصبونها في كل القرى ، كي يراهم الناس جميعا ، فراح اهل البارد يفرون بعيالهم الى المغاور في الجبال ، بعد ان رفض اهل القرى المجاورة ايواءهم ،بينما راح الشيخ لافي ورجاله يستعدون لمواجهة جنود جمال باشا ، اذ فضلوا الموت في القتال على المذلة وتعليقهم على اعواد المشانق .

ولكنهم ما كادوا ينتشرون في الجبال ، حتى كان الاتراك يدقون الطبول في مدينة جنين ، وفي كل القرى المحيطة بها ، وعمت الاخبار عن حرب كبرى قد نشبت بين الاتراك وحلفائهم الالمان ، مع الانجليز والفرنسيين ، وان جمال باشا قد أمر بأخذ جميع الرجال البالغين الى العسكرية ، وشحنهم بالقطار الى « الترعة » في مصر ، لاحتلالهامن الانجليز ، وانه قد اصدر حكمه بالاعدام على كل من يتخلف عن الحرب ، او يفر من العسكرية ، بعد ان بدأ الكثير من الشباب بالفرار الى الجبال هربا من العسكرية . فسارع الشيخ لافي الى نشر رجاله في الجبال للبحث عن هؤلاء « الفرار » ، كي ينضموا اليه والوقوف معه في وجه الجنود الاتراك الذين بدأوا يلاحقونهم .

□

كانت المجاعة قد بدأت تفتك بالناس منذ السنة الثانية للحرب ، اذ لم يتركوا لدى الفلاحين شيئا الا واخذوه ، واجتاح الجراد المرج ، قاضيا على الاخضر واليابس امامه ، وانتشرت الحرائق في قرى المرج لطرد وباء الكوليرا ، وهام الشيوخ والنساء على وجوههم يبحثون عن حب الشعير والذرة في روث خيول الاتراك ومواشيهم المتجهة الى الجبهة في « الترعة » ، بعد ان خلت القرى من « الفرار » الذين راحوا يشكلون عصابات في الجبال ، للاغارة على محاصيل الاقطاعيين والقوافل المتجهة الى الجبهة ومعسكرات الاتراك ، بحثا عن الطعام .

وما كادت حرائق الكوليرا تخمد ، حتى عمت « الجدري » ، التي كادت تقضي على من تبقى من الناس في القرى ، وكان الشيخ لافي اول من اصيب بها من بين رجاله ، وتفشت التآليل في جسده ، حتى لم يعد ثمة موضع قيراط واحد في جسمه يستدير عليه ، فاعتزل في مغارة سويد ، لا يدخل عليه احد ،

غير حسن المعتوه ، الذي لازمه كما يلازم الانسان ظله ، بعد ان تفرق عنه معظم رجاله الذين هاموا على وجوههم في الجبال ٠

ويروي حسن المعتوه ، انه لم يسمع الشيخ لافي يتأوه ولو لمرة واحدة ، في كل تلك الفترة التي كانت الجدري تتفشى في جسده ، ولكنه كان دائم البكاء بصمت ، والدمع لا ينفك يسح على وجنتيه ، وحين كان يسأله عن سر بكائه ، كان يرد عليه بصوت ضعيف كالطالع من زوايا المغارة « اطلع يا حسن وشوف كان بعد في رجال في الجبال ، وان كانت نسوان البارد بعدها بتحبل وتلد » ٠ فيبكي حسن ويقول له « ما تعتل هم يا لافي ، الرجال ماليه الجبال ، والنسوان بهالقحط عدولها توام » ، فتطل البسمة من خلف التآليل على شفتيه ، ثم يفتح عينيه المتورمتين ، فيتدفق ماء التآليل المختلط بالدمع على وجنتيه ، فيغمضهما ثانية ٠

اما ما كان يحير حسن المعتوه ، ويملأ قلبه بالخوف في تلك الليالي التي كان يسهر فيها على الشيخ لافي خارج المغارة ، هو ذلك الشبح الذي كان يشبه الصبية الفارعة الطول ، والذي كان يراه ينزل قبل طلوع الفجر من قمة الجبل متجها نحوه ، فيشمر حسن عن ساقيه وينطلق في الاتجاه المعاكس ثم يجلس على القمة المقابلة ، الى ان يراه يصعد القمة عائدا من حيث اتى في اتجاه البارد ، ولكنه لم يكن يجرؤ في يوم منالايام على سؤال الشيخ لافي عما كان يراه ، كي لا يتهمه بالخوف والخبل ، وحين غفا حسن على باب المغارة ذات ليلة بعد ان هده السهر ، صحا على حفيف ثوب يمر كالريح فوق وجهه ، فاغمض عينيه وهو يتجمد في مكانه ، ثم نهض واطلق ساقيه للريح الى القمة المواجهة ٠

ظل حسن يجلس فوق القمة في انتظار عودة ذلك الشيخ الذي دخل المغارة دون ان يغمض له جفن ، طيلة اليوم والليلة التاليين ، الا انه لم يعد ، فنزل حسن ، وراح يتقدم من المغارة ورجلاه تكادان تصطكان من الخوف ، ثم وقف بباب المغارة وراح ينادي بالشيخ لافي بصوت راجف وهو يحس بالذنب لغايبه عنه ، وحين لم يسمع اي جواب ، عض على شفته ، ثم لعق لسانه واندفع داخلا ، الا انه توقف فجأة وهو يكاديصرخ ، لولا ان رأى الشيخ لافي يرفع اليه يده يطمئنه وهو ينتحب ، بينما كانت يده الاخرى تلتف حول عنق خديجة بنت حليمة البرمكية ، التي كانت قد اسلمت الروح على ذراعه ٠ والتي لولا ضفائرها الطويلة المسبلة على جانبيها لما كان حسن يعرفها ، بعد ان كست التآليل وجهها وعينيها ٠

□

كانت « برزانات » الانسحاب التي يعرفها الشيخ لافي جيدا منذ ان كان في اليمن ، تردد في الجبال والمرج ، واصوات المدفعية الاتية من البعيد ، ترجع

اصداءها في الليل ، وظهرت الطائرات الانجليزية في الجو لاول مرة ، فتدافع الناس لمشاهدة هذه العجيبة ، التي تبشر بقرب القيامة ، وانتشرت الاخبار عن اندحار الاتراك امام الانجليز الزاحفين على فلسطين · وكانت هذه هي اللحظة التي ينتظرها الشيخ لافي للاغارة على حافظ باشا في عقر داره واحراق قصره بعد ان شفي من الجدري التي حفرت جلده ، حتى بات من الصعب على من كان يعرفه تمييزه الا بقامته المنتصبة ويديه الضخمتين ، واستطاع ان يلم شتات رجاله بعد ان ارسل حسن المعتوه يقرع « تنكته » في الجبال مبشرا بشفائه ·

ولكنه قبل ان يفي بنذره في شنقه بيديه امام السراي وعلى مرأى من جميع الناس كما فعل بخاله الشيخ المبروك احمد الحمد ، مات حافظ باشا « بالجلطة » التي كان قد سببها له ، دون ان يترك حتى ولدا واحدا خلفه لاشفاء غليله منه ، فراح الشيخ لافي يوجه غاراته برجاله على الجنود الاتراك المنسحبين نحو بلاد الشام عبر نهر الاردن ، للاستيلاء على ما يستطيع من اسلحتهم وخيولهم الى ان عبروا النهر الى غير رجعة ·

ولكنهما كاد يستريح من مطاردة الاتراك ، حتى بدأت اخبار الجيش الانجليزي الذي احتل فلسطين كلها ، وبحثه عن المسلحين الفلسطينيين ممن فروا من الجيش التركي وغيرهم، لتجريدهم من سلاحهم واعتقالهم ، تنتشر في جميع قرى المرج ، ولكن ليس هذا ما اثار غضب الشيخ لافي وافقده صوابه ، لانه اذا كان الاتراك الذين كانوا يحكمون الدنيا لم يقدروا عليه ، فكيف سيقدر هؤلاء « العلوج » اولاد البارحة عليه ، وان كانوا رجالا فليجربوا حظهم معه ، ولكن ما اغضبه وافقده صوابه كان ، هو ما سمعه من ان الانجليز وعدوا « الخواجات اللي في الكبانيات » والذين يأتون عن طريق البحر ، بانهم سيعطونهم فلسطين ، لكي يقيموا فيها دولة ، وانهم قد بدأوا بترحيل اهل الفولة والعفولة ، وينوون ترحيل جميع القرى الواقعة في قلب مرج ابن عامر وغور بيسان ، لكي يقيموا فيها « الكبانيات » ·

والانكى من ذلك ، هو ما كان قد سمعه من اخبار ذلك القائد الانجليزي اللنبي ، الذي دخل القدس ، والذي استقبله الناس استقبال الابطال ، لانه جاء ليخلص الناس من حكم الاتراك وظلمهم ، كما ظنوا لغبائهم ، فاذلهم الى حد ان مفتي القدس الجليل ، الشيخ كامل الحسيني ، وهو اول من ذهب لاستقباله ، غضب من كلامه وانسحب · ومع انهم كانوا يستحقون الاذلال في رأيه ، لانه كيف يمكن لمحتل ان يخلص الناس من محتل ، ولكنه لم يستطع تحمل استعلاء هذا « العلج » على العرب واهانتهم مهماكان الامر ·

اما كيف اذل اللنبي الناس ، وما الذي قاله ، حتى اغضب المفتي ، فهذا ما لم يستطع الشيخ لافي فهمه ، اذ ما دخل الحرب مع الاتراك بالصليب

والحروب الصليبية ، كي يقول ان الحروب الصليبية قد انتهت ، فمنذ أن خلق لافي وهو يحارب الاتراك وكل من لف لف الاتراك ، ولم يحمل في حياته صليبا ولا قرآنا ليحاربهم به !٠ خاصة وان كل من سألهم ، اكدوا له ان ما يعنيه هذا القائد من كلامه هو أن الحرب الكبرى قد انتهت ٠ ولكنه لم يقتنع ، وعلى رأي المثل ، فان « كل عقدة ولها حلال » ، وحلالها هذه المرة كان حسن المعتوه من دون خلق الله ، الذي اقترح عليه ان يسأل واحدا من اهل العلم ، اذ قد يكون لكلام هذا « الكافر » علاقة بالحرب التي كانت بين « الكفار » وبين سيدي الشيخ حامد ، حين جاؤا من البحر والبر لكي يحتلوا البلاد ايام زمان ، وظل يقاتلهم حتى استشهد ودفن في البارد ٠ فما كان من الشيخ لافي الا ان ركب فرسه ، واندفع يسابق الريح في اتجاه مدينة جنين ، ولم يتوقف الا في باب المسجد عند آذان الفجر ٠

ربط الشيخ لافي فرسه ودخل متوجها الى امام المسجد الذي كان ينزل لتوه من فوق المئذنة ، والذي ما كاد يراه حتى سقطت « المحجانة » من يده ، ولكنه بادره بالسؤال قبل ان يطرح عليه السلام ، عن معنى ما قاله هذا القائد الانجليزي المتعجرف ، لانه لا يوجد في جنين احد يفهم بمثل هذه الامور مثله ، ولذلك فلا بد وان يعرف ما يعنيه ٠

ويروي الشيخ عبد الحميد الحمد ، ان امام المسجد في جنين روى له ، انه عندما فرغ من حديثه مع الشيخ لافي ، اطرق قليلا ثم انتصب ملء قامته وعيناه تقدحان شررا الى حد انه لم يستطع النظر اليه ، ثم قفز بظهر فرسه التي راحت تصهل بقوة دون ان يتفوه بكلمة واحدة ، وانطلق بها كالسهم ٠

ويتابع الشيخ عبد الحميد الحمد ، انه كان خارجا باغنامه ذلك الصباح ، عندما رأى الشيخ لافي يقبل بفرسه مع عين الشمس من الشرق ، وعباءته ترفرف خلفه كالبيرق المنشور بالهواء ، وما كاد يصل القرية حتى كان حسن المعتوه يقرع تنكته في الازقة بقوة وهو يردد « لا اله الا الله ٠٠ لا اله الا الله » وقد انطلق لسانه بقدرة قادر ، فهرع الناس يسألونه ما الخبر ، اذ لم يسمعوا صوت تنكته منذ ان قطع الاتراك النهر ، الا انه كان يلوذ بالصمت متجهم الوجه ، وهو يتابع قرع تنكته ، وكأنه خارج للحرب مرددا « لا اله الا الله ٠٠ لا اله الا الله ، والبمبي عدو الله » ، دون ان يفهم احد ما هو « البمبي » عدو الله هذا ولا لماذا ؟٠

ولكنه ما كاد ينتهي من كل الازقة ، والناس يتدافعون خارجين من بيوتهم ، حتى ارتفعت دقات الطبول والصنوج من مقام سيدي الشيخ حامد ، مما جعل الناس يظنون ان الشيخ لافي قد قتل او مات ، ولم تنتظر حسنية بنت خديجة والتي كانت لا تزال صبية صغيرة بعد ، حتى تتحقق من الخبر ، فحلت شعرها

وقدت ثوبها وصرخت مولولة ، « يا شحار خدك يا حسنية بعدك يا لافـــي » ، وتعالت صرخات النسوة اللواتي سمعن ورأين حسنية ، تصرخ وتلطم خدودها، فخرجن يولولن هن الاخريات وشعورهن محلولة وثيابهن مقدودة ، في اتجـاه مقام سيدي الشيخ حامد ، خاصة بعد ما رأين حسن المعتوه ينضم اليهن هــو الاخر وراح يقرع تنكته وهو ينتحب ، حين سارع الى اقناعهن ان الشيخ لافـي لم يمت ولا يزال حيا يرزق ، الا انه لم يستطع السيطرة على نفسه فراح يلطـم خده هو الاخر وينتحب سائرا امامهن ٠

الا انهن ما كدن يصلن الى الزقاق المؤدي الى مقام سيدي شيخ حامد ، حتى كان الدراويش يندفعون نحو ساحة القرية بالطبول والصنوج ، واعلامهـــــم الخضراء ترفرف امامهم مرددين بصوت واحد « لا اله الا الله ، الانجليز اعداء الله » وبينما امتطى الشيخ لافي فرسه شاهرا سيفه ، يتبعه رجاله بجلال وتؤدة وهم يشهرون بنادقهم من فوق خيولهم ، فانطلقت النساء اللواتي كن ينتحبن بالزغاريد وهن يندفعن خلف الرجال نحو ساحة القرية ، كما لو كن يســـرن « بفاردة » دون ان يعرفن في البداية ما اذا كان الشيخ لافي قد قرر الزواج من « صبية » ليست من قرية البارد والرجال يزفونه ٠ وما ان وصلت « الزفـة » ساحة القرية ، حتى راح الدراويش يدورون بحلقات حول الشيخ لافي ، وهـم لا يزالون يضربون الطبول والصنوج ويلوحون بالاعلام ، الى ان انزل الشيـخ لافي سيفه ، فكفت الطبول والصنوج عن قرعها والاعـــلام نكست ، وتوقـف الدراويش عن الدوران والتهليل ، بينما تعلقت عيون الجميع بالشيخ لافي ٠

ولكن العيون كلها ما لبثت ان تحولت نحو حسن المعتوه ، الذي تقـدم مـن فرس الشيخ لافي ، وتوقف فجأة وهو يدق الارض بقدميه يؤدي التحية ، وتنكته المعلقة في حزامه تهتز على خاصرته ، ثم سرعان ما استدار بوجه متجهم رافعا عصاه ، وراح يقرع تنكته ثلاثا صارخا « حي » ٠ قطع الجميع انفاسهم فـــي انتظار ما سيقوله وقد احسوا بانه مقبل على قول شيء جلل ، الا انـــه راح يتأتىء « يا ٠٠ يا ٠٠ اهـ ٠٠ اهل البارد » ثم انطلق لسانه وهو يتابع بصوت مرتفع « الكبير يقول للصغير ان الشيخ لافي عين حاله ملك ، واعلن الحــرب عالانجليز تا يطلعوا من بلادنا » ٠٠ ثم قرع تنكته ثلاثا ، واستدار نحو الشيـخ لافي يدق الارض بقدميه ثانية ، ويؤدي التحية ، بينما ارتفعت الطبول والصنوج وسط الزغاريد وخفق البيارق ، فرفع الشيخ لافي بندقيته في الهواء مطلقـــا طلقة واحدة راحت تدوي في الجبال ، ثم استدار بفرسه واندفع بها نحو مغارة سويد ، وعباءته تخفق كالبيرق مع الريح خلفه ٠

□

كانت « التعاليل » قد استمرت في البارد اسبوعا كاملا ، احتفالا بالشيخ لافي الملك ، الذي كان قد اعد اكثر من خمسين مقاتلا من الرجال والفتيان ، الا ان المشكلة الاولى التي واجهته ، كانتمنجهة لم يتوقعها مطلقا ، فقد عارض الدراويش تنصيب نفسه ملكا ، واصروا على ان ينصب نفسه « اماما » ، لان الملوك في رأيهم اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا أعزة اهلها اذلة ، وان الملك لله وحده ، بينما اصر هو ورجاله على ان يكون ملكا وليس اماما ، لانه ثمة امام في اليمن ، ولا يوجد ملك عربي واحد ، هذا من ناحية ، أما من الناحية الثانية ، من هم الاعزة في قضاء جنين غير الباشوات والافندية من دار عبد الهادي ودار السعد وغيرهم ؟ فان صدقت الاية ، فهذا معناه انه سيذل هؤلاء الباشوات والافندية ، وهذا ما يريده ، ناهيك عن ان الانجليز وحلفاءهم اليهود ، الذين اصبحت « كبانيتهم » تنبت كالفطر في المرج ، هم الذين سيصبحون الاعزة في فلسطين اذا ما تركهم يدقون اوتادهم في البلاد · وهذا يعني انهم ما كادوا يخلصون من السلطان التركي حتى جاءهم ملك انجليزي ، لكي يسلم البلاد بعد ذلك لملك يهودي ·

ومع ذلك فان الشيخ لافي لم يجبرهم على شيء ، ولا فرق عنده سواء سموه ملكا ام اماما ، بل واكثر من ذلك لا فرق عنده اذا ما نادوه « لافي » فقط حتى بدون الشيخ ، والمهم هو النصر على الاعداء الانجليز واليهود ، وبعد ذلك فليعينوا حتى حسن المعتوه اذا شاؤا ، الا ان الدراويش لم يقتنعوا ، واتفقوا معه على ان يظلوا ينادونه « الشيخ لافي الامام » بينما يناديه الاخرون « بالملك» او يناديه الجميع « الشيخ لافي الامام الملك » ·

ولكنه ما كاد يخلص من هذه المشكلة ، حتى واجهته مشكلة اخرى ، ومع الدراويش ايضا · وهي قضية « البيرق » ، فقد اصروا هم على ان يكون بيرقهم الاخضر ، المزين بكلمات ، لا اله الا الله » المذهبة ، لانه كما كانوا يدعون ، احد بيارق الامام علي نفسه ، كرم الله وجهه ، كي يكون بيرق الامامية ، الملكة ، الا ان الشيخ لافي الملك ، لم يتنازل لهم هذه المرة ، اذ لم يرقه اللون الاخضر بتاتا ، لانه سيكون من الصعب على جنوده تمييزه ، سواء كان ذلك بين اشجار الزيتون في الجبال ، او بين حقول القمح والذرة في وسهول ناهيك ، عن ان الناس سيظنون جيشه الذاهب للحرب ، فرقة من الدراويش ، فلا يعيرونه اي اهتمام ، هذا بالاضافة الى ان اللون الاخضر يعبر عن السلم اكثر مما يعبر عن الحرب ، وليس له اي رهبة في النفوس ، وما دام في حالة حرب مع الانجليز ، فلا بد وان يكون « بيرقه » مهيبا ، ويلقي الرعب في نفوس اعدائه ، بينما يدب الشجاعة في نفوس جيشه · ولكي يحسم الشيخ لافي الملك الامر في هذه المشكلة دون نقاش ، فقد ارسل حسن المعتوه ، لكي يأتيه بكل ما كانوا قد خزنوه من الاقمشة الحمراء الخالصة التي كانوا قد استولوا عليها

من القوافل الاتية من بلاد الشام لحافظ باشا قبل موته ، ليكون بيرق مملكته تعبيرا عن الدم الذي يفصل بين العرب واعدائهم الجدد · بينما ارسل بعضا من جنوده لاستطلاع تقدم ذلك القائد الانجليزي « السمج » مع جيشه ، عبر وادي عاره في اتجاه الاردن ، كما سمع ·

وما كادت البيارق الحمراء تخفق فوق سطوح المنازل في البارد ، وفوق الشجر ، حتى كان رجال الاستطلاع يعودون ، ليخبروا الملك ، ان طلائع الجيش الانجليزي قد عسكرت في « اللجون » ، اتية من حيفا وليس من وادي عاره ، وسرعان ما كانت طبول الدراويش تدق مترددة في الجبال بقوة ، امام الشيخ لافي الملك ، الذي امتطى صهوة فرسه وسار على رأس جيشه الذي كان يتكاثر كلما مر بقرية من القرى في طريقه ، بعد ان كان حسن المعتوه قد سبقه اليها ، يدعو الناس للانضمام للشيخ لافي الذي عين نفسه ملكا ، والذي يتقدم بجيشه لمحاربة المحتلين الانجليز ، « واللي عنده همة وشرف يحمل سلاحه ويلحقه » ·

كان جيش الملك قد قارب المئة جندي ، عندما عسكر في الجبال بين قريتي سالم وزلفة في مواجهة معسكر الجيش الانجليزي في اللجون ، الا ان معركته الاولى التي خاضها لم تكن مع الانجليز كما كان ينوي ، اذ انه ما كاد يضع الخطط ويعد جيشه للهجوم ، حتى تنطح له افندية دار السعد وعبد الهادي من جنين وام الفحم ، ومعهم دار العبوشي وجرار هذه المرة ، الذين راحوا يعدون العدة لاستقبال الانجليز ، بحجة انهم حرروا البلاد من الاتراك ، وما زاد الطين بلة ، انهم ارسلوا اليه وفدا منهم يطلب اليه ان لا يعسكر بين زيتونهم اذا كان يصر على محاربة الانجليز ، كي لا يتسبب في حرقه اذا ما هاجمه الانجليز ، ناهيك عن انهم راحوا يطردون عائلات الفلاحين الذين التحقوا بجيشه من ارضهم ، كي لا يتسببوا في خراب بيوتهم ، كما كانوا يدعون ·

ورغم انه تحلى بالصبر هذه المرة كما يليق بالملك ، وراح يقنعهم بما كان امام المسجد في جنين قد شرحه له ، عن نوايا الانجليز واليهود ، طالبا اليهم ان يتكاتفوا معه ، كي لا تضيع ارضهم هم الاخرون ، وتمتلىء بالمعسكرات الانجليزية و « الكبانيات » اليهودية ، وعفا الله عما مضى بينه وبينهم ، الا انهم لم يقتنعوا ، واخبروه ان الانجليز سينسحبون من تلقاء انفسهم عندما يستريحون من حربهم مع الاتراك والالمان · والى ان ينسحبوا « اللي بوخذ امي هو عمي » ، واذا كان الاتراك والالمان لم يقدروا عليهم ، فكيف سيقدر عليهم هو بثلة من قطاع الطرق ، الذين لا يحسنون سوى قطع الطريق على قوافل التجار وغزو القرى في الليل ·

وكانت هذه الجملة الاخيرة ، هي التي افقدته صبره ، وسيطرته على نفسه ،

فأمر رجاله بالقاء القبض عليهم وشنقهم بشجر الزيتون بعد ان يقصوا لهم السنتهم ، لان ذيل الكلب على قول المثل ، سيظل اعوج حتى ولو وضعته في القالب اربعين عاما ، وحين اقترح الدراويش عليه سجنهم في الابار الرومية مع الافاعي والعقارب بدلا من شنقهم ، اجاب بحدة ، ان « اقلعوا السن واقلعوا وجعه معه » ، حالفا بالطلاق ثلاثا كما حلت تحرم ، وهذه اول مرة يحلف فيها الشيخ لافي الملك بالطلاق ، انه لن يهدأ له بال حتى يقطع دابر كل هؤلاء الافندية والباشوات ، لانه على قول المثل « سوس الخشب منه وفيه » ، وما دام هؤلاء خلفه ، فانه لن يستطيع المحاربة امامه ٠

ولكي ينفذ الشيخ لافي الملك يمينه ، فقد اجل معركته الحاسمة مع الانجليز، وراح يعد فرقة من رجاله الاشداء لتنفيذ هذه المهمة باسرع وقت ، ولانه كان لا يقرأ ولا يكتب ، فقد امر شيخ الطريقة الذي كان يستطيع فك الحروف ، بكتابة « فرمان » ملكي ، وبالخط العريض ، لتعليقه على ابواب الجوامع في جنين وام الفحم ، بل وفي كل القرى ، يقضي بان الشيخ لافي الملك :

اولا : لا يعترف لا بباشوات ولا بافندية ، وكل الناس عنده سواسية ، ومن يسمي نفسه بعد اليوم « باشا » او « افندي » حكمه الاعدام فورا ٠

ثانيا : لا يعترف بالطابو التركي ٠ والارض لمن يفلحها ، ومن يطالب فلاحا بأرض يفلحها ، او بغلتها حكمه الاعدام فورا ٠

ثالثا : كل فلاح يعطي ارضه التي يفلحها ، او غلتها لباشا او افندي سابق، حكمه الاعدام فورا ٠

رابعا : كل من يتعاون مع الانجليز من الباشوات والافندية السابقين او غيرهم من الناس ، حكمه الاعدام فورا ٠

خامسا : كل من يبيع شبر ارض لليهود او للانجليز او لسمسار اراض ، وسواء كان باشا او افندي او « قطروز » ، حكمه الاعدام فورا ٠

ولكن الشيء الوحيد الذي لم يحسب له الشيخ لافي الملك حسابا ، كان الختم الملكي ، اذ لا بد من ان يكون « الفرمان » موقعا بختم الملك ، كي يعتبره الناس ، فاشار عليه بعض رجاله ان يؤجل تعليق « الفرمان » على ابواب الجوامع ، ريثما يذهب احدهم الى المدينة ، ويصنع ختما ملكيا دائريا يحمل اسمه ، اذ لا يجوز للملك ان « يبصم » بالباهم ، والى ان يصنعوا الختم ويعلقوا « الفرمان » ، يستطيع ارسال حسن المعتوه ، لكي يجوب القرى ويقرأ « الفرمان » بعد ان يحفظه عن ظهر قلب ٠

الا ان « الملك » اصر على عدم الانتظار ، بل وعلى عدم صنع اي ختم ملكي يحمل اسمه ، اذ كان جده ، بل وجد جده يبصم بالباهم من قبله ، ومن لا تعجبه

بصمة الملك فليشرب البحر ، لان من لا تعجبه بصمة الملك ، فهذا معناه انه لا يعجبه كلام الملك ، ومن يعجبه كلام الملك ، تعجبه بصمة الملك ، حتى ولو كانت بكعب رجله · ولهذا فقد اخذ « الفرمانات » كلها وبصمها ، ثم اعطاها لجنوده الذين اوكلهم بمهمة تعليقها ، ثم اعطى « البصامة » لحسن المعتوه كي يكـون امينـا عليهـــا ·

□

كان القائد الانجليزي في معسكر اللجون ، ينظر الى البصمة في اسفـــل « الفرمان » ، وهو لا يكاد يصدق ما يسمعه ، ورغم انه كان قد خدم في الجيش اكثر من عشر سنوات في الهند ، ومصر ، ورأي الالوف من بصمات الرجـال على الكثير من الاوراق والوثائق ، الا انه لم يسمع ولو مرة واحدة ، بمثل هذه الوثيقة الموقعة ببصمة هذا « الملك » الغريب ، مما جعله يشك بصحة ما يقولـه اعضاء الوفد من الباشوات والافندية الذين ما كادوا يرون « الفرمان » حتـى حملوه وسارعوا الى معسكر الانجليم يتملكهم الرعب من قاطع الطريق المجنون هذا ، لان السلاح بيد المجنون يقتل على حد قولهم ، طالبين الى قائد المعسكـر انقاذهم منه وحماية اراضيهم وممتلكاتهم · ولكنه ما كاد يسمع ذلك مـــن مترجمه المصري المرافق له ، حتى قرب البصمة من عينيه جيدا ، وراح يمعن النظر الى تلك القنوات الوعرية المتعرجة ، المحفورة بالحبر الاسود الردىء ، سائلا اعضاء الوفد ما اذا كان كل قاطعي الطرق المجانيـــن ، والاميين فـــي فلسطين على شاكلة هذا « الشيخ الملك » ، الذي يقود رجاله تحت علم احمر ·

وقبل ان ينتظر القائد الانجليزي جوابا من الباشوات والافندية الذين اربكهم سؤالة ، قال بلهجة حادة وعصبية ، ان قاطع الطريق هذا ليس الا مجنونـا ، وانه بلشفي احمر ، ويقود ثورة بلشفية ، ثم صرخ حانقا « هل تعرفون مـــا معنى ثورة بلشفية يا حضرات ؟ » ·

ولكن الباشوات والافندية لم يعرفوا · صحيح انهم كانوا يسمعون الاتـراك ينعتون الروس المسكوب بالبلشفيك ، اما ان يكون لهذه الكلمة اية علاقة بالشيخ لافي ، هذا الدرويش قاطع الطريق الذي لا يعرف ربه ، فهذا ما لم يتصـــوره مطلقا ، الا انهم ما كادوا يسمعون من القائد الانجليزي ما معنى « البلشفية »، وما الذي ينوي الشيخ لافي فعله ، حتى راحوا ينظرون الى بعضهم البعض ، وهم يحاولون كتم ضحكاتهم ، بل وانفجر احدهم بالضحك وهو يتخيـل لافي ابن البارد ، الذي قضى حياته بين الدراويش ويعيش في المغاور بين قطـــاع الطرق ، قائدا لثورة ، وله فلسفة وافكار سياسية خطيرة يعمل على تطبيقهـا بالثورة المسلحة ، بل ويرفع نفس العلم الاحمر الذي يرفعه هؤلاء المسكـوب ،

الذين يسميهم القائد الانجليزي مثل رجال الشيخ لافي بالبلاشفة ، والذين يقودون هم الاخرون ثورة ، وفي نفس الوقت ضد القيصر في روسيا . غير انه سرعان ما راوحت ضحكته على اطراف شاربيه المعقوفين المضخمتين بالحناء وتوقف ذيل طربوشه عن الاهتزاز ، حين سمع القائد الانجليزي يأمر احد ضباطه بارسال طائرة استطلاع فوق الجبال وتعيين مواقع الثوار ، تمهيدا للاغارة عليهم وابادتهم قبل امتداد الثورة وانتشارها .

وكان الملك لا يزال يسهو في غفوته القصيرة المعتادة ، ظهيرة ذلك اليوم ، حين مرت الطائرة الانجليزية ، بسم الله الرحمن الرحيم ، كالعفريت من فوق رأسه ، ويروي حسن المعتوه الذي كان يجلس فوق الشجرة التي ينام تحتها الملك يحرسه ، انه ما ان مرت هذه « العفريتة » ، من فوق رأسه تخور مثل الثور الهائج ، حتى احس ان الشجرة تكاد تطير من مكانها مع العاصفة التي خلفتها ، وان قلبه يكاد يتوقف ، فسقط من فوق على الشيخ لافي الملك ، الذي قفز من نومه كالمجنون ، وهو لا يستوعب ما الذي حصل بعد ، حتى ولا من حسن المعتوه الذي علق لسانه على كلمة « حي ي .. ي ي » ، الا ان الطائرة ما لبثت ان عادت مرة اخرى ، وهي تكاد تلامس الاشجار مارة من فوق رأسه تماما ، فصوب اليها بندقيته وراح يطلق النار في اتجاهها ، فكاد يقتل حسن المعتوه ، اذ وجد نفسه يتدحرج متعثرا باطراف قمبازه المتطاير مع الريح، وهو يلعن الانجليز ويومهم ، ويوم كل الافرنج الذين لا يكفون شرهم عن البشر، بينما راحت فرسه تصهل وتضرب الارض بقدميها .

وقبل ان يستطيع اصدار اوامره لكل رجاله بالتفرق والاختفاء جيدا ، حتى عادت الطائرة مرة اخرى ، ومعها هذه المرة ثلاث طائرات ، تمر كالاشباح من فوقهم ، ثم تعود لتنقض عليهم فاتحة نيران مدافعها الرشاشة وقنابلها ،الواحدة تلو الاخرى ، بينما مترس الشيخ لافي الملك ، خلف جذع زيتونة وراح يطلق النار عليها من بندقيته العصملية مع الاخرين ، ولكنها ما كادت تبتعد قليلا لتلتف ثانية ، حتى وجد الملك نفسه وحيدا بين عشرات الجثث من رجاله ، والدم يتدفق من خاصرته ، بينما انسحب الاخرون نحو الجبال ، وهم ينادون عليه كي يلحق بهم ، بعد ان شاهدوا طابورا من المدرعات الانجليزية المتقدمة نحوهم من كل الجهات ، والطائرات ما فتئت ان عادت تطاردهم فاتحة نيران مدافعها الرشاشة كالمطر ، فانتزع الشيخ لافي البيرق عن الارض ، ووضعه تحت ابطه، ثم شد على جرحه وراح يزحف في اتجاه حسن المعتوه ، الذي كان لا يزال يضع رأسه بين يديه ويتكور حول نفسه ملتصقا بجذع شجرة الزيتون ، وهو يرتعد كالقصلة ، فضربه الشيخ لافي الملك بعصا العلم على قفاه ، صارخا به يأمره باخذ البيرق منه ، واللحاق بباقي الرجال وانتظاره في اعلى القمة .

ويروي حسن المعتوه ، انه بينما كان يحمل البيرق ويطلق ساقيه ، بقدرة

قادر ، للريح ، والطائرات لا تزال تلاحقه ، راح البيرق الذي كان يطير به مـع الريح ، يعود به الى الخلف ، ثم توقف به فجأة ، فرأى فرس الشيخ لافــي الملك ، وهي تحوم حوله ، كما لو كانت تحوم حول مربط ، وتصهل صهيلا يقطع القلب ، ثم انحنت عليه جاثمة الى جانبه ، ثم انتفضت واقفة به ، واندفعـت تسابق الريح في اتجاه عين الشمس ، فانتفض البيرق فوق رأس حسن المعتـوه يخفق مرة اخرى ، ثم اندفع هو الاخر طائرا به مع الريح في اتجـاه قمــة الجبـل ٠

□

واختلفت الروايات في قرية البارد بعد ذلك اليوم ، حول اختفاء الشيخ لافي الملك ، وما زالت تختلف الا ان حسن المعتوه كان الوحيد الذي ظل ينتظره ،وكان الصيف يمر خلف الصيف ، والشتاء خلـف الشتاء ، والشيخ لافي الملـك ، « يا حسرتي عليه ما رجع ولا هلت طلعته » ٠ فغاضت الضحكة على شفتيه ، وهجر « تنكته » ، حتى ان احدا لم يعد يسمع في قرية البارد « بهالليل دقها، لا لطهور ولا لسحور » كأيام زمان ٠

وكان كلما شاع في القرى خبر ، عن هجوم على الانجليز او « الكبانيات » اليهودية في جبال فلسطين وسهولها بعد ذلك ، كان حسن المعتوه يحمل البيرق الاحمر القديم ، وتنكته ، ويصعد في اتجاه قمة الجبل « تايلاقيه ويدق نوبته »، ولكن المعركة توالت بعد المعركة ، والثورة تلو الثورة « والملك ما طل ولا حـدا جاب عنه خبر » ٠ الا ان حسن المعتوه ، كان الوحيد في قرية البارد ، الــذي كان يسمع في الليل بعد كل معركة ،صهيل فرس جامح ، تمر كالريح في ازقة البارد ، فيهب مَن نومه صارخا « حي » ، وينطلق في الازقة وهو يقرع « تنكته»، مبشرا باعلى صوته « يا ناس الشيخ لافي عاد ٠٠ وعقصة امي الملك عاد » ٠

□

حوار الطرشان حول فيلم ماريو

كان ذلك في لايبزيغ ايام المهرجان العشرين للافلام التسجيلية والتلفزيونية في تشرين الثاني من العام الماضي . وكانت الوفود العربية ذات وزن عددي ضخم في المهرجان مع وزن سينمائي اقل على نحو ملحوظ . فيلم عربي واحد حظي بجائزة في المهرجان ، هي جائزة العمل الاول للمخرج ، نالها فيلم « هناك حيث ينمو النخيل » للمخرج الجزائري الشاب حسن بوعبد الله المتخرج حديثا من معهد موسكو السينمائي . اما بقية الافلام العربية التي عرضت في المهرجان فقد سبق عرض الكثير منها في مهرجانات سابقة ، وخاصة في مهرجان موسكو العاشر صيف العام الماضي ، ومن بينها الفيلمان الفلسطينيان « المفتاح » لغالب شعث ، و « صوت من القدس » لقيس الزبيدي . على ان برنامج العروض العربية لم يخل من افلام جديدة نخص بالذكر منها هنا ما تناول القضية الفلسطينية كفيلم « اليوم الطويل » للمخرج السوري امين البني ، وفيلم « الذاكرة » لزميله محمد ملص الذي يتحدث عن مواطنة عجوز في مدينة القنيطرة لم تهجر مدينتها اثناء الاحتلال الاسرائيلي الغاشم وبقيت شاهدة حية على ارتباط الانسان ازليا – ابديا بتراب وطنه . وكذلك فقد عرض فيلمان اجنبيان عن قضية الشعب الفلسطيني ، هما « الرشيدية » لمانفريد فوس (المانيا الغربية) ، و « النضال في سبيل الارض وفلسطين في اسرائيل » لماريو غوتنبرغ وهذا الفيلم هو الذي اثار الحوار الموصوف في العنوان بين العرب المشتركين في المهرجان ، او بتعبير ادق ، بين قلة منهم وكثرة الباقين . ولئن كان من غير النادر ان تثور بين الوفود العربية في مهرجانات سابقة مشكلة تتصل بوجهة النظر السياسية لحكومة هذا الوفد العربي او ذاك والتي قد يحملها فيلم اتى به الى المهرجان وفد عربي ، ما ، فيعبر وفد عربي اخر عن معارضته لعرض هذا الفيلم او لوجهة النظر السياسية التي تمثل حكومة الوفد صاحب الفيلم ، بالتهديد بالانسحاب من المهرجان او مقاطعته تحت شعار الاحتجاج . اجل ، ما كان من النادر ان يحدث هذا ، بل غدا فيما يبدو عادة مألوفة يستحسنها بعض العرب ، ويتألم لها غالبيتهم ، ويأسف لها الاصدقاء من غيرهم . وما كان من النادر كذلك ان تسبب مثل هذه « المشاكل » احراجات وارباكات لادارات المهرجانات الصديقة في لايبزيغ وغيرها ، وهي الحريصة اشد الحرص على ظهور العرب موحدين في عرض قضاياهم ، وخاصة منها القضية الفلسطينية وقضية الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية بعد حربي ٦٧ و ٧٣ ، فتنقلب حيرتها امام « مشاكلنا » الما عميقا ، وتتحول هذه « المشاكل » الى عقبات تعيق بشكل او باخر سعيها الدؤوب في دعم قضيتنا وحرصها على الظهور معنا في موقف موحد لابراز هذه القضية والدعوة لها .

هذه المرة كان مثار الاشكال بين قلة من العرب المشتركين في مهرجان لايبزيغ وكثرة الباقين ، هو فيلم ماريو الذي سميناه قبل قليل . والحقيقة ان الاشكال هذه المرة ليس من نوع « المشاكل » التي اشرنا اليها ، وان كان يعبر في جوهره وطابعه عن ماهية الاختلاف في النظرة

السياسية الى القضايا العربية قومية كانت أم وطنية ، آنية ام استراتيجية ، اختلاف قد نسميه عارضا او غير تناحري لانه يجري بين العرب الذين يجمعهم اطار حركة وطنية تقدمية واسعة بما فيها من انظمة حكم وحركات وتنظيمات جماهيرية وطنية وقومية تقدمية . وقبل ان نعرض ما دعوناه « حوار الطرشان » الذي جرى حول الفيلم ــ وسنرى بعد قليل ان الفيلم لم يكن سوى سبب ظاهر لاثارة الاشكال ، وان الاسباب العميقة الحقيقية للاشكال انما هي طبيعة النظرة السياسية التي يتحلى بها البعض وينطلق منها في موقفه حيال افلام وافعال ونشاطات بل وسحنات واسماء الاخرين طالما ان هذه جميعا لا تنطبق بالمسطرة على ما يعتقده البعض هذا صحيحا ــ اقول ، قبل هذا لنتعرف بالفيلم وصاحبه.

ماريو ، مخرج الفيلم ، شاب يهودي في حوالي الثلاثين من عمره ، يحمل الجنسية الاسرائيلية ، مقيم في برلين الغربية منذ اكثر من سبع سنوات ، يحمل شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية ويدرس هذه المادة في جامعة البلد الذي يقيم فيه . وماريو يشاطر رأي العرب ، الجماهير العربية وقواها المناضلة وحركاتها التقدمية ، في تصوره حقيقة اسرائيل والصهيونية ، وفي فهمه للقضية الفلسطينية وابعادها من حيث هي مشكلة شعب تآمرت عليه الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية مفتعلة دولة اسرائيل التي قامت على تشريد هذا الشعب من ارضه واغتصاب حقه الوطني التاريخي في فلسطين . وفيلمه «النضال من اجل الارض وفلسطين في اسرائيل » هو الاول من سلسلة افلام يعمل على انجازها للاحاطة بالقضية الفلسطينية ودراستها من مختلف جوانبها وتفنيد وجهة النظر الصهيونية حولها ، وذلك في ضوء فهمه وتصوره المذكورين . وحين سئل عن السبب الذي دفعه الى العمل في مجال السينما ، وهو الذي يمتهن التدريس ، اجاب بانه وجد في السينما التسجيلية اداة فعالة للتعبير عن رأيه في هذه القضية العادلة ولايضاح الابعاد الحقيقية لتاريخ وواقع هذه القضية على نطاق جماهيري عالمي واسع ولمشاركته مع اصحاب القضية في نضالهم من اجل احقاق حقهم المشروع . وحين سئل عن معتقده السياسي ــ الايديولوجي ، اجاب بانه ماركسي الاتجاه تربطه بالشيوعيين الاسرائيليين والالمان وغيرهم من القوى التقدمية والديموقراطية اواصر علاقة متينة ، ولكنه لا ينتمي تنظيميا الى اي حزب .

أما الفيلم الذي حمله ماريو الى المهرجان فيعالج مشكلة اغتصاب اراضي العرب من قبل آلة الاستيطان الاستعماري الاسرائيلية ، وينتقل بالمشكلة من ظرفها الراهن الى اصولها التاريخية المتجذرة في العقلية الصهيونية ، ليبين العلاقة العضوية بين ما بدأ بقيام دولة اسرائيل ــ وهو تجسيد لما دار في العقول الصهيونية وهدفت اليه المخططات الامبريالية ــ وما يستمر الان من اغتصاب لاراضي العرب الباقين في موطنهم . وتعتمد المعالجة على لغة الوثيقة والارقام والوقائع الحية لازاحة ركام التضليل الصهيوني الذي حاول ، منذ ان كان الاغتصاب حلما حتى تحوله الى واقع ، ان يطمس حقيقة عروبة ، اي فلسطينية ، كل ما في فلسطين من قرى ونواح واماكن ومدن . بل ان المعالجة هدفت الى تبيان ان كل حجر في اسرائيل اصله عربي ، وان علاقة الصهيونية به انما هي علاقة تزييف واغتصاب . حتى مدينة تل ابيب التي يفخر الصهاينة « باصالة » يهوديتها ليس فيها من هذه « الاصالة » سوى الاسماء التي اطلقتها الدولة الاسرائيلية على شوارع واماكن اشادتها بعد قيامها

بعد ان هدمت اصولها وبدلت اسماءها العربية باسماء صهيونية ، كاسماء « شارع جابوتينسكي » و « شارع الصهيونية » وغيرهما .. هذا ما يقوله مواطن يهودي اسرائيلي امام كاميرا الفيلم المباشرة ، وهو يقف امام احد الابنية متحدثا عن اصله وتاريخه العربيين مشيرا الى الاسم المزيف الذي يحمله الان الشارع الذي يقع فيه البناء . وامام هذه الكاميرا المباشرة يروي عرب مسنون وكهول وشباب وقائع حياتهم في قراهم وكدهم في ارضهم وعلاقتهم وعلاقة اجدادهم واجداد اجدادهم بهذه الارض التي ليس لهم من وطن سواها ، وجريمة الدولة الاسرائيلية في تخليصهم ما تبقى منها حتى النذر اليسير الذي يعيشون ضمنه الان وما كلفت هذه الجريمة من ضحايا عربية في التشرد والموت والضياع . ويوثق الفيلم هذه الاحاديث والذكريات بعرض خرائط رسمية مختلفة تبين تصاعد واتساع عمليات انتزاع الاراضي العربية ، وسجلات صادرة عن الوزارة المختصة في اسرائيل تضم اسماء القرى العربية التي انتزعت من اصحابها الاصليين وتحولت الى مستوطنات ، ويبلغ تعدادها رقما كبيرا صاعقا . اما الاغتصاب الاول في عام ١٩٤٨ فيعرض الفيلم وثائق سينمائية نادرة عنه : طرد العرب وسوقهم بالقسر الى رحلة التشرد، واستقبال المهاجرين اليهود الذين استدرجتهم الصهيونية الى تمثيل جريمة اغتصاب ارض شعب اخر واحتلال محله تحت تأثير دغدغة الحلم الصهيوني « بأرض الميعاد » . « لقد قالت الصهيونية لهؤلاء ، ولا تزال تقول للجدد ، بانهم سيجدون امانا في ظل دولة اسرائيل وخلاصا من الاضطهاد اللاحق بهم في بلدانهم . ولكن ما ان يصل هؤلاء ويمضي عليهم وقت قصير من الحياة في ظل هذه الدولة ، حتى ينتابهم الشعور بانهم لم يؤت بهم الى دار امان ، بل اتى بهم ليتحولوا الى ادوات حماية لهذه الدولة». وهذا ايضا ما يقوله للكاميرا المباشرة المواطن اليهودي المذكور قبل قليل . ولا يكتفي الفيلم بتقويض الادعاء الصهيوني الاغتصابي والكشف عن عدائه للواقع والتاريخ ، بل يبين من ناحية اخرى ، واقعية وتاريخية عروبة الارض التي قامت عليها اسرائيل ، وواقعية وتاريخية حق عرب فلسطين في ارضهم ونضالهم العادل من اجل استعادة هذا الحق المسلوب . وها هو يوم الارض وحشود عرب فلسطين وعزيمة اصحاب الارض الحقيقيين على النضال ابدا في سبيل بلوغ هذا الحق ، ها هو كل هذا تنقله الكاميرا المباشرة شاهدا حيا على اصالة قوة الحقيقة التاريخية في نقض الحلم الصهيوني الواهم بابدية الاغتصاب . وهكذا يمتد مشوارنا مع الفيلم من اطلالة ذلك الرجل الفلسطيني الفلاح الذي ارتبطت حياته وحياة اسلافه بارضه التي لا تتسع عيناه وذكرياته وحياته ومصيره الا لها ، وحتى اطلالته نفسه في نهاية الفيلم وهو يمد بصره الى الارض الشاسعة الخضراء وصوت فيروز يصدح : « انا لن انساك فلسطين » ، وذلك في رحلة البحث الجادة التي يبدأها ماريو في هذا الفيلم مستهدفا تقصي كل الحقيقة عن القضية الفلسطينية رافعا صوت عدالتها، والتي سيستكملها في افلام مقبلة .

بعد هذا التعريف الموجز بالفيلم وصاحبه ، نأتي الى استعراض ما جرى بين العرب بشأن هذا الفيلم ، ليس بهدف اتهام احد بل بهدف الافادة مما جرى .

في الكتيب الذي تصدره ادارة المهرجان والذي يضم اسماء وجنسيات الضيوف والمشتركين والصحفيين ، كان ثمة اسم ماريو والى جانبه صفته المواطنية ، اي كلمة : اسرائيل . وكان طبيعيا ان يسري الاهتمام بهذا الامر بين العرب الذين

يعرفون ان المانيا الديموقراطية لا تربطها اية علاقة باسرائيل ، وان مهرجان لايبزيغ له طبيعة تقدمية نضالية ويحتضن كل الاصوات المعبرة عن نضال الشعوب من اجل استقلالها وتحررها ، فما امر هذا الضيف الغريب هنا ! ولكن سرعان ما اجيب على هذا الاهتمام بايضاح من قبل ادارة المهرجان لا يخرج عن التعريف الذي سقناه بالفيلم وصاحبه ٠ الا ان هذا الايضاح لم ينفع شيئا مع بعض الاخوة العرب الذين بدأوا بالدعوة الى كتابة مذكرة موجهة الى ادارة المهرجان تطالب بسحب الفيلم وشطب اسم صاحبه والا فان الموقعين على المذكرة سينسحبون ٠ وبدأ اخذ ورد طويلان بين العرب هنا ٠

ثم توصلت مساعي بعض العرب ، وخاصة الفلسطينيين ، مع ادارة المهرجان، الى عرض الفيلم للعرب قبل عرضه في موعد عرضه الرسمي على شاشة المهرجان ٠ رحب الالمان بالفكرة ، ودعوا جميع العرب الى العرض ، فحضر جميع هؤلاء مع المسؤول السياسي عن المهرجان٠ وبعد انتهاء العرض ، نهض اسماعيل شموط وقال :

– باسم منظمة التحرير الفلسطينية ، وباسم الوفد الفلسطيني في المهرجان ، نحيي هذا الفيلم ونرحب بعرضه ٠ وانني اعتقد بانه افضل من كثير من الافلام الفلسطينية ٠

ونهض كاتب هذه السطور ، مؤيدا موقف الوفد الفلسطيني ومرحبا بعرض الفيلم ٠ ولمْ يعترض احد من الباقين باي حرف ٠ وقبل مغادرتنا القاعة سأل المسؤول السياسي الالماني : هل ثمة من سؤال لدى احد ؟ فاجيب : ليس من سؤال ٠ وانفض العرض على موافقة الجميع ٠

ولكن ، ما ان ابتعدنا خطوات عن صالة العرض حتى ركض احد الاخوة المهددين ، حاملا ورقة صغيرة كتب عليها نص احتجاج وحملت ثلاث تواقيع ، قائلا:

– الى اين يا اخوان ، لم ينته شيء بعد ، فلم نعبر عن رأينا ٠ وسأله احد العرب :

– ولماذا لم تعبر عن رأيك في قاعة العرض ؟ لقد عبر الجميع عن رأيهم مؤيدين ما قيل ، ان لم يكن بالكلام فبالموافقة ٠ فقال الاول :

– الفيلم من نوع الدعاية الصهيونية ٠ الم تروا كيف تظهر شوارع تل ابيب ومخازنها وفتريناتها جميلة ،والم تلاحظوا كيف يظهر العرب مع دوابهم وامتعتهم في هيئة زرية !

لقد غاب عن عيني الاخ المتحمس كل ما في الفيلم من مضمون ومادة ودقة في التعبير الواعي في عدائه للصهيونية وآلتها اسرائيل ، والتقطتا على نحو تجزيئي ابتر ما مرت به الكاميرا من شوارع تل ابيب دون ان تقف ثانية واحدة ،على محل من محلات هذه الشوارع وذلك في مجرى تعريفها بالاصول العربية لهذه الاماكن ، كما التقطتا من الوثيقة النادرة الاهمية عن تشريد الفلسطينيين عام ٤٨ ، فقط ان هيئاتهم زرية ، علما انهم فوجئوا بالطرد والخروج من بيوتهم وقراهم وهم بملابسهم العادية ، دون وعي لاهمية الوثيقة بحد ذاتها كشاهد تاريخي على عملية الاغتصاب التي قامت عليها دولة اسرائيل ٠ على ان كل هذا لم ينفع في ثني الاخ المتحمس عن عزمه على جمع التواقيع على الورقة التي يحملها ٠ والهدف هذه المرة ان تعتذر ادارة المهرجان (عن اي شيء ؟!) وتعلن ذلك جهارا ٠ والحق ان ادارة المهرجان ، مع كل ما سببه لها حوار الطرشان هذا من احراجات وتدويخات دون اي مبرر او منطق ، قد نوهت

بهوية الفيلم وصاحبه ، ومسحت كلمة اسرائيل من على اللوحة التي تتضمن عروض كل يوم من ايام المهرجان · فهل اكتفى المتحمسون مع هذا ، بالقدر العجيب من حماستهم التي لا اعرف كيف اصفها ؟! كلا ، بل راحوا يشيعون ان الفيلم صهيوني ويتمسكون بهذه الفكرة ويماحكون باطلا في الذود عنها ·

وبعد ، فلئن كان شاقا على كثير من العرب في لايبزيغ ان يتفهموا سبب هذه الحماسة الدوغماتيكية لشيء لا يمت الى الحقيقة بصلة ، وما اثاره من دخان عكر لايام جو العرب في المهرجان وجو المهرجان بشكل ما ، فقد كان صعبا الى درجة الاستحالة ان يتفهم اصدقاؤنا الاجانب سبب هذه الضوضاء الغريبة ضد فيلم من هذا النوع · وكان عسيرا علينا للغاية ان نوضح لهم شيئا من هذا السبب · بل وزاد من المنا والم اصدقائنا ورفاقنا الاجانب ان ماريو ، هذا الشاب الباسل الذي حمل صوته المخلص في دعم قضيتنا ومحاربة عدونا ، يأتي الى منبر عالمي فيجد الترحيب والاحاطة من الجميع ما عدا العرب · ويبلغ الالم ذروته حين تتوافق الضوضاء المعادية لفيلم ماريو مع وصول انور السادات الى اسرائيل وقوله لصقور الالة الحاكمة والعسكرية الاسرائيلية : شكرا على كل شيء ·

ولكن العزاء اتى من جهود وتفهم كثرة العرب المشتركين في مهرجان لايبزيغ ، فدعموا ماريو وفيلمه ، ولعب في هذا دورا اساسيا الوفد الفلسطيني الذي توج موقفه الواعي من الفيلم بمنحه جائزة منظمة التحرير الفلسطينية ·

سعيد مراد

تنويه

نشرنا في العدد الماضي من « شؤون فلسطينية » وثيقة الوحدة الفلسطينية التي وقعت عليها المنظمات الفلسطينية في طرابلس ، وقد سقط سهوا اسم جبهة التحرير العربية ، فاقتضى ذلك منا التنويه ·

« شؤون فلسطينية »

اصداء

الاداب ، ربع قرن من الاستمرار ٠

ربع قرن ٠ جيل كامل من الكلمات والصيغ ٠ وبعد ربع قرن ، لا يـــزال سهيل ادريس يقف الى جانب الاوراق ورائحة الحبر واحزان الآخرين ٠ والآداب تصدر ٠ الكلمات تلد الكلمات والادب يلد الادباء ، والادباء يحلمون بالكتابة التي لم تكتب ٠ والآداب تصدر ٠

تقرأ الصفحات التي لا تنتهي ، فتكتشف انك امام تاريخ حقيقي ٠ تكتشف ان الكلمـات ليست مجرد كلمات ٠ انها كائنات تتحرك في كل اتجاه ٠ تستطيع البكاء كما تستطيـــع الضحك ٠ وحين تموت ، ينزف دمها ٠ تاريـخ الثقافة العربيـــة المعاصـــرة يتمـــدد نائما او مستيقظا او في سبات عميق على الصفحات البيضاء التي بدأت تتلون بالاصفر ٠ هنا نجد صورا صغيرة وصورا كبيرة لادباء سابقين وادباء لاحقين ٠ لنقاد واشباه نقاد ٠ الجميع اتفقوا على شيء واحد ٠ اتفقوا ان الآداب هي ساحة ابداع وساحة صراع ٠ داخل صفحاتها يتآخى عقائديون من منابع مختلفة ٠ يجلس سارتر الى جانب ماركس ، وعبـــد الناصر الى جانب لينين ٠ الفكر القومي والفكر الوجودي والفكر الماركسي والفكر السلفي والفكر الحديث ٠ الشعر الجديد والشعر الجديد الذي ليس جديدا ٠ فلسطين والجزائر ٠ الحي اللاتيني والخندق الغميق ٠ طه حسين ورئيف خوري ولويس عوض و ٠٠٠ الجميع مروا من هنا ٠ الجميع كتبوا او استكتبوا او نشروا ٠ انشودة المطر للسياب وعاشق من فلسطين لدرويش ٠ القصة الوجودية والقصة الواقعية والقصة الجديدة ٠ حقل تجـــارب وحقل تأثير ٠ سعدي يوسف وهاني الراهب وممدوح عدوان و ٠٠ ثم القضية ٠ قضيـــة القومية العربية ٠ قضية عبد الناصر وقضية الثورة الجزائرية وقضية الثورة الفلسطينية ٠ الوحدة والانفصال ٠ الماضي والمستقبل والغرب ٠ وكولن ويلسن وريجيس دوبريه ٠

عالم كامل ٠ عالم ثقافي مليء بالتناقضات لكنه عالم هادف ٠ تحويل الثقافة القومية الى ثقافة حديثة ٠ استكمال عصر « النهضة » ولستكمال بناء اشكالية النموذج « الغربي » مع العداء الشديد لوجوده السياسي والعسكري ٠ هذا التوجه العام هو الذي يحكم تناقضات الاداب وسيرورتها الطويلة بين أمجاد الوحدة والام الانفصال ٠ بين النصر الجزائري

ومذابح عمان · بين هزيمة حزيران والحرب الاهلية في لبنان ·

هكذا ترسي الاداب توجها ثقافيا يتحول في تعبيره عن نفسه ، من احتضان القصيدة الجديدة الى احتضان نقدها السلفي · ومن التحديث الاجتماعي الى الماضوية الفكرية ، ومن وجودية سارتر الى اباحية مورافيا وفظاظة كولن ويلسن وثورية دوبريه ·

بين هذين الحدين النموذج ورفضه ، يقع توتر الاداب وقلقها وانتصاراتها وهزائمهـا · انها مشدودة الى محورين · يمزقها تناقض داخلي هو التناقض الذي يمزق الحركة القومية في تقدمها وتراجعها · واذا كانت الاداب عبر نبرتها القومية ، استطاعت ان تحافظ على وجودها ونموها ، فان اختيارها الاساسي هو مبرر هذا الوجود وقاعدته المادية · ذهبت الى الحداثة دون ان تدمر نفسها داخل وهم النخبة الغربية كما فعلت « شعر » · لكنها ، وعبر احتضانها لتناقضات الحركة القومية ، احتضنت بذور التراجع التي بدأت مع هزيمة حزيران ووصلت ذروتها في احتلال اليمين للواجهة وقيادته لعملية تهميش الامة بأسرها ·

بعد ربع قرن لا يزال سهيل ادريس يجلس الى جانب الكلمات · يبحث عن افق وسط زمن الانكسار · تتراجع الاداب او تتقدم · لكنها هناك ، صوت مرحلة وصدى صعودهـــا وتراجعاتها وانهياراتها ·

بعد ربع قرن ، لا تزال الاداب تحمل احزان الواقع ، تحيله الى الاف الاوراق المطبوعة · ولا يزال الادب يلد الادباء ، والكلمات تلد الكلمات ·

النقــد الاكاديمي

بصدور كتابه الجديد « **ملامح يونانية في الادب العربي** » (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت) يكون اسهام د· احسان عباس النقدي قد وصل الى احدى ذراه المتألقة · فبعد « تاريخ النقد الادبي عند العرب » ، ودراساته المتعددة حول الادب الاندلسي ، وتحقيق العديد من المخطوطات الادبية الثمينة ، يستطيع احسان عباس ان يمارس النقد التاريخـي بهدوء وتأني الباحث الذي لا هدف له سوى خدمة الحقيقة · يكشف في سياق مسيرته داخل موروثنا الادبي عن اوجه هذا الموروث وتفاصيله · عن اشكالياته ورؤيته · فتأتي الملامح اليونانية لتسد فراغا · وربما ، ولانها تتعامل مع ارض جديدة ، فهي تحاول ان تكتشف مسالك الدرب ، تزيل الكثير من اللبس ، ولا تخلص الى استنتاجات نظرية شاملة · فطبيعة الباحث في احسان عباس ، لا تريد استعجال النتائج · بل تضع همها الاساسي في اكتشاف المقدمات · دراسة المسألة من جوانبها المختلفة ·

ينطلق الكتاب من سؤالين : « يمثل هذا البحث في مجموعه ، محاولة للاجابة على سؤالين يختلطان معا احيانا ، اولهما : ماذا ترجم العرب من أدب يوناني ، وثانيهما : ما هي الطرق التي استغل فيها الادب العربي الثقافة الاغريقية ، سواء كانت تلك الثقافة علما او ادبا او فلسفة · ومهما يكن من شيء ، فان القول بتقبل الادب العربي لمؤثرات اجنبية ، ليس انتقاصا من أصالته ، او استهانة بعناصر تلك الاصالة » ·

ومع الاجابة على السؤالين ، نمضي مع المؤلف في رحلة الاكتشاف · نتوقف عند الفارابي: « ويعتمد الفارابي في احكامه نظرة موضوعية مقارنة ، فهو قد وقف على اشعار كثير من الامم لا على اشعار العرب واليونان فحسب ، فعرف ان العرب يعنون بنهايات الابيات اكثر من سائر الامم الاخرى ، وانهم لا يجعلون التلحين او النغم المرافق للانشاد جزءا من الشعر

نفسه ، بينما تفعل ذلك بعض الامم الاخرى ، فاذا قرئت اشعارها دون اللحن بطل وزنها ٠ ويتطرق الفارابي من ذلك مشكلة اخرى وهي : اذا تمت عناصر التخييل في القول ولكن لم يبن على وزن وايقاع محدد فهل يسمى شعرا ؟ ويجيب على ذلك بقوله : انه لا يعد شعرا ولكنه قول شعري » ٠

وبعد جولة واسعة في الترجمة واكتشاف مناهل الاثر اليوناني ، نتوقف طويلا عند اوميروس الشاعر « فهو امرؤ القيس اليوناني » ٠ ونرى كيف اختلط هذا الشاعر بالعديد من الشعراء الاخرين نتيجة مشاكل الترجمة ٠ وكيف تم الخلط بين اوميروس وايسوبيوس ٠ ثم وفي فصل كامل نتوقف عند اثر ايسوبيوس في الشخصيات والامثال العربية ، كما في موقف عبد المسيح بن بقيلة الحيري « الذي بعث به قومه ليقابل خالد بن الوليد حين توجه لفتح الحيرة ، ما يعيد الى الذهن بعض مواقف ايسوب ٠ فقد سأله خالد حين حضر بين يديه : اين اقصي اثرك ؟ قال : ظهر ابي ، قال : ومن أين خرجت ؟ قال : من بطن امي ٠ قال : علام انت ؟ قال : على الارض ٠٠٠ » ثم نتوقف عند ترجمة الشعر الخمري اليوناني الى العربية ، كما نتوقف عند اثار رثاء الحكماء للاسكندر في الثقافة العربية ، وعند الاثر اليوناني في عبد الحميد الكاتب ٠ ثم يفرد المؤلف ملحقا « خرافات على ألسنة الحيوان ، وملحقا اخر « مراثي الحكماء في الاسكندر » ٠

دراسة احسان عباس هي استكمال لبحث دقيق في الادب العربي القديم ٠ تأتي الى القديم كي تضيئه من داخله ٠ فتقدم نموذجا للدراسات الاكاديمية التي لا تسقط في شرك « الاستشراق » ، حيث يستحيل الماضي العربي مجرد صدى لماض اخر ، ودون ان نسقط في تمجيد الذات بشكل مخادع ٠

فلسطين التي لا تزول

في مجموعة اللوحات عن مدن فلسطين ومواقعها ، التي جمعها اسماعيل شموط في كتاب **فلسطين تاريخ وحضارة** (نشر وتوزيع صامد) ٠ نشعر اننا امام الماضي الذي لا يزول ٠ امام احساس شامل بالانتماء الى ارض ومدن وأسوار من التحدي ٠ نكبر في فلسطين التي كبرت بالدماء ، وصارت اكثر من وطن ٠

يلتقط الكتاب الكتب التي روت ٠ لا يشير الى مصدر الرسوم ٠ يكتفي بالتواريخ ليقول شهادة فنية ٠ شهادة انتماء الى الارض ٠ تمر امامك فلسطين وكأن العصور لم تكن الا كتابات على أسوار القدس التي هدمت ثم اعيد بناؤها ثم هدمت ثم اعيد ٠٠ كأن المدينة والمدن الاخرى ، شهادة لنا بأنا كنا الفعل التاريخي ٠ هكذا يأتي الفن الى فلسطين ٠ وتقف المدن الى جانب المدن ، والتلال الى جانب التلال ، والحجارة فوق الحجارة ٠ والفن يمتد كأنه مجرد شهادة للبقاء وشهادة للمستقبل ٠

والمستقبل هو الفعل ٠ فلسطين ليست الماضي انها المستقبل ٠ يأتي الفن العربي والعالمي الى بيروت ، في اول معرض بهذا الحجم من أجل التضامن مع الثورة الفلسطينية ٠ **ففي اواخر اذار ٧٨ ، سيقام في جامعة بيروت العربية اكبر تظاهرة فنية عالمية من اجل فلسطين**٠ لوحات والوان وشريط من الدم الذي يلتف حول بيروت ، هي شهادة من أجل المستقبل ٠

الكاتب الفلسطيني

تنفيذا لقرارات مؤتمر تونس ، صدر العدد الاول من مجلة اتحاد الكتاب والصحفيين

الفلسطينيين ، **الكاتب الفلسطيني** ، لتشكل رافدا جديدا من روافد الثقافة الوطنية الفلسطينية ، التي تنمو في لهب الكفاح الشعبي المسلح · الصوت الادبي الفلسطيني هو صوت الثورة · يخرج من تفاصيل الممارسة الفلسطينية التي يمهرها الدم والهجرات والصراع · هذا هو تحدي « الكاتب الفلسطيني » · وتحدي الكتابة العربية التقدمية في زمن القهر والتراجع والمصادرة والاستبداد ·

في عددها الاول شباط ـ فبراير ١٩٧٨ ، تفتح المجلة صفحاتها للانتاج الفكري الادبي · فنقرأ لناجي علوش ونزيه قورة وعبد القادر ياسين وهاني مندس وفيصل دراج ابحاثا سياسية ونقدية · كما تنشر قصائد لابي سلمى وحسن البحيري ، ومحمد القيسي ونزيه ابو عفش ومعين بسيسو ورسول حمزاتوف ، وقصصا لرشاد ابو شاور ورسمي ابو علي ويحي رباح · ومقابلة مع الشاعر عبد الكريم الكرمي اعدها يحي خلف · وتفتح ابوابها لعرض النتاج الادبي الجديد وللادب العالمي مع مايكوفسكي وبريشت ·

الكتابة الفلسطينية تنمو · والبندقية الفلسطينية لا تتراجع · تحية الى **الكاتب الفلسطيني** من أجل الافق الواحد الذي يضمنا الى لهبه ·

الياس خوري

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو قتيل
١	٢٤-١١-٧٧	٢٢ر١٥	بيت لحم	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد
٢	٢٥-١١-٧٧	١٢ر٤٥ ظهرا	حي رحافيا – القدس	تفجير	شحنات ناسفة مشركة	غير محدد
٣	٢٦-١٢-٧٧	٢١ر٣٠	القدس – باصات شركة ايجد	تفجير	عبوة ناسفة موقوتة	غير محدد
٤ ★	٢٩-١٢-٧٧	٧ر٥ صباحا	ناتانيا – السوق المركزي	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	٢
٥	٢٨-١٢-٧٧	–	محطة بئر السبع – احد باصات شركة ايجد	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	–
٦ ★	٢٩-١٢-٧٧	–	القدس – مستودع تعبئة انابيب الغاز	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غير محدد
٧	٤-١-٧٨	٨ر٠٠ صباحا	القدس – حي الزاهرة بنك العمال	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	١
٨	٨-١-٧٨	٦ر١٥ صباحا	القدس – محطة الباصات المركزية تجمع لافراد العدو	هجوم	قنبلة يدوية	٢
٩	٨-١-٧٨	٢١ر٥	كريات جات– مصنع فولغات للمواد البلاستيكية	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	–
١٠	٢٥-١-٧٨	٢٠ر٠٠	القدس – شارع شموئيل هنابي بناية لمخابرات العدو ٠	تفجير	عبوة ناسفة شديدة الانفجار	–
١١	٣-٢-٧٨	٧ر١٠ صباحا	شارع بن يهودا – القدس مركز الشرطة الصهيونية ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد
١٢	١٠-٢-٧٨	٢٢ر٤٥	القدس – المجمعات الاستهلاكية في شارع براون	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد

٤ ★ اعترف العدو في برنامج الظهيرة، بان عبوة ناسفة انفجرت في ناتانيا كانت بوزن ١ر٥ – ٢ كلغم على الارجح ، وقد وقع الانفجار في شارع « شوهم » في ناتانيا ، وادى الانفجار الى خسائر كبيرة في الممتلكات ، في المحلات التجارية وفي المباني السكنية المجاورة ٠ واضاف مراسل الاذاعة يصف الشارع : « لقد فرش شارع شوهم خلال ثوان بالنوافذ المحطمة وباجزاء من النوافذ الخشبية ، وبالبضائع التي قذف بها الانفجار من المحلات التجارية حتى الابنية التي تبعد ٢٠٠ مترا عن مكان

...ية جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر ـ البلاغ العسكري رقم	تاريخ
غير محدد	ـ مقتل وجرح عدد من افراد العدو المكلفين بحراسة المنطقة ٠ ـ اصابة عدد من سيارات الشرطة الصهيونية المتواجدة في مكان الانفجار ٠	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٤٧	٢٥ـ١١ـ٧٧
ير محدد	ـ اصابة عدد غير محدد من افراد العدو ٠ ـ تحطم معظم زجاج المدرسة العسكرية ـ تضرر عدد من السيارات المتواجدة في المكان	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٤٨	٢٦ـ١١ـ٧٧
غير محدد	ـ مقتل واصابة عدد من افراد العدو المتواجدين داخل الباص في المحطة المركزية تدميرا تاما ٠	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٤٩	٢٧ـ١٢ـ٧٧
ير محدد	ـ اصابة عدد غير محدد بجراح مختلفة ٠ ـ مقتل اثنين من افراد العدو الصهيوني ٠ ـ تصدع جدران المحل التجاري واتلاف معظم محتوياته ٠ ـ تحطم زجاج معظم المحلات المجاورة ٠	ـ	ـ	ـ	٧٧ـ١٥٠	٣٠ـ١٢ـ٧٧
٣	١ ـ اكتشفت العبوات ثم انفجرت ٠ ٢ ـ تدمير جزء من الباص تدميرا تاما ٠ ٣ ـ جرح ثلاثة من المستوطنين ومن بينهم سائق السيارة ٠	ـ	ـ	ـ	٧٨ـ١	٤ـ١ـ٧٨
غير محدد	١ ـ تدمير المستودع تدميرا تاما ٠ ٢ ـ قتل وجرح جميع العاملين ٠ ٣ ـ اعطاب بعض السيارات المتوقفة ٠ ٤ ـ التهمت النيران المستودعات بكاملها ٠	ـ	ـ	ـ	٧٨ـ٢	٤ـ١ـ٧٨
غير محدد	ـ مقتل خبير المتفجرات ٠ ـ اصابة عدد من افراد العدو المتواجدين ٠ ـ تدمير اجزاء مبنى البنك ٠	ـ	ـ	ـ	٧٨ـ٣	٤ـ١ـ٧٨
ير محدد	ـ قتل اثنين من افراد العدو ٠ ـ جرح عدد غير محدد شوهدت سيارات الاسعاف تقوم باخلائهم ٠	ـ	ـ	ـ	٧٨ـ٤	٩ـ١ـ٧٨
ـ	ـ احراق المصنع والمستودعات التابعة له بالكامل ٠ ـ احراق مكاتب الادارة واقسام البيع ٠ ـ تقدر هذه الخسائر بـ ٣٠ مليون ليرة ٠	ـ	ـ	ـ	٧٨ـ٥	٩ـ١ـ٧٨
غير محدد	١ ـ اصابة ثلاثة من افراد العدو ٠ ٢ ـ تدمير اجزاء من مدخل المبنى وتصدع الجدران من الداخل ٠	ـ	ـ	ـ	٧٨ـ٦	٢٦ـ١ـ٧٨
غير محدد	١ ـ اصابة عدد غير محدد من افراد الشرطة وخبراء المتفجرات بين قتيل وجريح ٠ ٢ ـ تصدع جدران مبنى الشرطة وتحطيم زجاج جميع الابنية ٠ ٣ ـ اصابة عدد كبير من سيارات الشرطة ٠	ـ	ـ	ـ	٧٨ـ٧	٤ـ٢ـ٧٨
غير محدد	ـ تكبد العدو خسائر مادية وبشرية كبيرة ٠	ـ	ـ	ـ	٧٨ـ٨	٩ـ٢ـ٧٨

الانفجار ، اصيبت باضرار » ٠

(برنامج الظهيرة ، الخميس : ٢٩ـ١٢ـ١٩٧٧ ، ص ٢٥٣ ، العدد ١٣٧٨) ٠

٦ ★ اعترف العدو في نشرة اخبار الساعة ٠٠ر٧ بوقوع انفجار في القدس الشرقية ٠ وقد اوردت الاذاعة النبأ كما يلي : « في شرقي القدس القيت صباح اليوم قنبلة يدوية قرب محطة المحروقات القريبة من بوابة نابلس ، واصيب شخص واحد بجروح طفيفة) ٠

(رأ الاحد ٨ـ١ـ١٩٧٨ ، ص ٧٧ ، الساعة ٠٠ر٧ ، العدد ١٣٨٥) ٠

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor*, Mahmoud Darwish; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon and Syria L L 60. other Arab countries L L 75 or equivalent, Europe L L 100 elsewhere L L 125; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 65. *Address*: P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351261 : Cables : MARABHATH.

السعــر: ٥ ل.ل. في لبـنان
٦ ل.س. في سوريـا
٦٥٠ فلسـاً في الكويت والعراق
١٠ دراهم في دولـة الامارات العَربية
٦ ل.ل. في سائر الاقطـار العَربيـة
٨٥٠ درهـماً في ج.ع.لـ.